مجلة نصف سنوية علمية محكمة

© جميع الحقوق محفوظة
h_imamomais@hotmail.com
wameed.alfkr@gmail.com

مجلة "وميض الفكر" للبحوث هي مجلة علمية محكمة
نصف سنوية مؤقتاً العدد الثاني كانون ثاني 2019

مجلة نصف سنوية علمية محكمة

**التعريف:**

هي مجلة علمية محكمة نصف سنوية تصدر عن الجمعية الوطنية للثقافة والتطوير علم وخبر 1193/أ.د

وهي مرخصة من قبل وزارة الإعلام (بعد استشارة وموافقة نقابة الصحافة اللبنانية ) تحت رقم 928

والمنشور في الجريدة الرسمية بقرار 475/2018،

وحائزة على ISBN-978-6344024546 من وزارة الثقافة اللبنانية.

يرأس تحريرها: الدكتورة هيفاء سليمان الإمام

يعنى بنشرها وتوزيعها دار النهضة العربية –بيروت

دار النهضة العربية

**مجلة "وميض الفكر" للبحوث**
**مجلة علمية محكمة نصف سنوية مؤقتاً**

**العدد الثاني كانون ثاني 2019**

**هيئة الإدارة والتحرير**

- **المشرف العام على المجلة:** الأستاذ الدكتور علي مهدي زيتون
- **رئيسة التحرير:** د. هيفاء سليمان الإمام
- **مديرة التحرير:** أ. لينا محمد عبد الغني

**الاتصال والمراسلات:**

هواتف المجلة: 009613691425

فاكس المجلة: 009618630280

الموقع الإلكتروني:www.wameedalfikr.info

البريد الإلكتروني:wameed.alfkr@gmail.com

البريد الإلكتروني لرئيسة التحرير: h_imamomais@hotmail.com

الإشتراكات: لبنان والدول العربية 100 $ سنوياً ، باقي دول العالم 125 $ سنوياً.

# فهرس المحتويات

**افتتاحية العدد:**بقلم الاستاذ الدكتور أحمد محمد فارس
(الدور الريادي للنخبة من المثقفين في نهضة المجتمع) .....**10**
**كلمة العدد :** بقلم رئيسة التحرير: الدكتورة هيفاء سليمان الإمام.....13
**شخصية العدد:** المطران عطا الله حنا.....16
1) القامة المنتصبة "بمواجهة غزاة لا يقرأون"
بقلم الباحث حمزة البشتاوي..... 17
2) (لن نستسلم) هو عنوان لحوار شامل عن فلسطين والمقاومة... وخيانة التطبيع العربي مع المطران عطاالله حنا لمجلة "وميض الفكر"
بقلم الصحافية منى سكرية .....24
**قضية العدد:**
1)نهضة الأمة وعصرنة الرؤية في إحياء وعصرنة الفكر القومي العربي
بقلم أ.د. حسان حلاق:.....35
2)العرب أمة قاتلت وقاومت وبدأ عصر نهوضها... فهل تنهض؟؟
بقلم الدكتور: ميخائيل عوض:.....38
**محور العدد:**
الروائي حنا مينه.....51
1)حنا مينه كاتب الكفاح والفرح
بقلم الدكتورة علا آغا.....52
2)الخطاب السياسي في رواية الذئب الأسود
بقلم الدكتور عادل أحمد عبد الساتر .....60
3)الفضاء الزمني في رواية " حكاية بخار" للروائي "حنا مينه"
بقلم د هويدة شريف.....85
**كتاب العدد:**
كتاب المدرسة الأيكوية في الكتابة ما لا يمكن تنظيره ينبغي سرده، الصادر عن دار المعارف الحكمية د.علي مهدي زيتون.....100

1)حوار مع المؤلف الدكتور علي مهدي زيتون
بقلم الدكتورة راغدة المصري .....102
2) مراجعة في كتاب المدرسة الأيكوية
الدكتور فؤاد خليل.....107
**باب اللغة العربية وآدابها:**
1)"اللغة العربية الفصحى في مواجهة العاميّة والحروف اللاتينية"
بقلم الأستاذ الدكتور أحمد محمد فارس، .....114
2)قراءة حجاجية في رواية "جونتنامو" للكاتب يوسف زيدان
بقلم الدكتورة : هبة الحشيمي.....122
3)جملة الحال التي فعلها ماض وخلاف النحاة في تقدير (قد) دراسة نحوية دلالية
بقلم الدكتورة: عبير بدر عبد الستار.....139
(4التداخل النصي في شعر ابن حمديس الصقلي (ت725هـ)
بقلم الدكتور صادق جعفر عبد الحسين.....149
**باب الفلسفة**
1)البنوك اللاربوية دورها وإشكالياتها.
بقلم دكتور علي مشيك.....174
**باب التاريخ**
1)السياسة في لبنان بين الطوائف والأحزاب السياسية
بقلم الدكتورة راما عزيز دراز.....194
2)إشكالية النظام السياسي اللبناني من الدستور إلى الوفاق الوطني
بقلم الدكتورة: إيمان مرداس.....209
3)استهداف الكوادر الصحافية والإعلامية في العراق بين أعوام (2003 – 2012)
بقلم الباحث: نبيل حميد نواف الدليمي.....236
**باب الجغرافيا**
Influence de lapénurie d'eau sur les types des agricultures dans la région du Kaza de Zahlé
d. Naji KEHDY.....4

**باب اللغة الفرنسية**
Les parentés des langues
Dr. Imad Zein.....15

## الهيئة العلمية المحكمة في هذا العدد:

**1. أ.د. حسان حلاق:**
جامعة بيروت العربية، أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ومؤرخ.

**2.أ.د. محمد توفيق أبو علي:**
الجامعة اللبنانية، عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية سابقاً وأستاذ اللغة العربية فيها.

**3.أ.د. محمد علي القوزي:**
جامعة بيروت العربية، رئيس قسم التاريخ وأستاذ التاريخ الحديث والمعاصر فيها.

**4.أ.د. أحمد فارس:**
كلية الدعوة الإسلامية في بيروت، وأستاذ اللغة العربية والآداب في الجامعة اللبنانية وفي جامعة بيروت العربية.

**5.أ.د. علي زيتون:**
جامعة المعارف، رئيس مجلس الأمناء فيها، ورئيس الملتقى الثقافي الجامعي ورئيس قسم اللغة العربية في الجامعة اللبنانية.

**6.أ.د. عفيف عثمان:**
أستاذ الفلسفة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية.

**7.د. هالة أبو حمدان:**
أستاذ مساعد في مادة القانون في كلية الحقوق والعلوم السياسية في الجامعة اللبنانية.

**8.أ.د. وجدان فريق عناد:**
جامعة بغداد، أستاذة التاريخ الوسيط فيها ورئيسة مركز التراث العلمي العربي في العراق.

**9.أ. د. فاتن المر:**
أستاذة اللغة الفرنسية في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية.

## قواعد النشر في مجلة وميض الفكر للبحوث

ترحّب المجلة بنشر الأبحاث والدراسات العلمية المتخصصة ذات الصلة بالعلوم التربوية واللسانيات والأدب والنقد المقارن والدراسات الفكرية والفلسفية والاجتماع والجغرافيا والفنون والتراث الشعبي والأنثروبولوجيا والآثار. وتتصدى المجلة بالبحث الرصين والتحليل العلمي الموضوعي لأهم الظواهر التي تقع تحت مظلة العلوم الإنسانية.

### أولاً: قواعد عامة:

- تنشر المجلة الأبحاث والدراسات الأكاديمية الأصيلة، وتقبل للنشر فيها الأبحاث المكتوبة باللغة العربية، أو اللغة الإنجليزية أو الفرنسية التي لم يسبق نشرها، وفي حالة القبول يجب ألا تنشر المادة في أي دورية أخرى دون إذن كتابي من رئيس التحرير.
- تنشر المجلة الترجمات، والقراءات ومراجعات الكتب، والتقارير، والمتابعات العلمية حول المؤتمرات، والندوات، والنشاطات الأكاديمية المتصلة بحقول اختصاصها، كما ترحب بالمناقشات الموضوعية لما ينشر فيها، أو في غيرها من المجلات، والدوريات، ودوائر النشر العلمي.

### ثانياً: الأبحاث أو المقالات:

- ترسل البحوث مطبوعة مصححة بصورتها النهائية على قرص ممغنط يتضمن البحث، والخلاصة باللغات العربية والإنجليزية أو العربية والفرنسية. ويمكن إرسالها عبر البريد الإلكتروني للمجلة.
- توجّه جميع المراسلات باسم رئيس تحرير المجلة أو الجمعية الوطنية للثقافة والتطوير، لبنان – البقاع / شتورا.
- يقدّم الأصل مطبوعاً على الحاسوب وذلك باستخدام نظام الـWord 2003 ، مع الالتزام بنوع الخط (Simplified Arabic) وحجم الخط (size 14)، التباعد بين السطور (1 سم) على ألا تزيد عدد صفحاته عن 20 صفحة مطبوعة (أو مكتوبة بخط واضح) مضبوطة ومراجعة بدقة، وترقّم الصفحات ترقيماً متسلسلاً بما في ذلك الجداول، والأشكال.

- تطبع الجداول، والصور، واللوحات على أوراق مستقلة، ويشار في أسفل الشكل إلى مصدره، أو مصادره، مع تحديد أماكن ظهورها في المتن.
- يذكر الباحث اسمه وجهة عمله على ورقة مستقلة، ويجب إرفاق نسخة من السيرة العلمية إذا كان الباحث يتعاون مع المجلة للمرة الأولى، وعليه أن يشير فيما إذا كان البحث قد قدم إلى مؤتمر، أو ندوة وأنه لم ينشر ضمن أعمال المؤتمر.
- يمنح الباحث نسختين من العدد الذي يتضمن بحثه، كما يمنح أصحاب المناقشات، والمراجعات والتقارير، وملخصات الرسائل الجامعية نسخة من العدد الذي يتضمن مشاركاتهم.
- يسدد الباحث رسماً رمزياً قيمته 100 دولار أميركي مقابل نشر البحث، أو يساهم في شراء وتوزيع عشرين نسخة من العدد الوارد فيه بحثه.

## ثالثاُ: المصادر والحواشي:

- يشار إلى جميع المصادر بأرقام الحواشي التي تنشر في اسفل الصفحة أو في أواخر البحث، ويجب أن تعتمد الأصول العلمية المتعارفة في التوثيق والإشارة بحيث تتضمن:

اسم المؤلف، وتاريخ النشر، وعنوان الكتاب، أو المقال، واسم الناشر، أو المجلة، ومكان النشر إذا كان كتاباً، والمجلد، والعدد، وأرقام الصفحات إذا كان مقالاً.

- يزود البحث بقائمة للمصادر منفصلة عن الحواشي، وفي حالة وجود مصادر أجنبية تضاف قائمة بها منفصلة عن قائمة المصادر العربية، ويراعى في إعدادها الترتيب الألفبائي لأسماء المؤلفين.

**ملاحظة:** إن الأفكار والآراء المطروحة والمتداولة في صفحات المجلة لا تعبر بالضرورة عن خيارات واتجاهات تتبناها المجلة، بل إنها تخص الكاتب وحده مع احترام حق الرد والرد عليه إن كان ذلك مناسباَ.

كما أن المجلة لا تتحمل تبعات أي موقف قد يثير إشكالاً في مادة البحث، والباحث هو المسؤول عن كل ما يكتبه أمام القانون.

**إفتتاحية العدد:**

بسم الله الرحمن الرحيم

# الدور الريادي للنخبة من المثقفين في نهضة المجتمع

بقلم الأستاذ الدكتور أحمد محمد فارس
rf16@aub.Edu.Lb

يعاني المجتمعُ أنواعًا جمّة من الفساد ومسبباته في مختلف مناحي الحياة. يشكو من هذه الأنواعِ ومن مضاعفاتها الكثيرُ من أبناء الوطن الذين كاد اليأس يستبدُّ بهم. فالصرخات المدوّية لا تجد لها صدى، والأنات المتصاعدة من المرضى، والفقراء، والمعوزين، والعاطلين عن العمل، والشاكين، والباكين تذهب سدى لأنّ أغلب المسؤولين الذين بيدهم الأمرُ وعليهمْ واجبُ تغيير الواقع المؤلم لا يبالون إلا بأنفسهم، ولا يسعَون إلا لتحقيقِ مصالحهم ومنافع التابعين لهم.

لذلك، فإن الإصلاح المنشود، والتغيير المقصود نحو الأفضل يقع على عاتق النخبة من المثقفين، وأعني بذلك المثقفين المستقلين المخلصين الذين ليس لهم أي ارتباط بحزب أو حركة أو جمعية أو جماعة أو تيار، كون المنضوي تحت كنف أيّ من هذه الجهات لا يمكنه التصريح العلني بما يشعر به، وما يدركه من مآسي الناس، لأنّ تحرَّكُه ينبغي أن يكون ضمن الدائرة المرسومة له، ولا يمكنه أن يتجاوزها، أو يخرجَ عن مبادئها، ولو كان ذلك مخالفاً لقناعاته وأحاسيسه أو لأن المتحيز لا يميز، والغرضُ مرضٌ. إذن، لا بُدّ من أن تتحرك

النخبة من المثقفين الذين يُؤْثرون المصلحة العامة، ويتوجهون إلى تطلعات المجتمع، وأحلام الناس، ويقومون بالدور الإنساني، معتمدين على القوة التأثيرية التي تخاطب الإحساس والعقل، وتوظف ذلك لما فيه خير المجتمع، وتنقذه من التردّي المتسارع على مختلف الأصعدة.

والمجتمع بحاجة إلى إعادة النظر في أمور كثيرة في ميدان التثقيف، وأهمها معرفة الغاية واستخدام الوسائل الموصلة إليها: لأن تقدم الأمم يتوقف على قدرتها على إيجاد الوسائل التي تحقق بها مثلها العليا، فوجود المثل العليا دون وجود الوسائل التي تحققها ليس إلا وهماً باطلاً، كما أن وجود الوسائل الكافية دون وجود المثل العليا يضرّ بالفرد والمجتمع.

ولا يمكن أن تنجح عملية التثقيف إلا إذا أدرك العاملون في الميدان مهمتهم على خير وجه، وأدركوا، أيضًا، كيفية إتمامِ عملية التثقيف من خلال المزاوجة بين التنظيم والتلقائية وبين البرامج الصحيحة، وجهود المؤسسات المعنية بالتثقيف والأهداف التي ينشدها العاملون في الميدان، وهي رفع مستوى المواطنين، وتنمية النشاط الفكري لصالح التقدم الاجتماعي الذي يعود بالخير والنفع على الفرد والمجتمع.

وتنشد عملية التثقيف التغيير نحو الأفضل في أسلوب حياة الفرد، كما تنشد تدريب الفرد على استخدام المعلومات المكتسبة لرفع مستوى المعيشة، وجعل حياة الفرد أفضلَ من خلال ربط معظم الناس بالأسس العلمية.

ولا شك أن التعليم وحده لا يخلق الرجل المثقف، وإنما الذي يخلقه حقاً هو الحياة، فالتجربة التي يعانيها والمشكلة التي يقف عندها، هي الصلة الشخصية التي تقوم بينه وبين الماديات والمعنويات في هذه الحياة، وتأثير الحياة هو الذي يُلزمُ الكثير من الناس تعلّمَ أساليبَ جديدة في الحياة وهذا هو التثقيف، وحصيلة تلك الأساليب هي الثقافة.

وقد ارتبط مفهوم المثقف بقيمته النضالية، وأرومته النقدية، وأصبح عنواناً لكل الممارسات الثقافية، التي تدافع عن المظلومين وإشارة إلى كل المواقف الشجاعة ضد الظلم والظالمين، وإلى كل أشكال الاستبداد السياسي، وقد رسخ في الممارسة الفكرية أنّ «المثقف» رجل نقدي يسعى للكشف عن الحقيقة، ويدافع عن المظلومين، والمضطهَدين، وعن قيم الحق والعدل في المجتمع السياسي، وهو الصوت المدوّي في الدفاع عن حقوق الناس في وجه من يتسلطون عليه، وترجمان صادق لآلام الفقراء والبائسين من ضحايا المجتمع. إنّ المثقّف، باختصارٍ، صوت الإنسان الكادح.

والمفكرون الحقيقيون (النخبة) أقرب ما يكونون إلى الصدق مع أنفسهم حين تدفعهم المشاعر الجياشة، والمبادئ السامية، أي مبادئ العدل والحق إلى فضح الفساد، والدفاع عن الضعفاء، وتحدّي المفسدين بالوسائل السلمية والعقلانية، والحضارية من دون عنف أو تعدّ، أياً كان نوعه.

وهم يشكلون الفئة الواعية التي اكتسبت بحكم ثقافتها موضوعية التفكير، ووضوح الرؤية، والقدرة على التحليل، والمحاكمة المنطقية مما يجعلهم في حصن من أن تنطلي عليهم أساليب البرجوازية، ومن أن يخيفهم تحكم المتسلطين، وهم وحدهم القادرون على تصحيح الصورة في الوعي الجماهيري، ورسم الطريق الصحيح لتحقيقها في حيّز الواقع الملموس.

وقد باتَ من الضروري النظر إلى مواقع التواصل الاجتماعي التي تعدّ من أهم مظاهر التطور العلمي والتكنولوجي الحديث، إذ إنّ معظمَ الناس صاروا يستخدمونها لأسبابٍ عديدة: تعليميةٍ واجتماعيةٍ وترفيهيةٍ. لقد أصبحت هذه الوسائل من ضرورات الحياة الحديثة، وصارت الشغلَ الشاغل للكثير من المشاركين فيها، كونها هيمنت على ميادين الحياة من دون استثناء، وكون الفرد قد غدا يتفاعل عبرها، ويجني فوائدَ وأضراراً حسب طريقة استخدامها. لذلك، صار لازمًا التوجيهُ إلى حسن استخدامها كي تساهم في نهضة المجتمع، وتعمل على توصيل الأفكار وتبادل الخبرات في ما بين أفراد المجتمع بتفاعل إيجابي، وتلبية احتياجات الفرد من المعرفة الحقة، وتغذية الذهن بالثقافة المفيدة، وتعميق مفهوم الإنسانية، وإيجاد مجتمع مزدهر ينعم بالسلام، والأمن والأمان في حاضره ومستقبله.

الطُّرقُ شَتَّى وَطُرقُ الحَقِّ واحدة ـ وَالسَّالِكُونَ طَرِيقَ الحَقِّ أَفرَادُ

## كلمة العدد:

**بقلم رئيسة التحرير الدكتورة هيفاء الامام**

**h_mamomais@hotmail.com**

**أعزائي القراء:**

تؤكد حقائق التاريخ الإنساني الحديث حقيقة ضرورة البدء بتصميم وتمكين الهوية الوطنية الواحدة والجامعة للمجتمع الواحد كبنية تأسيسه لباقي مراحل وعمليات بناء الدولة الحديثة، من أجل ذلك كانت **افتتاحية العدد** الثاني من مجلة وميض الفكر للبحوث بقلم **الأستاذ الدكتور أحمد فارس** الذي شرح فيها كيف أن الإصلاح المنشود، والتغيير المقصود نحو الأفضل يقع على عاتق النخبة من المثقفين، لأن هذه الفئة هم الذين يؤثرون المصلحة العامة، ويتوجهون إلى تطلعات المجتمع، وأحلام الناس، ويقومون بالدور الإنساني. وقد اشتمل عددنا هذا على بضعة أبواب ثابتة، فكان لدينا:

باب مخصص **لشخصية العدد** والتي اخترناها أن تكون حضرة **المطران عطاالله حنا رئيس أساقفة القدس للروم الأرثوذكس**، حيث قدم لنا الكاتب والمحلل السياسي والإعلامي **حمزة البشتاوي**، مقالاً شاملاً عن مواقفه المشرفة وعن **قامته المنتصبة «بمواجهة غزاة لا يقرأون»** ، وفي 15/11/2018 وتحت عنوان «**لن نستسلم**» قامت الصحافية **منى سكرية** بمحاورته في حوار خاص لمجلة «وميض الفكر للبحوث العدد الثاني.

ولأن الدولة المدنية الحديثة التي تعد خلاصة الفكر البشري الاجتماعي والإداري والسياسي الحديث، والتي يحلم بها الجميع كموطن قومي خاص ضمن مكون إقليمي وعالمي عام في تجانس وتناغم عام يحقق الصالح الإنساني المشترك، كان باب **قضية العدد الثاني من مجلة وميض الفكر للبحوث** تحت عنوان **نهضة الأمة وعصرنة الرؤية في إحياء وتجديد الفكر القومي**

**العربي** وقد كتب فيها مشكوراً الأستاذ **الدكتور حسان حلاق** مقالاً تحت عنوان: **إحياء وعصرنة الفكر القومي العربي** فشرح لنا أن الطائفية والمذهبية هي أمراض خبيثة أثرت سلباً في النهضة العربية وفي الفكر القومي العربي، كذلك، فإن الإرهاب والتطرف الديني والمذهبي والسياسي، يعتبر بدوره آفة من آفات العالم العربي، وتلك الأمراض والآفات قامت بدور بارز في تراجع الفكر القومي العربي، وفي انهيار مقومات الأمة العربية السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ولأن العرب أمة قاتلت وقاومت ودنا عصر نهوضها... قدم لنا **الدكتور مخائيل عوض** مشكوراً بحثاً مفصلاً يحمل رؤية علمية حديثة لنهوض الأمة. وهو تحت عنوان: **نحو تجديد الفكر القومي وعصرنة الرؤية في الدولة والأمة والعولمة**، فيقول أن الشواهد التاريخية والوقائع الجارية، تشهد أن العرب أمة كاملة المواصفات، وبحسب كل رأي من التصنيفات العتيقة، والمستجدة في ضبط وتحديد العناصر التي قيل إنها أسباب في تشكل القوميات والأمم، وما ينقصها فقط هو أن تقيم دولتها الوطنية، «**دولة الأمة**»، وأن فرصتهم الذهبية باتت حافزة، وتتوفر لهم كل الشروط والمعطيات والأسباب كي ينهضوا بمشروعهم القومي، لذا عليهم أن ينكبوا على عصرنته، وتطويره ليتقاطع مع قيم ومنظومات ووسائط العصر...

في **باب محور العدد** من مجلة وميض الفكر تم اختيار **الأديب والروائي السوري الكبير حنا مينه** وقد تناول البحث عنه **الدكتورة علا آغا** التي تحدثت عن **الكفاح والفرح** في كتابات حنا مينه ملخصة ذلك في عدد من رواياته، المصابيح الزرق: الشراع والعاصفة، الياطر، الأبنوسة البيضاء ، نهاية رجل شجاع، الثلج يأتي من النافذة، كما وقدم لنا **الدكتور عادل عبد الساتر** بحثاً نقدياً لإحدى رواياته وهي تحت عنوان الخطاب السياسي في رواية الذئب الأسود مقاربة تداولية (أفعال الكلام). وتناولت **الدكتورة هويدا محمود شريف الفضاء الزمني في رواية « حكاية بخار**» مدخل نظري إلى دراسة الزمن.

وفي **باب كتاب العدد**، الذي هو **كتاب المدرسة الأيكوية في الكتابة** للمؤلف الأستاذ الدكتور علي مهدي زيتون والذي يصدر عن دار المعارف الحكمية، فقد تناول نقدَ هذا الكتابِ والبحثَ فيه باحثان هما أولاً **الدكتورة راغدة المصري** التي قامت بإجراء حوار مع المؤلف شرح فيه كل ما يدور من مواضيع حول الكتاب وذلك خاص لمجلة وميض الفكر للبحوث بتاريخ 10/12/ 2018. كما قدم **الأستاذ الدكتور فؤاد خليل** مراجعة في كتاب المدرسة الأيكوية في الكتابة التنظير ممكن في كل ميدان، وقدم شرحاً مفصلاً عن الكتاب واصفاً رأيه في هذا الموضوع.

**وفي باب اللغة العربية**، من الملاحَظ والمعلوم أنّه لا وجود لذخيرة وافية من الإبداع والعمل الفكري لدى أيّة أمة في غياب اللغة، فاللغة وعاء الفكرة وأداة الإرسال والاستقبال والأخذ والعطاء، وهذا ما يجعل الإنتاج أو الإبداع الفكري والفني المدون مرهوناً بوجودها وقائماً على نموها واتساعها، وعلى ما يكتسب من مهارات عالية فيها، وما يستحصل من رصيد ثري من مفرداتها وصيغها. لذا قدم لنا مشكوراً **الأستاذ الدكتور أحمد محمد فارس**، بحثا تحت عنوان **اللغة العربية الفصحى في مواجهة العاميّة والحروف اللاتينية**» مؤكداً بأنّ اللغة هي الأساس

للعلوم كلها، ومادتها بدءاً بالحروف، فالكلمات، فالجمل، فالفِقَر، فالمقاطع، فالنص، وهي الوسيلة المعبّرة عن خلجات القلوب ونهضات الشعوب، وقدمت **الدكتورة هبة الحشيمي قراءة حجاجية في رواية «جونتنامو" للكاتب يوسف زيدان.** كما قدمت لنا **الدكتورة عبير بدر عبد الستار البدر جملة الحال التي فعلها ماض وخلاف النحاة في تقدير (قد)** دراسة نحوية دلالية وكذلك قدم **الدكتور صادق جعفر عبد الحسين** من جامعة ذي قار– بغداد بحث تحت عنوان **التداخل النصي في شعر ابن حمديس الصقلي (ت527هـ)**

**وفي باب الفلسفة** كتب **الدكتور علي مشيك** عن **البنوك اللاربوية– دورها– وإشكالياتها** فعالج في هذا البحث موضوع البنوك اللاربوية مسلطاً الضوء على أهميتها ودورها وطبيعة عملها بالإضافة إلى الإشكاليات القائمة.

**أما في باب التاريخ،** فقد تضمن بحث «**السياسة في لبنان بين الطوائف والأحزاب السياسية» للدكتورة راما عزيز دراز** جملة من المفاهيم والتطورات السياسية والطائفية والحزبية، ودراسة للطوائف المؤثرة في الكيان اللبناني سواء الطوائف الإسلامية أو المسيحية. وقدمت **الدكتورة إيمان مرداس** بحثا تحت عنوان **إشكالية النظام السياسي اللبناني من الدستور إلى الوفاق الوطني،** الذي يتناول دراسة المرتكزات الأساسية لهذا النظام، وتتبع الأحداث منذ إعلان الجمهورية ودستورها الأول عام 1926م حتى الاستقلال والميثاق الوطني عام 1943م، والتسوية في اتفاق الطائف بعد الحرب اللبنانية، والأوضاع الدستورية المختلفة، لأنها أحد الأسباب الرئيسة الكامنة وراء دوام إشكالية ممارسة السلطة في لبنان. وفي باب التاريخ أيضاً، قدم الباحث **نبيل حميد نواف الدليمي** بحثا بعنوان **استهداف الكوادر الصحافية والإعلامية في العراق بين أعوام (2003 – 2012)** إذ بيّن فيه أنّ هناك تخطيطاً يهدف إلى السيطرة على وسائل الإعلام وحركة الصحافيين وإلى ممارسة الضغط عليهم وترهيبهم بشتى الوسائل لمنعهم من مزاولة عملهم بحرية، ومنعهم من الوصول إلى أرض الحدث، ونقل الصورة كما هي بعيداً عن المؤثرات السياسية والدينية والمذهبية.

**وفي باب الجغرافيا،** كتب **الدكتور ناجي كعدي** بحثا تحت عنوان: **Influence de lapénurie d'eau sur les types des agricultures dans la région du Kaza de Zahlé**

حيث قدم مقارنة لأنواع الزراعة بين عامي 2006 و2016 بتبيان علامات ندرة المياه في المنطقة وتمثيلها بيانيًا، بالإضافة إلى تحديد تأثيراتها على أنواع الزراعات.

**وفي باب اللغات** الأجنبية، قدم **الدكتور عماد الزين** بحثاً في اللغة الفرنسية تحت عنوان **Les parentés des langues** أي علاقة اللغات، بعضِها ببعضٍ، حيث تعمد الدراسة إلى المقاربة الألسنية بين اللغات الحية والقديمة لتحديد المنشأ التي تعود إليه. فاللغة الأسبانية أو الإيطالية مثلا تعود بالأصل إلى اللغة اللاتينية. إن هذه المقاربات للعلاقات تكون ناتجة إما عن تطابق بال «صدفة» أو نتيجةَ استعارة المفردات بين اللغات.

## شخصية العدد:

## مطران القدس المناضل العربي عطا الله حنا

لماذا اختارت مجلة وميض الفكر للبحوث

**المطران عطاالله حنا رئيس أساقفة القدس للروم الأرثوذكس ليكون شخصية العدد (2)؟**

**أولاً: لأن** المطران عطاالله حنا هو علم مناضل وناشط في الحياة العامة، وهو المدير والمتحدث العربي باسم البطريركية، وقد نادى المطران بوثيقة تهدف إلى مخاطبة الغرب وخصوصاً الكنائس الغربية من أجل الدفاع عن القدس والقضية الفلسطينية.

**ثانياً: دعا** المطران عطا الله حنا المسلمين والمسيحيين وكل أحرار العالم إلى مساندة الشعب الفلسطيني في مواجهة الأطماع الإسرائيلية في القدس والمقدسات، معتبرا أن كرامة القدس هي كرامة الأمة كلها، مؤكدا أن أعداء سوريا هم أعداء فلسطين، وأن القدس مستهدفة بكل مكوناتها، والربيع العربي هو ربيع أعداء الأمة وهدف إسرائيل الاستيلاء على الأقصى، وأن دعم القدس يحتاج استراتيجية ومخططاً مدروساً.

أما بالنسبة لما يحصل في العراق وسوريا، فإن المطرانَ يقول بأنهما يدفعان ثمن احتضان القضية الفلسطينية، ويلوم بشدة ويعتب على الحكومات العربية المتخاذلة ويعتبرها منحازة لإسرائيل، لكنه يبرّئ الشعوب العربية ويعتبرها كلها مع فلسطين وينادي بالتوحّد الفلسطيني على أساس الثوابت الوطنية، ويعتبر داعش مشروعا إسرائيليا غربيا تم اختراعه لتشويه الإسلام. ويقول، أيضا، إن محاولة تهجير المسيحيين من المنطقة هو استهداف لتاريخها وحضارتها، وأنّ أعداء سوريا هم أعداء فلسطين والرد يجب أن يكون إسلاميا مسيحيا قويا وأن النضال ليس إرهاباً، واتهامنا به وسام لنا. ويدعو المطران المناضل دائما لانتفاضة فكرية ثقافية عربية لتصحيح الاعوجاجات والأخطاء. لأجل ذلك وشكراً وتكريماً له، كان هذا الاختيار الذي نعتبره رسالة محبة وعرفان لقامة وطنية تستحق كل احترام.

# القامة المنتصبة «بمواجهة غزاة لا يقرأون»

حمزة البشتاوي
كاتب ومحلل سياسي وإعلامي
Hamzi_b66@yahoo.com

في الأرض الفلسطينية المقدسةِ، حاملةِ التاريخ والحضارة والتراث، وفي بلدة الرامة قضاء عكا الواقعة على جبل حيدر ولد سيادة المطران عطا الله حنا في العام 1965. تميز المطران المتواضع كالنرجس والبرقوق بمواقفه العالية والثابتة بمواجهة الاحتلال وسياساته العدوانية مستنداً إلى بركة إيمانه وصمود وصلابة صخور الجبال وأشجار السنديان في وطنه المرفوع على أسمى آيات الحب والنضال، ويلاحظ المتابعُ أنّ مسيرتَه ومواقفه كأنَّها مشتقة من اسم بلدته الرامة التي تعني رام أي العالي والمرتفع.

هكذا هي سيرته ومسيرته المرتبطة أيضاً بالكنيسة الفلسطينية التي برز دورها كأحد أعمدة النضال والمقاومة ضد الاحتلال. فقد لعبت الكنيسة دوماً وما زالت دوراً محورياً في مسيرة المقاومة والبناء والتنمية والصمود، ولأبناء الشعب الفلسطيني من المسيحيين مواقف مشرفة في المسيرة النضالية المستمرة نحو الحرية والعدالة والخلاص من الاحتلال، وهو الأمر الذي تنبهت له الحركة الصهيونية مبكراً، فعملت على إفراغ المدن والقرى الفلسطينية من سكانها وأهلها المسيحيين عبر تبني سياسة الترانسفير أي التهجير القسري الممنهج عبر استخدام الوسائل العسكرية والأمنية وبلدوز الاستيطان المتوحش كما حدث في عامي النكبة 1948 والنكسة عام 1967. وما زالت هذه السياسة العدوانية والممنهجة مستمرة تقوم على حرمانهم والتضييق عليهم ارتكازاً على قوانين عنصرية حاقدة تسعى لتهيئة الظروف التي تساهم في زيادة هجرتهم خارج وطنهم.

واستناداً للدور الوطني للكنيسة الفلسطينية التي ينتمي إليها بجدارة الانتماء لفلسطين، فقد رفع المطران عطا الله حنا راية النضال والإيمان في فلسطين أرض القداسة والمقدسات الإسلامية والمسيحية حيث لا تستوي الذاكرة الوطنية والثقافية والحضارية والفنية والعلمية والأكاديمية على هذه الأرض دون استذكار الدور المحوري والمركزي للفلسطينيين المسيحيين بدءاً من الفلسطيني الأول السيد المسيح عليه السلام والسيدة مريم العذراء عليها السلام مروراً بكوكبة من الشخصيات البارزة في حياة الشعب الفلسطيني بعد النكبة ومنهم جورج حبش وكمال ناصر وإدوارد سعيد ووديع حداد وإميل الغوري وكريم خلف وناجي علوش وخليل السكاكيني وخليل بيدس ومي زيادة وإبراهيم وبدر لاما وسميرة عزام ونقولا زيادة وأنيس صايغ.

ونستذكر أيضاً في هذا الإطار، عملية اغتيال الأب الشهيد في لومينوس داخل كنيسة بئر يعقوب في نابلس، بسبب موقفه المبدئي، وتصديه لإقامة بؤرة استيطانية في المكان على يد مستوطني الونموريه، وثورة الضرائب التي انطلقت من كنائس بيت لحم، التي شكلت مشعلا للثورة ورفضاً للاحتلال، ومواجهةً لعنصريته، وظلمه. ونستذكر «وثيقة كايروس فلسطين» التي وقعتْها قيادات الكنائس والمؤسسات المسيحية في فلسطين عام 2009 إذ شكلتْ آنذاك لاهوت التحرير الفلسطيني، وقد نصت على أن «الاحتلال العسكري لفلسطين يعتبر خطيئة ضد الله وضد الإنسانية»، وطالبتْ جميعَ الكنائس والمسيحيين في العالم بمقاطعة (إسرائيل) وفرض عقوبات اقتصادية عليها وسحب الاستثمارات منها، لإلغاء القوانين العنصرية المتخذة من قبلها بهدف التمييز ضد الفلسطينيين، ما يُعدّ محاكاة للدعوة التي أطلقتها كنائس جنوب أفريقيا، عندما أعلنت «أن نظام الأبرتهايد خطيئة ضد الله والإنسان». وهذه الوثيقة محطة من جملة محطات أكدت أن إعلان ترامب القدس عاصمة (لإسرائيل)، أزالت القناع عن وجه أميركا السياسية، فهي طرف في الصراع الذي يخوضه، شعبنا الفلسطيني ضد الظلم والعدوان.

وللكنيسة في فلسطين، وللمسيحيين الفلسطينيين دورٌ بارز أيضاً في مسيرة العلم، وتأسيس العديد من المؤسسات الأكاديمية، إذ إن جامعة بير زيت، التي غدت اليوم إحدى أبرز القلاع الأكاديمية في الوطن، تأسست على يد عائلة ناصر، وكذلك جامعة بيت لحم، التي فتحت أبوابها عام 1973، بدعم من الكنيسة الكاثوليكية، كما أن أول مدرسة نظامية في مدينة نابلس تأسست عام 1848، كانت داخل الكنيسة، يضاف إلى ذلك الدور الاقتصادي للكنيسة في فلسطين، فهي تُعدُّ أحد أركان الاقتصاد الوطني بامتياز، إذ تشير الباحثة ديما رشماوي في بحث منشور لها، بأن 45% من العمل المؤسساتي في فلسطين هو عمل يعود لمؤسسات مسيحية تقدم فرص عمل لما يقاربُ نحواً من 22000 عائلة فلسطينية منها 15000 عائلة مسلمة، يضاف إلى ذلك الخدمات الإغاثية والخيرية التي تقوم بها الكنيسة باستمرار للمجتمع الفلسطيني ككل، إذ كان للكنيسة في فلسطين ولا يزال، دور بارز في بناء العديد من المستشفيات، وبيوت

رعاية المسنين، في الناصرة، والقدس، وبيت لحم، ونابلس، وغزة، ورام الله.

والمسيحيون الفلسطينيون كما يؤكد دوماً المطران عطا الله حنا ليسوا بأقلية، وليسوا بطائفة، إنما هم أهل الأرض الأصليين، هم شركاء الماضي، والحاضر والمستقبل، وصمودهم في الأرض، ومقاومتهم لكل أشكال التهجير، والتضييق من قبل الاحتلال، إنما هو صمود لشعبنا الفلسطيني، فالأديرة والكنائس، هي جزء أصيل من مكونات النسيج المجتمعي الفلسطيني، كما هي المساجد، والكنيسة الفلسطينية التي تتصدر الدفاع عن الأرض، والحريات، والعدالة الاجتماعية، من خلال مؤسساتها الممتدة في كل ساحات الوطن، ستبقى بأبنائها، ورموزها الوطنية والدينية، منبرا للحرية، ومقاومة الظلم والعدوان، والمحافظة على الأرض والأملاك الوطنية من التسريب، والبيع، وسيسجل التاريخ موقف أبناء شعبنا بأحرف من نور وعزة وكرامة.

واستناداً إلى هذه المواقف المشرفة تبرز شخصية ومواقف المطران عطا الله حنا المشرفة في الصراع ما بين الحق والباطل. إنه الموقف المتجسد على أرض فلسطين اليوم بمقاومة الاحتلال وهذا ما جعل المطرانَ الشخصية المحببة لدى المسلمين والمسيحيين من خلال تأكيده الدائم على دعم المقاومة في فلسطين ولبنان التي لقنت العدو الصهيوني درساً لن ينساه منذ إعلانها انتهاء زمن الهزائم والخضوع للاحتلال الذي يعتبر زواله حتمياً عن أرض فلسطين التاريخية وهو يؤكد دائماً أن القدس أمانة في أعناق المسلمين والمسيحيين ويدعو إلى الوحدة والعمل من أجل الحفاظ على وحدة القدس وإفشال المؤامرات التي تهدف إلى ابتلاعها وطمس معالمها وتزوير تاريخها والنيل من مكانتها معتبراً أن قرار الرئيس الأمريكي دونالد ترامب بنقل السفارة الأمريكية يكشف الوجه الحقيقي للإدارة الأمريكية المعادية لشعبنا وقضيته العادلة إذ تسعى تلك الإدارة إلى خدمة المحتل ومحو وجودنا وتزوير تاريخ مدينتنا. فالقدس كما يقول المطران عطا الله حنا المستند إلى بطولة الورد الفلسطيني المقاوم هي حاضنة المسجد الأقصى وكنيسة القيامة ونحن عندما ندافع عن القدس فإننا ندافع عن إيماننا وندافع عن الحق والعدالة بكل الوسائل المتاحة وبكل ما نملك من إرادة ووحدة بمواجهة الاحتلال.

## المطران المناضل في مواجهة المسيحية الصهيونية

في اللحظة الخطيرة الراهنة التي تعيشها منطقتنا برزت مجموعة منحرفة ساهمت منذ عهد الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن في نشر الأفكار التدميرية وكانت الرحم الحقيقيّ لظهور القوى التكفيريّة وإنتاجها عن طريق التعاون ما بين المخابرات الإسرائيليّة والمخابرات الأميركية بمشاركة وتمويل خليجيّيْن، وقد تمّ إرسالها إلى العراق وسوريا بصورة خاصّة، حاملةً ثقافة تنتزع الإسلام من تراثه الحقيقيّ ومعناه الشامل، ضمن مفهوم الرهاب الإسلامي أو الإسلاموفوبيا، بشيطنته أو أبلسته وجعله إسلاما إرهابيّا يعيش خارج دائرة الزمن والكون، وتسعى إلى القضاء

على المسلمين لا في هذه الدول فقط بل على المسيحيين أيضا بقتلهم وتشريدهم وتفجير أديرتهم وكنائسهم وخطف مطارنتهم وكهنتهم وراهباتهم... وهذا بدوره يتماهى مع معاناة المسيحيين المقدسيين سواء بقرارات اتخذتها وتتخذها حكومة بنيامين نتنياهو ومنها فرض ضرائب باهظة على كنيسة القيامة في القدس، وهو مؤشر وإمعان مفرط هادف إلى سلخ المسيحيين المقدسيين عن بيئتهم أو من خلال الضغط عبر بيع الأوقاف لوكالات يهوديّة تحولها إلى مستوطنات كما حصل عن طريق بطريرك القدس ثيوفيلوس، ويصبّ ذلك في الهدف عينه، وقد جاء قرار الرئيس الأميركيّ دونالد ترامب، وهو ينتمي مع نائبه إلى تلك المجموعة المذكورة بنقل السفارة الأميركية من تل أبيب إلى القدس، تكريسًا لهذا التهجير المتعمّد وسلخ المدينة المقدّسة عن هويتها الذاتية الجامعة ما بين المسيحيين والمسلمين واليهود لتصير عاصمة (إسرائيل) وعاصمة اليهود الأبديّة وهذا يجسد وعد بلفور المشؤوم.

ويقول المطران عطا الله حنا: ليس هناك من تماس وتلاقٍ بين مفردتين متنافرتين أي بين المسيحية والصهيونيّة. إنهما مفردتان متباعدتان في الجوهر والمحتوى. ذلك أنّ المسيحية تنتمي إلى المحبّة، فيما الصهيونيّة تنتمي إلى العنف. والصهيونيّة تظنّ بأنّ الله وكما قال المغفور له غسان تويني وبسخرية "اش والله عندو مكتب عقاري بسجل أراضي باسم هيدا الشعب أو هيدا كالشعب؟!". الصهيونيّة كفكر تحدّ من وجود الله وتجعله خاصًّا بحقّ قوميّ–جغرافيّ مزيّف، وهي مستعدة لتمزيقه عبر صراعات أممية ودينية بشرطِ ضمان بقاء (إسرائيل)، وتلك الحركة دعت دومًا إلى قتل وطرد الفلسطينيين من فلسطين التاريخيّة وتشريدهم والتنكيل بهم، وهي رافضة للوجود المسيحيّ الأصيل وتعمل على تهجيرهم من سياقهم الجغرافيّ التاريخيّ إلى أن يفرغ المشرق من حضورهم التاريخيّ الأصيل.

ونحن بروح الإيمان والنضال، يقول المطران، نؤكد أنّ أرضنا ستبقى أرضا مقدسة ومدينتنا القدس ستبقى مدينة مباركة عاصمة للسلام والمحبة والأخوّة، عاصمة لفلسطين ولشعبها". وتلك مهمة الكنائس المارونية والأرثوذكسيّة والكاثوليكيّة في المدى المنظور. وبات لزامًا بأن يدرك بطاركة تلك الكنائس بأنّ فلسطين وسوريا ولبنان والعراق والأردن دولٌ مستهدفةٌ من قبل الصهاينة والقوى التكفيرية، فهذان الأخيران، من حيث النشأة والممارسة والأصول، وجهان لعملة واحدة.

ويستند المطران عطا الله حنّا بمواقفه هذه على وثائق تاريخيّة ولاهوتيّة تظهر عداوة تلك المجموعة للمسيحية الفلسطينيّة، واستطرادًا، للمسيحية المشرقيّة العربيّة، وتكشف في طياتها المآرب الواضحة خلف تفسيراتهما لمن حرّف وأوّلَ النصوص الإنجيليّة، فهم بها ينحتون لاهوتًا حروفيًّا يؤكّد وعد الله لليهود بأرض أبديّة أزليّة تبقى لهم إلى الأبد، وكما قال المطران عطا الله حنّا، فإن تلك المجموعات تطلق تفسيرات خاطئة للإنجيل المقدّس تؤيّد بها وجود ما يسمى دولة

إسرائيل بشكلّ كليّ ومطلق، وتعتبر أن ما يسمى دولة إسرائيل هو تجسيدٌ لوعد الله القائم في الكتاب، في حين أنّ تكوين دولة إسرائيل باغتصاب غاشم للوجود الفلسطينيّ وسلخ الفلسطينيين عن وطنهم الحقيقيّ تمّ من خلال وعد بلفور وليس عبر وعد الله كما زعمت تلك المجموعة، وفي هذا السياق أيضاً، قال المطران عطاالله حنا، "الله لا يحلّ الظلم والتشريد والقتل واقتلاع الأبرياء من قراهم وبلداتهم".

**المطران المناضل ومشاريع التدمير**

**1 ـ في الأزمة السورية:**

يقول المطران عطا الله إن ما جرى في سوريا ليس من شيم شعبها لكنه نتاج مؤامرة كونية تستهدف فلسطين وسوريا والأمة وهو أيضاً نتاج خطاب التكفير والتحريض والكراهية الذي ليس فيه شيء من سمات وتعاليم الإسلام خصوصاً عندما نتحدث عن قاطعي الرؤوس وآكلي الأكباد. وقال أيضاً إنّ الدفاع عن سوريا في هذه الحرب هو دفاع عن فلسطين وعن الحرية والكرامة والإيمان وفي هذا الدفاع لن نيأس ولن نتراجع قيد أنملة عن حقنا لتبقى بلادنا عصية على الاحتلال والتقسيم.

**2 ـ في الحرب على اليمن:**

يقول المطران المناضل بلغة واضحة وحاسمة:" أوقفوا العدوان على اليمن فكفى ما حل بهذا البلد من مآس إنسانية يدفع فاتورتها الأطفال بشكل خاص وكافة شرائح المجتمع اليمني بشكل عام".

ولكثرةِ ما يعتصر قلبه من ألم جراء المجازر بحق الشعب اليمني، يقول:

ومن القدس عاصمة فلسطين نعرب عن تضامننا وتعاطفنا ووقوفنا إلى جانب الشعب اليمني الشقيق وكفاحه.

وكم تؤلمنا هذه المشاهد المروعة للدمار والخراب والمآسي الإنسانية التي حلت بهذا البلد الذي تحول من اليمن السعيد إلى يمن البؤس والفقر والتشريد والجوع والمآسي الإنسانية بكافة أشكالها وألوانها. ويتابع المطران المناضل: نطالب بوقف هذه الحرب العبثية الإجرامية الإرهابية التي يتعرض لها اليمن، فأطفال اليمن يعانون من الأمراض ومن سوء التغذية وهذا هو حال الغالبية الساحقة من أبناء هذا الشعب الشقيق الذي وقف دوما إلى جانب القضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني وأذكر قبل عام أنه عندما بدأت أحداث القدس، فقد كانت اليمنُ مسرح أكبر مظاهرة تضامنية انطلقت من أجل القدس بالرغم من الحرب والمآسي الإنسانية الموجودة هناك.

لا تهمني كثيرا الخلفية السياسية لهذا الصراع وأنا لست بمحلل سياسي أو خبير استراتيجي فما يهمني هو أولا وقبل كل شيء أن تتوقف الحرب وأن يتوقف تدمير اليمن واستهداف

الأطفال والنساء والكبار والصغار، ما يهمني هو أن تتوقف هذه المأساة التي تعتبر وصمة عار على جبين الإنسانية، فالقليلون يتحدثون عن مأساة اليمن والقليلون يتحدثون عن معاناة الأطفال الذين يموتون جوعا وهذا هو حال كافة شرائح الشعب اليمني.

أوقفوا الحرب على اليمن واوقفوا صواريخكم وأسلحتكم التي تستهدف الأبرياء والتي يدفع فاتورتها أبناء الشعب اليمني الشقيق الذين تدمّر فوق رؤوسهم المستشفيات والأماكن العامة ويستهدفون في لقمة عيشهم ولا تتوفر لهم أبسط مقومات الحياة الطبيعية.

إننا كفلسطينيين، وإن كنا نعيش المعاناة والألم والظلم في ظل الاحتلال، إلا أن هذا لا يجوز أن يجعلنا نتجاهل معاناة أهلنا في اليمن. ولا يجوز لنا أن نناشد العالم بأن يتضامن مع قضيتنا العادلة وأن نتجاهل بأن هنالك أناسا مظلومين في هذا العالم يجب أن نتضامن نحن أيضا معهم.

وكما نريد من العالم أن يقف إلى جانبنا، فعلينا أن نمتلك الجرأة لكي نعبّر عن مواقفنا الإنسانية تجاه ما يحدث في اليمن وفي غيرها من الأماكن في منطقتنا العربية.

يؤسفني ويحزنني ما يحصل في اليمن ولكنني أزداد حزنا وألماً عندما أرى هذا الصمت وكأن ما يحدث في اليمن لا يعنينا، وأعتقد بأن التضامن مع اليمن في محنته هو واجب أخلاقي وإنساني وحضاري ووطني لكل من يقف مع الحق بمواجهة الباطل.

ويتابع حنا القول: أوقفوا الحرب على اليمن وأنقذوا أطفال اليمن من الموت والمجاعة والأمراض فما يحدث في اليمن من مآسٍ إنسانية إنما هو جريمة نكراء ترتكب بحق القيم الأخلاقية والروحية والحضارية.

تؤكد هذه المواقف المشرفة للمطران عطا الله حنا على وضوح الرؤية تجاه ما يجري وما تقوم به بعض الأنظمة الرجعية التي أوصلت المنطقة إلى ما فيه من ظروف وأوضاع كارثية، فالمال العربي النفطي يغدق بغزارة على الحروب والدمار والخراب وهو الذي سعى لتدمير سوريا والعراق وليبيا واليمن بتوجيهات من رئيس الإدارة الأمريكية وحلفائه. والأموالُ العربية، كما يقول سيادة المطران المناضل، لا ترسل إلى القدس أو إلى المؤسسات المقدسية بل لها أوامر صرف محددة ليس فيها الخير لمنطقتنا وشعوبنا، ومن كنا نظن في الأمس القريب بأنهم مطبعون مع المحتلين الصهاينة نراهم اليوم جزءا من المخطط الهادف إلى تصفية القضية الفلسطينية. ولكننا، وبرغم كل ذلك، يقول المطران المناضل عطا الله حنا، لن نستسلم ولن نرفع الراية البيضاء وستبقى معنوياتنا عالية وإرادتنا صلبة، ومهما كثر الظالمون والمتخاذلون والمتآمرون فلا بد للحق أن ينتصر، وإنّ موقفه المبدئي هذا الذي يمثل الورود الفلسطينية كافة بمواجهة شوك الاحتلال هو بمثابة رسالة عنوانها (إلى غزاة لا يقرأون)، وهو عنوان لقصيدة شعرية للشاعر سميح القاسم ابن بلدة الرامة مسقطِ رأس سيادة المطران عطا الله حنا الذي

نراه بمواقفه وحضوره منتصب القامة يمشي ويردد ما قاله صديقه الشاعر سميح القاسم للغزاة.
حين قال:
تقدموا ... تقدموا
كل سماء فوقكم جهنم
وكل أرض تحتكم جهنم
تقدموا
يموت منا الشيخ والطفل
ولا يستسلم

تلك هي شخصية سيادة المطران عطا الله حنا رئيس أساقفة سبسطية للروم الأرثوذوكس المكلّلة ببركة الزيتون المقدس المقاوم والثابت على نهج المقاومة حفاظاً على القدس والمقدسات، وهو، بهذا النهج، مقاوم صلب لا يهادن ولا يساوم.

## "لن نستسلم"

### هذا عنوان لحوار شامل مع المطران عطاالله حنا خاصّ بمجلة "وميض الفكر": عن فلسطين والمقاومة.. وخيانة التطبيع العربي

أجرت الحوار منى سكرية
صحافية لبنانية – 15/11/2018
monasukarieh7@hotmail.com

**في جوّ مشّع بحب فلسطين وبالثقة بتحريرها، كان هذا الحوار الشامل مع سيادة رئيس أساقفة القدس للروم الأرثوذوكس المطران عطاالله حنا عبر أثير الصمود والمقاومة.**

**س ـ عفواً منك سيادة المطران عطاالله حنا لو أننا بدأنا حوارنا معك ببعض الأسئلة الشخصية الطابع، الوطنية العمق، والتي تعطينا من خلالك صورة عن واقعِ الحال، حالِ أهلنا في فلسطين المحتلة... سيادة المطران عطاالله حنا، كيف تبدأ نهارك؟ وكيف تمضي ليلك كمواطن فلسطيني تحت الاحتلال الصهيوني لأرضك؟ كم عدد المرات التي تتغير وتتبدل خلالها "أجندتك"؟**

ج ـ أود بداية أن أقول لجميع الذين يتابعون **مجلة «وميض الفكر»** بأنني خادم للقدس، وأجندتي هي أجندة القدس، وأنا مكرَّس معظمَ أوقاتي لخدمةِ هذه المدينة المقدسة التي أسكن فيها بجسدي، ولكنها ساكنة في قلبي ووجداني وثقافتي وفكري. أنا أسقف أرثوذوكسي أنتمي لأقدم وأعرق كنيسة مسيحية في القدس، ولكنني أفتخر أيضاً بانتمائي العربي وبانتمائي للشعب الفلسطيني المناضل والمكافح من أجل الحرية.

لا توجد عندي أجندة خاصة، ولا يوجد عندي برنامج خاص بي، فكل أجندتي وبرامجي

مكرّسة لخدمة كنيستي ولخدمة شعبي الفلسطيني ومدينة القدس بشكل خاص. لا يوجد عندي الوقت الكافي لمعالجة بعض الأمور الشخصية، ومنها أمورٌ هامة، لأن أغلب الوقت يكون من أجل معالجة القضايا المتعلقة بما يحدث في القدس، وبما يحدث في فلسطين الأرض المقدسة.

وكما تعلمون، فإن الحضور المسيحي الفلسطيني في مدينة القدس مُستهدَف ومُستبَاح كما هو حال الحضور الإسلامي. كلنا مستهدفون ويُراد لنا أن نحزم أمتعتنا وأن نغادر مدينتنا. لكن وبالرغم من كل ذلك نحن باقون، نحن صامدون، نحن ثابتون في انتمائنا لهذه المدينة المقدسة، وسنبقى كذلك، ونحن مستعدون لأي ثمنٍ قد ندفعه في أي وقت من الأوقات.

**س ـ أيّ شعور يستحوذ على وجدانك على مدار الساعة؟ وأي حذر تحياه في يقظتك؟ وأية ملامح ترتسم أثناء ممارستك التأمل؟ وهل يتسنى لك ذلك خارج أوقات الصلاة؟**

ج ـ قد يتم اعتقالنا، وقد يتم اغتيالنا معنوياً أو حتى جسدياً. كل شيء ممكن في ظل وجود الاحتلال في مدينة القدس، خاصة وأنهم منزعجون من وجود أصوات مسيحية فلسطينية وطنية. يريدوننا أن نتقوقع، يريدوننا أن ننعزل عن هموم وهواجس شعبنا الفلسطيني، ولكن نحن نقول لمن يجب أن تصله رسالتنا بأن بوصلتنا ستبقى نحو القدس، وقضيتنا ستبقى قضية فلسطين مهما استهدفونا، ومهما اضطهدونا، ومهما حاولوا ابتزازنا والضغط علينا. نحن لسنا من أولئك الذين يرضخون للابتزازات والضغوطات، ونحن لسنا من أولئك الذين يرضخون لأي نوع من أنواع الممارسات الاحتلالية التي هَدَفُها إسكاتنا وتخويفنا وترهيبنا. نحن لا نخاف من أحد، نحن نخاف فقط من الله الذي نتمنى أن يرضى عنا، وأن يغفر لنا ذنوبنا، وأن يباركنا، وأن يكون معنا، معي ومع غيري ومع زملائي من شخصيات القدس الوطنية الإسلامية والمسيحية. هاجسنا الأساسي هو مرضاة الله. لسنا تابعين لأي جهة سياسية، ولا نتلقّى تعليمات من أية جهة سياسية، ولسنا تابعين لأي فصيل أو حزب سياسي. نرفض أن يضعنا أحدٌ في جيبه، نحن لسنا في جيب أحد. نحن أحرار في التعبير عن مواقفنا، وعن رسالتنا، وعن حضورنا، وعن دفاعنا عن قضية شعبنا وعن مدينة القدس بشكل خاص.

**الحل في إنهاء الاحتلال**

س **ـ أين ترى الخلل بعد مرور سبعين عاماً على احتلال فلسطين؟ نريدها شهادة حق منك واضحة وصريحة وناقدة وصارخة؟**

ج ـ قبل أن نخاطب العالم ونطالب العالم بأن يتضامن معنا كفلسطينيين، يجب أولاً أن نتضامن مع أنفسنا، وأن نعمل بكل حكمة ومسؤولية ورصانة على إنهاء حالة الانقسام المؤسفة والمخجلة الموجودة عندنا والتي لا يستفيد منها إلا الاحتلال.

طبعاً الانقسام ليس فقط بسبب عوامل داخلية فهنالك أيضاً عوامل خارجية، هنالك جهات خارجية تُغذي هذه الانقسامات وتُريد أن تبقى هذه الانقسامات، وهي في ذلك تُقدم خدمة مجانية، أو قد تكون غير مجانية أيضاً للاحتلال ولأمريكا التي تسعى لتصفية القضية الفلسطينية. بعد مرور سبعين عاماً على النكبة نقول بأن الفلسطينيين ليسوا على عجلة من أمرهم لكي يقبلوا بأية حلول استسلامية، هنالك فلسطينيون يقولون بأنهم يريدون الحل غداً أو بعد غد أو الشهر القادم أو السنة القادمة، ونحن نقول بأن الفلسطيني ليس مستعداً لأي حل، وليس مستعداً للقبول بأية حلول هي في واقعها استسلام وليست حلولَ نحن. فكما انتظرنا سبعين عاماً فنحن مستعدون للانتظار سبعين عاماً أخرى، ولسنا مستعدين للتنازل عن حبة تراب من ثرى فلسطين. أنا أتفهم أن هنالك لاجئين فلسطينيين يريدون أن يعودوا إلى فلسطين، وأتفهم أن هنالك فلسطينيين يريدون حلاً سريعاً للقضية، ولكن في المقابل نقول للجميع بأن الحل الوحيد هو دحر الاحتلال، وإنهاء الاحتلال، وتحقيق كل الثوابت الوطنية الفلسطينية في هذه الأرض المقدسة بما في ذلك حقنا التاريخي في فلسطين، وبما في ذلك حقنا في القدس التي هي عاصمتنا وكذلك حق العودة الذي هو حق مقدس لا يسقط بالتقادم. نحن نرفض الاستسلام، وأعود وأكرر نحن لسنا على عجلة من أمرنا كما يظن البعض لكي نقبل بحلول تأتينا بشكل سريع غداً، أو بعد غد، أو بعد عام، أو عامين وتكون حلولاً استسلامية. فخلال خمسة وعشرين عاماً من مفاوضات أوسلو لمسنا على الأرض ازدياداً في الاستيطان، ازدياداً في القمع، ازدياداً في التهويل، ازدياداً في اضطهاد الشعب الفلسطيني. المفاوضات لم تقدم لنا شيئاً سوى مزيدٍ من النكبات والنكسات ولذلك أقول للشعب الفلسطيني بعد مرور سبعين عاماً على النكبة اصمدوا، اثبتوا، ناضلوا، قاوموا، تشبثوا بوطنكم بقضية شعبكم، فقضيتنا هي قضية منتصرة حتى وإن كانت الصورة قاتمة ومؤسفة اليوم، وإني على يقين بأن ما نمُر به كفلسطينيين، وما نمُرُّ به كعرب إنما هي سحابة صيف سوف تزول.

**س ـ بعد عامين على ولادتك حلّت هزيمة العام 67 وكان يومها المطران إيلاريون كبوجي رحمه الله مطراناً على القدس لطائفة الروم الملكيين الكاثوليك، وقد اختارك مانع لمدرب الكفاح المسلح ووقع أسيراً في قبضة المحتل الاسرائيلي بعدها: ثمة وجهان لسؤالي: رأيك بما قام به عن قناعة لطالما جَاهَرَ بها، وتعليقك الظني على افتضاح أمر نقله السلاح ولم يكن يعلم بها سوى قلة أقل من عدد أصابع اليد من فلسطينيين كان ينسق معهم؟**

**واستطراداً، ماذا ترى في التنسيق الأمني بين السلطة الفلسطينية والعدو الإسرائيلي وصرخات أمهات من يقعون في أسر هذه الظاهرة التي تشكّل وصمة عار في تاريخ النضال الفلسطيني؟**

ج ـ سيادة المطران الراحل إيلاريون كبوجي كان وما زال وسيبقى علماً من أعلام الأمة العربية والقضية الفلسطينية. لقد عرفت المطران إيلاريون كبوجي عن قُرب، فهو المطران المناضل والمكافح لعدالة قضيتنا الفلسطينية. نستذكره بكل وفاءٍ واحترامٍ وتقدير لمواقفه ودوره الرائد في الدفاع عن القدس وانحيازه للمقاومة الفلسطينية، وسعيه الدائم للوقوف إلى جانب هذا الشعب المنكوب الذي يناضل من أجل حريته واستعادة حقوقه السليبة. نحن نتعلم من مدرسة المطران إيلاريون كبوجي، ونحن نتعلم من مدرسة المناضل جورج حبش وغيره أيضاً من المناضلين والمقاومين الفلسطينيين، وعندنا قائمة كبيرة بشخصيات فلسطينية مناضلة ومكافحة من أجل هذا الشعب وقضيته العادلة، ونحن من خلالكم نود أن نُعرب عن وفائنا وتقديرنا لكل الفلسطينيين المناضلين المقاومين المكافحين من أجل عدالة القضية الفلسطينية.

## التطبيع خيانة.. التنسيق الأمني خيانة

**س ـ هل تخشى اندفاعات مسؤولين عرب لقيام صلح وتطبيع مع إسرائيل كما يحصل اليوم وعلى أسنة الرماح، أم أنك لا تُعيِر هؤلاء المندفعين من العرب مخاوفك إذ ليسوا أسياد قرارهم؟**

ج ـ القضية الفلسطينية أيها الأحباء تتعرض لمؤامرة غير مسبوقة. نعلم جيداً أن أمريكا تريد تصفية قضيتنا وهنالك دول في الغرب تريدنا أن نتخلى عن حقوقنا، ولكن ما يؤسفنا ويُحزننا أن بعض الأنظمة العربية هي جزءٌ من هذه المؤامرة وقد لاحظنا في الآونة الأخيرة كيف أن بعضاً من المسؤولين الإسرائيليين قاموا بزيارات لعدد من الدول العربية الخليجية بشكل خاص، وهي خطوة هدفها الأساسي جعل الفلسطينيين يغرقون في ثقافة الإحباط والقنوط. البارحة كتب أحد الصحافيين الإسرائيليين مقالاً في صحيفة إسرائيلية معروفة موجهاً كلامه للفلسطينيين فقال لنا ماذا بقي لكم يا أيها الفلسطينيون؟ ماذا بقي لكم؟ إسرائيل أصبحت دولة صديقةَ معظمِ الدول العربية، وهنالك تنسيق، وهنالك تعاون في كل المجالات. لم يبق أمامكم يا أيها الفلسطينيون، كما يقول هذا الصحافي طبعاً، إلا الاستسلام والتطبيع والقبول بوجود إسرائيل وما تقوم به إسرائيل إلخ... ردنا على هذا هو أننا نرفض هذه الزيارات التطبيعية والتي ترقى إلى مستوى الخيانة، وأنا أعتقد أن هذا يشمل التنسيق الأمني الذي اتُّخذ قراراً قبل فترة بأن يتوقف، وأتمنى أن يتوقف، وأن لا يستمر التنسيق الأمني هنا في فلسطين. أنا أعتقد بأن هذه الرسائل التي أراد المُطبِّعون وأراد الزائرون أيضاً أن يرسلوها للشعب الفلسطيني، أعتقد بأن رد الشعب الفلسطيني عليها هو مزيد من الثبات والصمود في هذه الأرض. يريدوننا أن نكون غارقين في ثقافة اليأس والإحباط والقنوط، ونحن نقول لهم بأن معنوياتنا عالية. الزيارات التطبيعية تُحزننا وتجعلنا نخجل ونأسف لهذه الزيارات الخيانية، ولكنها لن تنال من عزيمتنا ومن إرادتنا، وإذا ما أراد البعض لنا أن نستسلم وأن

نقبل بالتطبيع كأمر مفروض علينا فنحن نقول لهم إن هذا لن يكون. الفلسطينيون لن يستسلموا. لقد قدموا كل هذه التضحيات وكل هؤلاء الشهداء وسيستمرون في التضحية من أجل فلسطين ولكنهم ليسوا مستعدين للتنازل والقبول بوجود الاحتلال الذي يجب أن يزول وسيزول حتماً. الفلسطينيون معنوياتهم عالية، الزيارات التطبيعية تجعلنا حقيقة أكثر ثباتاً وصموداً وتشبثاً بحقوقنا. طبعاً نحن لم نفاجأ بهذه الزيارات لأننا كنا نعرف أن هنالك تنسيقاً وتعاونا بين الاحتلال وهذه الدول، ولكن الأمر الصادم هو أن تصل الوقاحة إلى نشر هذه الزيارات، وإلى الإعلان عنها والافتخار بها.

إحدى محطات التلفزة العربية قالت إن «دولة الرئيس نتانياهو» وصل اليوم إلى هذا البلد! تصوروا مستوى الوقاحة التي وصلنا إليها حيث أن هؤلاء المطبعين يفتخرون ويتباهون بزيارات لشخصيات إسرائيلية إلى هذه الدول. نحن من ناحيتنا، كفلسطينيين، وبالرغم من كل هذا التخاذل، وبالرغم من كل هذا الضعف والخلل الموجود، معنا أصدقاؤنا الأحرار من أبناء أمتنا العربية ومعنا أصدقاؤنا من سائر أرجاء العالم.

هؤلاءِ المطبّعون مع الاحتلال الإسرائيلي، ليسوا أصحابَ قرار، طبعاً دولهم لها سيادة وطنية ولها علم ولكن للأسف الشديد القرارات تُتخذ في مكان ما وهؤلاء أو بعضهم لكيلا أعمم يعملون على الروموت كونترول ويديرهم القابع في البيت الأبيض. نحن كفلسطينيين حقيقة لم نفاجأ من استقبال هذه القيادات السياسية الإسرائيلية في بعض الدول الخليجية لأننا كنا نعرف أن هنالك تنسيقا ووفودا تأتي إلى فلسطين للتطبيع مع الاحتلال، نحن لم نفاجأ ولكن الشيء الصادم هو أن الوقاحة وصلت إلى درجة أن يتم الإعلان عن هذه الزيارات والتباهي بها كتلك المسؤولة الإسرائيلية العنصرية التي وصفت الفلسطينين بالحشرات وتطاولت على المسلمين والمسيحيين واستُقبلت في أحد المساجد الخليجية استقبالاً مؤسفاً ومخجلاً. حقيقة، كل هذه المظاهر السلبية الموجودة لن تجعلنا كفلسطينيين نتنازل عن ثوابتنا وحقوقنا وانتمائنا لهذه الأرض، هؤلاء يتآمرون علينا ولكن في المقابل هنالك شعب أبيّ متشبث بحقوقه وانتمائه، وليس ثمّة قوة غاشمة في هذا العالم قادرة على إلغاء وجودنا وطمس معالم انتمائنا لهذه الأرض، لا توجد هنالك قوة في هذا العالم قادرة على شطب فلسطين من على الخارطة، نحن موجودون وسنبقى شاء من شاء وأبى من أبى.

**س ـ هل خيّب الغرب ونُخَبَهُ وما رفعه من شعارات نفسَه أولاً، والذين اقتنعوا به ثانياً؟ وهل كنت "منبهراً" بهذه الشعارات والسياسات ذات يوم؟**

ج ـ أنا حقيقة أزور في كثير من الأحيان دولاً أجنبية وغربية وألمس أن هنالك ازدياداً في رقعة التضامن مع الشعب الفلسطيني، ونحن نثمّن هذه المواقف، ونحن معنيون بالتواصل مع كل الشعوب الصديقة ومع كل الكنائس والمسيحيين والمسلمين في كل مكان لكي نُبرز لهم حقيقة ما يحدث في فلسطين الأرض المقدسة.

س- هل أنتمُ محاصرون؟ ما هي القوة التي تستمد من داخلك إلى دواخلك كي تقدر على البقاء وتحمُّل الألم؟ الألم الروحي والنفسي والفكري؟ نعم الألم النفسي في شتى ضروبه: عذاب قابع في جنبات شعبك الفلسطيني المنتشر حولك وفي الشتات، وغصة من لامبالاة تنتشر على حوافي فلسطين من أهلها العرب ومن حاجة إلى صرخة عالية مدوية لأهلها في الداخل؟

ج- إن ما يُنعشني ويُقويني ويُعزيني في صبيحة كل يوم أنني أسمع أجراس كنائس القدس وأصوات وتكبيرات مساجدها معاً وسوياً وفي نفس الوقت. أجراسنا ومآذننا ستبقى شامخةً في سماء المدينة المقدسة، وستبقى هذه الصروح الروحية منادية من أجل أن يتحقق العدل في هذه الأرض. مشكلتنا أن مدينة السلام ليست اليوم مدينةً للسلام لأن العدالة غُيِبت عن مدينتنا، ولكننا على يقين بأن العدل لا يمكن إلا أن يأتي وأن يتحقق، وشعبنا الفلسطيني يُناضل ويُكافح من أجل أن تتحقق هذه العدالة. في صبيحة كل يوم عندما أسمع تكبيرات المساجد وأجراس الكنائس أشعر بأن القدس بخير بالرغم من كل ما تتعرض له من مؤامرات ومحاولات هادفةٍ لطمس معالمها وتزوير تاريخها والنيل من هويتها العربية الفلسطينية. أيها الأحباء أقول لكم وبصدق بأننا متفائلون، نحن متفائلون وإن كنا نرى الصورة القاتمة أمامنا، نحن متفائلون لأننا أصحاب قضية عادلة، نحن متفائلون لأن القدس مدينة مقدسة هي أقوى بكثير من سياسات التهويل والأسرلة والصهينة التي يسعى الاحتلال لفرضها في مدينتنا المقدسة.

إنني من أولئك الذين يؤمنون ويقولون دوماً بأنه لا يضيع حق وراءه مطالب فقضيتنا هي قضية عادلةٌ، بل هي أعدل قضية عرفها التاريخ الإنساني الحديث، والدفاع عن فلسطين وعن مدينة القدس بشكل خاص إنما هو واجب أخلاقي وواجب روحي وواجب إنساني قبل أن يكون واجباً وطنياً، عندما أقف في كنيسة القيامة أصلي دوماً من أجل فلسطين، أصلي دوماً من أجل المشردين والمنكوبين الذين ينتظرون يوم عودتهم وما أكثر أولئك الذين يعيشون في مخيمات اللجوء وفي بلاد الاغتراب وينتظرون بوم عودتهم إلى فلسطين الأرض المقدسة. أيها الأحباء صلاتي دوماً إلى الله هي من أجل فلسطين ومن أجل هذا الوطن العربي المنكوب هذا الوطن العربي الذي تعرض للمآسي وللحروب وللإرهاب، يؤلمنا ويُحزننا ما حدث في سوريا وما حدث في اليمن وما حدث في العراق وليبيا يُؤسفنا ويُحزننا أن نرى هذا الدمار الهائل الذي حل ببعض أقطارنا العربية الشقيقة ونحن كفلسطينيين وإن كنا نعيش آلامَ وأحزانَ ومعاناة شعبنا إلا أننا لم ننس في يوم من الأيام شعوبنا العربية الشقيقة التي عانت وما زالت تُعاني من الإرهاب والعنف والحروب وعدم الاستقرار. يُؤسفنا ويُحزننا أن المال العربي الخليجي يُستعمل في بعض الأحيان من أجل الدمار والخراب في هذا المشرق العربي، ولو استُعمل هذا المال استعمالاً جيداً لما بقي إنسان فقير في هذه المنطقة، لما بقي إنسان عاطل عن العمل، ولما وقعَ الكثير من الأزمات الاقتصادية والمعيشية والتربوية وغيرها في منطقتنا، هذا المال كان من المفترض أن يُستعمل

في دعم صمود الشعب الفلسطيني ولكننا في كثير من الأحيان نشعر كفلسطينيين أننا كالأيتام على موائد اللئام. لا يلتفت إلينا هؤلاء الذين يملكون المال إلا ببعض الفتات لشراء بعض الذمم ولشراء بعض المواقف التي يحلو لهم أن يسمعوها من هنا أو من هناك. على كل حال لن نفقد الأمل وأنا عندما أقف في كنيسة القيامة أمام القبر المقدس وأمام هذه الأماكن المقدسة الطاهرة والشريفة في مدينتنا المقدسة، وعندما أتأمل مصلياً أصل إلى قناعة تُفيد بأن هذا الظلم الذي نعيشه له بداية وستكون له نهاية، لا يُمكن للظلم أن يستمر وأن يبقى وأن يدوم.

س– هل أضاع الشعب الفلسطيني فرصته في تحقيق التحرير ونيل حقوقه لعدم استفادته من انتصارات المقاومة في لبنان بشقيها الوطني والإسلامي والتي تحققت العام 2000 و2006؟ ومَن تلوم؟ وما الذي تخشاه؟ وما الذي تعتقده داعماً وناصراً لإيمانك في نهاية هذا المشهد؟ وهل من مخاوف سياسية ومذهبية وثقافية عميقة تقبع في بنية شخصية الفرد الفلسطيني من سياسة وثقافة ومذهب هذه المقاومة التي انتصرت في لبنان وأعني الإسلامية منها؟ أرجو ألا تركز على تلاقي الأديان فقط لأن هذا في الظاهر كلام متكرر، ولكن ماذا في العمق والأعماق؟ أيضاً نريدها شهادة تضيء ويُستضاء بها؟

ج– إن إيران دولةٌ صديقة لفلسطين لا بل هي أكثر من ذلك، هي دولة تتبنى القضية الفلسطينية وتتبنى مسألة الدفاع عن القدس وأنا أستذكر أن ثمة يوماً تم الإعلان عنه في إيران للقدس ونحن في مدينة القدس أيضاً نجتمع ونحيي هذا اليوم "يوم القدس العالمي"، وكذلك حزب الله أود أن أوجه التحية لقائد هذا الحزب سماحة السيد حسن نصر الله ولكل أولئك الذين ينتسبون لهذا الحزب ويدافعون ليس فقط عن لبنان وليس فقط عن سوريا وإنما أيضاً يدافعون عن فلسطين ويتبنون القضية الفلسطينية التي هي دائماً حاضرة في الخطاب السياسي لهذا الحزب. نحن في فلسطين نُثمن الموقف الإيراني ونُثمن مواقف حزب الله وإذا ما كانت هنالك أصوات نشاز فهي لا تُمثل الشعب الفلسطيني. هنالك من يُريدون أن تتحول إيران إلى عدو بالنسبة إلينا وهنالك من يُريدون أن ننظر بنوع من التشكيك إلى حزب الله، وأنا أعتقد أن هؤلاء هدفهم الأساسي حرف الأنظار عن العدو الحقيقي وحرف الأنظار عن القضية الحقيقية التي يجب أن ندافع عنها وفي سبيلها. الفلسطينيون بغالبيتهم الساحقة يُثمنون موقف حزب الله وكذلك الموقف الإيراني الذي وقف إلى جانب سوريا أيضاً، إيران وقفت إلى جانب سوريا و حزب الله وقف إلى جانب سوريا كما هو حال عدد من الدول الصديقة التي وقفت إلى جانب الدولة السورية والقيادة السورية والجيش العربي السوري في دفاعه عن هذا البلد الذي تم استهدافه خلال هذه السنوات المنصرمة. عندما تدافعون عن سوريا أنتم تدافعون عن فلسطين لأن عدونا واحد، والمتآمر على سوريا هو ذاته المتآمر على فلسطين، والذي يُخطط لتدمير سوريا هو الذي

يُخطط لتصفية القضية الفلسطينية. عدونا واحد هنا وهناك وإن تعددت الأسماء والأوصاف وما إلى ذلك. فكل التحية مجدداً لإيران ولحزب الله وكل التحية أيضاً لأصدقاء سوريا ولأصدقاء فلسطين وهم موجودون في سائر أرجاء العالم .

س– هل يعيش الشعب الفلسطيني هبّات متقطعة تَشْغل فضاءات الكون وما تلبث أن تخبو؟ ثورة 36 وانتفاضة ال87 مثالاً ؟

ج– الفلسطينيون، مسحيين أو مسلمين، هم شعب واحد. والمقاومة في فلسطين لم تتوقف في يوم من الأيام وإن تعددت الوسائل والأنماط والطرق التي بها تتم مقاومة الاحتلال. المقاومة موجودة، المقاومة موجودة ما دام هناك احتلال ونحن حقيقة نحيي المقاومة الإسلامية والوطنية في لبنان التي لربما استفاد منها الفلسطينيون وتعلم منها الفلسطينيون أنه يمكن دحر الاحتلال ويمكن مواجهة الاحتلال وما يُسمى بالجيش الأسطوري الذي لا يمكن أن يُهزم. هذه المقولة هُزمت من قبل المقاومة اللبنانية التي نوجه لها التحية والاحترام والثناء. الفلسطينيون حقيقة يقاومون ولكن لا يجوز أن نتجاهل أننا في كثير من الأحيان نرى أنفسنا وحدنا في الساحة، بعض العرب يتآمرون علينا، بعض العرب هم جزء من هذا المشروع الهادف إلى تصفية القضية الفلسطينية، الفلسطينيون ليسوا محاصرين فقط من قِبلِ الاحتلال هم محاصرون أيضاً من بعض الأنظمة العربية وخاصةً الخليجية التي تستقبل الوفود الإسرائيلية وهي تُطبع مع الاحتلال منذ سنوات كثيرة، وبالرغم من كل ذلك فأنا أود أن أقول بأن الفلسطينيين متمسكون وسيبقون متمسكين بحقهم في الكفاح والنضال من أجل الحرية. نحن كمسيحيين ومسلمين في فلسطين عندما نتحدث عن قضيتنا ومقاومتنا وكفاحنا ونضالنا من أجل الحرية فإننا نتحدث بلغة الانتماء للوطن الواحد، في فلسطين لا توجد هنالك أقلية او أكثرية، علاقتنا الإسلامية– المسيحية ليست علاقة تسامح ديني فقط، التسامح قد يكون بين الغرباء أما نحن فلسنا غرباء عن بعضنا البعض نحن أبناء فلسطين لغتنا واحدة، انتماؤنا واحد، قضيتنا واحدة، هاجسنا واحد والمسيحيون الفلسطينيون وإن أصبحوا قلة في عددهم بسبب ما ألم بهم وبشعبهم الفلسطيني إلا أنهم ليسوا أقلية، نحن لسنا أقلية ونرفض أن يُنظر إلينا كذلك. نحن مكون أساسي من مكونات هذا الشعب الذي قضيته هي قضيتنا، كفاحه هو كفاحنا، نضاله هو نضالنا وتطلعه نحو الحرية هو تطلعنا نحن أيضاً.

س– ما الذي يمنع قيام تجربة مماثلة في فلسطين تحاكي وتنقل تجربة حزب الله في لبنان الذي حقق انتصارات وتحريراً لأرض محتلة وبات قوة ردع حقيقية نفسية بالدرجة الأولى– مع ما تعنيه من هزيمة إرادة للعدو– ضد العدو الصهيوني المتجلبب بكل أنواع الأسلحة؟ وهل

انتهى الشعب الفسطيني إلى فئة مقاومة بالفعل، وفئة مستسلمة بالفعل، وفئة رمادية بالفعل؟
ج– كما قلت سابقاً فإن المقاومة الفلسطينية لم تتوقف في يوم من الأيام وإن تعددت الأنماط والوسائل التي بها يقاوم الفلسطينيون هذا الاحتلال الغاشم الجاثم على صدورنا وأعتقد بأن أنجع وأهم وسيلة للمقاومة هي الصمود والثبات في هذه الأرض، الاحتلال يُريدننا أن نرحل والقوانين العنصرية التي تم سنها مؤخراً هدفها الأساسي هو أن يحزم الفلسطينيون الباقون في وطنهم أمتعتهم ويغادروا وطنهم، أما الباقون في هذه الديار فيُراد لهم أن يتحولوا إلى أقلية وإلى جالية في بلدهم وفي مدينتهم المقدسة. أنا أعتقد بأن الثبات والصمود والبقاء في هذه الأرض هو أعظم مقاومة إضافة إلى الوسائل الأخرى التي من خلالها يمكن أن نُقاوم الاحتلال. يجب أن نقول للفلسطيني المهدد بالتشريد والاقتلاع من وطنه، ابقَ في وطنك ويجب أن نُقدم لهذا الفلسطيني كل مقومات الصمود في ظل حالة الترهل العربي وفي ظل الانقسامات الفلسطينية والانحياز الأمريكي والغربي لإسرائيل، يجب أن نقول للفلسطيني اصمد في بلدك، اصمد في مدينة القدس، ابقَ فيها ولا تتنازل ولا تتراجع ولا ترضخ للضغوطات الاحتلالية وللقوانين العنصرية الفاشية التي تُريدنا أن نترك وطننا وأن نترك بلادنا.

س– ندرك أن فلسطين هي محور عقلك ونبض قلبك ومدار اهتمامك، ولكن لنا سؤال حول نظرتك وقراءتك لمجريات ما يحصل على الساحة الدولية من أميركا إلى أوروبا إلى روسيا إلى الصين إلى إيران الإسلامية وتركيا؟ قراءة بعيدة المدى لساحات هذه الدول ومستقبلها وإرهاصات مجتمعاتها؟
ج– إنني من المتفائلين بأن كل شيء في هذا العالم يمكن أن يتغير لصالحنا ولكن هذا يحتاج إلى جهد، يحتاج إلى وجود وسائل إعلامية تتحدث بلغات أجنبية وتُخاطب العالم. عندنا مشكلة في الإعلام نحن عندنا وسائل إعلام رائعة وممتازة باللغة العربية نُخاطب فيها بعضنا بعضاً. أنا أتمنى أن ننطلق إلى مرحلة جديدة نُخاطب فيها العالم، فالعالم متعطش لسماعنا، متعطش لمعرفة حقيقة ما يحدث في بلادنا وأنا ألمس من خلال زياراتي للخارج أن هنالك شرائحَ كبيرة من المثقفين والأكاديميين والإعلاميين الذين بدأوا يدركون جسامة الظلم الواقع في بلادنا وفي أرضنا المقدسة، نحن نستقبل الوفود الآتية إلينا من كل أرجاء العالم، من أمريكا ومن روسيا ومن غيرها من الدول. يأتون إلينا لكي يقولوا إننا مع فلسطين، هؤلاء يجب أن نبقى على تواصل معهم، يجب أن نعمل من أجل توسيع رقعة أصدقائنا في سائر أرجاء العالم وأن لا يكون خطابنا مقصوراً فقط على الأمة العربية التي من المفترض أن تكون القضية الفلسطينية هي قضيتها الأولى. نحن نعتقد بأننا يجب أن نخاطب الشعوب العالمية، العالم بدأ يتغير، العالم بدأ يُدرك جسامة الظلم الواقع علينا وأنا ألمس من خلال زياراتي إلى الدول العالمية بأن

هنالك اتساعاً في رقعة أصدقائنا في كل مكان ولكن يجب أن نستمر في جهدنا وفي تواصلنا وفي علاقاتنا مع هذه الشرائح لتصل رسالة فلسطين ورسالة الأمة العربية إلى حيث ما يجب أن تصل.

س–هل تؤمن أن تحرير فلسطين أمر إلهي؟

ج– نعم نعتقد بأن مسألة تحرير فلسطين هي أمر إلهي وهي إرادة إلهية، ذلك لأننا نعتقد بأن الله تعإلى لا يُحِلُّ الظلمَ ولا يحلُّ التشريد والاقتلاع. حدثونا في يوم من الأيام عن وعد الله بالنسبة لقيام دولة الاحتلال وأنا أود أن أقول لكم بأن نكبة الشعب الفلسطيني تحققت بوعد من بلفور وليس بوعد من الله فلا يجوز أن ننسب لله ما ليس فيه. إلهنا الذي نعبده هو إله حق ونصرة للمظلومين حيثما كانوا وأينما وجدوا، والفلسطينيون هم مظلومون وقضيتهم قضية عادلة والله لا يُحِلُّ هذا الظلم ولا يُحِلُّ ما حلّ بشعبنا الفلسطيني، نقول لشعبنا الفلسطيني يا أيها الشعب الأبي تمسك بحقوقك، تمسك بانتمائك لهذه الأرض، تمسك بقضيتك العادلة فلا يضيع حق وراءه مطالب، نحن منتصرون في النهاية، نحن منتصرون في نهاية الطريق ولا بد للشعب الفلسطيني أن ينعم بالحرية التي يستحقها والتي ناضل وكافح في سبيلها والتي من أجلها قدم التضحيات الجسام.

## قضية العدد:

**نهضة الأمة وعصرنة الرؤية في إحياء وتجديد الفكر القومي العربي**

# إحياء وعصرنة الفكر القومي العربي

أ.د. حسان حلاق
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة بيروت العربية
hassanhallak06@hotmail.com

مرّ الفكر القومي العربي بأزمات حادة لا سيما بعد وفاة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر الذي استطاع أن يوحد الأمة العربية فكراً وعملاً ومشاعر سواء بالنسبة للقضية الفلسطينية، أو بالنسبة للموقف المعادي من جميع دول الاستعمار الغربي والكيان الصهيوني، بالإضافة إلى توحيد الفكر القومي العربي من الثروات العربية وفي مقدمتها النفط والمياه كثروات استراتيجية، فضلاً عن باقي الثروات الاقتصادية المهمة في العالم العربي. ولا بد من التأكيد بأن الفكر القومي العربي الناصري استطاع أن يوحد النواحي الاجتماعية والتربوية والسياسية والثقافية، مع الاعتراف أن بعض المعارضين للفكر القومي العربي أنظمة وحكومات قد حاربوا هذا الفكر القومي العربي بسبب ارتباطاتهم مع الولايات المتحدة الأميركية والدول الغربية الأوروبية، ومع المعادين للنهضة العربية الشاملة.

ومن الأهمية بمكان القول، بأن دول الاستعمار متعاونة مع بعض الأنظمة العربية حاربت فكرة الوحدة العربية سواء الوحدة السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية، لأن أية وحدة لدى الشعوب العربية ستشكل خطراً على الكيان الصهيوني وعلى دول الاستعمار، لهذا شهد العالم العربي – وما يزال – جملة من المؤامرات في السنوات الممتدة بين أعوام (1952 – 1970) وفي السنوات (1970–1990) وفي السنوات (2003–2018) بهدف تمزيق

وتقسيم وتفتيت وتجزئة الأمة العربية انطلاقاً من تفتيت الفكر القومي العربي الذي كان يشكل الضمانة الرئيسية لوحدة وتماسك الشعوب العربية.

لقد كان ما اتفق على تسميته باسم الربيع العربي، والفوضى الخلاّقة عاملاً أساسياً لتجزئة الأمة العربية وتفتيتها والقضاء على مقوماتها السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وكان ذلك الربيع العربي!!! تحت حجج واهية في مقدمتها الإصلاح والتحديث، فإذا بالأمة العربية تتراجع في مختلف الميادين والمجالات، وقد تم التمهيد لذلك بالغزو الأميركي للعراق عام 2003، ومن ثم إعدام الرئيس صدام حسين، واغتيال الرئيس الشهيد رفيق الحريري، الأمر الذي أدى إلى تحويل الفكر القومي العربي إلى فكر طائفي ومذهبي ومناطقي، وهذا الفكر هو المسؤول مباشرة عن عمليات التجزئة والتقسيم والانحطاط في الدول العربية التي تعاني من هذه الأمراض الطائفية والمذهبية، ومن التطرف والإرهاب، ومن بين هذه الدول على سبيل المثال لا الحصر: لبنان، سوريا، العراق، اليمن، البحرين، مصر، وسواها من دول عربية وإسلامية.

واللافت للنظر، فكما أن الطائفية والمذهبية أمراض خبيثة أثرت سلباً في النهضة العربية وفي الفكر القومي العربي، كذلك، فإن الإرهاب والتطرف الديني والمذهبي والسياسي، يعتبر بدوره آفة من آفات العالم العربي، وتلك الأمراض والآفات قامت بدور بارز في تراجع الفكر القومي العربي، وفي انهيار مقومات الأمة العربية السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولم يعد اليوم – للأسف – من عامل مهم يوحد الأمة العربية سوى اللغة العربية الفصحى، التي بدورها تتعرض لأخطار اللهجات المحكية والعامية المدونة على مواقع التواصل الاجتماعي، واستخدام الحروف اللاتينية عوضاً عن الحروف العربية.

إزاء هذه المخاطر وسواها التي تعصف بالأمة العربية، وبالفكر القومي العربي، كيف يمكن أن نقوم بعملية عصرنة الفكر القومي العربي بل إحياء الفكر القومي العربي، وكيف يمكن أن يكون تلبية لمتطلبات المرحلة الراهنة والمستقبلية في العالم العربي؟

أرى أنه لا بد من اعتماد آليات لإنقاذ الفكر القومي العربي، وعصرنته ضمن الضوابط الثقافية والاستراتيجية العربية والقومية، منها على سبيل المثال:

ضرورة تأسيس منتدى للمفكرين العرب غير المرتبطين بأنظمة سياسية عربية أو أجنبية عبر مواقع التواصل الاجتماعي بأنواعها كافة، كي تصل أفكار المفكرين القوميين العرب بسرعة مذهلة، وتنتشر انتشاراً سريعاً وواسعاً لدى جميع الشعوب العربية، بهدف وضع ميثاق عربي يتضمن الأطر والآراء والأفكار التي تعيد إلى العالم العربي وجهه المضيء والمشرق من خلال فكر قومي عربي يأخذ بعين الاعتبار وجهات نظر الشعوب العربية لا الأنظمة العربية، ويكون هذا الميثاق العربي انعكاسا لآلام وآمال الشعوب العربية في الحرية والعدالة

والمساواة، وفي رغبتها بالحصول على التعليم والصحة والاستشفاء والغذاء، وفي رغبة هذه الشعوب بالقضاء على التخلف والفساد والتطرف والغلو المستشري في الأنظمة العربية، وبين رجال الحكم والسلطة والمال.

ولا بد للثقافة والتنشئة الوطنية في كل دولة عربية، وفي كل مدرسة وجامعة عربية من أن تأخذ دورها الريادي من أجل فكر قومي عربي معاصر يلبي احتياجات الأمة العربية في الوحدة والحرية والعدالة، وفي حق استعادة فلسطين العروبة إلى الشعب العربي الفلسطيني.

ولابد من القضاء على الثقافة الصهيونية والمتصهينة، والقضاء على الثقافة المتأمركة والمتأوربة، ولابد من القضاء على الفكر المستغرب المرتهن للقوى الإقليمية والدولية بعيداً عن مصلحة ونهوض الأمة العربية.

إن عقد مؤتمر قمة عربي للمفكرين العرب بعيداً عن أنظمة الحكم العربية، من أجل عصرنة الفكر القومي العربي مسألة جديرة بالدرس والتفعيل والتنفيذ. والحقيقة، فإن إحياء الفكر القومي العربي وعصرنته هو الضمانة الأكيدة في محاربة الطائفية والمذهبية والمناطقية، وفي محاربة الإرهاب والتطرف، وإرساء ثقافة الاعتدال والوسطية العربية، بالإضافة إلى إعادة التمسك بالهوية العربية، وبالثقافة العربية التي توحد شعوب الأمة العربية من جديد.

## 2) نحو تجديد الفكر القومي وعصرنة الرؤية في الدولة والأمة والعولمة
## العرب أمة قاتلت وقاومت ودنا عصر نهوضها...فهل تنهض؟؟

بقلم الدكتور: ميخائيل عوض
كاتب وباحث في علوم المستقبل
yaragroup@hotmail.com
بيروت 2018-11-13

**مقدمة:**

في رواية الحياة البشرية، وتطورها لبلوغها ما هي عليه اليوم، ورغمَ اتساع واختلاف الجغرافيا، وتنوع المناخ، وتباين قيم الشعوب ولغاتها وخاصياتها المميزة، وأسباب ودوافع تشكل الوحدات الاجتماعية وبعضها نشأ وارتقى بلا تواصل مع أخريات، إلا أنها تقدم نمطاً متقارباً، وتكاد تكون مساراتها منسجمة ومتكاملة حيث لا خلافات جوهرية بين قارة وأخرى وجغرافيا وأخرى مختلفة عنها...

فالمؤمنون، وأتباع الأديان السماوية، يحق لهم القول؛ إنها مشيئة الخالق في خلقه، وإرداته، تتجسد كما في القطب الجنوبي كذلك في الشمالي وما بينهما، من غرب وشرق وعمق ووسط...

والطبيعيون، والماديون، والمتشككون، كما الباحثون في العلوم والساعون لعلوم الإنسان ومحاولات معرفة واكتشاف خاصياته وكيانه المميز، يرون في الإنسان، ككائن حي مكتمل ومميز عن سواه، بصفته جوهر وهدف الوجود، عناصرَ وصفاتٍ وخواصَّ تجعل ممارسته للحياة بأشكالها وأنماطها المختلفة قابضاً على آليات التطور فتبدو وتتبدى تجاربه ومنتجاته متساوقه في نمط مشترك أين كان وحل بما في ذلك أشكال وأنماط تشكل الجماعات والهويات، ولو فصلت بينها الأزمنة والمسافات...

ومن كل المشارب، يتفق الباحثون، والمؤرخون، والجيولوجيون، والبيولجيون، والجيوبوليتيكون، والأنثروبيولجيون وأمثالهم على أنماط لما تشكلت عليه الجماعات في أزمنتها وارتقت لتستقر اليوم على ثلاثة نماذج كبرى، لا تختصر نماذج متنوعة في بواطنها:

## أولاً: أمم عريقة:

تشكلت بهدوء وتراكم، وعبر أزمنة مديدة وبشروط وظروف تبدلت وانقلبت وتغيرت أحوالها، فامتلكت عناصر قوتها وخاصياتها واستغرقت أزمنتها فتميزت عن غيرها من الأمم والجماعات البشرية ومثالها الأمم الأوروبية التي نضجت عناصرها واكتملت شروطها وأسباب تشكلها في إتمامها وإنجازها لوحداتها القومية "دولتها الوطنية" وترسخت واستقرت في دولة الأمة، وبعد أن تحررت كل أمه على حدةٍ، وتوحدت، وأكملت هويتها ارتقت إلى السعي لتشكيل اتحادات ما فوق قومية وأممية...

وعلى نموذجها وربما يفيض عنها لجهة أسباب التشكل، وعناصرها، وآليات التطور، وامتلاك مواصفات وشروط الأمة توفرت لسواها ولم تتمكن... ونموذجها القاطع الأمة العربية كاملة المواصفات وشروطِ التشكل ومالكة لكل العناصر المميزة وخاصياتها، وإلى حد يقاربها الأمة الإيرانية والقومية الكردية وأخريات، وحرمت من أن تتحول إلى قوة نموذج كما صار مع أوروبا خلال القرون التي أعقبت حروبها الدينية التدميرية، والإفنائية، فاهتدت إلى العلمنة "**فصل الدين عن الدولة، والكف عن تشغيل الآلهة في خدمة البشر**" وتشكيل الوحدات القومية، بديلاً عن الوحدات القاصرة الجزئية المحتجزة عند تحقيق مصالح الفئة المالكة والحاكمة" الإقطاعية والنظم البطريركية، والقبلية والعشائرية – والهويات ما قبل الصناعة "فشكلت معاهدة وستنفالية، نقطة التحول والارتكاز التي أعلت من شأن القومية فالأمة، فدولة الأمة، وحقوق المواطنة والمساواة، والحريات الشخصية، وأطلقت مفاهيمها وتوصيفاتها، وقالت في أسباب نشوء القوميات والأمم وعناصرها الواجب توفرها...

بيد أن النموذج الأوروبي السائد، والمقلد، تجاهل وجود حقائق مادية، وعناصر لتشكل وحدات اجتماعية قومية وتتخذ صفة الأمم الكاملة المواصفات، ولو لم تحقق هويتها وشخصيتها ومكانتها في دولتها "دولة الأمة" ولم تحقق نفسها لأسباب مردّها تخلفها وتخلف نخبها وتبعيتها أو لأسباب مردها دوافع وحروب الهيمنة والتقسيم والاستعمار التي مارستها الأمم الأوروبية فيما بينها وإزاء الشعوب والأمم لحرمانها من الكمال في سياق التطور التاريخي وبلوغها حقبة الأمة المكتملة بدولتها الوطنية...

**ثانيا: أمم تجري محاولة تصنيعها، وتنعطب لأسباب تاريخية وعملانية.**

**أمثلتها ثلاث:**

1 . **الولايات المتحدة الأمريكية**، التي تشكلت بفعل فاعل، وبإرادةٍ مسبقة التصميم، وبما يحقق مصالح الشركات "الأوروبية (الملوك والأمراء والأباطرة) أولاً، ثم تحولت لتعبر عن مصالح الرأسمالية في طورها العولمي" وعلى نموذجها، فاتخذت صفة النظام "السيستم" وجاء دستورها وقوانينها الناظمة وثقافتها، ومنتجاتها، وجل آليات وحدتها وأنماط حياتها، على شاكلة الشركة المساهمة المتجمعة من شركات محدودة المسؤولية أو التضامنية فتتعايش الجماعة الكبرى على قيم المصالح والمنافع، وتركض خلف الفرص "أرض الذهب – الأرض الموعودة" فتنشأ دولة على حساب أصحاب الأرض، وتقوم على إبادتهم، واستقدام "العبيد" الأفارقة ببواخر المواشي وتقتل منهم الملايين إضافة إلى إبادة ملايين من الهنود المواطنين الأصلين كان تعدادهم آنذاك يساوي ويفيض عن 20% من عدد سكان الكرة الأرضية...

إن فهم آليات محاولات تصنيع الأمة الأمريكية، بالقوة القهرية، وبالإبادة، وبفرض مصالح القوى والشركات النافذة، وبالقوة القسرية، يفسر لنا كيف أن الولايات المتحدة الأمريكية تشكلت جماعة متوحشة في علاقاتها بين مكوناتها، وفي قيمها، وعلومها، وفي علاقتها بالشعوب والأمم والقارات الأخرى ومازالت، فمن شب على شيء شاب عليه، ومن عاش على قتل الآخرين لا يستمرّ إلا بالقتل والإبادة، "وحروب أمريكا ومشروعها قرنٌ أمريكي يقوم على إبادة الأمم بذريعة بنائها وتحضيرها"، إيمانويل فاليرشتاين.

وقصدها أن تبني الأمم على شاكلتها وقيمها وبما يخدم مصالح الشركات المتعددة الجنسية "بما في ذلك فلسفتها لنهاية التاريخ، وحروب الحضارات، وسعيها لتفتيت الشعوب والأمم والأقوام وإعادة نظمها على طبائعها كجماعات متعايشة في خدمة الرأسمال وعجلته في الإنتاج والتسويق" فتحاول قسر الأزمنة وتطويع التاريخ والواقع في خدمة ديمومتها كنموذج، "فتحول العالمية التي هي مسار إنساني متقاطر الحلقات إلى عولمة بمعنى الأمركة المتوحشة والمتعجرفة"..

2 . الكيان الصهيوني: وكل المعطيات، والوقائع، والأبحاث، والدراسات، تفيد بأنها محاولة قسرية لبناء دولة صنيعة وتمكينها من أمة "دولة دينية بعد أن كانت استيطانية احتلالية ويتهددها الفشل والانهيار" بالقوة القهرية، وبالاغتصاب والإبادة، والتطويع، وبوظيفة لخدمة مصالح الغرب وشركاته، وبقائه مهمينه – البقاء المشروط بإعاقة اكتمال تشكل العرب في دولتهم الوطنية كدولة الأمة العريقة والكاملة المواصفات التي إن نهضت تَغيّرَ العالم وانقلبت التوازنات والقيم وعناصر القوة رأساً على عقب كدأبها في التواريخ المنصرمة، وحيث تسنى

لها أن تكون فيكون الإقليم وأممه، وتصير الإمبراطوريات والأديان والعلوم الإنسانية والقيم والأخلاق على العكس تماما مما أنتجته الأمم المصنّعةُ. فأمريكا وإسرائيل تقدمتا في العلوم التقنية والصناعية، والإنتاجية وثوراتها وتخلفت وتتخلف في العلوم الإنسانية والقيمية وفي نظم الحياة البشرية وقواعدها وحدودها وحقوقها، والأصل منها قيمة الإنسان الفرد "غاية الوجود وسر الحياة" وحقوقه وتلبية حاجاته المادية والروحية...

3 . الأقطار العربية: وفيها لا يختلف مؤرخ، أو باحث أو عاقل، ولا تخطئها أبدا الوثائق والمعطيات التاريخية والوقائع الجارية، من أنها محاولات قسرية وقهرية، لتجزئة الجغرافيا، وفصل عرى وحدة الجماعة البشرية المنتمية إلى زمن وقيم وعلاقات وأصول ثابتة كانت بين الأسباب الجوهرية لتشكل القوميات والأمم ما قبل وحدتها وامتلاكها لدولتها الوطنية... وقد ابتلتها القوى الاستعمارية بثلاثيتها المدمرة: سايكس بيكو– وعد بلفور– والتبني البريطاني للأسرتين الوهابية والسعودية....

وتجري المحاولات المحمومة، لتفصيل وابتداع وتصنيع أمم، في أقطار، قاصرة، وعاجزة، أجيرة، ليس ثمة شروط أبداً لتمكنها وتحولها إلى أمم أو أقوام قادرة، وقد حسم الزمن مساراتها، وبسبب افتقاد أقطار سايكس بيكو، وملاحقه لأي مبررات أو شروط أو إمكانات أو قوى حماية وإسناد، وبصفتها وحدات قسرية قهرية فقد انفجرت النظم والجغرافيا وأزيلت الحدود بقوة الحاجات التاريخية، وبدأ إنهاء سايكس بيكو وجغرافيته ودساتيره من ذات القوى التي ولدتها وجاء تدخل دول وإمارات الخليج السافر والمباشر في التمويل، والتسليح والإعداد، وفي العناصر والجيوش والطائرات و"الخبراء" في البحرين أولاً، وبأداة درع الجزيرة، ثم في ليبيا، وبعدها في سورية وقبلها في العراق وفي اليمن، فضلا عن الدور المتكامل مع الكيان الصهيوني والعدوانية الأمريكية الأوروبية وجيوشها وقواعدها وخبرائها... وإن ذات القوة التي أنشأت دويلات صنيعة وظيفية، وحاولت أن تجعل منها أمماً وقوميات مصنعة قد اضطرت لكسرها ومجاوزة الحدود والدساتير بالقوة القهرية، فأسقطت دساتيرها ونظمها... والحال أن الجغرافيا قد انفجرت على نفسها ولم يعد ثمة قدرة على استعادة ما كان، فالماضي لا يعود والميت لا يقوم، والجديد يتولد في المخاضات ومن رحم المعاناة...

هذه هي الحقيقة الجارية اليوم، فلا التجديد لحدود وجغرافيا ونظم سايكس بيكو ممكن، ولا إعادة تعويمه تتوفر لها القوة والأسباب والمصالح الحافزة، ولا إشاعة الفوضى الهدامة" الخلاقة" باتت ممكنة، كما اندثرت في مشرق العرب مؤامرة تقسيم المقسم، وتفتيت المفتت، ليصير وليسود منطق الأزمنة وحقائق الجغرافيا والتاريخ ويستأنف مساراته لفرض البدائل غير الممكن حدوثها إلا بتكبير الجغرافيا وتغيير جدي في نظم العرب وفي الإقليم كما هو جار في العالم. لقد شهد العالم تغييرات جوهرية انقلابية في النظام العالمي بفعل مقاومة العرب التي صارت

عصية على الكسر بدلالة مصير رئيس وزراء الكيان الصهيوني في حرب تموز "أولمرت" وكما يجمع المؤرخون الصهاينة الجدد" وكما أفادات الوقائع المعاشة والجارية والتي تقطع بتأكيد عجز إسرائيل في غزة وفي لبنان وبعد مرحلة ال "**اس 300** " في سورية. في الخلاصة، لقد انقلبت التوازنات وعناصر القوة...

**ثالثاً: الدول الأمم المتعددة الأقوام والإثنيات:** وأمثلتها المعاشة؛ الصين– الهند– دول جنوب شرق آسيا، روسيا، ومن قبلها الإمبراطوريات العربية والإسلامية من الأموية إلى العباسية وآخرها العثمانية، وتلك وهذه دول شهد لها التاريخ بعظمتها وبما أنتجته للبشرية من علوم وأديان وقيم واحترام للإنسان ومكانته، وما زالت تنتج جديدها وبدأت تتحول كفة التاريخ لصالحها مرة ثانية هازمةً أوروبا التي نشأت على القتل والتدمير وولدت أمريكا وأخواتها وحاولت رأسماليتها الهمجية والمتوحشة أن تبني أمماً قاصرة وظيفية وتصنيعها على قياس مصالحها، لكن التاريخ والجغرافيا والقيم الإنسانية وحاجات الإنسان تنفي إمكانيتها وتضعها أمام حتفها المؤكد وبالمدى الزمني غير البعيد ...

وتلك الإمبراطوريات وهذه الدول القائمة والمتحولة بقوة حقائق ومسارات الأزمنة والحاجات وبدفع من العوامل الثابتة في تشكيل الأمم والحضارات، تتقدم بتؤدة وتنتظم في بنيتها جماعاتٍ وأدياناً، وقوميات، وجغرافيا، وثقافات، على درجة عالية من التباين والاختلافات ومع كل ذلك تتحد، وهي مستقرة، وتعود مسيرتها قاطرة للشعوب والقارات والأمم، ولم تفتتها الإثنيات، والتشكيلات الاجتماعية ما قبل الصناعية والتقانية، ولا أفلحت محاولات الغرب الاستعمارية لتقسيمها وإعادة تصنيعها أمماً ودولاً وظيفية...

كل هذا في واقع معاش، ومؤكد بأدلته التي لا تعد ولا تحصى وبما يطابق عملياً وتطورياً منطق ورواية الحياة البشرية على الكوكب....

**عودٌ إلى بدء: ما العناصر والأسباب والشروط المكونة للأمة العريقة:**

**في تعريف الهوية:** الهوية لغوياً مشتقة من كلمة هو، وهو برغم تماثله مع الآخر، إلا أن له خاصيات وصفات مميزة، لا تتوفر في الآخر." نقصد الآخر المولود، وليس المستنسخ...".

يكتسب الفرد هويته الخاصة، من تمايزه عن الآخر، كل آخر، وتصير الهوية الجمعية تفاعلاً" وليس اجتماعاً عشوائياً أو اصطفافاً للهويات الفردية بصورة آلية أو تراكمية أو عبر هندسة حسابية" للهويات الفردية فتتحد في هوية جمعية، تميز الجماعة الإنسانية عن الجماعات الأخرى..." البعض يرجح أنها متعارضة ومتصادمة، والواقع والعلوم الإنسانية تؤكد تفاعل الجماعات الخلاق والإبداعي لإنتاج الحاجات المتماثلة والمشتركة..."

فالتفاعل الخلاق بين الأفراد، هو تعبير عن بنية ونمط، وفطرة، فالإنسان الفرد مفطور أن يكون في جماعةٍ ينتمي إليها، وتنتظم شروط حياته وتؤمن قدرته على العيش وتلبي حاجاته في

انخراطه بالجماعة، والجماعية شرط وميزة للإنسان تفرقه عن الجماعات الأخرى غير البشرية، برغم أنها ايضا تعمل كجماعة منتظمة لتعيش وتوفر حاجاتها وأسباب ديمومتها...

الإنسان الفرد بطبيعته اجتماعي متفاعل، ولاستمرار حياته يصير منخرطاً في الجماعة لتأمين شروط حياته المادية، وبقائه، وتطوره، وتختصر العناصر المتسببة بتشكيل الجماعات وارتقائها منذ بدء الخليقة على النحو الآتي:

- الأفراد المجتمعون في جغرافيا واحدة متحدون في مواجهة شرور الطبيعة وبطش الحيوانات ولتأمين حاجاتهم، فبلا جغرافيا لا يمكن بقاؤهم وتفاعلهم- لهذا تعتبر الجغرافيا شرطاً أولياً حاكماً في تشكل الجماعات واكتساب الهوية الجمعية.
- والأفراد الذين يعيشون في جغرافيا واحدة متصلة تتوفر فيها الأسباب المادية لتأمين الحاجات، تخاطبوا" بإلهام إلهي- أو بقوة الحاجة- وتطور العقل وآليات التفكير والذاكرة والنتاجات الذهنية" وصاغوا لساناً واحداً وطرائق للتفاهم والتفاعل"، الأصوات والإشارات، ثم الحفر على الصخر، ثم امتلاك الأدوات، ثم الألسنية، فاللغات" فاللغة أصل في تشكل وتطور الجماعات البشرية وارتقائها.
- فالأفراد في جغرافيا واحدة، لهم لغة حافظة لذاكرتهم ولخلاصة تجاربهم، ارتقوا وصاروا قادرين على إنتاج حاجاتهم الروحية" التي تجسدت في العبادات، والطقوس، وقد دلهم وعيهم ومعرفتهم آنذاك على التعبد للطبيعة وظواهرها القاسية وابتداع الآلهة المتعددة كآلهة الخصب والجمال والغضب، ثم الأنبياء والرسل والرسالات من السماء" وهكذا اكتسبت مسألة الآلهة والقيم والعبادات دوراً محورياً في تشكل وعي الجماعة وعيشها وانتظامها كشرط لازم...
- وهم ذاتهم، ولهم تلك العناصر الجامعة، تعرضوا لعسف الطبيعة، ولعدوان الجماعات الأخرى التي تقدمتهم إنتاجا، ووعيا وتلبية لحاجاتها المادية والروحية، فقاوموها متحدين ومتفاعلين، غلبوها أو غلبتهم أو اضطروها أو اضطرتهم للتمثل في جماعة اكتسبت صفات الجماعات السابقة عليها، أو شكلوا وحدة متشاركة ومختطلة بينها، فصار لهم تاريخ مشترك، وعادات، وقيم، وعبادات وأنماط حياة، وثقافة " بنية حقوقية"... وهكذا كان للتاريخ المشترك والقيم والبنية الحقوقية الفوقية دور محوري في تشكل الجماعات وارتقائها وتطورها...
- والأصل، والدم، واللون، والعرق أيضاً كلها أسباب في تشكل الجماعة وتطورها وارتقائها، فالأفراد الأوائل كانوا في بيئة محدودة ووسائلهم قاصرة عن التفاعل بالاختلاط مع الجماعات الأخرى، والتطعيم، ولهذا سادت فكرة أن الدم، والعرق واللون من مميزات الجماعات ومن خاصيتها وأساس في تشكلها وهذا ليس ببعيد عن الواقع الذي كان وعاشته الجماعات البشرية الأولى...

على ما تقدم يمكن الجزم، أن ما قالته النظريات والأفكار في أسباب وأصول وشروط تشكل الجماعات الكبرى التي اتخذت صفة القوم ومن ثم تمثلت في أمم، لم تأت من فراغ ولا هي مجرد وصفات ذهنية لمعالجة وقائع وتحقيق مصالح للغلبة بل لها في الواقع أصل جوهري...

بيد أن الإنسان، وهو يحقق حاجاته المادية والروحية، ويتفاعل مع الآخر "حبياً، تمثلياً، أو حربياً وإخضاعياً وبالقسر.." لم يقف على زمن بعينه وتحجر عنده، ولا تمترس خلف منسوب واحد من الحضارة والكمال. لقد تشكلت الحياة البشرية وأنماطها ووحداتها الاجتماعية والجغرافية، وتطورت مع كل حقبة لتكون الحقبة الأولى نقطة استناد وسببا للثانية وهكذا للثالثة حتى بلغت الإنسانية ما نحن عليه...

وما نحن عليه، وبعد آلاف السنين، أو مئات منها والبعض يقول بالملايين منذ بدء الخليقة، تطور الإنسان، في عقله، وفي ذهنه ومعالجاته، ومخزونه، وفي إنتاجه للسلع والحاجات المادية، وارتقى بحاجته الروحية، وطور من أدواته وطرائق عيشه، وأنماطها، ووسائطها، وغيّر في عناصر الطبيعة وسخرها، وفي العلاقات بين البشر والجماعات، وظل يتغير ويغير معه كل محيطه، وقيمه، وحاجاته، بما في ذلك ما يطال الأسباب والشروط الأولى والأولية لتشكل الجماعات وارتقائها. والمنطقي القول أن ما كان سبباً محورياً في زمن وجغرافية، ربما تراجع وأصبح سبباً ثانوياً أو شاهداً، أو بصمة، أو كان عنصراً مؤسساً، فتقدمت أسباب كثيرة لتحتل مرتبة الصدارة والأولوية وباتت الأكثر حسماً وفاعلية... غير أن عوامل محورية لم ولن تتغير مهما تغيرت الحياة البشرية وشروطها وطرائقها ووسائطها وإبداعاتها. وهي تكمن في التالي:

- الطبيعة البشرية والفطرة التي فطر عليها الإنسان بصفته كائناً اجتماعياً لا يقوى على الحياة إلا بالتفاعل والتشارك في إنتاج حاجاته المادية والروحية – ويصير التغيّر في الوسائط والوسائل والأدوات وليس في الأصل والفطرة والحاجات...
- الحاجة المادية بما هي إنتاج شروط بقاء الإنسان، أي ما يسمى اليوم بالعلاقات الإقتصادية، بتنوعها، وباختلاف تطوراتها وتشكيلاتها، فهذه كانت وتستمر العامل الحاسم في كون الإنسان اجتماعيا وينتمي لجماعة، ما دامت الحياة على وجه البسيطة، والمتغير فيها؛ هو آليات تحققها، ومستواها، وأنماطها، وسلعها وقواعد إنتاجها وتوفرها وتوزيعها...

**في المتغيرات الجوهرية، وجديد أسباب تشكل الهويات:**

1. العالم اليوم مختلف جوهرياً عمَّا كانه قبل نحو عقدين أو ثلاثة، وتطورت البشرية، ووسائطها، وقدراتها، وإبداعاتها ودور الرغبوية والإردادوية في اختيار وتقرير الهوية والإنتماء على نحو ثوري". فإنسان اليوم وعلاقته بالحياة، وبشخصه ورغباته وقدرته على تحقيقها يختلف

نوعياً عما كانه في تواريخ سابقة، "فقد شهدت السنوات الخمسون المنصرمة، تطورات وإبداعات هائلة وتكثفت فيها الاختراعات والاكتشافات وتغيرت الحاجات المادية والروحية وآليات وطرائق وشروط ووسائط التفاعل بين البشر أفراداً وجماعات على نحو لم تشهده البشرية في عمرها المقدر بمئات آلآف السنين أو بملايينها وهذه تخلق أسبابا وشروطاً مختلفة جوهرياً عن التي كانت بين عناصر امتلاك الهوية وتشكلها، وتشكل الجماعات البشرية". وبينما كانت الطبيعة تفرض نفسها وقيمها كشرط لازم لاكتساب الهوية فقد صارت اليوم الإرادة والرغبة الحرة حاضرتين كشرط من شروط الهوية".

- فالزمن أصبح زمن السرعة، والسرعة هي قول الفصل والحسم في الفناء أو البقاء وفي الارتقاء..
- والجغرافيا أصبحت رقعة بحجم قبضة اليد، وتحت العدسات الكاشفة "القرية الكونية".. ولا أثر يذكر للانقطاعات الجغرافية والطبوغرافية والمناخ في تعطيل التفاعل والانفعالات الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية بين الأفراد والجماعات...

– والجيو تواصلية، لجهة شبكات المصالح وعبورها من تحت وفوق الحدود الجغرافية والحدود الدولتية، أصبحت القوة المؤسسة والفاعلة للهويات الجديدة، ولآليات وأسباب انتظام الحياة البشرية وتشكلها وحاجاتها وطرائقها ولم تعد الأسباب هي ذاتها كالجغرافية المتصلة، واللغة، والعادات والتقاليد والأديان والعبادات...

– والثورة التواصلية ووسائطها، وصلت بالإنسانية إلى ما يسمى اليوم الجيل الرابع للثورة التقنية البشرية وأصبحت الحياة الإنسانية في حقبة التاريخ المفرط، والأنفوسفير، أي باتت البشرية في عصر الذكاء الصناعي، والاندماج بين العالمين الواقعي والافتراضي ولم تعد للعناصر التي كانت سبباً محورياً ذات القيمة والأثر في تشكل الجماعات وامتلاك الهويات..

– وقد حقق البشر، في وعيهم ومعارفهم ووسائطهم التواصلية والتفاعلية، وإنتاجهم لحاجاتهم المادية، حقيقة أن المستقبل أصبح ممكن الإدراك، وأنه هو ما نصنعه اليوم لا ما نتوقعه ذهنياً، وصار للإرادة العاقلة وللرغبة وللجهود الواعية لتحقيق المصلحة "المادية والروحية" دور محوري في تقرير الانتماءات، وامتلاك الهوية، فتراجعت العناصر السابقة لها وإن لم تفقد أثرها وقيمتها.

– وابتدع الإنسان لغات جامعة، وجديدة "لغات الكمبيوتر" وانتفت موجبات "الترجمة... ومهنتها إلى انقراض" وحلت الوسائط المادية والافتراضية غير الحسية "السحابة، والإنترنت، والهاتف الذكي وبرمجياته... كحافظ وكذاكرة للأمم والشعوب بدل ما كانته اللغة..." أو ما كانت عليه النقوش، والكتابات على الصخور، وورق البردى والجلود وصناعة الورق والطباعة...".

– وأصبحت شروط الحياة وتلبية الحاجات أكثر يسراً، وأقل تكلفة للجهد، وصار المنزل وحدة متكاملة يتأمن للإنسان فيه حاجته عبر اتصاله بالشبكات والبيع والشراء عبر الإنترنت، حتى التفاعل المباشر والواقعي، تاليا، بين البشر لم يعد ضرورة حياتيه حاسمة...

في نموذج عياني واقعي يدلّ على ما ذُكر وتكرسه قواعد حياة وتفكير، تتلخص حقيقة تعريف الاجتماع البشري والمجتمعات في المقولة التالية: **إننا نعيش معاً لأننا نؤمن بمستقبل واحد**... والجديد فيها أن الناس كانت تعيش معاً لأنها مضطرة وليس لها من سبيل، بينما ما بلغته البشرية وفر أسبابا، ليصير الإنسان أكثر تحرراً من قواعد وضوابط الطبيعة وعناصرها في تقرير عيشه ومكانه، فصارت الإرادة والرغبة والنظرة إلى المستقبل وتأمينه هي الحافز الحاسم في امتلاك الهوية. وبوعي وبدافع المصلحة والمستقبل، "نرى في بيتنا أن بعض الأخوة أو الأبناء، لأنهم لم يؤمنوا بأن مستقبلهم معنا، سافروا وحازوا على جنسيات وهويات أخرى وتغربوا...".

**في تناقض ما بلغته الإنسانية في واقع ما تعيشه، ومولدات الحروب والهويات الجديدة، والهويات التي يتوجب تحقيقها:**

رغمَ كل ما تقدم في توصيف جديد الحياة البشرية وقيمها وعلاقاتها والمتغيرات الجوهرية في أسباب وعناصر تشكل الجماعات الإنسانية وتحولاتها، إلا أن البشر يبقون بشراً. وكل تطور علمي في الوسائط والسلع، وما تسوقه وتحققه من قيم وثقافات تُعتبر عناصر مادية أنتجها الإنسان لخيره وتيسير حياته، وحاجاته، أو لتعظيم ثروته وسطوته، يبقى الانتماء بما هو حاجة إنسانية قابضة على روح البشر لم يجر نسفها بعد وتستمر بأثر نوعي برغم كل التطورات الجارية في كل اتجاه...

وكأن الإنسانية تعيش حالة انفصامية، فبينما الإنسان الفرد يلوذ بالسفر واكتساب هويات وجنسيات أخرى، تجده يشتد حنينه للجماعة الأصل، وللأرض والجغرافيا والمناخ والعناصر البدائية المشكلة للهويات...ويصير حنينه للجماعة الأصل أكثر نصاعة حين يقيم في الجماعات والدول والأمم التي تشكلت واكتسبت صفات ما فوق القومية وبلغت مرحلة الأممية بل تفردت في محاولات فرض قيمها وأنماطها على الكرة الأرضية، وقد نجحت في الكثير من العناصر لا سيما "تعميم وتسويق الليبرالية الفردية والاقتصادية" فحالة الفصام، أكثر ما تتجسد اليوم واقعاً، في أمريكا نفسها، وفي الاتحاد الأوروبي...

"دود الخل منه وفيه – وداوِها بالتي كانت هي الداء" فالرأسمالية تخلق حفاري قبورها بيدها، وبإرداتها....

تلك مقاولات تتجلى اليوم في واقعنا، إذ أنشأتها أمريكا، وطبعتها بطبائعها وأطلقت حقبة

العلمانية والقومية التي صار يتهددها صعود اليمين المتطرف والعقائدي وتسييس الدين، والنزعات العنصرية، وصارت تهدد الاتحاد الأوروبي بالانفراط وانفجار الوحدات الوطنية ذاتها وصعود الحركات الفاشية، مستفزة الأمم والأقوام والجماعات التي ألحقتها قسراً ولم تسهم في تمثلها طوعاً...

والوليد غير الشرعي لأوروبا ورأسماليتها الهمجية المسماة ولايات متحدة أمريكية تنقلب على قيمها، وتنتج رئيسا، وإدارة تجعل من مهمة تدمير العولمة "أمركة العالم" والانغلاق القومي، وتصعيد التناقضات العنصرية وتفجير التشققات العَمودية في المجتمع الأمريكي نفسه، مهمتها اليومية والمستقبلية... ويخرج ترامب مفاخراً مرددا: أنا قومي أمريكي وأفتخر، ويرفع شعارات الأمة وأمريكا أولاً، والانغلاق، وينسحب من التشكيلات ما فوق القومية، ويغير أحوالها، ويفرض حروباً اقتصادية عالمية ويهدد البنيان برمته تحت نزعة الهوية القومية وأحقية البيض الأنكلو ساكسون...

إنه غدر التاريخ وثأريته التي لم تقوَ كل الاختراعات والإبداعات والتقدم التقاني والعلمي على قتل نزعته الثارية...

هكذا تعود المسألة القومية ومسائل الأمة والتشكيلات الجمعية، والجماعات وهوياتها مؤسساً قابضاً على الحياة البشرية، لتعيد صياغتها برغم كل ما تحقق للبشرية من رقي وعصرنة واختراعات ثورية..

**العرب أمة كاملة ينقصها الكمال بوحدتها وبدولتها القومية وقد دنت فرصتها:**

الشواهد التاريخية والوقائع الجارية، تشهد أن العرب أمة كاملة المواصفات. وبحسب كل رأي من التصنيفات العتيقة، والمستجدة في ضبط وتحديد العناصر التي قيل إنها أسباب في تشكل القوميات والأمم، فإن الأمة العربية ينقصها فقط أن تقيم دولتها الوطنية، دولة الأمة. لقد قدم المؤشر العربي ثلاثة إصدارات حقائق حاكمة في استطلاعاته ولم تنقص عن 76% نسبةُ من قالوا إنهم ينتمون إلى الأمة العربية في طول البلاد وعرضها، وعلى الرغم مما تعيشه المنطقة العربية من حروب ومحاولات تصنيع هويات، واستحضار الهويات ما قبل التاريخ، فاللغة العربية ثاني لغة عالمية وسادس لغات العالم المحكية، وللعرب إله واحدة وكتب واحدة، وجغرافية واحدة ومتكاملة لم ينقطع تواصل بشرها قط، وتاريخ وثقافة وعادات وتقاليد وقيم مشتركة، وآمال مشتركة...

**من الزوايا النظرية،** وبحسب المناهج العلمية المتفقة يحوز العرب على سمات وعناصر الأمة كاملة. بيد أن التاريخ والتخلف، والتآمر منعهم من تحقيق سيادتهم الوطنية وتحقيق ذاتهم الجمعية، ولأنهم منعوا قسراً ولهم صفات وشروط الأمة فقد شغلوا العالم بقضاياهم ونضالاتهم

ومقاومتهم القرن المنصرم بكامله والعقدين الأولين من القرن الحالي ولم تسقط الراية منذ وعد بلفور، ومنذ تفكيك الإمبراطورية العثمانية التي حكمت طويلا واتصفت بأنها أوسع إمبراطوريات القرون التي تمكنت بكتاب العرب ودينهم وبرجالاتهم، والتي انحسرت عندما انقلب العرب عليها فتحولت إلى قزم صغير" تركيا التي جرى تصميمها عام 1923".

وفي نظرة متكئة على قراءة الأحداث الكبرى في التاريخ، ولا سيما توفر شروط تحقيق الأمم لمكانتها وشخصيتها يمكن لحظ المعطيات الآتية:

- شكلت حقبة المقاومة منصة استناد لكل أمة لانتزاع تحررها وتحقيق وحدتها فحقبة المقاومة ومنع الآخرين من الاستيلاء والاحتلال والاستيطان سابقة على حقبة النهوض والبناء "والعرب أتقنوا المقاومة وقاوموا لقرن وعقدين وما زالوا يحققون الانتصارات".
- لم تتمكن الأمم التي كانت مغلوبة على أمرها من تحقيق ذاتها القومية إلا في بيئات دولية وإقليمية مناسبة، وغالبها انتزع حقوقه على تخوم صراع الإمبراطوريات، ومن جراء نتائج الحروب القارية أو القومية، فالأمة الروسية استعادت وحققت مكانتها في ثورتها البلشفية وحربها الأهلية ونتيجةَ الحرب العالمية الأولى، واستقلت الصين بناتج تحولات الحرب العالمية الثانية وانهيار منظومات النظم العالمية والإقليمية. ونجح الإيرانيون والفيتناميون في الثورة والسيادة على مفترقات الحرب الباردة، وذات الشيء ينطبق على أقوام وجماعات ما كان يسمى منظومة الاتحاد السوفيتي والدول الإشتراكية، وكما أسلفنا فالمسألة القومية ومسائل الأمة لم تنضج في أوروبا إلا بعد حروب دينية دامت مئة وثلاثين سنة.
- فالحربان العالميتان السابقتان جرتا في جغرافيا غير جغرافيا العرب، ولم يشك العرب عناصر فاعلة فيها، فخرجوا من حصة القوى المنتصرة. في الحرب الأولى، كانوا من حصة أوروبا التي تقاسمتهم وقسمت جغرافيتهم وأنشأت الدول والأمم "المصنعة" وزرعت الغدة السرطانية " إسرائيل"، وفي الحرب الثانية خرجوا من نصيب الكتلتين العالميتين اللتين ورثتا أوروبا المحترية والمهزومة..
- **فارق الأزمنة الجارية**؛ إن الحروب كلها، والحرب العالمية العظمى ظلت جارية لأكثر من نصف قرن معهم وفوق جغرافيتهم، وخرج منها الغرب مجتمعاً ومهزوما تحت راية أمريكا، وقد طالت حروبهم وخاضوها منفردين بلا إسناد من الأمم الأخرى، ونجحوا في تعطيل الهيمنة الأمريكية المتفردة على العالم وأسقطوا كل جهودها وأدواتها وقوتها وهي متعجرفة في هيمنتها، بل ونجحوا باستنزاف وإسقاط مشاريعها وكشفوا جميع أدواتها وأحلافها، فمنذ عام 1973 حرب تشرين لم يشهد العالم أو أي من قاراته حرباً كبرى إلا في إقليم العرب وفي بعدهم الإقليمي، وجرت كبرياتها في الجغرافيا الموصوفة بأنها

المثلث الذهبي لصناعة تاريخ ومستقبل الإنسانية، بزواياه الذهبية الثلاث: بغداد– بيروت– القدس" كتاب ساحل الشام والصراعات الدولية 2400ق.م 2004م– عبد المجيد عبد الملك بيروت– بيسان" ودوماً قاعدة المثلث كانت بلاد الشام والرافدين فحرب تشرين، والغزو الصهيوني لبيروت، وحروب غزة وغزو بغداد، وأفغانستان، كلها أحداث وقعت في هذه الجغرافيا ومع العرب أو بإسناد واحتضان منهم ...

**البيئة الوافرة والفرصة الواعدة:**

هكذا تقول لنا المعطيات قاطعة إن زمن العرب قد دنا، وأن فرصتهم الذهبية قد باتت قريبة، وتتوفر لهم كل الشروط والمعطيات والأسباب كي ينهضوا بمشروعهم القومي، وينكبوا على عصرنته، وتطويره ليتقاطع مع قيم ومنظومات ووسائط العصر...

فالعناصر الأولية لتشكل الأمم موفورة بهم بصورة كاملة.. وأن الزمن وتوازن القوى والحروب التي جرت في غير جغرافيتهم وبلا أي فاعلية لهم، ذهبت، وهم اليوم ومنذ مئة وعشرين سنة متصلة يقاومون، وتجري الحروب الكبرى منذ نصف قرن معهم وفوق جغرافيتهم. وبإزاء استهدافهم في جغرافيتهم وثرواتهم وقيمهم وأديانهم وكيانهم، صاروا هم البيئة الفاصلة بين عصرين، عصر الأمركة والعدوانية والاحتلالات وعصر تحرر الأمم الواعية العاقلة...

وبناتج حروبهم مع الغرب الإمبريالي وأدواته وقواعده وتحالفاته فقد أفلحوا بإلحاق الهزيمة بها مجتمعة ووحدهم بلا تضامن أو مسانده من الأمم والقارات التي وقعت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي تحت القبضة الأمريكية أو تبعتها بالولاء وبالمصالح الاقتصادية والتكاملية...

واليوم تستمر المقاومة بفاعلية في فلسطين وتتعاظم قوة ودور هذه المقاومة وقدراتها ما يلزم الكيان الصهيوني أن يحتمي بالجدر ويفاقم افتقادَه لكل عناصر القوة...

ومع صعود المسألة القومية في أوروبا وأمريكا العدوانيتين، ودخول اقتصادياتهما الليبرالية والرأسمالية في المرحلة الأكثر توحشاً، بدت ملامح الأزمة التكوينية، أزمة النظم والجغرافيا والقيم، وانتهت أسباب تمكن الغرب وهيمنته ونموذجه بفضل صعود آسيا، وإرتقائها وتمكن الشعوب من وسائط ووسائل السيطرة والسطوة، وإشاعتها بفعل التطورات التقنية، وسقوط احتكار الغرب للتقانة والإبداع والسيطرة الإقتصادية والثقافية، وتحول موازين القوى إلى آسيا، ونتيجة الدور المحوري الذي لعبته المقاومة العربية المديدة في إنهاك الغرب واستنزافه وتأزيمه وإسقاطه، ودفعه للتحول والتراجع والانسحابية، ما وفر الأسباب المادية لعودة روسيا من المنصة العربية السورية وتشكلها قوة عالمية مقررة، ودفع الصين للخروج على قيمها وجدارها العظيم طلباً للمشاركة في النصر العربي السوري. ولأنّ كلا من روسيا والصين القوتين العالميتين الصاعدتين ليستا عدوانيتين ولا احتلاليتين ولا استعماريتين، فإن أسبابا إضافية

للعرب تتوفر ليمتلكوا مشروع النهوض والقيام بعد إتمام حقبة المقاومة....

ونتيجة الصمود والمقاومة، انفجرت الجغرافيا القاصرة وسقطت أنظمها المصنعة، ومشروعات الغرب الإمبريالي القائمة على تفتيت المفتت وتقسيم المقسم أو إدامة الفوضى، وإنشاء دويلات مصنّعة قاصرة جهوية أو دينية أو طائفية وسقوط جهود ومخططات إستنزاف الأمة بحروب الفتن الدينية والطائفية كما هو جار في سورية " قاعدة العروبة وروحها الوثابة وقلبها النابض"..

ومع ظهور كل الأدلة والمؤشرات على تفكك النظام الإقليمي وقواه أسوة بتفكك نظام العالم الآحادي ودخول الإقليم والعرب حقبة إعادة تشكيل الجغرافية والنظم....تصير فرصة العرب ذهبية، غير مسبوقة، ومن صنعهم وقد توفرت أسبابها بدمائهم وتضحياتهم وصمودهم ومقاومتهم. إنها فرصة موسومة بانتصارات أمة المقاومة برغم خيانة نظم الاستعراب المأزومة...

من ينهض بالأمة؟ كيف لها أن تمتلك مشروعها العصري؟ وعلى أية قيم وقواعد ناظمة متساوقة مع قيم ومنظومات العصر وثقافته؟ هذه أسئلة برسم من يتقدم لإتمام الإجابة العاقلة والمنهجية عليها وسنقوم بما يتوجب علينا كلما تسنت لنا الفرصة والمنابر...

**محور العدد:**

## الروائي حنا مينه

## من هو حنا مينه – Hanna Mina؟

## ولماذا تم اختياره كمحور العدد في مجلة وميض الفكر للبحوث

**حنا مينه** الأديب الثائر على الظلم، هو روائي سوري من أشهرِ الروائيين السوريين والعرب. عاصر فترةَ الانتدابِ الفرنسي على سورية وقاومه على طريقته، وساهم في تطويرِ الروايةِ العربية، في حوزته أكثر من 40 رواية وقصة إحداها «**المصابيح الزرق**» و«**نهاية رجل شجاع**» التي نقلها إلى التلفزيون، ورواية «**الشراع والعاصفة**» التي نُقل نصها إلى السينما.

اهتمتْ رواياته بالواقعيةِ الاجتماعيةِ والصراعِ الطبقي، وكان لجزءٍ من تجاربه الخاصة أثرٌ مميزٌ في كتاباته عن معاناةِ الناسِ اليوميةِ، حيث أنّه لم يتوقف عن تجسيدِ الواقعِ المرّ لطفولته معتبرا هذا الواقعَ ملهمًا لرواياته. ساهم مع عدد من الكتاب السوريين أمثال حسيب كيالي ومصطفى الحلاج في تأسيس رابطة الكتاب السوريين عام 1951. شارك أيضًا في تأسيس اتحاد الكتاب العرب عام 1959 وحصل على جائزة الكاتب العربي عام 2005.

توفي يوم 21 آب/ أغسطس عام 2018. ونحن، مجلةَ وميض الفكر، نكرم إنجازاته الأدبية وقلمه المقاوم الذي رسم خطوطا وطنية ضد الاستعمار والظلم بكل أشكاله.

## 1) حنا مينه كاتب الكفاح والفرح

**بقلم الباحثة الدكتورة: علا آغا**
**باحثة في مجال اللغة العربية وآدابها**
ola.aga@hotmail.com

أخذت القصة العربية تطرح عنها قيود التقليد رويداً رويداً مع بداية القرن العشرين، وتسير نحو الإبداع، لتلبس روحاً جديدة ، حيث كانت تقوم بانتقاء عناصرها بحبكة خاصة، إذ كان كل عنصر يرمز ضمنياً إلى سائر العناصر، وبذلك تكون مجموع العناصر متوافقة مع موضوع القصة، والهدف المراد إيصاله للمتلقي، وبالتالي تكون قريبة من السرد التاريخي، إلى جانب أدبيتها، ومن خلال ذلك يتمكن الكاتب من توسيع الإطار العام للقصة عبر ضخّ كمّ كبيرمن الأحداث الجانبية، ليضع في متناول القارئ معطيات متكاملة، وعلى قدر عالٍ من الحبكة. وما بالنا ونحن نتحدث عن أحد عمالقة الرواية العربية كتابة، وحبكة، وتميزاً، إنه "حنا مينه" صاحب المسيرة الطويلة المرافقة للتعب، والشقاء، والتي كانت مشياً، وبأقدام حافية، في حقول من المسامير، في زمن حاكى الكثير من الاحتلالات، والنكبات، زمن طال الفقر كافة شرائحه. ولد حنا مينه في مدينة اللاذقية، في 9 آذار ، عام 1924م، وبدأ حياته مناضلاً في وجه الاستعمار الفرنسي، وهو في الثانية عشرة من عمره، عاش حياة قاسية، وتحدث عن هذه الفترة من حياته قائلاً: "إنني ولدت بالخطأ، ونشأت بالخطأ، وكتبت بالخطأ، فالطفل العليل،

الذي تتوس حياته كذبالة الشمعة الواهنة، لم تطفئ ريح المتون ذبالة شمعته، وبعد الإبحار على المراكب، غدا الرغيف خيَّالاً، وعليّ، سداً لجوع العائلة، أن أركض وراءه، ولا أزال. فقد اضطررت للعمل حمالاً في المرفأ، ثم حلاقاً ، ومن الحلاقة إلى الصحافة، ومن الصحافة إلى كتابة المسلسلات الإذاعية، ... وإلى المنافي، لأسباب قاهرة، حيث التشرد في أوروبا، والنوم تحت الجسور"[1], إلى أن عاد إلى أرض المنشأ التي أحبها وتغنى فيها.

عاش مينه طفولته في إحدى قرى لواء إسكندرون على الساحل السوري، وانتقل مع عائلته عام 1939 إلى مدينة اللاذقية الساحلية، "دخل المدرسة في سن السابعة، وحصل على شهادة التعليم الابتدائي، لكنّه لم يكمل تعليمه لسوء الأحوال المعيشية، والفقر المدقع الذي كان يعيش فيه"[2]. عشق البحر، وكان ملهمه الأول، والقاسم المشتركَ في معظم أعماله التي تدور حول البحر وأهله.

ومما قاله مينه حول تعلقه بالبحر: "إن البحر كان دائماً مصدر إلهامي، حتى أن معظم أعمالي مبللة بمياه موجه الصاخب... الأدباء العرب أكثرهم لم يكتبوا عن البحر لأنهم خافوا معاينة الموت في جبهة الموج الصاخب"[3].

"كان أديب الحقيقة والصدق، عصاميا، ساهم في إغناء الرواية العربية وعمل باجتهاد حتى أجاد وأبدع. كتب الكثير من الروايات والقصص يتحدث في معظمها عن البحر "[4]. روايات حملت الكثير من الصدق، والعمق، والمعاناة، والكفاح، والواقعية، والحب، والجمال. ساهم في تأسيس رابطة الكتّاب السوريين واتحاد الكتاب العرب.

أما بداياته الأدبية فكانت متواضعة، إذ تدرج في كتابة العرائض، والمقالات، والأخبار الصغيرة للصحف في سوريا ولبنان، ثم تطور إلى كتابة المقالات الكبيرة، والقصص القصيرة.

ثم استقر به الحال في العاصمة دمشق، وعمل في جريدة الانشاء الدمشقية، حتى أصبح رئيس تحريرها.

**يقول عن نفسه:**

"(أنا كاتب الكفاح والفرح الإنسانيين)" [5]فالكفاح له فرحه، له سعادته، له لذّته القصوى، عندما تعرف أنك تمنح حياتك فداء لحيوات الآخرين، هؤلاء الذين قد لا تعرف لبعضهم وجهاً، لكنك تؤمن في أعماقك، أن إنقاذهم من براثن الخوف والمرض والجوع والذل، جدير

1. مقابله خاصة مع حنا مينه، خاص القصة السورية ,28- 8- 2003 .

2- «Hanna Mina: Syria›s Old Man of the Sea». Al Akhbar. 24 March 2012. Retrieved 17 April 2018.

3 . جريدة الجزيرة : 2018-8-12.

4 . جريدة الجزيرة : 2018-8-12.

5 . عزت فرح، جريدة كل العرب،7-5- 2014.

بأن يضحى في سبيله، ليس بالهناءة وحدها، بل بالمفاداة حتى الموت معها أيضاً. "إن وعي الوجود عندي، ترافق مع تحويل التجربة إلى وعي، وكانت التجربة الأولى في حي (المستنقع) الذي نشأت فيه في اسكندرونة، مثل التجربة الأخيرة، حين أرحل عن هذه الدنيا، ومثل تجربة الكفاح ما بينهما، منذورة كلها لمنح الرؤية للناس، لمساعدتهم على الخلاص من حمأة الجهل، والسير بهم ومعهم نحو المعرفة، هذه التي هي الخطوة الأولى في (المسيرة الكبرى) نحو الغد الأفضل"[1].

**أضواء على سيرته الذاتية بقلمه:**

"لم أكن أتصور بأنني سأصبح كاتبا، لم أكن أتصور حتي في الأربعين من عمري أنني سأصبح كاتباً معروفاً، بدأت رحلة التشرد وأنا في الثالثة، وهذه الرحلة من حيث هي ترحال مأساوي في المكان، عمرها الآن ثمانون عاماً، أما رحلتي في الزمان فهي أبعد من ذلك، وستبقي ما بقيت.

كان أبي رحمه الله رحالة من طراز خاص، لم ينفع ولم ينتفع برحلاته كلها، أراد الرحيل تلبية للمجهول، تاركاً العائلة أغلب الأحيان، للخوف، والظلمة، والجوع، ولطالما تساءلت وراء أي هدف كان يسعي؟ لا جواب طبعاً، إنه بوهيمي بالفطرة.

كنت عليلاً، أمي وأخواتي الثلاث عملن خادمات، عملت أنا الصبي الوحيد، الناحل، أجيراً "[2].

بدأت كتاباته الأدبية بكتابة مسرحية دونكيشوتية، كتب الروايات والقصص والتي زادت على 30 رواية أدبية طويلة غير القصص القصيرة، منها عدة روايات خصصها للبحر التي عشقة وأحبه، له أكثر من 40 رواية وقصة أهمها "المصابيح الزرق" التي نقلها إلى التلفزيون كتبها عام 1945، ورواية "الشراع والعاصفة" التي نُقل نصها إلى السينما، وتوالت إبداعاته وكتاباته بعد ذلك كرواية "المستنقع" التي كانت تتحدث عن بقايا ذكريات مينه في الإسكندرون، وقد وصفها الناقد الأدبي صلاح فاضل بأنّها الأعظم من بين السير الذاتية على الإطلاق، والأوفر صدقًا، والأغنى فكرًا"[3].

وكانت رواية "الياطر" و"حمامة زرقاء في السحب" و"حدث في بيتاخو". لقد تجاوزت أعماله الأربعين روايةً وقصة. وكتب القصص القصيرة ونشرها في صحف دمشقية كان يراسلها، ويذكر أن الكثير من روايات حنا مينه تحولت إلى أفلام سينمائية سورية ومسلسلات تلفزيونية.

---

1 . مقابلة خاصة مع الكاتب، 10-21—2009.

2 . خاص القصة السورية، أضيفت في 2005-4-24.

3- «Hanna Mina». Syria Times. 7 July 2013. Retrieved 18 April 2018

عاش الكثير من الخيبات، والألم، والهزائم. فقد تميزت حياته بالمزج ما بين الكفاح والنضال، بعد أن أرهقه حلمٌ كبير طالما لاحقه في إصلاح ما أفسدته البشرية على سطح الأرض، وبعد إنتاج أعمال أدبية كثيرة تحاكي الواقع وتفسره، وتدعو إلى الرحمة، والبساطة، والإحسان... لكنه وجد أنه لا فائدة... فالحياة تسير من سيئ إلى أسوأ، والصراعات والحروب تأكل الأعمار والآمال.

وهو القائل: «أنا كاتب الكفاح والفرح الإنسانيين»، وقال الكثيرعن البحر الذي رافقه في الكثير من رحلاته الروائية: «إن البحر كان دائماً مصدر إلهامي، حتى أن معظم أعمالي مبللة بمياه موجه الصاخب»[1].

**من أهم كتاباته ورواياته:**

## 1 . المصابيح الزرق:

المصابيح الزرق" رواية تصور حياة مجموعة من البسطاء أيام الحرب العالمية. ولا سيما في سوريا، فهي تصور الجو المحموم الذي كانت تعيشه بلادنا أيام الحرب. فرواية "المصابيح الزرق" هي أزمة الحرب.

وقد تجاوز الروائي هذه الفكرة "أثر الحرب في الناس" إلى تصوير حياة كاملة تلعب فيها أزمة الحرب دوراً كبيراً، ولكن الدور الأكبر كان في الحديث عن حياتهم وكفاحهم في سبيل العيش، وقضايا أمتهم. إنها قصة حياة مجموعة من الناس أخذت أحداثها في فترة تاريخية معينة. "أما الصراع مع التاريخ فقد تضمنته رواية المصابيح الزرق. يقول المؤلف: وإذا كان الاستعمار هو قدر الشعوب العربية، فهو في الواقع سرطان يفتك بالروح والبدن معا، ويترك الأوطان في دياجير الجهالة والعماء، بل يعيدها إلى عصور ما قبل التاريخ والنضال ضد الاستعمار وتحدّي وسائله القمعيّة وفلسفته العنصرية، وروحه التدميرية واجب الإنسانيّة وله الأسبقية والأولوية على صراع المجتمع والطبيعة."[2]

## 2 . الشراع والعاصفة

هي قصة مدينة سورية ساحلية أثناء الحرب العالمية الثانية. لقد صورها كاتبنا مع أثر الحرب عليها وما تركته من عواصف الاحتلالات المتعاقبة على أرض خصبة، وأبرز التناقضات التي كانت كانت تعصف

1. هاشم صالح، الملحق الثقافي، حنا مينه وتطويع الأيدلوجيا، 29 أغسطس 2018.
2. عزت فرح، منبر العرب، 5-7 -2017.

بمجتمع فقير. هي رواية تحدثت عن انتصار الإرادة البشرية والمغامرة.

تتحدث عن رجال البحر المردة، في صراعهم اليومي المرير مع الموت المتمثل في البحر الهائج، والعواصف الغادرة، يقابلونها بأشرعتهم الممزقة، وقواربهم العتيقة، وعزمهم المستمد من صخور الشطآن. إن فيها لروحاً أسطورياً حنوناً، ولكنه غائص الجذور في الأرض «البحر ملك» تلك هي صيحة الاحترام العميقة التي يطلقها كل بحار، والطروسي، بطل القصة الأول يؤمن بسلطنة البحر كما يؤمن بسلطنة المرأة، ولكنه، في عنفوان شعوره برجولته، يعرف كيف يكون ترويض النمور.

### 3 . الياطر:

تتحدث عن حياة صياد أقدم على جريمة قتل فيضطر للهرب، ليعيش في مكان ما على الحدود السورية التركية، وتتداخل فيه أصوات عديدة، ومرجعيات متنوّعة لتصنع عالمه الخاص. هي قصة تراوح بين الأحداث في الغابة، وذكريات المدينة، ضمن زمنين: زمن فيزيائي «الحياة على الشاطئ في الغابة»، وزمن نفسيّ لحظة ارتكابه لجريمة القتل، حيث يعيش غريبا وحيدا هاربا في خيمة نصبها على شاطئ البحر، إلى أن يصادف راعية من بلاد الأتراك، فيطمح بأن تكون هذه الفتاة هي صلة الوصل بالعالم الخارجي. وتتوالى الأحداث حاملة في طياتها الكثير من الأحداث والغربة والحب والبحث عن الأمان.

### 4 . الأبنوسة البيضاء:

كتاب الأبنوسة البيضاء هو مجموعة قصصية يتجه من خلالها نحو الواقعية.

عشر من القصص التي كتبها بعد 1969م، يتحدث فيها عن المعاني الإنسانية والقيم والمبادئ التي يعبر بها كل إنسان لحياة أفضل... في ظل حكايات عابرة أخدها مينه من بحور معانٍ ذات لمعانٍ قوي. لقد كان البحر .. مصدر إلهامه الوحيد في هذه المجموعة وقد اعتمد على المصداقية عن طريق بث أفكاره وقيمه إلى المتلقي العربي.

### 5 . نهاية رجل شجاع:

تحكي الرواية عن حياة مفيد الملقب بالوحش من فترة الطفولة والشقاوة

إلى مرحلة البلوغ والنضوج. تربى مفيد على يد والده الفلاح، القاسي، إذ كان يستخدم أعنف الوسائل من إيذاء وضرب أمام رجال الضيعة ونسائها وصغارها ما سبب له أذى نفسيا وأصيب بعدوانية شديدة قام على أثرها بالهرب من البيت والضيعة ولم يعد إليها قط.

«مفيد الوحش كما صوّره لنا حنا مينة ما هو إلّا إنسان بسيط على الفطرة، فيه بذرتا الخير والشر وكلتاهما تبحث عمّن ينمّيهما في نفسه. مفيد شجاع وعنيد في نفس الوقت، إذا أصرّ على رأي لا يستطيع أحد أن يغيّره، وإن أراد فعل شيء فلا شيء يثنيه عن فعله ولا يسمح لأحد أن يكون حائلًا بينه وبين تحقيق هدفه. تكمن مشكلة مفيد إيمانه أنه يستطيع بالعمل الفردي التغلّب على كل شيء، لكن الرواية ترمي إلى بيان عاقبة العمل الفردي الذي يودي بصاحبه إلى طريق مسدود وإلى تأكيد أهميّة العمل الجماعي والانتماء.»[1].

## 6 . الثلج يأتي من النافذة:

هي أول رواية يغادر فيها البيئة السورية وبالأخص بيئة مدينته الأصلية: اللاذقية. فهو ينتقل نحو بيئة جديدة، حيث تجري معظم أحداث الرواية. عبّرت هذه الرواية عن شخصيته، فقد كان مناضلاً شيوعياً وملاحقاً من قبل السلطات. وقد لجأ إلى لبنان، انطلاقاً من ذلك يمكن أن نستعير عبارة تشيخوف عن مكسيم غوركي ونطبقها على حنا مينة: «هذا ليس مكتوباً فقط بل معاشٌ أيضاً». وبالتالي فحنا مينة ينتمي حتماً إلى التيار الواقعي في الأدب الروائي.

وكانت واقعيته السبب المباشر في نجاح كتاباته في حين فشل الآخرون.. فقد استطاع بفضل موهبته الفنية الكبيرة تحاشي السقوط في الكثير من أفكار الشيوعيين التي لا تناسب في الكثير من الأحيان طريقة تفكيرنا ومعتقداتنا وعيشنا نحن العرب. لقد تحاشى تحويل رواياته إلى أفكار قد تكون غريبة على مجتمعاتنا. ولولا ذلك لما تبقى منه شيء. بمعنى آخر، لقد انتصر على أيديولوجيته السياسية كفنان وروائي من أعلى طراز.

وسأذكر عددا من أسماء رواياته:

حكاية بحار – الشراع والعاصفة – حدث في بيتاحو – الشمس في يوم غائم، تحولت لفيلم بنفس الاسم – الولاعة – حمامة زرقاء في السحب – حارة الشحاذين – البحر والسفينة وهي – الرجل الذي يكره نفسه – الفم الكرزي – الذئب الأسود – بقايا صور، تحولت إلى فيلم – المستنقع – القطاف – الربيع والخريف – فوق الجبل وتحت الثلج – النجوم تحاكي القمر – القمر في المحاق – عروس الموجة السوداء – الأرقش والغجرية – حين مات

1 . أسوان عدنان طه، مدرسة راهبات الفرانسيسكان، الناصرة .

الهند – صراع امرأتين – المرصد . الدقل – المرفأ البعيد – امرأة تجهل أنها امرأة – مأساة ديمترو – الرحيل عند الغروب – المرأة ذات الثوب الأسود – المغامرة الأخيرة – هواجس في التجربة الروائية – كيف حملت القلم – النار بين أصابع امرأة – عاهرة ونصف مجنون – شرف قاطع طريق. وتنوعت كتاباته بقلم صادق لم يخذله طوال حياته إلى أن حان موعد الرحيل عن عمر ناهز التسعين عاماً بعد أن مل الحياة والظلم المشتشري بها. توفي يومَ 21 آب/ أغسطس عام 2018، وقد أُذيع نبأ وفاته رغم أنّه أوصى منذ كان في الخامسة والثمانين من عمره بألّا تذيع أية وسيلة إعلامية نبأ موته قائلًا إنه شبع من الحياة.

و»قد عمّرت طويلاً حتى صرت أخشى ألا أموت، بعد أن شبعت من الدنيا، مع يقيني أنه «لكل أجل كتاب».

لقد كنت سعيداً جداً في حياتي، فمنذ أبصرت عيناي النور، وأنا منذورٌ للشقاء، وفي قلب الشقاء حاربت الشقاء، وانتصرت عليه، وهذه نعمة الله، ومكافأة السماء، وإني لمن الشاكرين»[1]. وكان متحدثا لبقا بسيطا فلطالما عبر عن ذلك في الكثير من لقائاته الصحافية: «كل ما فعلته في حياتي معروفٌ، وهو أداء واجبي تجاه وطني وشعبي، وقد كرّست كل كلماتي لأجل هدف واحد: نصرة الفقراء والبؤساء والمعذبين في الأرض، وبعد أن ناضلت بجسدي في سبيل هذا الهدف، وبدأت الكتابة في الأربعين من عمري، شرّعت قلمي لأجل الهدف ذاته، ولما أزل. لا عتبٌ ولا عتابٌ، ولست ذاكرهما، هنا، إلا للضرورة، فقد اعتمدت عمري كله، لا على الحظ، بل على الساعد، فيدي وحدها، وبمفردها، صفّقت، وإني لأشكر هذه اليد، ففي الشكر تدوم النِعم[2]».

1 . ك نور عساف، الجرس، بيروت، 2018-8-23.

2 . ك نور عساف، الجرس، 8-12 -2018.

## المصادر والمراجع:


- أسوان عدنان طه، مدرسة راهبات الفرانسيسكان، الناصرة.
- جريدة الجزيرة: 2018-8-12.
- خاص القصة السورية، أضيفت في 2005-4-24.
- عزت فرح، منبر العرب،5-7 -2017.
- ك نور عساف، الجرس، بيروت، 2018-8-23.
- مقابله خاصة مع حنا مينه، خاص القصة السورية، 28- 8- 2003.
- هاشم صالح، الملحق الثقافي، حنا مينه وتطويع الأيدلوجيا، 29 أغسطس 2018.

"Hanna Mina". Syria Times. 7 July 2013. Retrieved 18 April 2018

"Hanna Mina: Syria's Old Man of the Sea". Al Akhbar. 24 March 2012. Retrieved 17 April 2018

# الخطاب السياسي في رواية الذئب الأسود
# لروائي حنا مينة مقاربة تداولية (أفعال الكلام)

**الدكتور عادل أحمد عبد الساتر**
**أ.م. في الجامعة اللبنانية**
**دكتوراه في اللغة العربية وآدابها**
adel-sater@hotmail.com

**خلاصة البحث:**

لقد قدر لي أن أبحث في نتاج حنا مينة الروائي، وكانت رسالتي في الدكتوراه بعنوان: **جماليات المكان في بعض روايات حنا مينة**، ولم أكن أتوقع بأنه سيسلب فؤادي ويأخذني إلى عالمه المتنوع والثري باللغة وسلاستها وبالحوار وأفانينه وبالسرد ومشوقاته وبالخلاصات وعمقها وغناها. ولا أنسى مقاربته للإنسان كإنسان مهما كانت ثقافته أو دينه أو معتقداته أو مستواه الاجتماعي والاقتصادي. ولا أملك الإرادة في الابتعاد عن دراسة لها علاقة بالعمل الروائي دون أن أختار لهذه الدراسة رواية من روايات شيخ الرواية السورية كما أطلقت عليه التسمية.

وبشغف لا يوصف قرأت رواية **الذئب الأسود** وازداد إعجابي أكثر بأسلوب حنا مينة الذي مزج بين التصريح والتلميح والرموز وبعض الأساليب التعبيرية من خلال الحوار على ألسنة البشر أو بخطاب خرافي كلغة الهدهد أو الغابة وأشجارها وما تحمله من أفكار تهمس بها الأشجار وفضاؤها والصدى الراجع بين ظلالها المتعانقة.

انتهزت الفرصة لكي أستنطق الرواية بمنهج جديد هو المنهج التداولي وسرت بالدراسة

بعناوين أفعال الكلام المختلفة، وقدمت لكل عنوان من عناوين أفعال الكلام مقدماته النظرية وأغنيت الدراسة بنماذج من الرواية توضح توظيف أفعال الكلام بشكل جميل وما استطاعت تلك العناصر من تقديمه لفضح الدرالات وكشفها.

فبدأت الدراسة بمقدمة عامة، تناولت فيها أفكارا عامة حول شخصية حنا مينة الروائية وموهبته الخالدة، وعمق أفكاره الوطنية والقومية واهتمامه بطبقة الفقراء والمضطهدين بالكلمة وكيفية ربطه بين مناصرة الفقراء وبين الإيمان بالله بعلاقة تكاملية من خلال اعتباره لتلك العلاقة على أنها علة الوجود الإنساني.

وقد استعرضت في المقدمة أيضا عرضاً موجزا لبعض أفكار رواية الذئب الأسود . وقدمت بعض أسماء الشخصيات بتحليل دورها ومركزيتها في الرواية وماهية المهمة الموكلة إليها بالفعل أو بالفكر أو بالتوجيهات البنائية أو بالتلقي والاتّباع.

وعرضت في الجزء التالي الخطاب السياسي بمقدمة نظرية ومفهوم هذا الخطاب وعناصر تطبيقاته على المدونات المكتوبة، والرواية واحدة منها، وقد تناولت عنوان استراتيجيات الخطاب السياسي، حيت بحثت في عنوانين أساسيين:

**الأول: أهمية مقاصد الخطاب السياسي لتحقيق الهدف.**

**الثاني: الحوار وأهميته في الاستراتيجيات المؤثرة والفاعلة في الخطاب السياسي مع تحليل بعض النماذج من رواية الذئب الأسود.**

وتناولت في الجزء الثالث مضامين الحوار وقصدياته على اعتبار أن المتكلم قد يقول شيئا ويقصد شيئاً آخر والمتلقي يستمع كلاماً له معنى ويفهم منه معنى آخر. وقدمتُ في الدراسة بعض الأمثلة التي وضحت الفكرة وأغنت الرواية من خلال مفهوم القوة النجازية، عبر كشف بعض المضامين الاجتماعية والسياسية والنفسية.

تناولت في الجزء الرابع تطبيقات بعض أسس علم الكلام ووظائفها الدلالية ومن تلك الأسس التي تمت مقاربة وظائفها الدلالية:

- أفعال القول
- متضمنات القول
- الأقوال المضمرة
- الاستلزام الحواري
- وكل هذه العناوين تمت دراستها من خلال نماذج هادفة ومعبرة مع استخلاصات واضحة ومنطقية.

وتناولت في الجزء الخامس تصنيف الأفعال الكلامية بحسب مقاصدها ومن العناوين في ذلك التصنيف:

- الأخباريات
- الوعديات
- التوجيهات (الأمريات)
- التعبيرات

وقد تمت مقاربة هذه الأسس مقاربة تداولية، فقدمت الأمثلة عن كل أساس بالعرض والتحليل، والاستقراء والاستنباط لدور كل أساس ووظيفته الريادية في قوقعة الدلالات الخاصة بكل أساس ثم دمجها بدلالات الأسس الأخرى خدمة لكشف القصد المتواري في وجدان الكاتب وموطن أسراره.

وقد ختمت الدراسة بخلاصة استعرضت فيها نبذة عن أبعاد حنا مينه الفكرية وبعض الوجدانيات الخاصة بموقفي الخاص وبرأيي الشخصي حول أسلوب حنا مينه وآرائه الفلسفية وإيمانه بالكفاح لتحقيق العدالة وعدم الرهان على الزمن بل الرهان على الهدف الذي هو أجل وأنقى من الضياع والتبعثر.

## مقدمة:

إن البحث في روايات حنا مينة مشوق وممتع وهو إبحار في عالم من الشكليات الأسلوبية المختلفة وتنوعها ضمن أجناس أدبية تلتقي في نص واحد أو في خطاب واحد تتعدد فيه عناصر الخطاب بعناصرها المختلفة لتحقيق الهدف من مقاصد ذلك الخطاب بكل أبعادها السياقية.

وقد تعرفنا على حنا مينه الروائي الملتزم بقضايا سياسية واجتماعية وقومية، بذل حياته دفاعاً عن حقوق المقهورين والمعذبين، مفاخراً بأنه كان من أنصارهم، متزوداً في حياته قبل مماته بحبه للفقراء وبنصرته لهم بأعز ما يملك أي بالكلمة التي أضحت تعبر عن المواقف التي تتسلط عليها أضواء المتربصين بكل رأي حر.

يرتشف حنا مينة من ثقافته العميقة، ثقافة إنسانية، ندر نفسه من خلالها للدفاع عن حقوق المضطهدين، فهو الرجل المكافح الذي يتبنى مصالح الناس، ويلتزم الدفاع عنها ويؤثر مناصرة الطبقة العمالية لأنه ينتمي إلى الفكر الماركسي الذي يحمل شعارا: «**يا عمال العالم اتحدوا**».[1]

وقد ناصر المضطهدين بالكلمة التي نذر نفسه وعمره لصوغها رشيقة، سلسة، موحية، تربط الواقع بالخيال، تتنقل بين الطبقات الاجتماعية طبقة طبقة تفصّل خصائصها وما تظهره وما تضمره .

تسبح كلماته بالمعاناة الإنسانية. تجمع من آلامها أشواكا تقطر منها دماء دافئة كدفء

1 . حنا مينة، روائي الكفاح والفرح، دار الآداب، ص 122.

القضية الانسانية وشروط وجودها الوجودي.

لا تغفل كلمته عن القضية القومية التي صاغها قصصاً وأحداثاً وألواناً وخيالاً، ليقول بحسرة ما يريد أن يتوجه به إلى يوم لا يكون فيه، مريدا تخليد الفكر الراقي والعميق بكلمات خالدة تَعبُر المكان والزمان وتتربع على عرش الخلود مع الزمن الذي يحملها بلطف إلى عالم اللانهائي إلى المدى المنظور وغير المنظور لتبقى تشع ثورة واستنهاضاً وعزماً يحرك همم المتثاقلين واليائسين، أن لا حياة بدون جهاد وثورة وكفاح.

ولم يترك لنا حنا مينه أبواب التخمين بل فاضت كلماته بما فاضت به نفسه قائلاً : «كل ما فعلته في حياتي معروف، وهو أداء واجبي تجاه وطني وشعبي وقد كرست كل كلماتي لأجل هدف واحد: نصرة الفقراء والبؤساء والمعذبين في الأرض وبعد أن ناضلت بجسدي في سبيل هذا الهدف وبدأت الكتابة في الأربعين من عمري شرعت لأجل الهدف ذاته، ولما أزل».

فلو اخترنا لبحثنا رواية واحدة لأمكننا الاطلاع على إرث حنا مينه الفكري المعتصر من تجاربه العملية المختلفة بين أثلام أيادي المكافحين والكادحين وراء عيشهم الكريم.

فرواية الذئب الأسود هي من الروايات التي تجمع أبعاداً سياسية واجتماعية وقومية في آن واحد، ولأن حيز الأبحاث لا يفسح في المجال أمام الإسهاب في البحث في أكثر من رواية فقد اتجهنا في دراستنا إلى رواية الذئب الأسود علنا نوفق في كشف مضامينها المختلفة معتمدين على تحليل الخطاب الروائي من خلال مفهوم علم الكلام وعناصره المختلفة، باحثين بالخطاب السياسي عن ذاكرة شعب وأمة تواري سوأة حقائقها بالرموز خوفا من علة السياسة ومقصاتها الحادة.

الذئب الأسود هو عنوان رواية للأديب السوري حنّا مينه، وقد اختار لروايته عنواناً معبراً عن مضمونها السياسي من خلال أبعاد هذا العنوان وكثافة دلالاته، وفي كل مدونة من مدونات روايته تتراءى شاخصة أمامنا كل الأبعاد السياسية التي رمى الكاتب لتحقيقها في هذه الرواية كما الروايات الأخرى.

ويختار لنا بعض المقاطع المعبرة عن مضمونه إن لم نقل في جملة أساليبه وحوارات شخصياته التي لم تترك فرصة إلا وعبرت عن البعد السياسي لمضامين الرواية.

والغابة حيز معبر، ينقل الرواية من عالمها الواقعي الإنساني إلى عالم طبيعي تتولى عناصره في التعبير برمزيتها عن الهموم الإنسانية وعن الأبعاد السياسية والاجتماعية والنفسية.

وغابة حنا مينة لا تختلف عن صحراء غسان كنفاني، فالصراع قائم مع المدى، مع المجهول، مع العدم، ومع فقدان الأمل واليأس القاتل. وقد عبر غسان كنفاني عن ذلك الخصم الشبح الذي نتحسس رعبه ولا ندركه. إنه الوهم المتواري، يتلبس ما يراه مناسباً من أثواب الخداع والتمويه، ليترك ضحاياه مكلومة بندوب متناثرة في النفوس وعلى الأجساد،

وبنفوس مشوهة بفنون من الآهات والعذابات.

فالمدى يخيف، وينذر بمجهول غامض، لا تبشر الوقائع الماضية والحاضرة بنعيمه، وتشخص كل الصور التي تهدد الوجود، وقد مثل ذلك الضياع بقوله: "ولكنه مثلهم كلهم، خاف من الانبساط الذي لا نهاية له، حيث لا تلة ولا علامة ولا طريق، وظل واقفاً ينظر إلى سواد الأرض المتصل بسواد السماء في نقطة تقع مباشرة أمام قدميه"[1].

فلكل عبارة مجسم للضياع وتمثال لليأس وللخوف، وقد امتلأت عباراته بإشارات القلق والغموض، فلا الانبساط الصحراوي يجدي لرؤية قبسات الأمل ولا الغابة فجمالاتها الطبيعية تشفي الأمل في الخلاص من الذئاب السود أو من المحتل الغاصب، ولا سواد الليل الذي اختاره حنا مينه لغابته ينفصل عن سواد الرؤية في مدى الصحراء المستوطن في نفسه خوفا ورعبا وضياعا.

فالغابة في الذئب الأسود هي مسرح الرواية بوظيفتها البنائية التي لا تفارق الشخصيات ولا تكتفي باحتضانهم بل تعمل على توجيه حركتهم ضمن خصوصيتها الغابية، فالغابات يعرفها حنا مينه كما يعرف كفه وقد لاقى في كل واحدة منها ما لاقاه في غيرها: فالذئاب السود التي ترتع على هواها، وتتناسل بغير توقف، ورأى الصيادين الذين يحاولون، دون جدوى ، القضاء عليها، وكل منهم يطارد الذئب في غابته بمفرده ويصر... على فرديته، اعتقادا منه أن ذلك ممكن.[2]

فهو يتحدث عن مجموعة من الصيادين والصيادات، الذين يطاردون الذئب الأسود. أما الذئب المستهدف فهو موجود رمزياً، إنه رمز السلطة المستبدة والظالمة. وهذا الذئب ينتشر في الغابات الاثنتين والعشرين، ويتوالد ويتناسل في كل غابة من هذه الغابات وهناك استحالة في القضاء عليها دون اتحاد الصيادين عليه وتعاونهم لاستئصال نسله.

وقد استحضر شخصية الحكيم بشير، وكلفه بالنطق والتعبير عن آرائه وعن تجربته وحكمته بالتعاون مع الذئاب السود وما يمكن القيام به للقضاء عليها، فيتميز الحكيم بعمق أفكاره وبمقدرته على التوجيه والنصح والإرشاد فهو صاحب رؤية منطقية وعميقة.

وقد أراد اختصار مأساة الغابات الاثنتين والعشرين بالحوار الذي تعبر من خلاله الشخصيات للحكيم بشير، فيلتقي الصيادين الواحد تلو الآخر، ويطلع على آرائهم التي لا يختلف الواحد منهم عن الآخر. فالكل يريد قتل الذئب الأسود بمفرده، ويزعم القدرة على ذلك. الأمر الذي يدفع الحكيم إلى القول: علة هذا الشرق يا دغمش الفردية. ماذا تستطيع أنت وحدك كفرد أن تفعل؟ أنت على حق يا دغمش، أنت وفيّ لآبائك، وأجدادك كانوا مثلك أفراداً. كانوا شجعاناً

1 . كنفاني، غسان ماتبقى لكم ،مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط :5، 2001م، ص22.
2 . حنا مينة ، الذئب الأسود، دار الآداب، بيروت ،ط1، 2005، ص 17.

وأفراداً في سلوكهم من المهد إلى اللحد. حافظوا على فرديتهم وهذا سر نجاحهم[1].

ومن الشخصيات الفاعلة شخصية الصياد دغمش الذي وقع بحب رئيفة وما تشكله المرأة من تاثير في القدرة على انحراف الهدف وإضاعة القضية وقد يكون حنا مينة قد عمل على الربط بين المسألتين: القضية والمرأة ليس بهدف الربط بين الحب والقضية ومدى تأثير إحداهما على الأخرى بل بهدف إظهار تأثير المطامع والشهوات التي تشكل بحد ذاتها ذئباً أسودَ وتساهم في عدم قدرة الصيادين على قتل الذئب الأسود والمساهمة في المحافظة على سلالته.

وخلاصة حكمة بشير ترتكز على العوة للاتحاد بين الصيادين وتوحيد البندقية ليتمكنوا من القضاء على الذئاب، وهي غاية دونها الكثير من الصعوبات. ولن يتحقق الهدف برأيه في المدى المنظور بل ستتوارث الأجيال النضال والكفاح كما تتوارث الذئاب بتناسلها جيلا بعد جيل.

فالرواية هي خطاب بين مرسل ومرسل إليه وإن فصل الخطاب عبارة عن كونه قادرا على التعبير عن كل ما يخطر بالبال، ويحضر في الخيال، بحيث لا يختلط شيء بشيء، وينفصل كل مقام عن مقام[2] .

ما يعني أن البراعة في تعبير المخاطب عن أفكاره بأحسن تعبير، وقد تختلف التعبيرات باختلاف قدرات المعبرين اللغوية والفكرية والمقامية.

ولسنا في وارد الغوص في التباين بين المصطلحات المتعلقة بالخطاب بل نتوقف عند بعض منها لما فيها من مشتركات هادفة لما نسعى إلى تحقيقه من مقاصد، فقد عرف بأنه اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه[3] .

فاللغة نظام متكامل يجمع ظاهر تكونه ليرى بالعين وليخضع لمعيار الأحاسيس، وآخر ضمني هو جزء من ثقافة الطرفين ولا بد من التلازم بين ثقافتهما ليكتمل مشهد التفاهم وللوصول إلى الغاية بكليتها او ببعض تفاصيلها.

ومهما اختلفت المقاصد من التعريف فهي تبين أن هناك مخاطبا يريد إيصال مضامين ملفوظاته إلى الغير لإفهامه مقاصد معينة، يتعدى ذلك إلى فعل التأثير بقوة إنجازية تأثيرية، فالهدف من الخطاب هو التأثير بطريقة ما[4] .

ولذلك تتعدد طرق التأثير في الخطاب بتعدد الصيغ اللغوية المختلفة والمتنوعة والتي يراعى فيها تهيّؤ المتلقي وقدراته الاستيعابية والتحليلية، ففي مقام الخطاب السياسي تحضر كل الإشارات الإقناعية والحجاجية وفي الخطاب الاجتماعي تحضر الإشارات التوصيفية أو

1 . الذئب الأسود ص17.

2 . فخر الدين الرازي، التفسير الكبير وفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة والنشر، ط1 ، 13/188،1981.

3 . سيف الدين أبو الحسن الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام ، دار الفكر ، بيروت ، ط1981/1، 1/72.

4 . سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، الزمن، السرد، التبئير، المركز الثقافي الكتابي العربي، 1989م ، ص19.

التوضيحية أو التأثيرية أو غيرها تبعا لاستراتيجية المتكلم ومقصده من الخطاب.

فعلم الكلام والسياق والاستراتيجيات هي دراسة من الدراسات التداولية الغنية بالآليات التحليلية لتضيف إلى اللغة سرا من أسرارها اللغوية المكشوفة بتلك الآليات وبالعناصر المعتمدة لتوضيع ما استغلق منها.

**الخطاب السياسي في رواية الذئب الأسود:**

- استراتيجيات الخطاب السياسي

إن استراتيجيات التخاطب هي نتاج القصد، ولا بد من انسجام المقاصد مع الأساليب التي تلتف بها الغايات والمضامين والأبعاد المختلفة.

ولا بد لكل استراتيجية من مقام تبليغي وجملة من السياقات التي تفرض شكلا استراتيجيا فاعلاً لتحقيق المقاصد المرجوة.

ومن أشكال تلك الاستراتيجيات الحوارُ الذي يشكل اللبنة الأولى في ذلك الصرح الدلالي الكبير، وما يستتبعه من قوة تأثير هي من جل أهدافه.

وقد اغتنت رواية الذئب الأسود بالحوار

ورد في رواية الذئب الأسود قوله: قال له صياد هرم، أبيض الشعر واللحية، أحمر العينين من غضب وحقد: عبثا يا زميلي، السعي الفردي للقضاء على ذئاب غاباتنا، فهي تتناسل في الظلام وعلينا إذا أردنا النجاح في سعينا، أن نتوحد أولاً، وأن نستنفر سكان الأكواخ لمعاونتنا ثانيا وأن نطلق على الظلام ثالثاً.

فكر دغمش وقال: أن نتوحد فهذا مفهوم، ومفهوم أيضا أن نستنفر الفقراء لمساعدتنا، ولكن أن نطلق على الظلام فهذا غير مفهوم ، ماذا في الظلام؟ – كل سوءة![1]

من الاستراتيجيات المهمة الحوار: فهو عنصر من العناصر القصصية الفاعلة، لما له من أهمية في إضفاء الحيوية على العمل الروائي وجعله ينبض بالحياة ولا يتركه عرضة للسكوت والموات.

فالحوار يبنى على تخاطب بين أطراف وقد يكون بين المرء ونفسه وقد يتعدى إلى شخصين أو أكثر وهو بنية معرفية يتولد نتيجة تساؤلات تنبثق من الذات حينا ومن الآخر حينا آخر.

فدوره أعمق من شكليات ظاهرية فهو الوسيلة التي يقترب فيه الروائي أشد الاقتراب من الناس ويزيد من حيوية الرواية وله قيمة في عرض الانفعالات والعواطف والدوافع والحوار في يد الروائي يحل محل التحليل والتمثيل.[2]

---

1 . الذئب الأسود ص 7

2 . عمر الطالب، القصة القصيرة في شعر امرئ القيس، مجلة التربية والعلم، كلية الآداب، جامعة الموصل، ع1، 89، 1979.

لقد بنى الحوار وظيفة بنائية واضحة حدد فيه إطار موضوع الرواية ومنطلقاتها الفكرية والسياسية، فلقد حدد بالتساؤلات جملة من الضوابط للصراع مع الهباء الذي هو كل السوء وهو مستور بالظلام الذي هو العدو الوهمي والغيبي والمتواري عن إمكانية النيل منه أو القضاء عليه.

فلم يكتف الحوار بعرض الموضوع بل عرض كل ما يحيط به من مصاعب وخطوات عملية للوصول إلى الهدف المنشود.

لقد أظهر الحوار خطابا سياسيا عميق الدلالات، منفتحا على دلالات اجتماعية وثقافية ونفسية، فالخطاب يتحدث عن مجتمع يعيش أفراده الطلم والقهر والطغيان، كما يعيشون حالة الضياع لعدم قدرتهم على تحديد أعدائهم وإدراك أماكنهم، وأظهر أيضا حالة التشتت بين أفراد المجتمع وهذا ما يزيد في ضعفهم ويضيف على وهنهم وهنا على وهن.

فوظائف الحوار أرحب من مساحة النص وأرحب من إطار العمل الأدبي لأنه لا يكتفي بظاهر دلالاته بل يتعدى ذلك عمقا في الخلفيات والأبعاد والغايات والمقاصد التي تضيق بها الأوراق والمجلدات. إنه يقوم بدور كبير في تقديم الشخصيات ورسم صورة توضح طبائعها وأبعادها النفسية والاجتماعية والأخلاقية.

الصياد الهرم يملك حكمة وخبرة ومعرفة وتجارب تمكنه من رؤية الهدف والغاية والوسيلة للقضاء على الذئب الأسود، أما دغمش فيبدو حائرا، مترددا، قليل التجربة من خلال أسئلته التي تحكي آفاقه المحدودة، فيضيف الكاتب في موضع آخر: قال دغمش:

- مهمتنا إذن، طويلة!
- وتظنها منجزة قبل عيد الأضحى المبارك؟
- لكننا نكون، عندئذ، قد متنا!
- ويكون أولادنا، ثم أحفادنا، قد كبروا.
- يا للنفس الطويل يا صاحبي!
- ودونه لا فائدة ترجى![1]

فقد اشترك السرد والحوار في استراتيجية التعبير عن شخصية كل من دغمش والصياد، وقد اشتركا في أداء هذه الوظيفة.[2]

يورد الكاتب شكلا من أشكال السرد في المقام نفسه فيقول:

«... دعهم يستريحوا، ودعنا نستفد من حكمتهم، من تجاربهم، من خبراتهم، وبعد ذلك نرحب بعودة المستريحين من الراحة، فإذا لم يعودوا فلا لوم عليم، لأنهم في تقديري لن

1 . الذئبل الأسود ص9-8

2 . معجم مصطلحاتي، نقد الرواية، 82.

يستكينوا، لن ينسوا، وهم جياع، أن يضعوا بنادقهم في أيدي أبنائهم»[1].

فقد تعددت وظائف الحوار باستراتيجية واضحة، تاريخية وتوثيقية تتحدث بتسلسل منطقي عن مجريات الأمور في الوطن العربي وكيف تتعاقب الأمة جيلا بعد جيل على حمل بندقية التغيير ضد وهم هو العدو القريب البعيد الشبح الخفي عن حراب بنادقهم.

وقد عمد الحوار إلى أخذ الأفكار إلى آفاق متعددة: محلية هي صنيعة الحوار الآني ومستلزماته، وقومية هي وثيقة مخطوطة في وجدان الأمة ووجدانها.

فالوظيفة الأولى الأساسية قد برزت في كونه يشكل محورا يستقطب حوله فكرة الرواية، ومضمونها العميق.[2]

ويتعداها إلى أفكار أخرى هي في خدمة الهدف والمقصد، فالفكرة الأساسية هي محاربة الذئاب السود، والفكرة الأخرى هي تصوير الحالة الاجتماعية للذين يسيرون على درب النضال والتغيير.

وقد انتقل بالسرد والحوار بحركة الحدث إلى أكثر من دائرة داخل المدونة الواحدة.[3]

ومن أدواره التي أحسن توظيفها، جعلُ الشخصيات تجمع بين الهدف الرئيسي وبين دوافع الشخصية وغاياتها الخاصة.

فهو يؤمن الفرصة التي تؤمن أو تمثل استشرافا لباطنية بعض الشخصيات وإلقاء الضوء على الفضاء الداخلي للحدث القصصي فضلا عن أنه يقوم بإعطاء بعض المعلومات عن الشخصيات القصصية أو المبررات والدوافع الكامنة وراء تصرف معين، فهو وظيفة توضيحية تتدخل في تشكيل السرد القصصي أكثر مما هي تزيينية تعنى بالخارج القصصي فحسب.[4]

يقول حنا مينة : «كنت قناصا محترفا!

– في تلك الحرب الأهلية القذرة؟

– نعم فيها!

– ولا تخجل من المجاهرة بذلك.

– ولماذا أخجل؟ كان القتل شغالا، ودون تمييز. إنها الحرب، وماذا يفعلون في الحرب؟ يتصافحون؟ يقبل الأعداء بعضهم، قال له إنه جاء يطارد الذئب الأسود تكفيراً عما ارتكب من جرائم؟ ...[5]

---

1. الذئب الأسود: ص 10–9.
2. شاكر النابلسي، النهايات المفتوحة: 55.
3. فاتح عبد السلام، الحوار القصصي – تقنياته وعلاقته السردية، 29.
4. د. محمد صابر عبيد و د سوسن البياتي، مرايا السرد وجماليات الخطاب القصصي ، 37–36.
5. الذئب الأسود ص57–56.

– هذه دوافع دغمش الحقيقية، فهو باعترافه قد حدد دوافعه الحقيقية التي لا يخجل منها بل يبررها، ويعترف بأسبابه، إنه التعصب الأعمى، إنها الفتنة الكبرى، وهذه ذيولها: ذئاب سود!

مدونة تنقلنا إلى أسباب الحرب الأهلية في لبنان ونتائجها السلبية، وتدفعنا إلى التساؤل عن ماهية مهمة دغمش القناص الذي تحول إلى ثائر على أولئك الذي دفعوه بشعاراتهم الواهمة ليكون قاتلا محترفا، ثم يسعى للتكفير عن أعماله بأن يكون مدافعاً عن الفقراء، ساعياً وراء العدو الحقيقي لقتله، عساه يوفق في وضع حرفته التي اكتسبها بحرب عبثية، يضعها في خدمة قضية شريفة وجليلة.

إنها استراتيجية فاعلة في الكشف عن خفايا الدلالات وأبعادها وقد استعرضنا نماذج لتبيان فاعلية تلك الاستراتيجية ولا ندعي بأننا قد أحطنا بكل ما يقدمه الحوار من خدمة توضيحية، تساهم في خلق النص خلقاً جديداً، يكشف ظاهر الدلالات من جهة، ويأخذ الحوار إلى حيث يجب أن يذهب، حاملاً معه قصصاً وحكايا، وأسرارا ، وهواجس، واعترافات، ولواعج نفوس، وأسفاً، ويأساً وقنوطاً، وأملاً واستشراف مستقبل، وانتصاراً.

– **مضامين الحوار ومقاصده:**

إنه البحث عما يدور في خلد المتكلم، والمدخل إلى ذلك هو الملفوظات، والآلية تقوم على ما يصرح به المتكلم وما يرتبط بين الملفوظات وبين المتلقي، لأن ذلك يؤدي إلى مساعدته في تأويل الملفوظات، أو في التبليغ عموماً.

وللولوج إلى خفايا الدلالات لا بد من رصد جملة من الإشارات اللفظية والإيقاعية والدلالية وغيرها من الدلالات وصولاً إلى عمق قصدياتِ الحوار سواء الظاهرة في دلالات الألفاظ الظاهرة والصريحة أو في دلالات الجمل وما تحمله من دلالات إجمالية من خلال السياقات المختلفة.

فكل حدث لغوي ليس منبثقا من فراغ أو من عدم إنما هو متولد من أحداث تاريخية ونفسانية ولغوية... وتتناسل من أحداث لغوية أخرى لاحقة له.[1]

فالفكرة هي هي إنما اختيارها، له من الأهمية تبعا للسياقات النفسية والاجتماعية والثقافية والتاريخية والسياسية، ومن المعروف أن لكل عمل أدبي فكرة يشتمل عليها، بل أن كل شيء في العمل الأدبي يهدف إلى نقل الأفكار والمعلومات بكافة الوسائل الفنية، والروائي يجب أن ينقل أو يبلغ في حدود القيود التي تربطه بوسائل التعبير، والحوار باعتباره أداة من أدوات

1 . د. محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 1986، ص 120.

التعبير، وإن دور الروائي في التعبير عن فكرته، عن طريق الحوار – في كيفية جعل المعنى الذي يقصده واضحا مفهوما يكون بسيطرة الروائي على مادته التي تجعل منه روائيا وتجعل الفكرة واضحة في ذهنه.[1]

فلكل خطاب منطلقات وأسباب موجبة ومقامات وأهداف وتوجيهات وتاثيرات وصناعة توجهات وغيرها من المقاصد التي تطول لائحتها وتتعدد بتعدد مقاصد الحياة الإنسانية: «لقد تعلمت في سن مبكرة أن أكتب عن الناس للناس، أن أكتب عن بعضهم لكلهم»[2].

يعتبر حنّا مينه نفسه أبرز من يشخّص البطل الإيجابي في الأدب العربي الحديث. يقول"إنّ ما أكتبه يحاول أن يجسّد الجمال الذي خلقه النّاس وأدركوه، ومن أجمل هذا الخلق أن يكون الرّجال نافعين حقّا وأصدقاء حقّا وشجعانا حقّا وأن يكونوا مستعدّين لقتال القروش والذّئاب، أن يدفعوا عن مملكة الوطن أعداءها وعن المجتمع أعداءه»[3].

فخطاب حنا مينة الروائي هو خطاب تهييجي، وإغضاب وتشجيع وتحريض، وتنفير، وتحبيب، وتعجيز، وتحسير، وتكذيب، وتشريف وغير ذلك.[4] وقد تنوعت التعبيرات عن كل حالة من كل الحالات التي سنوردها لاحقا.

وسنعتمد أفعال الكلام التي تعتبر من أهم محاور الدرس التداولي الحديث وهي مجال أساسي لدراسة مقاصد المتكلم ونواياه، فالمقصد يحدد هدف المرسل من وراء سلسلة الأفعال اللغوية، التي يتلفظ بها، وهذا ما يساعد المتلقي على فهم الخطاب، ومن ثمّ يصبح توفر القصد والنية مطلباً أساسياً، وشرطاً من شروط نجاح الفعل اللغوي، الذي يجب أن يكون متحققاً ودالاً على معنى.[5]

ومن بعض أسس علم الكلام الوظيفة الحجاجية: ومن تعريفاتها أنها: عمل غرضه دائما أن يغير وضعا قائماً.

والذئب الأسود رواية اجتماعية وسياسية، قدمت بالأسلوب المباشر أو بالتصريح وعلى ألسنة الشخصيات أو عبر الخلاصات التي يعبر من خلالها الراوي عن آرائه، ويكون خطابه فيها هادف لتغيير واقع واستبداله بواقع آخر.

فيجيب بشير رداً على أكرم: «الذئب الأسود حسبما أرى، بين جلود أصحابه وأجسامهم، فقد دخل النسيج الحي لهذه الأجسام ومن المستحيل أن نخلعه كالضرس المسوس. إنه مندس

1. د. طه عبد الفتاح مقلد، الحوار في القصة والمسرحية والإذاعة والتلفزيون، 15.
2 . حنا مينه، (كيف حملت القلم)، دار الآداب , بيروت 1986، ص25.
3 . هواجس في التّجربة الرّوائيّة، دار الآداب ، بيروت 1982 ص 91.
4 . الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 251–2/274، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت.
5 . نعمان بوقرة، نحو نظرية لسانية عربية للأفعال الكلامية قراءة استكشافية للتفكير التداولي في المدونة اللسانية التراثية، مجلة اللغة والأدب، عدد 17/2006، ص170

في اللحم، وقد صار، في أيامنا هذه، لحما من اللحم، وقتل اللحم الإنساني جريمة يعاقب عليها القانون، وفوق ذلك، وحتى ولو تمردنا على القانون، فإن الذئب الأسود في لحوم كثيرة، وليس من المعقول، أو من الممكن، أن نطلق عليها كلها ...هذا رأيي![1]

إنه خطاب يجمع فيه بين التصريح والتلميح والرموز التي تحدد المسؤوليات، وقد قدم الحجج المنطقية والبراهين باستراتيجية إقناعية لا مجال لدحضها، واختار مثالاً حياً تشعر بآلامه كل الناس، وتعاني من أثر أوجاعه وهو الضرس المسوس، فشأنه شأن الفساد والظلم الذي استشرى بين الناس وأصبح جزءاً كيانيا من كينونتها لذلك من الصعب القضاء على الفساد لأنه بذلك يقضي على اللحم الذي فسد وبذلك نقضي على الجنس البشري أو العدد الكبير منها.

فالخطاب هو سلسلة من الأفعال الكلامية، ولكي تكون الإجابة واضحة عن السؤال التداولي الحجاجي، لأي غاية تم إنتاج النص؟

وللوصول إلى أفضل الإجابات عن هذا السؤال، كان لا بد من اتباع منهجية تداولية نرتكز من خلالها على بعض عناصرها من تلك العناصر التداولية نظرية الأفعال الكلامية بعناوينها المتفق عليها بين علماء اللغة والنقاد الذين طوروا هذه المفاهيم بالأشكال التي استقرت عليها في بعض الدراسات الحديثة.

وعليه» فإذا كان الكلام هو ما له صفة الفوضوي والفردي المتوحش، وإذا كان الخطاب هو التوجه المرسل إلى آخر، فإن القول هو، وربما إضافة إلى هذا الحد كله، نبرة، كتلة نطقية، لها طابع الفوضى وحرارة النفس، ورغبة النطق بشيء، بقول، وليس له تمام الجملة، ولا هو تماما النص، بل هو فعل يريد أن يقول، القول بهذا المعنى هو فاعلية يمارسها متكلم يعيش في مكان اجتماعي وفي زمان تاريخي وهو، من حيث هو كذلك، ذو طابع تناقضي، وهذا الطابع هو نفسه طابع العلاقات الاجتماعية بين الناس في المجتمع.»[2]

لقد تضمنت هذه المدونة التي تختصر جملة من الإشكاليات، التي من خلالها سندخل إلى عالم الأفعال الكلامية لندرك كيفية استثمارها بالآليات التعبيرية المستعملة في الخطاب الروائي، للدلالة على القوى الإنجازية لهذا الخطاب.

ولم تغفل الخلاصة الخطابية عن دور المقام الاجتماعي أو التاريخي للحدث الكلامي، فقد يقول المتكلم شيئا ويعني شيئا آخر. وقد يستمع المخاطب شيئا له معنى، ويفهم منه معنى آخر، تساؤلات لا بد من الإجابة عنها من خلال نظرية الأفعال الكلامية التي تقدم آليات تحليلية عن كيفية عمل العناصر التعبيرية كالإنشائيات والإيقاعيات والإخباريات وتحولها إلى أمر أو دهشة أو سخرية أو غير ذلك... ولا بد من رصد كيفية إنجاز الأشياء بالكلمات لتتحقق

1 . الذئب الأسود، ص29.

2 . يمنى العيد في القول الشعري، دار توبقال للنشر ، المغرب ، ط1، 1987، ص10-9.

القوة الإنجازية التي هي غاية النص الخطابي وهدفه.

ويعد مفهوم القوة الإنجازية أو القوة المتضمنة في القول من أهم المفاهيم التي ستساهم في رصد القضايا التداولية في رواية الذئب الأسود المتعلقة بأفعال الكلام واستخراج المعاني وكشف قوتها الانجازية ووظيفتها الحجاجية.

تنطلق إجراءات التحليل من المدونة، والخطوة الأولى هي بالتركيز على جزء من المدونة لأن كل جزء يمثل وحدة خطابية تتضمن فعلاً كلامياً واحداً أو أكثر، ثم سنقوم بالكشف عن ظروف إنتاج الخطاب. عن أسبابه، والظروف المحيطة بالموقف الكلامي، وأطراف الخطاب، والصيغ التعبيرية الداعمة للتحليل الدقيق.

- **التوظيف السياسي لأفعال الكلام:**

يقول حنا مينة في الذئب الأسود: «لقد صارت الغابات الاثنتان والعشرون مرتعاً لهذا الذئب، وصارت، تاليا ميدان معركة ضد عدو معلوم مجهول. كان اختلاط الصيادين والصيادات يشكل في ذاته مجتمعا غريبا يعبر عن مقومات المجتمع البشري المألوف، من حيث بدء الصلات وتناميها، تطورها، تشابكها، بين الذين يجمعهم هدف واحد، وتفرقهم أمزجة وعادات مختلفة. وفي جو خال من الإكراه، في قدسية الغابة، يسيء الذئب إلى هذه القدسية، لأنه، إذا لم يردع يؤدي إلى العنف، وكل من يرتكبه يُدان بتهمة محاولة الاغتصاب بالقوة، وتكفي تهمة كهذه لإخراجه من الغابة بعد إنزال العقاب المناسب له».[1]

يتحدث حنا مينة عن الغابات وهو في الحقيقة لا يعتمد التصريح بل التلميح في التعبير عن موضوعه، فالغابات التي يتحدث عنها هي البلدان العربية، وقد اختار التعبير عنها بلفظ يشبه توصيفها وهو لا يقصد التمويه فقط بل حاول الإشارة إلى العالم الضبابي والغامض الذي تحيا في كنفه شعوب هذه البلدان وما تعنيه لفظة الغابات من دلالات دالة على طبيعة الذين يعيشون فيها أو طبيعة القانون الذي يحكم علاقة المخلوقات المختلفة فيما بينها.

وقد أشار إلى نوع من هذه الكائنات وهي الذئاب وهي من المخلوقات الأكثر فتكاً، وما تزرعه من رعب في قلوب الناس.

ومن العناصر المكونة لتلك المدونة الآتي:

- أفعال القول وهي جملة من الأحداث الكلامية الهادفة والمعبرة والمؤدية إلى الحصول على القوة الإنجازية، ومن تلك العناصر:

- متضمنات القول: تطالعنا متضمنات القول من خلال الظواهر الدلالية والخفية في قوانين الخطاب، على أن الخطاب بكل مؤشراته اللفظية والتركيبية والدلالية يتوجه إلى المجتمع

1 . الذئب الأسود ، ص65، 66.

العربي بجملته وليس إلى دولة واحدة، وهو في خفايا خطابه يذكر بأهمية الوحدة العربية، وما تعانيه البلدان العربية من ظلم مشترك ما يدل على أن الظالم واحد وإن تقسمت الغابات واتخذ كل قسم اسماً خاصاً به.

- الافتراض المسبق:

إن حنا مينة لا يتوجه إلى جماعة لا تدرك ما يقول، وهي تعرف مقاصده، فالافتراض عن معلومات سابقة قائم بين الطرفين، فهو يتحدث عن الغابات وعن الذئب الأسود، ولا شك أن الافتراض يقتضي وجود دلالات تلك الرموز في وعي المخاطب وهو افتراض يقيني بوجود حدود سياسية تفرق البلدان العربية على الرغم من المشتركات الكونية واللغوية والدينية الجامعة بين أطراف هذه البلدان.

والمقام الخطابي يساعد في فهم الواقع المثبت، فهو واقع حقيقي ومعاش، ومفاعيله الاجتماعية والاقتصادية والسياسية جاثمة على واقعه المرير.

- الأقوال المضمرة:

إن محتويات هذا الخطاب يفسرها سياق الحديث، فما هو هدف هذه المدونة وما الغرض منها؟

وإلام يدعو الكاتب المخاطب؟

إن الأقوال المضمرة هي ما تقرأه العقول الواعية من الصور اللفظية ومن صيغ التراكيب ومن المستويات الكلامية بكل أبعادها.

فحنا مينة لا يقصد التوصيف الجامد لحالة الناس ولا الرسم الفوتوغرافي بألوانه الطبيعية بل محاولة الحث على عدم الرضوخ لحالة الاستكانة لهذا الواقع الذي يرضى برضوخ الناس ويحكم على من يخالف توجهاته بالطرد وبالنفي وبالإلغاء المعنوي والجسدي. فقد ورد في قوله: «وتكفي تهمة كهذه لإخراجه من الغابة بعد إنزال العقاب المناسب به. «فيقدم هذه الصورة من صور القمع المتبع ليقول للمخاطب وليطرح عليه السؤال، هل أنت موافق على هذ النمط من الحكم، وما تظنه بعيداً عنك، ألا تراه سيلامس حياتك بشكل أو بآخر؟

2- الاستلزام الحواري:

فالناس في خطاباتهم قد يقولون ما يقصدون وقد يقصدون أكثر مما يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون، فجعل همه إيضاح الاختلاف بين ما يقال وما يقصد مما يقال هو ما تعنيه الكلمات والعبارات بقيمتها اللفظية وما يقصد هو ما يريد المتكلم أن يبلغه إلى السامع على نحو غير مباشر اعتماداً على أن السامع قادر على أن يصل إلى مراد المتكلم بما يتاح له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال فأراد أن يقيم معبراً بين ما يحمله القول من معنى صريح

وما يحمله من معنى متضمن.[1]

وتبيان أهمية مفاعيل هذه الحالة الكلامية، ما ورد في الذئب الأسود:

قال دغمش:» أنا من التائبين لأجل التوبة وحدها.

– هكذا بكل بساطة؟

رازه الحكيم بشير، وقال : ... – أنت تخدع نفسك بنفسك ... قل لماذا تبت؟ اعترف. كي أقتل الذئب الأسود في هذه الغابة.

... أنت كاذب ... اهتديت في آخرها، عندما لم يبق مجال للقنص.

أجاب الحكيم بشير بصوت هادئ:

– أنا لا أنكر شيئا ... جئت إلى هنا لتقنص، لأنك اعتدت القنص، هذه هي المسألة![2]

فهذا الحوار يفترض أن السامع قادر على أن يصل إلى مراد المتكلم من خلال كل وسائل الاستدلال الذي يؤكد بالاستلزام الحرفي بأن دغمش جاء إلى الغابة ليقنص الذئب الأسود بجرأة كبيرة، أما المعنى الاستلزامي فيحدد من ناحية، هدفه بالتوبة من جهة للتكفير عن ماضيه الدموي ومشاركته في الحرب الأهلية وممارسة مهنة مارسها لفترة طويلة وهي القنص الذي اعتاد عليه فوجه بندقيته إلى اصطياد الذئب الأسود لمتابعة هذه الهواية.

ومن الطبيعي أن الطرفين، المتكلم والمخاطب، متفقان على أبعاد الدلالات ومهيَّآن لأن يفهم واحدهم الآخر." ويجب على المساهمين في الحوار أن يكونا على علم بالمعطيات الآنفة". [3]

إنها اللغة المشتركة بين الطرفين لتحقيق القصد الحقيقي من الخطاب، والحكيم ودغمش يتفقان في فهم قصد الخطاب بينهما وما سعى لكتمه دغمش قد وضحه الحكيم وبلسان صريح، وأراد أن يرسل ليس إلى القريب من المخاطبين بل إلى البعيد منهم وهي الأمة بكليتها ومفاد خطابه بأنه لا خلاص من وهم هذا الضعف والخنوع والاستسلام إلا بالخروج من وهم الانتصار بالأنا التي هي المقتل الأساس للفرد من جهة وللأمة من جهة أخرى.

**الأفعال الكلامية ومقاصدها:**

1 . الأخباريات

وغرضها الإنجازي هو نقل المتكلم واقعة من خلال قضية يعبر بها عن هذه الواقعة، تحتمل

1 . محمود نحله، آفاق جديدة، في البحث اللغوي المعاصر، ط1، 2006، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ص33.

2 . الذئب الأسود ص86-85.

3 . العياشي إدراوي: الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ط1، 2017، منشورات الاختلاف ، الجزائر، ص 104.

الصدق والكذب، والحالة النفسية التي تعبر عنا هي الاعتقاد.[1]

ومما أورده حنا مينة في إحدى خلاصاته السردية، يقدم عرضاً واقعياً معاشاً في أذهان كل أفراد الأمة التي تتأثر بتلك القضية الخالدة، حيث تتكرر على ألسنة الناس بعض عبارات الضجر اليأس والتذمر من حالة الضياع في آليات الخلاص من القوانين الغابية التي تقض مضاجع الأجيال، جيلا بعد جيل ، فيقول على لسان حكيمه: «ما قاله للصياد دغمش، حول استحالة القضاء على الذئاب السود دون اتحادهم عليها، وتعاونهم لاستئصال نسلها، وإن العمل الفردي يذهب سدى، ويذهب سدى اتحادهم، حتى ولو تم ، دون أن يعي المتضررون من الذئاب خطرها عليهم، ودون أن ينهضوا هبة واحدة لمكافحتها بالتعاون مع الصيادين وأن تكون لهم كما للصيادين ، وسائل هذه المكافحة ...»[2].

فكلامه عن الذئاب السود يفترض وجودها بما تعنيه من حقيقة مخيفة، في الواقع وهي تحتمل الصدق أكثر من الكذب، ويفترض منطق الحياة القائم على قانون القوي، اتحاد المتضررين للقضاء على مصدر الضرر ومنابعه، ويقتضي ذلك منطق الاتحاد لأن خصمهم هو أقوى حتى من اتحادهم، فكيف يسعون لقتله فرادى؟ إنه وهم ضياعهم، وهذا ما يخبرهم به الحكيم المجرب والمختبر لفنون الحياة ومصاعبها.

ومما أخبرهم به، خبر يفترض أولا: عدم إدراكهم له، والثاني: جهلهم بآلية القضاء على الذئب الأسود.

فقد أورد على لسان الحكيم: وسائل هذه المكافحة.

فإن أرادوا القضاء على الذئب الأسود، فكيف القضاء عليه وبأية وسيلة؟

ومتى يتحقق الهدف؟

وما الخطة؟

تساؤلات لا إجابة عنها إلا على لسان الحكيم الذي يتدخل ليخبرنا بفشل العقلية التي تسعى للقضاء على الذئب الأسود،

ويتدخل ليصوب أخطاء الساعين لذلك، وليحدد مسار الأمور بعد انحرافها عن أهدافها، وإن استطاع إعادة توجيه بوصلة الهدف الرئيسي في بعض الأحيان فإنه يخبرنا بطريقة غير مباشرة عن انحرافهم في دوائر أخرى هو يجهل معالمها ونحن كذلك .

وقد أخبرنا بأن الذئب الأسود ليس قدرا على الأمة العربية فحسب بل هو قدر على العالم أيضا مع فارق واضح في التعاطي معه، فيقول: «إن الذئب الأسود ونسله، يجري الكلام عليهما

1 . محمود، نحلة، آفاق جديدة، في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ،ط1، 2006، ص78.

2 . الذئب الأسود ص17.

علنا في بلاد العالم، أما عندنا، في بعض البلاد العربية، فالكلام حولهما يدور سرا، وهناك، في الدنيا، يفضحانهما ، يشهران بهما، يُحاكمان، يُحكمان، أما عندنا، في بلاد الرعية، فإن لا أحد يجرؤ على ذلك.»[1]

من هنا مهمة الصيادين شاقة في القضاء على الذئاب ونسلها، لأن الجواب عن سبب الصعوبة كامن في العبارة الأخيرة: «لا أحد يجرؤ».

ومن يجرؤ سيتعرض للاستجواب والتحقيق والتنكيل لأن الغابات هي ملك لمحميات ولها أصحابها وحماتها والمنتفعون بها.

فالأخباريات لم تفارق كل تفصيل في الرواية، يتلو الحكم بالتوالي، يرافق الشخصيات بكل حركاتها وسكناتها وهفواتها، ليعود ويحدد حنا مينة عبر شخصيته الرئيسية (الحكيم) وبالعبارات الحكمية التي تختزن تجارب حياتية لا يستهان بها، والكل يؤمن بحكمة بشير ويعترف بأهمية الفارق العمري والتجربة، فيقول: «الحب صنو الكفاح، فمن يكافح يحب، ومن يحب يكافح، وإن حواء أغرت آدم بأكل التفاحة، وعندما أكلاها هبطا الأرض، المسكونة بالحب والكفاح معا، وهذا ناموس الحياة ومن الخير أنه ناموسها، لأنه لولا الحب ما كانت الذراري، ولولا الكدح ما عاشت الذراري، وصدقت حكمة الحكيم بشير في فراستها، حين أرخ بداية التاريخ ببداية الجنس، في المأثرة التي اجترحتها حواء، بنقلها آدم «من الغفلة إلى اليقظة» .[2]

فالواقعة التي دفعت إلى آفاق القضية ما تمثله رئيفة من إغراء لكل الصيادين ومنهم بشير الحكيم، وتوجه الحكيم إليها فاتحا ذراعيه وهي تغريه بغنجها، وما دار بينهما من حوار عن أهمية الحب وأهمية الربط بين الكدح والحب.

كل ذلك أدى لطرح القضية الجودية المبنية على ركنين أساسيين الرجل والمرأة وقد شكلا أساس وجود الوجود وبداية التاريخ كانت بالجنس الذي يتناسل الجنس البشري من خلاله منذ أن وجد الحب والشغف بيهما وكانت اليقظة التي سبقتها الغفلة.

فالأخباريات توالت في الرواية وكانت تشع تاريخا وحضارة وثقافة وألما ويأسا وإحباطا وتفاؤلا، في نسيج من الأيقونات اللفظية والأسلوبية والتركيبية العجيبة التي لا تستأذن القارئ للدخول إلى كيانه ولا ترهقه في الكشف عن مقاصدها بل تسلم ما تستحسنه للأفئدة وتتركه وهما محببا لتثير شوق القارئ ونهمه فكانت بوحا وصمتا وضجيجا وسكونا اجتمعت في مرجل تنصهر فيه كل هواجس الأمة وهمومها.

2 . الوعديات:

وهي من العناوين الهادفة للإنجاز في المستقبل، وغرضها الإنجازي هو التزام المتكلم بفعل

1 . الذئب الأسود 21.

2 . الذئب الأسود ص 107-108 .

شيء ما في المستقبل وشرط الإخلاص هو القصد، ولا ينفصل المحتوى القضوي عن الغرض الإنجازي، والمحتوى القضوي فيها دائما فعل المتكلم شيئا في المستقبل.[1]

فرواية الذئب الأسود قد احتوت في مضامين أفكارها على ما صرح به من وعديات جزئية ولا يمكن أن نحسم أمر أغراضها الإنجازية التي تبقى سرا من أسرار الشخصيات بصدقيتها من ناحية وبمقدرتهم على الالتزام بوعدياتهم من جهة أخرى.

يقول الأرقش مخاطبا صديقه صقرش: «... وقد نذرت نفسي لمقاومة هذه القلاع، بصرف النظر عما إذا كنت سأنجح أم لا .. إنها حصينة قلاع الأسياد هذه، ولكنني مصمم على محاربتها، على هدمها، أو أموت فأعذرا «أموت على يقين بأن الشعب سيكون سيدها، من دون حساب للزمن، فالذي يتصدى لإزالة الظلم، حتى ولو جزئيا، لا يحسب حساب الزمن...»[2].

رؤية صادقة في إنجاز فعل في المستقبل، وعد بمحاربة القلاع، على الرغم من حصانتها، غير أنه لم يخف ضعفه وخوفه ويأسه ولم يعد بالنتيجة الحتمية بل تركها للزمن الذي لا يدرك عقل لبيب لا ماضيه ولا مستقبله.

فالقصد لا يمكن التيقن منه لأن النتيجة لن تكون في زمن الواعد وعهده، وما النفع من تركه النتيجة للزمن؟ فقد لا يكون فيها لا الواعد ولا الموعود ولا أحد سيتحقق من منجز الفعل الذي قد تكون الأيام هي الفاعلة في تغيير الظروف وتبديل الأحوال،

ولا يسعنا ملامة الواعد في زمن القهر والظلم والتنكيل فهو يدرك صعوبة المهمة وبأنها ليست ملكا لزمن بعينه بل هي ملك الزمن الآتي في المستقبل، وحصانة القلاع تتحدى الزمن الحالي لتعطل مفاعيل الإنجاز الوعدي بأفعال كلامية تدرك تبعات الوعد وصعوبة تحقيقه.

ويأتي بمدونة كلامية تصفُ تجربة حياتية اجتماعية في زمن وصف بالظالم فيقول:

"علينا أن ننسى تجربة العدالة الاجتماعية الفاشلة، والتي صارت وراءنا، وأن نتطلع إلى العدالة الاجتماعية التي هي أمامنا."

فعن أي عدالة يتحدث؟ وعلى أي زمن يراهن؟ وإلى اية أمة يدعو؟

فالعدالة في وعدياته وهم وسراب، فهو لا ينطلق من الواقع بل يراهن على تجارب تاريخية لها جولة في العدالة الاجتماعية وللظلم فيها جولات.

وما نراه وعداً ما هو إلا هروب إلى المستقبل كي لا يعترف بصعوبة تحقيق الوعد وبعد مناله.

إنها العدالة الاجتماعية التي عجز الأنبياء عن تحقيقها وستبقى أنشودة الإنشانية الوحيدة

---

1 . طالب سيد هاشم، الطبطبائي، نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، مطبوعات جامعة الكويت، ص 30 .

2 . الذئب الأسود 193.

والحية ما دامت البشرية تنبض بالحياة الإنسانية وتسعى لتحقيق إنسانيتها الحقيقية بالعدالة الاجتماعية.

وقد ربط حنا مينه تحقيق الوعديات بعمر الإنسان الاجتماعي وليس الفردي فيقول:

"ما عمر الإنسان بالنسبة لعمر الأرض؟ ذرة لا ترى بالعين المجردة، وليس من المهم أن يقتل هذا الذئب في حياتنا، هذا قصر نظر في أبجدية الكفاح ... بعدنا سيأتي أولادنا، أحفادنا، ذرارينا، ومطاردة الذئب الأسود ستستمر، جيلا بعد جيل".[1]

فقد أكمل مشهدية يأسه في حياة الفرد العمرية وبرر بحجة فلسفية عمر الإنسان الجماعي وبأن تحقيق العدالة الاجتماعية هي مرتبطة بالعمر الجماعي للمجتمعات، وقد لجأ في حججه إلى مصطلحات تضع الإنسان أمام عجزه الوجودي بالمقارنة مع حجم الكون الفسيح. وما غاية الكاتب من هذه المقارنة؟

لا يترك الظالم يستريح لعجز المناضلين في زمنه، وأن يرسل رسالة واضحة إليه بأن الهم الإنساني هو أقوى وأبقى من الأهواء الفردية، وما وعده بمتابعة مسيرة النضال إلا ليمزج بين الإنسان وبين الوجود المحكوم بناموس عام قائم على مبادئ لا يمكن لمخلوق مصادرتها أو إلغاؤها أو امتلاكها في كل الأحيان وستبقى الشعوب تؤرق الظالمين وتقض مضاجعهم إلى حين.

فلا ننكر الوعد العام الذي لم تترك الأفعال الكلامية فرصة إلا وعبرت من خلاله عن سعيها لإنجاز هذه الأفعال إلا أنها جوبهت بالمنطق العقلي بالعجز والضعف واستحالة الإنجاز لا لعدم صدقية الواعد بل لعد قدرته على ذلك لصعوبة الواقع ولتعقيدات ظروفه.

وفي الحديث عن قدرة المتكلم على أداء ما يلزم نفسه به، ونحن نعلم علم اليقين بأن ما يورده في وعدياته عن قضية يطرحها ما هو إلا جزء من معاناة كل فرد من أفراد هذة الأمة، وكلنا يدرك بأن وعد المتكلم ما هو إلا رجاء أكثر من إلزام بتحقيق الوعد للمعوقات الجوهرية في مناحي الحياة العامة، السياسية منها والاجتماعية والنفسية والدينية اللوجستية وغيرها.

3 . التوجيهات

لا فعل كلاميا دون غرض إنجازي، والفعل الكلامي غرضه الإنجازي يقتضي وجود الطرفين المتكلم والمخاطب، وفي التوجيهات والأمريات لا يتم التركيز على المخاطب بل يتم التركيز على المتكلم.

فالغرض الإنجازي في التوجيهات هو محاولة المتكلم توجيه المخاطب إلى فعل شيء ما، واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات، وشرط الإخلاص فيها يتمثل في الإرادة والرغبة الصادقة.

1 . الذئب الأسود ص211.

فالمرجع في الإلزاميات هو المتكلم، أما في التوجيهات فهو المخاطب، ولذلك لا يمكن ضم الإلزاميات والتوجيهات في قسم واحد كما أن المتكلم في الإلزاميات لا يحاول التأثير في السامع وفي التوجيهات يحاول التأثير فيه «.[1]

إنها التوجيهات المتتالية التي يطلقها الحكيم بشير، يعيد إلى الآخرين توازنهم واتزانهم، فهم يسعون بانفعال للقضاء على الذئب الأسود، ويتصرفون بانفعالات مختلفة في مقاربتهم للمسائل الشخصية والوطنية، ولا يدركون بأن ما يقومون به، يعود بالخدمة الجليلة وبالفائدة الوفيرة إلى الذئاب السود وإلى نسلها من بعدها، فيمنحون حياة جديدة هي من فعل أيادي الصيادين وليست من نتاج مكائد الذئاب.

وقد تعددت التوجيهات وتنوعت بتنوع المعبرين عنها، فقد لا يكتفي الكاتب بتكليف بشير الحكيم بهذه المهمة بل لجأ إلى كائنات حية مستعينا بدلالاتها التاريخية والدينية وما توحيه من قدرة على الإتيان بحكمة من هنا أو بتوجيه من هناك.

ومن توجيهاته ما ورد على لسان بشير الحكيم، يقول:

«وما العمل يا الأرقش؟ اليأس عار، والأمل حلم حتى لا نسقط في العدم، والرجاء في سفر، والذئاب السود ترتع، وأنت تعرف الصياد صقرش، والصيادة قمطرة، وتعرف دغمش وبشير وأكرم ورئيفة ونافع والآخرين، وقد قلت لهم هذا الكلام كله، وشرحت لهم الواقع بكل تفاصيله، المعلنة منها والمستترة، فأجابك الصياد بشير، بحكمته التي لا شك فيها «القول موت فقلها ومت!» ولما صارحته بأن هذه الحكمة قد تكررت على لسانه مرة ومرة ومرات، أطرق ينكت بعود من الصنوبر !»[2]

فما أراد الصياد بشير من مقولته الموجزة والمعبرة إلى حدود تتسع حدود أوطاننا وقد تجوزها إلى حدود العالم الكوني والإنساني «القول موت فقلها ومت» عبارة يخالف فيها منطق الوجود ليصنع منطقاً جديد هو من إبداعات الأنظمة في العالم العربي وفي الغابات الاثنتين والعشرين.

كيف سيقولها ويموت؟ والمنطق يفترض أنه لا وجود بدون صوت، لأن الصوت هو دليل على وجود الحياة، والصمت هو الموت المطلق، فتشحن العبارات بدلالات جديدة على حساب دلالاتها الأصلية، ويتحول القول إلى موت وذلك لأسباب معاشة بكل تفاصيلها في وجدان كل رعايا البلدان العربية، فالقول يعني التعبير عن الرأي والقول توجيه اتهامات إلى من يساهمون في الظلم الاجتماعي والقول رفض لسياسات القمع والتنكيل وكم الأفواه، وهذه كلها تستدعي شهوة التشفي والاقتصاص من الثائرين والمحرضين أو من الذين سيتهمون بتهم معلبة وجاهزة

1 . محمود، نحلة، آفاق جديدة، في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ط1، 2006، ص31.

2 . الذئب الأسود ص 107 .

تودعهم داخل الزنزانات والسجون أو قد تؤدي إلى إلغائهم ماديا بعد إلغائهم معنوياً.

وفي توجيه مباشر للصياد دغمش، يطلق بشير العنان للتعبير عن تجاربه وعن الواقع الذي تتخفى فيه الذئاب السود ولقدرته على التخفي، فهو قد يتخفى بثوب الحمل الوديع مع ما تحمله العبارة من أمن وأمان لكل من يحيط بهذا الحمل، الذي ينتظر الفرصة ليتمكن من الانقضاض على فريسته البشرية، وقد استعان بالألوان والكاتب على علم بدلالاتها، فكما لون الذئاب السود باللون الأسود مع ما توحيه من رعب وخوف وغموض وفتك وقلق وحزن، فقد لون ذئباً رديفاً بالأصفر ليشير إلى من يدافع عن الذئاب السود ويحميها وينظّر لها بالكلمة وليس بالمقصات التي تعاقب الألسن والرقاب. فيقول موجهاً:

«اسمع يا دغمش ! نحن هنا، في هذه الغابات، لهدف وليس للتسلية ... أعرف من أين جئت، وماذا كنت تقنص، وكي أزيدك معرفة بنفسك علي أن أصارحك: أنت ، حين أقسمت بأنك تبت عن قنص البشر، لم أصدقك، ولم تصدقك رئيفة أيضا، وأنا لا أخاف الذئب كذئب، أخاف الذئب عندما يلبس ثوب الحمل، وزيادة في الإيضاح أقول لك: الذي أقصده هو الذئب الأصفر، الموجود في هذه الغابات، وليس الذئب الأسود الذي نطارده فيها.

أنت ذئب في ثوب حمل، والذئب عندما يلبس هذا الثوب، تكون له غاية هي الغدر، فإذا غدرت هناك، في المدينة، خلال الحرب الأهلية، وعشت على قنص البشر، فإنك لن تستطيع ذلك هنا في الغابة .. هل تفهم!»[1]

فهل دغمش هو الشخصية الصفراء الواحدة في هذه الغابة أم أنه نموذج للذئاب الصفر بعد الحرب الأهلية وقد أصبحوا كثرة ومن الصعب الرهان على الصيادين للقضاء على الذئاب السود، لأن الصيادين تنقصهم الهوية الثورية الحقيقية والصادقة، فهم من نتاج حرب أهلية وليسوا من نتاج الحس الوطني والقومي، والفارق كبير بين من سعى لقتل الذئاب بخلفية التكفير عن إجرامه في الحرب الأهلية وبين من ترعرع على حب الوطن وتغذى من حليب التضحية والوفاء.

أما التوجيهات على لسان الهداهد، تمنح الجو الروائي الحياة وتسترجع إلى الحاضر كل ما ترمز إليه الهداهد في عهد سليمان الحكيم، وتستحضر مقدرتها في الكشف عمّا تعجز الحيوانات الأخرى عن كشفه، وكما استطاعت معرفة مملكة بلقيس فإنها قادرة على معرفة حاضر الأمة ومستقبلها، وهي قادرة على الدخول إلى نوايا الصيادين وفضح نواياهم، فأنطقها الكاتب لتعبر عن توجيهاته فتقول: "في هذه اللحظة أنشد هدهد يقف على شجرة مجاورة:

يا بائع الصبر لا تشفق على الشاري فدرهم الصبر يسوي ألف دينار

أجابه هدهد آخر، يقف على شجرة مقابلة:

للدهر يوم علينا، كما يوم لنا، لم يدم أبدا في حكمه الجاري!

1 . الذئب الأسود ص 128.

رفرف هدهد ثالث، على شجرة أخرى وأنشد:

وما عشت من بعد الأحبة سلوة لكنني للنائبات حمول!

زعق هدهد رابع، بصوت كالنفير:

"للظلم يوم، وللمظلوم يومان!"[1]

فلكل هدهد حكمته، يتوجه بها إلى كل من يسمع، فالصبر لا يقدر بثمن، والأيام تتداول بين الناس لتعطي من أخذت منه ولتأخذ ممن أعطته، ولا بد من التقلبات في الأخذ والعطاء وهي قادرة على ذلك.

وتختتم الهداهد حكمها بأن للظالم يوما وللمظلوم يومين، وما على الساعين لنشر العدالة والمساواة إلا الانتظار والصبر، وسيأتي اليوم الذي تتحقق فيه أحلام المعذبين والمضطهدين بدول عادلة وقوية ترسم سياساتها الحالية والمستقبلية بارادة حرة ، تليق بالحضارة العربية وبالقدرات العقلية التي تشع من إبداعات وابتكارات الشباب العربي في كل البلدان.

4 . التعبيرات

من أغراضها الإنجازية هي التعبير عن الموقف النفسي حيال الواقعة التي تعبر عنها القضية، وهنا لا يحاول الكاتب مطابقة الكلمات بالواقع ولا العالم الخارجي يطابق الكلمات وهذا ما يسمى بالاتجاه الفارغ "والمطلوب الاخلاص في القضية وتحقق المحتوى القضوي سلفا ويدخل في هذا الصنف أفعال الشكر والتهنئة والاعتذار ...".[2]

« من كان يظن أنني بعد هذا العمر، أشتهي رئيفة، وأحاول رغم تحذيرها، أن أضمها إلى صدري؟ الظن هنا، صار حقيقة ... فعلتها، أخطأ. الخطأ يتطلب ثمنه، دفعت الثمن صاغرا، وجدت نفسي في ماء النبع، خجلت، وماذا ينفع الخجل بعد فوات الأوان؟ الحكيم أضاع حكمته، تعلمت درساً مفاده ألا حكمة مع الشهوة، نسيت أن الرجل لا تذله إلا شهوته، اشتهيتها وصار الذي صار، ذهبت إلى بقعة معزولة في الغابة ، جففت ثيابي ، تذكرت أقوال الهداهد : « قرب الدار خير من البعد «.[3]

فالقضية هي القضاء على الفساد، ومحاربة أشكال الرذيلة وأنواعها، ومن كان ينظَر للصيادين في أرجاء الغابة بل الغابات كلها وقد ذاع صيت حكمته عند القريب والبعيد، ومن استطاع قراءة غايات وأهداف ومقاصد بعض الصيادين، ومن أعطى خلاصة خبرته وقدم كتاب تجاربه الزاخر بالحكم والتوجيهات والإرشادات ومن لام فلانا وحمّل المسؤولية لفلان،

1 . الذئب الأسود ص10.

2 . محمود، نحلة، آفاق جديدة، في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ط1، 2006، ص80.

3 . الذئب الأسود ص 176-175.

ومن نزه نفسه وأمثل أفكاره، ومن حذر الأرقش من الغرق في الحب لأنه يحرفه عن القضية الأساسية، ومن ومن ومن، نراه قد وقع في شرك الحب وفي إغراءات حواء، وعلق بحبائل مفاتنها، وسقط فريسة بين أنياب بروق الهوى والشهوة وأمارات النفس، ماسحاً كل ما كان يعتقده ويتبناه من أفكار، متعلما درساً جديداً أن لا قضية مع الشهوة وأن الرجل لا تذله إلا الشهوة.

وهو في تصوره الجديد وبالضيق النفسي، وفي الموقف الوضيع أمام عظمة القضية يعيد بناء مفاهيم جديدة وحكم جديد وتوجيهات جديدة فرضتها طبيعة الموقف على حساب القضية المركزية وما يشكله الموقف من طعنة قاتلة للقضية بمدية سامة هي الشهوة ومفاعيلها.

فجاءت تعبيراته واضحة وصريحة، معترفاً بضعفه وبضعف الرجال بشكل عام ليخفف عنه الحمل الثقيل بمخالفة مبادئه وقناعاته، فشكل علم الكلام متنفسا نقدياً للربط بين الموقف والكلمات التي يعترف الحكيم بأنها لا تلبي طموحات القضية فتأتي الكلمات مخالفة لواقع القضية، ترسم واقعاً جديداً بأن الرجل لا تهلكه إلا الشهوة مهما حصن نفسه بالتجارب والحكم.

**خلاصة:**

حنا مينة في روايته ينشد أنشودة الحياة ، يغني أغنية الوجود لأولئك الذين أرهقتهم السياسات الظالمة، وأتعبتهم االسياسات الاجتماعية القاهرة، يصور كل شخصية بصفاتها وباندفاعها وبترددها وكأنها تقدم أطروحة لنماذج اجتماعية مختلفة في الوطن العربي.

فهو لا يؤمن بالموت ولا يؤمن بالغربة ولا يؤمن بالضياع ولا يؤمن بالخوف بل يؤمن بأن الموت حياة وبأن الغربة اكتشاف ذات وبأن الضياع طريق هداية إلى صواب الأهداف وبأن الخوف قهر للظلام وبأن الموت يموت وبأن الأفكار الصادقة لن يواريها ضجيج القمع ورنين سلاسلهم الجارحة التي خطت أثلاما في أفئدة التواقين للحياة الكريمة بألفاظه الرائقة التي تميزت بسحرها وجمالها وتأثيرها الفعال.

أحب الوطن العربي ورمز إليه بالغابات الاثنتين والعشرين، جعلها مسرحاً تعبر شخصياته في فضائها عن هواجسها وهمومها ومشاغلها وأحلامها الخاصة من ناحية وأحلام كل أفراد الأمة العربية من ناحية أخرى.

أبدع في تبني كل شخصية رؤية للكفاح وللنضال، ولم يخرجها عن واقع انسانيتها إلا في بعض المواقف لخدمة القضية ولرفدها بصور تدفع بها إلى عالم الأحلام والتصورات.

فرواية الذئب الأسود هي أكثر من رواية. إنها فلسفة حياة جرت متدفقة في معانيها، تنبض بالحياة وتجري بين ألفاظها دماء القهر والظلم والأمل والانتصار.

## المصادر والمراجع

المصادر:
- حنا مينة ، الذئب الأسود، دار الآداب، بيروت ،ط1، 2005.
- حنا مينه، (كيف حملت القلم )، دار الآداب , بيروت 1986.

المراجع:
1. الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، 2/274-251، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعرفة، بيروت .
2. سعيد يقطين ، تحليل الخطاب الروائي ، الزمن ، السرد ، التبئير ، المركز الثقافي الكتابي العربي، 1989م.
3. سوسن البياتي ، مرايا السرد وجماليات الخطاب القصصي، دار أعين للنشر ، القاهرة ، ط1، 2008 .
4. سيف الدين أبو الحسن الآمدي ، الإحكام في أصول الأحكام ، دار الفكر ، بيروت ، ط1981/1.
5. شاكر النابلسي ، النهايات المفتوحة، دراسة نقدية في فن أنطوان تشيكوف القصصي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ،ط1، 1985.
6. طالب سيد هاشم، الطبطبائي ، نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب ، مطبوعات جامعة الكويت .
7. طه عبد الفتاح مقلد ، الحوار في القصة والمسرحية والإذاعة والتلفزيون، دار الزيني للطباعة ، مكتبة الشباب ، (د.ط).
8. عمر الطالب ، القصة القصيرة في شعر امرئ القيس ، مجلة التربية والعلم ، كلية الآداب ، جامعة الموصل ، ع1 ، 89، 1979.
9. العياشي إدراوي : الاستلزام الحواري في التداول اللساني ، ط1، 2017، منشورات الاختلاف ، الجزائر.
10. فاتح عبد السلام ، الحوار القصصي – تقنياته وعلاقته السردية.، دراسات أدبية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط1، بيروت ، 1999.
11. فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير وفاتيح الغيب ، دار الفكر للطباعة والنشر ، ط1، 1981.
12. كنفاني، غسان ما تبقى لكم ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ، ط5، 2001م.
13. لطيف زيتوني ، معجم مصطلحات ، نقد الرواية (عربي ، انكليزي ) مكتبة لبنان ، ناشرون، بيروت ،2002، ط1 .
14. محمد مفتاح ، تحليل الخطاب الشعري ، استراتيجية التناص ، المركز الثقافي العربي ، الدار

البيضاء ، ط2 ، 1986.
15. محمود نحلة ، آفاق جديدة، في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية، ط1، 2006.
16. نعمان بوقرة ، نحو نظرية لسانية عربية للأفعال الكلامية قراءة استكشافية للتفكير التداولي في المدونة اللسانية التراثية ، مجلة اللغة والأدب، عدد 17/2006.
17. هواجس في التّجربة الرّوائيّة، دار الآداب ، بيروت 1982.
18. يمنى العيد في القول الشعري ، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1987.

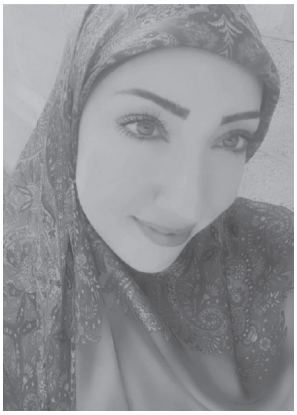

# الفضاء الزمني في رواية "حكاية بحّار" للروائي «حنا مينه»

**الدكتورة هويدا محمود شريف**
**أستاذة جامعية وباحثة في النقد الأدبي**
DrHwayda2018@gmail.com

## مدخل نظري إلى دراسة الزمن:

يرى أحد الباحثين أن تقنية الزمن هي من أدق التقنيات التي تؤثر مباشرة في البنية العامة للرواية وهي التي تحكم الأزمنة المتغيرة في نطاق رؤية الراوي العامة، وبها تتمكن الرواية من الاستجابة لهذه الرؤية في نهاية الأمر[1]..

وتعزو سيزا قاسم أسباب اهتمامها لتحليل الزمن إلى «أن الزمن عنصر محوري وعليه تترتب عناصر التشويق والإيقاع والاستمرار، وإلى أنه يمثل إلى حدٍّ بعيد طبيعة الرواية وشكلها، وترى الباحثة أيضاً أنه ليس للزمن وجود مستقل نستطيع أن نستخرجه من النص كالشخصية أو الأشياء الموجودة في المكان، فالزمن يتخلل الرواية كلها، ولا نستطيع أن ندرسه دراسة تجزيئية فهو الهيكل الذي تشيّدُ فوقه الرواية[2]..

ويبلور رولان بارت رؤيته الخاصة للزمن السردي مستفيداً في ذلك حسب ما يرى حسن بحراوي من الشعرية اليونانية التي أعطت الأولوية لما هو منطقي على ما هو زمني[3]، إذ يعلن بارت في كتابه «الكتابة في درجة الصفر» أن الفعل الماضي المشتق من الفرنسية الدارجة

1 . عبد الحميد المحادين، التقنيات السردية في روايات عبد الرحمن منيف، منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط1 ء 1999، ص 61

2 . سيزا قاسم، بناء الرواية – مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، ص 26 – 27

3 . حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص111

وحجر الزاوية في السرد، لم تعد مهمته التعبير عن الزمن، بل غدا دوره إيصال الحقيقة إلى نقطة ما، وأن يجتث التجربة الوجودية من جذورها، ويتوجه نحو رابطة منطقية مع أحداث أخرى وقضايا أخرى ليؤلف حركة العالم العامة، أي أن هدفه هو الإبقاء على التراتبية المنطقية[1]..

ويشير حسن بحراوي أن بارت يعود إلى تأكيد هذا الموقف فيما بعد في آرائه اللاحقة وذلك جليٌّ فيما يعرضه بارت في كتابه: «مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص» إذ يؤكد أن الزمنية ما هي إلا طبقة بنيوية من طبقات لخطاب وأنّ ما نسميه الزمن في القصّة لا يوجد إلا وظيفياً في نظام دلالي، فالزمن لا ينتمي إلى الخطاب بكل ما للكلمة من معنى ولكن إلى المرجع[2] ويرى تودوروف أن قضية الزمن تطرح بسبب وجود زمنيتين تقوم بينهما علاقات معنية، زمنية العالم المقدّم وزمنية الخطاب المقدّم له، ويرى أن هذا الاختلاف بين نظام الأحداث ونظام الكلام بديهي، ولكنه لم ينل حظه كاملاً من النظرية الأدبية إلا عندما اعتمده الشكلانيون الروس قرينة من القرائن الأساسية لإقامة تعارض بين المتن « نظام الأحداث» والمبنى « نظام الخطاب[3]..

وجدير بالذكر أن هناك تعدداً في المظاهر الزمنية داخل النص الواحد، وقد تعثر البقاء طويلاً قبل أن يصلوا إلى تجاوز خلافهم حول هذه النقطة ويختصروا تلك التعددية في ثنائية محددة سهلت عليهم البحث في الزمن السردي في الرواية[4]..

ولعل أبرز المقاربات التي تحدثت عن تعددية الأزمنة في الرواية هي مقاربة ميشيل بوتور الذي رأى أن هناك ثلاثية أزمنة على الأقل ضمن العمل الروائي هي زمن المغامرة أي الزمن الحقيقي للأحداث وزمن الكتابة أي الزمن الذي يستغرقه الكاتب لإنجاز الرواية وزمن القراءة أي الزمن الذي تنجز فيه قراءة الرواية ويرى بوتور أن زمن الكتابة ينعكس على زمن المغامرة بوساطة الكاتب[5].

أما التقابل بين زمن القصة وزمن السرد أو الخطاب الذي أرسى قواعده الشكلانيون الروس عندما ميزوا بين المتن والمبنى الحكائيين فيعود ليصبح التقابل الأساسي الذي اعتمده النقاد فيما بعد لدراسة الزمن السردي حسب ما أسلفناه، فهذا جان ريكاردو يميز في كتاب «قضايا

1 . رولان بارت، الكتابة في درجة الصفر، ترجمة محمد نديم خشفة، منشورات مركز الإنماء الحضاري، ط1، 2002، ص 40.

2 . رولان بارت، مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، ترجمة منذر كياني، منشورات مركز الإنماء الحضاري، ط1، 1993، ص 54.

3 . تزفتيان تودوروف، الشعرية، ص 47.

4 . حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص114

5 . ميشيل بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة: فريد انطونيوس، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1971، ص101

الرواية الجديدة» بين زمن السرد وزمن القصة ويجعلهما في محورين متوازيين ثم يعرض أنواع العلاقات التي تنشأ بين المحورين[1]. وهذا تودوروف يميز بين زمن الخطاب «زمن السرد عند ريكاردو» وزمن التخيّل «زمن القصة عند ريكاردو» ويرى أن هناك ثلاثية أشكال من العلاقات تربط بين زمني الخطاب أحادية بينما زمنية التخيل متعددة، ويدرس المفارقات الزمنية، والعلاقة الثانية هي علاقة المدّة ويدرس فيها الحالات الزمنية الممكنة في السرد، وأخيراً علاقة التواتر التي تتناول حالات التكرار الممكنة[2]... ويتحدث جيرار جينيت في كتاب «خطاب الحكاية» عن الثنائية الزمنية المتمثلة في زمن القصة وزمن الحكاية الذي يدعوه جينيت بالزمن الكاذب أو الزائف، لأنه يقوم مقام زمن حقيقي ثم يدرس العلاقات، ويجعلها في ثلاثة أشكال سبق أن ذكرناها عند تودوروف وهي علاقات الترتيب الزمني التي يتحدث فيها عن المفارقات الزمنية ويحدد أنواعها بدقة وعناية، ثم يتناول العلاقات بين المدة التي تستغرقها الأحداث في القصّة والمدّة التي تستغرقها الأحداث في الحكاية، ثم يدرس أخيراً علاقات التواتر مبيناً أنواعه وحالاته»[3].

ويرى سعيد يقطين أن كتاب جيرار جينيت «خطاب الحكاية» افتتح مرحلة متطورة في تحليل الخطاب الروائي من الزواية التي دشنها الشكلانيون الروس وطورها من سار في اتجاههم من الباحثين[4]، ويرى أيضاً أن أعمال جينيت كانت مركز استلهام بالنسبة إلى العديد من الباحثين الذين اعتمدوا بصورة عن الزمن السردي وحاولوا تطبيقه على نصوص مختلفة[5].

ولا بد من التنويه إلى أن اعتمادنا الأساسي في بحث الزمن سيعتمد على ما أرساه جيرار جينيت في كتاب «خطاب الحكاية» من مقولات زمنية تتعلق بعلاقات الترتيب والديمومة والتواتر مع الأخذ بآراء غيره من الباحثين إذ دعت الحاجة.

1 – أدبية الزمن في حكاية بحّار

**(1) علاقات الترتيب:**

هذه التقنيات السردية يتشكل على أساسها الزمن القصصي الذي يغاير زمن الأحداث، بانزياحه ضمن السرد وهذه التقنيات هي:

1 . جان ريكاردو، قضايا الرواية الحديثة، ترجمة: صياح الجهيم، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ط1، 1977، ص249.

2 . تزفيتان تودوروف، الشعرية، ص 48 – 49 – 50

3 . جيرار جنيت، خطاب الحكاية، ص 46 – 47.

4 . سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، منشورات المركز الثقافي العربي، بيروت – دار البيضاء، ط1، 1989، ص 76.

5 . م.ن. ص 81

**تقنية الاسترجاع:**

ابتدأ حنا مينه رواية حكاية بحّار، باستعادة ما سبق أن حدث في الماضي، ومن يقرأ الرواية يجد أن معظمها استرجاع أحداث من الماضي من بداية القصة حتى نهايتها. تقول الشخصية الرئيسة: «كان سعيد حزوم يستلقي على الرمل الحار.. كان يفتح عينيه ويغمضهما، ويشد بجسمه على الرمل كما لو أنه يود أن يغوص فيه. وقد قال في نفسه: «وداعاً أيها البحر». قال أيضاً: « عليّ أن أودعه كبحار»[1]..

لقد استرجعت الشخصية ما حصل معها، أثناء وجودها على الرمل مستلقية، مودعة البحر. وكذلك عادت الذاكرة بالشخصية الرئيسة إلى الوراء، لتسترجع جوانب ما كان يقوله والدها، عن البحر وحياة البحارة. تقول الشخصية الرئيسة: «وقلت لأبي: هل رأيت بحاراً كلّمه البحر؟» قال: لا، وإنما سمعت ذلك من أشياخنا البحارة تناقلوه أباً عن جد، وعرفوه بالتجربة، وتمنوه كليلة القدر، ودقوا صدورهم العارية في ابتهالات لا تنتهي كي يحدث ذلك لهم فلم يحدث، لكنهم في ليالي السفر الطويلة يحلمون بأن البحر جاءهم.. في صورة شيخ، بشعر أزرق، ولحية بيضاء، وعيون من فيروز...» [2]

يتضمن هذا الاسترجاع نتيجة واضحة تفضي إلى أن البحر قد شكل شيئاً لهما في حياة سعيد وأبيه صالح وكل البحارة، فحاولوا تشخيصه بشتى الطرق وكأنه إنسان يبادلهم المشاعر ذاتها والحب نفسه والوفاء الأبدي، ونرى ذلك في هذا الاسترجاع أيضاً، فإن سعيداً يسأل والده أيضاً عن كيفية نيل رضى البحر، وهذا دليل على استعباده والعياذ بالله، أو وكأنه والديه ويرجو رضاهما. تقول الشخصية الرئيسة: «قال والدي: ربما حصل ذلك ولكن للبحر معياراً غير معيار البشر، وحكمة لا ندركها نحن» قلت: وكم من السنين على البحّار أن يقضي في البحر حتى يبلغ رضاه؟ قال: هذا لا يتوقف على العمر بل على العمل»[3].. هذه الاسترجاعات المذكورة وغيرها الكثير قد انتشرت في حنايا الرواية دلالة اجتماعية نفسية وجودية، أوحت لها الإشارة إلى معرفة أن البحر قد مثل الحياة بالنسبة إلى البحارة، وما يرجونه من هذه الحياة هو الرضى والمحبة والوفاء.

وهذا ما كان يبغيه مينه أن يظهره في حنايا هذه القصة وقد أدت هذه الاسترجاعات داخلياً كانت أم خارجياً إلى إيصال خدمة نظرة الكاتب والشخصية معاً.

**ب- تقنية الاستباق:**

لقد ذكر الروائي أحداثاً في سياق هذه الرواية، قد خالف زمن السرد وتجاوز الحاضر،

1 . حنا مينه، حكاية بحار، ص1

2 . م. ن. ص 351

3 . حنا مينه، حكاية بحار، ص 352

ومنها عندما كان سعيد يبحث عن والده في أعماق البحر، فتمثّل نفسه في تلك اللحظة أنه سيغدو وحيداً، وسيفارقه. تقول الشخصية الرئيسة: «لو لم أجده لعشت ولو أملاً كاذباً. الآن أنا والحقيقة، أنا والجثة وغداً أكون وحيداً أفارقه إلى غير لقاء[1]..

وتابع الروائي الاستباق، مخالفاً زمن السرد عندما تحدث عن بكاء الزوج والإخوة عند سماع بموت أبيهم تقول الشخصية الرئيسة: «مهمتي في الباخرة انتهت علي أن أستعيد نفسياً للقاء أمي. سأقول لها: «جئتك بوالدي» ستبكي أمي وتولول. سيبكي إخوتي أيضاً. وسيتراكض الجيران، هذه ليلة للسهر لا للنوم. سنمدد الجثمان وسط البيت»[2].. لقد استبقت الشخصية الزمن الواقعي، لأنها كانت تخاف أن ترى والدها ميتاً وجثته في قاع البحر، وتريد أن تكذب هذه الحقيقة. ونجد استباقاً آخر، عندما تملّص سعيد من الفتاة الصغيرة التي تسأله عن السمك وألوانه، فهو لا يحب الكذب، وقد كذب عند قوله أن اسمك متعدّد ألوان، ولا يريد أن يطيل بكذبه أكثر. تقول الشخصية الرئيسة: «أنا مشغول الآن.. اذهبي سأناديكِ حين أعود...

– لا تتأخر.

– لن أتأخر.

قالها وقبلها وربت على كتفها وصرفها. وحين غادرته أحس أنه يكذب من جديد، وأنه لو بقي معها سيكذب أكثر، وتساءل كيف العمل كي لا يكذب الكبار على الصغار؟... استدار قاصداً المقهى، صمم على الرحيل الليلة بالذات.. في الصباح لا يجدونه في خيمته.. سيتوقعون أشياء لا تخطر على بال، أقلها أنه ذهب إلى المدينة في الصباح الباكر، أو أنه غرق.. أوجدت له حادث غامض، وبعضهم قد يرتاح، لأنه تخلص من شخص غريب الأطوار، وربما تفقدوا محافظ نقودهم.. غير أن النساء سيحدسن على نحو مغاير، فيرجعن السبب إلى السباق[3]..

لقد استبقت أحداثاً جمّة ستحصل في حال غيابه وعدم عودته، وما سيقولونه عنه وما ستؤول إليهم الحال، وكل هذا لأنه كذّب على الفتاة الصغيرة فقرر الرحيل وعدم العودة لعدم تكرار فعلته والتورط أكثر في الكذب. ومن هنا نجد أن الاستباق، ارتبط باستراتيجية الرواية وهدفها أن البحار لا بد من أن يمتاز بصفات متعددة ولا بد من أن يكون مخلصاً في كل شيء، بمحبته، بتصرفاته بحديثه، بوفائه...

**(2) علاقات الديمومة:**

يقوم الكاتب باختيار ما هو ذو دلالة خاصة من الأحداث أمام السرعة في القصّ، لأنه يمكن أن يسرد بصفحات متعددة مدة لا تتعدى الدقيقة الواحدة، وهذه التقنيات لها وظيفة أساسية

1 . حنا مينه، حكاية بحار، ص 254

2 . حنا مينه، حكاية بحار، ص 355

3 . حنا مينه، حكاية بحار، ص 60 – 61 – 62

فنية، تهدف إلى إبراز دلالات يسعى إلى تحقيقها الكاتب.

وهذه التقنيات هي أربع:

**أ- تقنية التخليص:**

لقد أوجز الكاتب مرحلة زمنية محددة وجدها غير جديرة باهتمام القارئ ولا تؤثر في سيرة الرواية وأحداثها. فالقصة التي امتدت على مساحة ثلاثمئة وسبع وخمسين صفحة قد استخدم الراوي فيها هذه التقنية مرات عديدة.

قالت الشخصية الرئيسة: «عليّ أن أودعه كبحار. لقد انتهى كل شيء الآن. لم يعد الماء ملعبي ومملكي. كابرت كثيراً، ورفضه تقبل هذه الحقيقة، وأصررت على أنني لن أحرم، وسأظل ذلك البحار الذي كفته، لكن الأعوام الطويلة، أوهنت قواي وصار علي منذ الآن، أن أصل إلى الشاطئ وأخوض في الماء بمقدار، سأسبح كما يفعل الآخرون، وقد أذهب في العمق قليلاً، لكنني لن أكون فارس البحر بعد اليوم[1]..

لقد اختزل الكاتب مدة زمنية غير معروفة (الأعوام الطويلة) في أربعة أسطر وقد اقتصر على ذكر ما قاله عن نفسه بأنه لم يعد يليق به أن يكون بحاراً، فجلّ ما يستطيع فعله السباحة كما يفعل الآخرون، لأن الشخصية هرمت وكبرت في السن ولم يعد باستطاعتها القيام بأعمال البحارة وهي حزينة على ذلك ولذلك فإن التلخيص قد سلط الضوء على هذا الأمر، لأن ما يهم الكاتب هو إخبارنا بذلك وأيضاً ما تريد أن تخبرنا إياه الشخصية الرئيسة.

وفي موضع آخر، نلتمس تقنية التلخيص قد استخدمها الكاتب عندما اختزل مدة زمنية غير معروفة (ساعات) وهم في طريقهم إلى الشاطئ، قد تحدثوا كثيراً ولكن ما حصل أثناء رحلتهم وما تحدثوا به، لم يذكره الكاتب لأن جلّ ما كان يريد إيصاله هو أن النساء قد برقت عيونهن لإعجابهن به، وهذا دليل نفسي عن الشخصية بأنها تريد أن تكون مصدر إعجاب وكأنها فتى في مقتبل العمر، بحارٌ يمتاز بكل صفات البحّارة. تقول الشخصية الرئيسة: «قبل ذلك، فيما هم على الطريق، تحدث عن البحر طويلاً، كانوا قافلة من السيارات، وكان في السيارة التي يركبها، يتحدث إلى من معه عن البحر... وقد برقت عيون النساء ومن ينظرن إليه بإعجاب[2]..

وكذلك نجد الروائي «حنا مينه» قد اعتمد تقنية التخليص، فقد اختزل وحذف ساعات لم تعرف ما حصل فيها مع الشخصية لأن ما يهمه هو وصف حال السابحين وما فعله سعيد من تعليم الذين لا يعرفون السباحة.

تقول الشخصية الرئيسة: «ثم أفطر وقصّ على الطفلة حكاية صغيرة عن البحر، وحملها ونزل بها الماء. في الضحى امتلأ الشاطئ بالناس. بدأ الصّخب والضجيج المألوفان، وشرح

1 . حنا مينه، حكاية بحار، ص 7

2 حنا مينه، حكاية بحار، ص 10

المستحمّون بالسباحة. كان عليه كما يليق ببحار قديم، أن يقوم بمهمته قياماً حسناً، لا بتعليم الذين لا يعرفون السباحة فحسب[1]..

وفي مكان آخر، تجد الكاتب قد اعتمد التلخيص، فقد اختزل مدة زمنية غير معروفة، لم يذكر فيها ما حصل أثناء الليل. تقول الشخصية الرئيسة: «استرخى في استلقائه على الرمل، وراح يتابع انعكاسات الضوء الفضي على الموج المتكسر على الشاطئ حتى غلبه النعاس فنام. في اليوم التالي أشرقت عليه الشمس وهو نائم مكانه على الرمل، ابتسم للشمس ما إن فتح عينيه[2]..

ومن هنا نجد أن الكاتب قد حصلت معه أحداث كثيرة ، أي ساعات كاملة مرّت وقد مدّها القاص في سطور قليلة، لأن ما يهمه هو تسليط الضوء على ما يسعى إليه، وهو أن الشخصية لا ترتاح ولا تشعر باسترخاء إلا عندما يقبل الليل ومعه صديقه البحر.

**أ- تقنية المشهد:**

إن تقنية المشهد مناقضة لتقنية التلخيص، وذلك لمعرفة التفاصيل والوقوف عند جزئياتها، وهذه التقنية تكسر رتابة الحكي. وفي رواية «حكاية بحار» قد أدّى الحوار دوراً مهماً في تقنية المشهد، لأن الرواية بكاملها قائمة على الحوار الذي دار بين الشخصيات، على رأسهم سعيد والطفلة. يقول الكاتب: «قبل ذلك، فيما هم على الطريق، تحدث عن البحر طويلاً، كانوا قافلة من السيارات، وكان في السيارة التي يركبها، يتحدّث إلى من معه عن البحر كما يتحدث ملك عن مملكته، وقد برقت عيون النساء وهن ينظرن إليه بإعجاب، وقالت طفلة وهي تستلم لأحضانه في نوع من الاطمئنان:

- هل البحر كبير يا عماه؟
- كبير جداً يا بنيتي.
- بحجم السماء؟
- وأكبر!

فنظرت الطفلة إلى السماء وابتسمت. كانت هذه كبيرة إلى درجة لا تحد، وكان البحر قد صار أكبر من السماء في خيالها، وهي لا تعرف شيئاً أكبر منها.

قالت الطفلة:

- وماذا في البحر؟
- في البحر كل ما في البر... جبال ووديان، أشجار وغابات، سهول وتلال، مقابر وكهوف...

1 . حنا مينه، حكاية بحار، ص 26

2 . م . ن . ص 26

– قالت الطفلة دهشة ومسرورة وفيه سمك أحمر؟

– قال سعيد:

– سمك أحمر، فضي، وأصفر، وأخضر، ومن كلّ الألوان"[1]..

لقد أورد الكاتب هذا الحوار الذي أدى دوراً مهماً في تبيان أهمية البحر بالنسبة إلى سعيد والطّفلة، فالبحر هو مصدر السعادة والفرح لكليهما. وكذلك الأمر، فإننا نجد في حوارات أخرى جرت بين سعيد وباقي الصّحب، مشاعر الحب والتعلق الشديد بالبحر ظاهرة وواضحة من خلالها.

تقول الشخصية الرئيسة: « قالت سيدة أخرى:

– من رأى عروس البحر إذن؟

– بعض الصيادين. يقال إن عروس البحر تعشق إنسياً، وفي بعض الليالي تخرج من الماء وتمشي على الشاطئ، وقد تتمدد على الرمل فتنام، فإذا أشرقت عليها الشمس عجزت عن الحركة والعودة إلى الماء، وعندئذ يصطادونها.

– وماذا يفعلون بها؟

– يفتتون بها. يحافظون عليها، ويبذلون حياتهم إرضاءً لها إذا طلبت منهم ذلك.

– ولماذا لا يتزوجونها؟

– لا يستطيعون.. شرطها للزواج أن يذهب معها الصياد إلى مملكة أبيها في أعماق البحر،...

– ولماذا لا يذهبون معها إلى مملكة أبيها؟

– لأن الإنسان الذي ولد وعاش على هذه الأرض، لا يقوى على مغادرتها السمكة تحب البحر، والإنسان يحب الأرض، وهذه هي المسألة.

– من يحب امرأة يخضع لها... السمكة وفية كالإنسان بل أكثر وفاء من الإنسان.

– وماذا تعشق عروس البحر في الصياد؟

– شبابه، الإنسان أجمل المخلوقات في الشباب...

– أنت تعشق عروس البحر كما يبدو فكيف تقول إنك لم ترها؟ صمت سعيد"[2]..

من هنا نجد أن هذا الحوار قد أوضح أهمية البحر بالنسبة إلى سعيد، وكذلك فإن عروس البحر نجواه وحبّه، ولكن ما يعترض طريق هذا الحبّ، العمر، لأن سعيداً في مكنونات نفسه حزين فقد كبر في السن ولم يصلح لأن يحبُّ ويُحَبُّ... وفي موضع آخر، نجد أن تقنية المشهد قد ظهرت من خلال حوار آخر، جرى بين سعيد والصّحب، أثناء حديثه عن قصّة الخاتم والمرأة التي رآها داخل المخزن وأعجب بها.

1 . حنا مينه، حكاية بحار، ص 10 – 11

2 . حنا مينه، حكاية بحار، ص 11 – 12 – 13 – 14

تقول الشخصية الرئيسة: «كان القمر يتوسّط السماء الآن، والبحر يواصل تدحرجه على الرّمل، وهديره الحلو يعطي إيقاعاً مغرياً بالسهر، وكانت الدنيا صيفا، والسماء صافية، مضاءة بألف فضي أليف.

وقال الرجل:

– ما أغرب هذه القصة. تكاد لا تصدق.

– وقال آخر:

– غرائب البحر كثيرة.

ولاحظ سعيد أن بعض السيدات انسحبن، واستمعن إلى بقية القصة من داخل خيمة قريبة... وقال: اعذروني... فقد أسأت الأدب بصراحتي الكاملة... وقال الرجل الحلف الذي جاء في أول الليل إلى خيمته: كان عليك أن تنتبه لوجود.. ولم يكمل الجملة... وقال الرجل الآخر، المثقف، والد الصغيرة: لا يهم.. في الكتب تروي الأشياء بتفصيل أكبر، وكلنا يقرأها"[1]..

أراد الكاتب من خلال هذا الحوار وهذه التقنية أن يظهر المشاعر الجياشة التي كانت تعتري سعيداً تجاه تلك الفتاة وهذه المشاعر جعلته لا ينتبه إلى التفاصيل الدقيقة للعلاقة القائمة بينهما، وهنا صورة واضحة عن أخلاق الأشخاص وتربيتهم.

إن هذه الأمثلة القائمة على الحوار بين الشخصيات لتصل في خواتيم الرواية إلى عبرة أو مثل يبغي الكاتب إيصاله إلى القارئ ليتخذه في حياته ويستفيد منه أو ليعرف عالم البحر والبحارة وشخصياتهم.

**ج- تقنية الوقفة**

لقد لجأ الكاتب إلى هذه التقنية لوصف البحر والسابحين والنسوة (عرائس الماء) وسعيد يتوسط هذا الوصف والجمال وقد وصف الكاتب بحره وصفاً دقيقاً مفصّلاً. تقول الشخصية الرئيسة: «نحن لا نتكلم عنك. أنت، عدم المواخذة، وحش بحر... أنت لا تخاف يا أبا سعيد. لا أحد لا يخاف... الشجاع نفسه يخاف. لكنه يقاوم هذا هو الفرق... قاوموا أينما كنتم.. هذا ما علمتني إياه الحياة... يقول ذلك، أو ما شابه. ويصمت ويبدو مأخوذاً مع تيار شعوري خاص، كأنه يسترجع، في مثل هذه الأوقات ومضات من عالم آخر ليحلّ الضوء ذرات في مائه، وينفتح قاعه عن خضرة عجيبة، سندسية تتفرق في أرجائها كائنات، وتقوم تضاريس، وتتقاطع خطوط صخرية، ذات كوى ومغائر، وتنبت حشائش وتتشقّق أكمام ورد أبيض، ويجلس هو في الوسط، ملكاً متوجاً من حوله عرائس الماء يغنين بأصواتٍ رخيمة، تتضوأ قدودهن، وتتمايل، عبر الشفوق المائية، أجسامهن الممشوقة، الجميلة كأجسام الآلهة ويميل النهدان، في

1 . حنا مينه، حكاية بحار، ص 140 – 141

كل صدر، بشكل منفرج، والحلمات، من توثب، خناجر عنبية، مزروعة وسط شقوق مكوّرة من بّلور...ومع أنه لم يكن يفصح عن مشاعر من هذا النوع... إلا أن رومانتيكية شباب غارب ما تزال تسيم تصرفاته.. يمارس أمنيات نابعة مما يسمح من حكايات البحر[1]..

فقد قطع الكاتب الحوار الذي يدور بين سعيد والصّحب أي وصف البحر والنسوة ما يختلج في قلبه من مشاعر ورؤى وأحلام. لقد ركز الكاتب على وصف هذه المشاعر، وتوقف أمام تفاصيلها، بهدف خدمة هدف الموافقة، القائمة على تبيان المشهد العام للبحر وما يحصل فيه وعليه ودعوة إلى محبته وزرع الشوق للعيش في تفاصيله وكذلك تبيان ما يختلج في قلب الشخصية الرئيسة (سعيد) من مشاعر وشوق اتجاه حياة البحّارة والغوص في أسرارها وعيش تفاصيل حياة الشباب، لأن سعيداً يفتقدها كثيراً.

وفي موضع آخر، نجد الكاتب استخدم الحوار ليلجأ فيما بعد إلى وقف السرد ويصف حال فوزية وما آلت إليه حالها النفسية والجسدية، وليرجع من جديد إلى استكمال ما حصل في هذا يقول الكاتب: «ولم يكترث لما حطمه من صحون وأقداح، لكن شبعو جاء إليها، إلى طاولة صالح، وحاول جرّها إلى طاولته بالقوة.

- يا عاهرة، تأخذين مالي وتذهبين إلى غيري.
- أنا لا آخذ مالك... أنت لا تملك مالاً أصلاً... كلّ ما تكسبه تنفقه على السكر.
- أنفقته عليك...
- فشرت قحبة
- وصفعها بوحشية...

صرخت فوزية من الألم. كانت عزلاء ولم يستطع الخدم إنقاذها من يديه. عندئذ تدخل صالح... عمد إلى تهدئة شبعو وتخليص فوزية من يديه.

- اهدأ يا شبعو! صاح محتداً.
- دعها ولا تتدخل يا صالح.
- ولكنها امرأة... لا تخجل؟
- أنا أخجل... أما أنت..." [2]..

إن الكاتب قد وقّف الزمن ووقف عن السّرد، ليصف الحال النفسية وليقدم العبرة للقارئ ولشبعو، وكذلك ليصف شهامة الرّجل المحافظ والذي يعرف أن المرأة لا تضرب ولا تهان ويجب مساعدتها مهما كان الأمر وأيضاً من أجل وضع القارئ ضمن الإطار العام الذي تم من خلاله السّرد فيتعايش تفاصيل الرواية ويتواجد في مكانها وزمانها.

1 . حنا مينه، حكاية بحار، ص 145 – 146
2 . حنا مينه، حكاية بحار، ص 155

**د- تقنية القفزة:**

لقد استخدم الكاتب تقنية القفزة ليخدم استراتيجية العامة في بنية نصه الروائي. وهكذا أسقط سنوات عديدة، لم يذكر فيها ما جرى من أحداث، لأنه اعتبر ذلك غير مهماً وسيكون عبئاً على إستراتيجيته في المتن الروائي.

ونقع على مثال، من تقنية القفزة في رواية "حكاية بحّار" عندما قام سعيد بافتعال مشكلة مع السّاقي في المقهى وقد قام الكاتب بقفز مرحلة زمنية، لم تعرف ما حصل خلالها من احداث، لينتقل إلى وصف حال سعيد وهو موجودٌ داخل الخيمة والليل قد أسدل ستائره.

تقول الشخصية الرئيسة: "ولم يقل سعيد شيئاً. مدّ يده ونحى القدح، فلما فتح الساقي الزجاجة قبض عليها بقوة، ورفعها إلى أعلى فإذا ما فيها من سائل يجري في شدقه المفتوح... أطفئت الأنوار على الشاطئ. الخيام أسدلت الستائر على الأبواب، ولم يبق ساهراً إلا القمرُ في السماء، وسعيد حزوم أمام خيمته على الأرض... وتوقف الغناء الذي كان ينبعث من آلة تسجيل مفتوحة على مدى الصوت[1]..

وفي وضع آخر، لقد وظف الكاتب القفزة مرّة أخرى، ليعطينا فكرة عن طبيعة حياة البحارة وما جرى مع سعيد من قصص عن البحر وبطولاته.

تقول الشخصية الرئيسة: «قال سعيد: خلال عملي في البحر، على إحدى السفن الشحن، تعرّفت إلى معظم مرافئ العالم. كانت السفينة من عابرات المحيطات، تتسع لحمولة كبيرة جداً، وتضطر إلى الرسو أسبوعاً أو أسبوعين، بينما يتم التفريغ والتحميل. وكانت الأيام نقضيها على البرّ ممتعة، فالبحار يمكث طويلاً على ظهر السفينة المبحرة، لا يرى غير السماء والماء، ولا يفعل سوى العمل والأكل، محروماً من رؤية اليابسة محروماً..» [2]..

ومهما يكن من أمرٍ تجد أن حنا مينه قد أجاد التعاطي مع علاقات الديمومة، وسلط الضوء على التقنيات الأربع مما يضع هذا العمل في المستوى اللائق، فقد وظفها الروائي كلها وخدمت إستراتيجيته في المتن الروائي، وقد تصرّف بالزمن بما يتلاءم ونظراته إلى الواقع الذي عاشه وعايشته الشخصيات وطبيعة البشر التي عايشته وعايشت غيره.

## علاقات التواتر في رواية خنّا مينه «حكاية بحار

**أ- التواتر الانفرادي/ الحكاية التفردية:**

في هذه الرواية، تقع على غير مثال الخطاب الذي يكون وحيداً ويحكى مرّة واحدة. منها قول الكاتب على لسان الشخصية الرئيسة: «كان يفتح عينيه ويغمضهما، ويشد بجسمه على

1 . حنا مينه، حكاية بحار، ص 72 – 82

2 . م . ن ، ص 105 – 106

الرمل كما لو أنه يود أن يغوص فيه. وقد قال في نفسه: «وداعاً أيها البحر». قال أيضاً: «علي أن أودعه كبحار»[1]..

لقد أناط الكاتب بالشخصية الرئيسة في حكاية بحار دوراً مهماً في توضيح رؤيته إلى ما حوله وعصره. وشخصية سعيد هي أنموذج عن شخصيات عصره وتفكيرهم وصورة عن طبيعة حياتهم المعاشة ومتطلباتهم وحاجاتهم ودوافعهم وتمنياتهم، إن الشخصية الرئيسة قد تقدمت في السن وهي لا تجد نفسها بعد صالحة لأن تكون بمصافّ البحّارة، لأن البّحار بحاجة إلى القوة الجسدية والروح الشباب على الرغم من أن عشقه للبحر يفوق كل عشق وهذا دليل على حبّ الأرض والعمل والوفاء لهما.

لذلك قامت الشخصية بوداع البحر وكأنها تودّع حبيباً غالياً على قلبها وهي مجروحة. ولعلّ هذا التواتر الانفرادي قد أدى دوره لإيصال الدلالة المقصودة غير الإيحاء.

**ب- التواتر التكراري/ الحكاية التكرارية:**

يجد الروائي أن من الضرورة أحياناً أن يأتي ذكر حدث واحد من أحداث الرواية، غير مرّة في نصّه الروائي، وذلك للتعبير عن الهواجس والمخاوف، أو التطلعات التي يشير إليها الحدث، وهذا التكرار المقصود يوحي بدلالات معينة بهدف إليها الروائي.

ومن الأمثلة على ذلك قول سعيد على لسان الشخصية الرئيسة: «وكان البحر أمامه قد غدا منبسطاً رحيباً ترفّ عليه آخر ظلال النور وهذا عالمه، هذه دنياه ومرتع صباه... إن روحاً غريبة ستطوف بالبحر ليلاً... هو، سعيد حزوم، يعرف هذه الروح»[2]..

وفيما بعد قالت: «ومن العبث أن تتحدث إليه عن مشاعرك الخاصة، مشاعر إنسان حيال البحر، وفي ليلة مقمرة كهذه، وفي هذا الجو الرائع الذي أفسده بأسئلته الغبية وإلحاحه الفظ[3].. وكذلك قالت فيما بعد: «في هذه الحالات يصبح سعيد مستعداً أن يقول للبحر الكلمات وأحرّ الصراعات»[4]..

كررت الشخصية أمر حبها للبحر وعشقها لمائه، فإنها تجد راحتها النفسية أمامه ومعه وفيه، وتحسبه كإنسان تعبر عن مشاعرها تجاهه. وهذا تنويه بأهمية الإخلاص للعمل والانتماء إلى الوطن.

## ج- التواتر النمطي/الحكاية الترددية:

إن هذه التقنية الفنية تتضمن «حالاً من التكثيف السردي للزمن الطويل الممتد، الذي تشعر

1 . حنا مينه، حكاية بحار، ص 7
2 . حنا مينه، حكاية بحار، ص 18 – 19 – 20
3 . حنا مينه، حكاية بحار، ص 95 – 96
4 . حنا مينه، حكاية بحار، ص 103

به الذات[1].. وهذا التكثيف يتطلب إيحاز الأحداث النمطية التي تتكرر يومياً أو كل مساء، أو كل شهر في جملة واحدة تعبر عن هذا الزمن المتكرر الذي تمرّ به الشخصية.

يمكننا الوقوف أمام هذا المثل من التواتر النمطي. تقول الشخصية الرئيسة: «أما سعيد فقد قصد «البار» رأساً كان يفضل على «كازينو» كهذا، مقهى شعبياً إلا أن الأوادم الذين جاء معهم أمس، فرضوا عليه أن ينزل في هذه البقعة من الشاطئ، وأن يلتزم شيئاً من السلوك المهذب، فلا يأتي بالخمرة من الخارج، بل يطلبها من بار الكازينو»[2]..

هذه السّطور توحي بتكرار ما يقوم به سعيد يومياً، غير مرّة، لجعل الشخصية قادرة على استئناف الدور المنوط به والذهاب يومياً عند المساء إلى المقهى أو الكازينو لتناول الخمرة وهذا دليل على تبيان حالة وعيشة البحّارة، فإنهم يخالون نسيان مشاكلهم بهذه الطريقة معتبرين أنهم بذلك يستطيعون تغيير الواقع ربما، أو الهروب من الواقع المرير الذي يعيشونه.

مهما يكن من أمر، فإن التواتر، بأنواعه التي قدمت قد أسهمت في الكشف عن خبايا التفكير والوضع الاجتماعي المعاش في تلك الآونة من الزمن، كذلك تسليط الضوء على أن ما يحلم به إنسان ذلك العصر، وليس أي إنسان، ذلك البحار الذي يعرّض نفسه للخطر والمغامرة ويسعى إلى تأمين لقمة عيشه بكده وتعبه وهذا الأمر من الأمور التي تعتبر من الحقوق الإنسانية.

## خاتمة الدراسة

كشفت دراستنا حكاية بحار للروائي «حنا مينه»، عن طبيعة هذا الجنس الأدبي وخصائصه الفنية، وأبعاده الدلالية، وذلك بالاستناد إلى بعض التقنيات والخطوات المنهجية المستمدة من مقولات النهج السيميائي، وأفرزت مجموعة من النتائج التي يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

1 . لقد عرفتنا هذه الرواية عن طبيعة وأحوال السوريين وخصوصاً الطبقة الكادحة، التي تعيش في الاسكندرونة/ اللاذقية، من خلال العلاقة القائمة بين البحار والبحر، وحالة العشق التي تغمر قلوبهم، فهي حالة صداقة ومحبة ووفاء. الشخصيات في الرواية قد تحدثت عن الموضوع الذي يناسبها ويناسب رؤيتها إلى العالم وإلى المحيط الذي يدور من حولهم. عرض حنا مينه أحوال البحارة وطهرت عيشتهم، وجاء العنوان للدلالة على طبيعة حياة البحار التي يعيشها مع البحر والأصدقاء والجيران والصّحب.

2 . كان حضور الزمن الماضي مهيمناً على الرواية بوصفه رمزاً لزمن القوة، الضعف، السيطرة، الاستغلال، العشق، المغامرة، التحدي، المواجهة، فالزمن هو الذي نظم عملية

1 . مراد مبروك، الزمن في الرواية المعاصرة، ص46

2 . حنا مينه، حكاية بحار، ص 64

السرد واستطاع مينه أن يرصد مظاهر الصراع بين الزمن والإنسان، وكذلك قد فعلوا دور الزمن لخدمة رؤياهم وتقريب ملامح العصر الذي عايشوه، من مبدأ أي الزمن يمثل «روح الوجود الحقّة»، يساهم في عملية خلق الكون الذي يحوي الشخصيات ويشكل وجودهم ويمارس فعله فيهم بحركته، سواء أكان ماضياً أو حاضراً أو مستقبلاً، وعرض رؤية خاصة للواقع، وذلك من خلال تسريع حركة الزمن أو تعطيلها. وقد قدم الزمن الدلالي صوراً مختلفة من مظاهر الحياة العامة، وكشف عن الفساد السياسي والتسلط والاستبداد والجور، طبيعة التفكير واستخدام الحيل من أجل كسب لقمة العيش، وكذلك الكشف عن الدروس الحياتية والحياة المعاشة آنذاك.

3 . أثبت بقاء واستمرار روايات "حنا مينه" في العصر الحالي (الحديث) قدرتها على الصمود في تمثيل رؤى الراوي ورؤيته الاستشراقية للمستقبل وتأمله لذلك الزمن (الحرب العالمية الأولى) عله يحمل ما يحقق آمال رجال تطلعوا إلى غدٍ أفضل.

4 . استطاع الراوي أن يقدم رسالته إلى قارئ العصر الحاضر، من خلال أدب إحيائي جمّل بعض ملامح العصر القائم آنذاك وحرّك يقظة الوعي الإنساني في عصره، ونمّى في الإنسان الشعور بالمواجهة . المجابهة، الصبر، التغيير، مساعدة الفقير، الإصلاح، حب الوطن والأرض باعتبار أن كل عصر له أمته وكيانه وتاريخه.

كانت هذه خلاصة ما توصلنا إليه من نتائج، وكلنا أمل في أن يفتح هذا البحث الرغبة في طرق جوانب أخرى في هذا الفن الذي يعدُّ من أروع ما جادت به قريحة الأدباء العرب ومن ذلك موضوع التناص الذي يعدُّ من أبرز الموضوعات المهيمنة على الروايات ودلالتها.

## Conclusion of the study

Our study revealed the story of the sailor of the novelist Hanna Mina, on the nature of this genre and its artistic characteristics and its semantic dimensions, based on some techniques and methodological steps derived from the Simei approach. The results were summarized in the following points:

1 – This novel has informed us about the nature and conditions of the Syrians, especially the working class, who live in Alexandria / Lattakia, through the relationship between the seas and the sea, and the state of love that engulfs their hearts, it is a state of friendship and love and loyalty. The characters in the novel have talked about the subject that suits her and fits her vision to the world and the ocean around them. Hana Mina presented the conditions of the sailors and purified their lives. The title came to indicate the nature of the sea life he lived with the sea, friends,

neighbors and companions.

2. The presence of past time dominated the novel as a symbol of the time of power, weakness, domination, exploitation, love, adventure, challenge, confrontation. Time dictated the narration process and Mina was able to monitor the conflict between time and man, Their vision and bringing together the features of the age they have experienced, from the principle of any time representing the "true spirit of existence," contributes to the process of creating the universe that contains the characters and constitutes their existence and practices them in their movement, whether past, present or future, Time movement or disabling. The semantic time presented various forms of public life, exposing political corruption, domination, tyranny and injustice, the nature of thinking and the use of tricks to earn a living, as well as the discovery of life lessons and living life at the time.

3. Hanna Hanna's current and contemporary novels have proved her ability to withstand the vision of the narrator and his vision of Orientalism for the future and to contemplate that time (World War I), which holds the hopes of men who aspired to a better tomorrow.

4 – The narrator was able to present his message to the reader of the present age, in a literary biographical sentences of some of the features of the time existing at the time and movement awakening human consciousness in his time, which developed in the human sense of confrontation confrontation, patience, change, help the poor, Each era has its own nation, entity and history.

This is the conclusion of our findings, and we hope that this research will open the desire to explore other aspects of this art, which is one of the most remarkable works of the Arab writers, including the subject of harmony, which is one of the most dominant topics of the novels and their significance.

**كتاب العدد:**

**المدرسة الأيكوية في الكتابة**

**ما لا يمكن تنظيره ينبغي سرده**

**يصدر عن دار المعارف الحكمية للمؤلف**

**د.علي مهدي زيتون**
a.m.zaitoun@hotmail.com

يحاول المؤلف في هذا الكتاب الكشف عن الأسسِ الفكرية أو الجينات التي يقوم عليها نتاج المفكر والروائي الإيطالي أمبرتو إيكو بجانبيه النظري والإجرائي السردي، لما يشكله إيكو المفكر، في حقبة ما بعد الحداثة، من شخصية ثقافية تستحق العناية، وقد نحا المؤلف في سبيل ذلك طريقاً عكسياً لحركة إيكو الفكرية التي تستند إلى مقولة الشهيرة :**"ما لا يمكن تنظيره ينبغي سرده"**، وعوض أن يبدأ بقراءة النظري من نتاجه فقد بدأ بقراءة السردي منه، وقد أعانه استباقه الجانب النظري بالجانب الإجرائي السردي على استيعاب تنظيره استيعاباً دقيقاً، ما كان ليتيسر لو بدأ بالتنظير، خصوصاً أن الرواية الأيكوية ومن خلال سردها ما لا يمكن تنظيره قد سهلت عملية تفهّم ما هو نظري.

هذا الكتاب هو سلسلة من المباحث التي كانت ولادتها وفق الترتيب الآتي: "**اسم الوردة بين السيمائية والتفكيكية**"، "**جزيرة اليوم السابق واستدعاء القارئ الناقد المفكر**"، "**باودولينو ومناخ الأكاذيب والأوهام والخرافات**"، "**مقبرة براغ وسوء الظن بالتاريخ**". بعدَ استكمال قراءة الروايات الأربع، عكف المؤلف على قراءة بعض أهم كتبه النظرية، فوقع اختياره على ثلاثة كتب تتبعها وفق العناوين الآتية: "**الأثر المفتوح ونقد النقد**"، "**التأويل**

**بين السيمائيات والتفكيكية عند إيكو"، "آليات الكتابة السردية وما بعد الحداثة". واحتراماً** لمسيرة إيكو الفكرية، فقد قسم المؤلف الكتاب الموجود إلى قسمين. كان عنوان القسم الأول "**ما لا يمكن تنظيره**"، أدرج فيه الكاتب قراءاته الكتب النظرية وفق تسلسلها القرائي بالنسبة إليه. أما عنوان القسم الثاني، فكان "**ما ينبغي سرده**"، مر فيه الكاتب على الروايات الأربع التي قرأها.

وقد اتّبع المؤلف فيما قام به من نقد روائي في جانب، ومن نقد النقد في جانب آخر منهجاً واحداً هو المنهج الثقافي الذي يستند إلى نظرية الكشف التي تتلخص بالتالي: إن أي جانب من جوانب العالم العالم المرجعي، أكان شيئاً أم حدثا أم سلوكا بشرياً، هو متعدد الأبعاد إلى حد لا يمكن معه إحصاء تلك الأبعاد، وإن أدبية أي أديب أو شعرية أي شاعر، قائمة على ما استطاعت رؤيته النفاذ إليه من بين تلك الأبعاد، وكشفَهُ للمتلقي باللغة. وإذا كانت الرؤية إلى العالم هي الفاعل الأساسي والحاكمية المنتجة للأدبية فإنها بما تتشكل منه، ثقافةً وقناعاتٍ وهموما، واهتماماتٍ، تُعدّ بصمة فريدة تنتج كشفا فريدا بأسلوب فريد هو الأدبية عينُها.

**حوار مع المؤلف الدكتور علي مهدي زيتون**

**أجرته معه الدكتورة راغدة المصري في 10/12/2018**
**أ./. في الجامعة اللبنانية / كلية الآداب/ قسم التاريخ**
raghidamasru@gmail.com

الأستاذ الدكتور علي مهدي زيتون، الناقد للشعر والرواية، والناقد للنقد لجهة الأزمة التي يعاني منها، بعد انتقال الحداثة الغربية من نظرية الانعكاس إلى نظرية الانكسار، يطلّ علينا برؤيته الحداثية المؤسسة على الكشف وذلك من خلال كتابه "**المدرسة الأيكوية في الكتابة، ما لا يمكن تنظيره ينبغي سرده**". وهو مؤلف من 252 صفحة صادر عن دار المعارف الحكمية، ولكي نتعرف أكثر على هذا الكتاب ومضمونه كان لنا لقاء مع الأستاذ د. علي زيتون، وأجرينا معه الحوار الآتي:

**س . ما الإشارات التي يحملها عنوان الكتاب؟**

ج . العنوان سطران كما نلاحظ. يبدأ السطر الأوّل بكلمة (مدرسة) وهذه الكلمة في عالم الأدب والنقد تعني أوّل ما تعنيه خصوصيّة قائمة على مجموعة من القواعد. وحين نربط كلمة (المدرسة) بكلمة (الأيكوية) يعني أنّنا نشير إلى أنّ إيكو صاحب نهج خاصّ في الكتابة يمكن أن يلتفّ حوله تابعون يحاولون النسج على منواله، بقطع النظر عن وظيفة هذا المنوال وطبيعته.

أمّا السطر الثاني فإنّه نقل حرفيّ للقاعدة الأيكوية الأثيرة في الكتابة. وإذا ترك لنا إيكو نوعين من الكتابة: الكتابة النقديّة والكتابة الروائيّة السرديّة، يعني أنّه يلمح بذلك إلى نهجه ما بعد الحداثيّ. وحين تستعصي المفهمة، صوغُ النظريات فالتفاصيل وسردها هما البديل.

**س _ ما علاقة الكتاب بالإهداء؟**

**ج _ لقد اجترح كلّ من عهد التميمي وأحمد جرار معجزتهما بقبضةٍ وإصبعٍ في الوقت الذي كنت أحضّر فيه هذا الكتاب. يعني أنّهما الأجدران بأن يُهدى الكتاب لهما، خصوصا أنّهما بما اجترحاه كانا حداثيّين يعليان العقل العلمي في مواجهة العدميّة والعبثيّة الما بعد حداثيّين.**

**س: شهدنا على الساحة الأدبية ولادة كتاب جديد "المدرسة الأيكوية في الكتابة، ما لا يمكن تنظيره، ينبغي سرده". ما هو سبب ظهوره، وما الذي دفعك إلى كتابته؟**

**ج: في الحقيقة، إن إيكو لم يكن خاطرا لي على بال لأني كنت مهتما كما هو معروف بالنقد الأدبي الحداثي سواءٌ تعلقَّ الأمر بالشعر أم تعلّق بالنثر، إلّا أنّ الندوات التي كان يقيمها معهد المعارف الحكمية في بيروت حول النقد الأدبي، وموضوع الرواية بشكل خاص وصلتني بأمبرتو إيكو من حيث لا أحتسب. إذ كان أن كلفني العاملون في المعهد بدراسة رواية ل "امبرتو إيكو" عنوانها "اسم الوردة". هذه الرواية التي كان لي معها تجربة طريفة دفعتني إلى تأليف هذا الكتاب.**

**س: برأيك ما مدى الاستفادة الفكرية والثقافية من معالجة مواضيع كهذه، في هذا الوقت الذي يشهد فيه العالم صراعيّة ما بين الحداثة وما بعد الحداثة؟**

**ج:"أمبرتو إيكو" في كل كتبه هو ما بعد حداثي سواءٌ تعلّق الأمر في كتاباته النقدية التي قاربت عشرةَ كتب أم بكتاباته الروائية التي تجاوزت ستَّ روايات. وإيكو الذي هو ما بعد حداثي يستدعي المثقف ليحدد رأياً أو موقفاً مما كتبه، هل نقبل ما ذهب إليه؟ هل يجب أن نعمم ما قاله؟ أم علينا أن نحاوره في ما كتبه، وأن نبيّن موقفنا الحداثي منه؟**

**س: ذكرت في أول الكتاب ثلاثة عناوين أساسية تناولها إيكو أثناء محوراته: الحقيقة، والتاريخ، والقضايا الكبرى. كيف ظهرت هذه القضايا في نظرية إيكو ما بعد الحداثيّة؟**

**ج: ظهرت هذه القضايا الثلاث ومن منظور ما بعد حداثي في كلّ ما كتبه. تعامل إيكو في كتاباته النقديّة الأدبيّة تعامله مع كتاباته الروائية، كان في الحالين ما بعد حداثيّ. أقامت التفكيكيّة صلة رحم وشيجة بينهما.**

بدأ إيكو بالكتابة النقدية، فكان كتاباه: **"الأثر المفتوح"**، و**"التأويل بين السيميائيّات والتفكيكيّة" اللذان جرّا سلسلة من الكتب النقديّة.** ولعل آخر ما كتبه، سواءٌ تعلق الأمر بالكتابة السردية أم الكتابة النقدية هو كتابه:" **آليات الكتابة السردية"** ولعله ذو بعد إجرائيّ مختصّ بالتجربة الأيكوية مع الكتابة السردية؛ خصوصا أنّ إيكو بدأ بالتنظير، والغريب في الأمر أنّ التنظير غريب عن مناخِ ما بعد الحداثة. التنظير إنتاج مفاهيم، والمفهمة مناقضة لما بعد الحداثة. فإنتاج المفاهيم حداثيّ بامتياز، أما ما بعد الحداثة فمعادي للمفهمة، ولعملية

إنتاج المفاهيم كما أشرنا. على كل حال، فإنّ إيكو في كتاباته النقدية لم يكن منتجا للمفاهيم، ولم يقم بعملية مفهمة. حاول نقب الأساسات التي قامت عليها الحداثة.

ففي كتابه **"الأثر المفتوح"** لا يبحث في أنّ للنصّ قابلية متعددة القراءات، متعدّدة الدلالات فحسب، ولكنّه أراد أن يقول إنّ النص في المحصّلة لا يقول شيئاً. يعني أنّه في "الأثر المفتوح" لم يكن كما يتبادر إلى ذهن الحداثيّ للوهلة الأولى. فعملية البحث عنده ليست بحثاً عن الحقائق اليقينية، إنما هي بحث عن تضييع الحقائق اليقينية، وصولاً إلى العبثية. وهو في كتابه الثاني **"التأويل بين السيميائيّات والتفكيكيّة"** يذكرنا بداية بما هو حداثي. فالسيمائية علم حداثي؛ لأنّها بحث عن حقائق يقينية. أمّا أيكو فقد ألحقها **بالتفكيكيّة وأدخلها في عدادها، من خلال** عنوانه:**"التأويل بين السيميائيّة والتفكيكيّة". فإذا كان التأويل في الأصل** بحثا عن الدلالة، فإنّه في جلوسه بين المتناقضتين: السيميائيّة والتفكيكية، أقام مصالحة بينهما وصار مجالا لتضييع الحقائق اليقينية.

**س: إذن، ترى أن المدرسة الأيكوية مدرسة تفكيكية. بمعنى أنّها قائمة على تضييع القضايا الكبرى والقيم.**

ج: نعم، هذا يبدو بأوضح ما يكون في كتاباته الروائية التي لجأ إليها بعد أن تيقّن أن لا إمكانية للتنظير جريا على القاعدة التي اختطها: "ما لا يمكن تنظيره ينبغي سرده"، فعملية السرد ليست مفهمة. حين نسرد أحداثاً لا نقدم قضايا كبرى، ذات بعد إنسانيّ أو وطنيّ أو اجتماعي. السرد عمليّة تقديمٍ لأحداث ولتفاصيل. يعني أننا مع الرواية والسرد قد انتقلنا من القضايا الكبرى إلى التفاصيل الصغرى، إلى الأمور اليومية حتى التافه منها. هذا ما قام عليه تحول إيكو إلى السرد؛ لأن المفهمة واقعة خارج تفكيره. وروايته **"جزيرة اليوم السابق"**، تضعنا أمام شخصية محجوزة، بفعل ظروفها الخاصّة، في سفينة في عرض البحار والمحيطات، ولا تعرف هذه الشخصية القابعة داخل السفينة أين هي؟

وإنسانٌ هذه وضعيته، يعني أنه مستسلم لوضعيّة قاهرة، لا تبقي من همومه واهتماماته سوى محاولة البحث عن الخروج من هذا المأزق عبر تفاصيل يومية. وبمعنى آخر، لا تعني هذه التفاصيل شيئا بالنسبة إلى قضايا الإنسان الكبرى. فهي ليست بحثا عن كرامة الإنسان ولا تتعلّق بقضيّة من قضايا التحرر.

**س: ما هو موقف إيكو من اليهود خصوصاً أنك عالجت نظرة إيكو إلى هذه المسألة في مكان ما من هذا الكتاب؟**

ج: حضر اليهود في روايته "مقبرة براغ " التي يقرأها القارئ فلا يخرج منها بموقف محدد

لإيكو من اليهود. "مقبرة براغ" هي مقبرة يهودية. والسؤال المحوري في هذه الرواية: هل يدين إيكو الثقافة الصهيونية؟ هل يدافع عنها؟ هو لا يدافع ولا يدين. ما نجده هو أنّه يعرض تفاصيل تبلغ درجة التفاهة في بعض الأحيان. بما يعني أنه واقف خارج القضايا الكبرى، خصوصا أنّ إيكو يقف موقفا حياديا بين العنصريّة الصهيونيّة من جهة، وبين ما تتركه من فواجع وآلام.

**س: تناولتَ المادة الأيكوية المدروسة من خلال المنهج الثقافي الذي يرتكز إلى نظرية الكشف، هل لك أن توضح لنا هذا المنهج؟**

ج:الحقيقة أني واجهت ما كتبه إيكو، أكان نقدا أم سردا، من خلال منهج نقدي، أسميه المنهج الثقافي الذي يرتكز إلى ثلاثية هي: الرؤية، العالم المرجعي الذي يشكل مادة الرؤية، واللغة. هذه الثلاثية هي قوام المنهج الثقافي، وقد أسميته ثقافيا لأن الرؤية بالنسبة إليّ تقوم على رباعية: الثقافة والقناعة والهموم والاهتمامات، وأرى أن السيطرة في هذه الرباعية للثقافة. فالثقافة هي التي تشكل قناعاتنا، والثقافة هي التي تشكل همومنا، والثقافة هي التي تشكل اهتماماتنا. إذن، نحن نرى العالم على قاعدة الثقافة، وننقل ما رأيناه بوساطة اللغة. وهذا المنهج يقوم على نظرية الكشف. ونظرية الكشف هي تجاوز لنظريتين قام عليهما النقد الغربي في ظل الحداثة. تجاوز نظرية الانعكاس التي قامت على قاعدة المرآة التي نرى فيها وجهنا كما هو، وهذه النظرية رأت أن الأدب انعكاس، فجاء علم التاريخ ليرى أن الأدب انعكاس للتاريخ، وجاء علم الاجتماع ليرى أن الأدب انعكاس للمجتمع، وجاء علم النفس ليرى أن الأدب انعكاس لعالم اللاشعور. وجاءت نظرية الانكسار لتتجاوز نظريّة الانعكاس. ونظرية الانكسار وإن رفضت نظرية الانعكاس إلا أنها تضمنتها في الحقيقة ولم تلغ حضورها نفيا تامّا. ذلك أن انكسار الواقع ليس إلغاء لما يراه جميع الناس من ذلك الواقع. قالت بنقل الواقع معدلا. ولعل نظرية الكشف هي البديل العلميّ لنظريتي: الانعكاس والانكسار؛ لأنّ أيّ شيء من الأشياء، وأيّ بشريّ من البشر لا يقوم على بعد، يعني أنّ أيّ شيء أو أيّ شخص لا يتمثل بما يراه الآخرون منه ظاهريا. إن له أبعادا لا حصر لها. من هنا تأتي الرؤية البصمة. فحدث تموز 2006 هو متعدّد الأبعاد بعدد أنفاس الخلق. أراه أنا من خلال رؤيتي وما قامت عليه من ثقافة وقناعات وهموم واهتمامات. ألتقط منه عمقا فريدا لا تستطيعُ أية رؤية أخرى أن تلتقطه، ويأتي شخص آخر فيراه بعين ثقافية أخرى، و يأتي ثالث أو .... يعني أن الرؤية بصمة لا تتشابه مع أية رؤية أخرى، ويتم نقل ما رأته الرؤية للآخرين بوساطة اللغة، اللغةِ التي تُعدّ هي الأخرى بصمة، فرادة لا تشابه بصمة أخرى أو فرادة أخرى.

**س: وفي الختام، إلى أي نوع من الحداثة يدعو د. علي زيتون؟**

ج: الحداثة الغربية قائمة على سلطة العقل العلمي الباحث عن حقائق يقينية. وأنا مع هذه النظرة إلى الحداثة. والقرآن الكريم له حداثته القائمة على العقل العلمي أيضا. فدعوة القرآن إلى حاكميّة العقل متكررة وهذه الحاكميّة ليست دعوة مجردة عن العلمية. فالآيات التي يدعو القرآن الكريم إلى الارتكاز عليها هي في الحقيقة العلامات الدالّة الموصلة إلى حقائق يقينيّة. وهي العلامات التي تمكّن العقل الذي شدّد القرآن الكريم على حاكميّته من أن يكون عقلا علميا يبحث عن الحقائق اليقينية. ومع ذلك، فالحداثة الغربية مختلفة عن الحداثة القرآنيّة بأمر جوهري. الحداثة الغربية لا تربط العقل العلميّ بأيّة قيم أخلاقية أو دينية. أما العقل العلمي القرآني فهو مقيّد بالقيم الأخلاقية والدينية التي تقوم على أساس احترام حقوق الآخر والدفاع عنها. وهذا ما لا نجده في الحداثة الغربيّة التي أباحت للغرب دم الشرق وماله وثرواته فكانت حداثة عنصريّة بامتياز.

# التنظير ممكن في كل ميدان
## مراجعة في كتاب المدرسة الأيكوية في الكتابة

**للدكتور علي مهدي زيتون**
**الأستاذ الدكتور فؤاد خليل**
**أستاذ متقاعد في معهد العلوم الاجتماعيّة، الجامعة اللبنانية.**

**1 ـ كان له ما أراد**

لست أزعم أنني ذو خبرة معرفية في النقد الروائي. فذاك شأن لم يحصل لي أنّ أوليته اهتماماً في مسيرتي البحثية في الفكر السوسيولوجي، وقد يُحتسب هذا ضرباً من التقصير، لا تبرره حتى كثرة انشغالاتي في العمل البحثي وفي التدريس الجامعي. ذلك أنّ بين الرواية والسوسيولوجيا صلة رحم عميقة يستولدها الكشف عن الحقائق المجتمعية، وإن اختلف كشفهما في أسلوب الكتابة والأدوات التقنية ومنهج المقاربة. وبالرغم ممّا لا أزعمه، طلب إليّ الأخ والصديق د. علي زيتون، أنّ أقدّم مراجعة حول كتابه الجديد: "المدرسة الأيكوية في الكتابة ـ ما لا يمكن تنظيره ينبغي سرده. فكان لا بدّ من أنّ نتباسط في الطلب بعض الشيء، لخشيتي من أنّ تتفارق مداخلتي عن الاختصاص في النقد الروائي. لكن حيث أعلمني أنّ متن الكتاب يتمحور أعمه الأغلب حول فكرية إيكو ما بعد الحداثية، وتحليل هذه الفكرية من منطلق الفكرية الحداثية، كان له ما أراد... ذلك أنّ السوسيولوجيا تأسّست على سردية حداثية كبرى، وما زالت حتى اليوم تحضر بكيفيات مختلفة في حقل العلم؛ وأنّ ما يُعرف بالسوسيولوجيا المعاصرة تحاول أنّ تنقض تلك السردية، وتنزع إلى مناخٍ ما بعد حداثيّ لترى بالتالي أنّ موضوعها يتمثّل في الذوات الفاعلة وقصصها التفاعلية اليومية، أو بمعنى آخر، يتمثّل فيما يسميه ليوتار السرديات الصغرى...

على هذا، سوف تنطبع مداخلتي التي تقتصر على نموذجيْن نظريّين، بتحليل حفري لفكرية إيكو ما بعد الحداثية؛ إذ يتوخى أن يغني التحليل النقدي للمؤلف من مرتكز الرؤية نفسها التي يأخذ بها. هنا لا بدّ لي من أنّ أؤكد أنّ إغناء التحليل يرتسم على مستوى تصعيد الجانب المعرفي الحداثي، من أجل أنّ أقارب منطق التجادل بين المستوييْن المعرفي والأيديولوجي في الفكر ما بعد الحداثي...

**2 ـ الإطار المرجعي**

لطالما كان الفكر الحداثي هو الإطار المرجعي للنظر في فكرية إيكو. لهذا، يغدو من الضروري منهجياً أنّ نقف ولو باقتضاب على متن هذا الفكر، لكي نبلور مساهمة إغنائية تتسق مع تحليلات المؤلف النقدية، وتتوسّع أحياناً فيما ينبغي توسعته...

الحداثة مسار زمني جديد قطع مع الزمن الوسيط، وانبنى في كلية معرفية قوامُها: العقل والعلم والتقدم. فالعقل لا الغيب هو مصدر المعرفة. وفي مكنته أنّ يتوصل إلى حقائق عامة ويقينية، فيما خص موضوعات الكون والإنسان والمجتمع، إذ يتعقّل موضوعه، ليغدو معقولاً أي مفسراً بفعاليته بالذات. وهي فعالية تميّز بين الصواب والخطأ، والحق والباطل والمزيّف والحقيقي. إنه، والحال هذه، أداة للإنتاج النظري في الكل وليس في الجزء، في العام وليس في الخاص أو المفرد.

والعلم بعد الوسيط، كشف منظم لقوانين الطبيعة والمجتمع. حيث أنّ القانون العلمي هو تجريد المحسوس أو مفْهمته. والمفهوم هو تملك العام الملازم للمحسوس، وفي إثر هذا التملك، تكون المعرفة العلمية عامة وعالمية، حيث تتبدى في الطبيعة والمجتمع. ففي الأول، تتجدد مع تطور العلم. وفي الثاني، يعاد إنتاجها في الخاص المجتمعي بما هو المجال الملموس للتجادل المستمر بين الكوني والمحلي.. والتقدم ينتجه الوصفي ويلزم عنه بالضرورة، أيّ أنه محايث للتاريخ والمجتمع. فالتاريخ مجرى تعاقبي من الأدنى إلى الأعلى، أو من البسيط إلى المركب، أو من المشاعي إلى الشيوعي. وهو في مجراه الأوّلي شكّل قاطرة للثقافة بحيث عَبَر بها من الطبيعة إلى نصابه. ثم تطورت في رحابه بكيفيات وأشكال متنوعة. لكن المجرى التاريخي ليس متعالياً أو مفارقاً للواقع؛ بل هو ينتظم مجتمعياً، لأن هناك تشاركاً في كينونة كل من التاريخ والمجتمع. فمجرى التعاقب أو التقدم في التاريخ لا يتحقق إلا في المجتمع، والتقدم المجتمعي يحمله مجرى تاريخي موضوعي وينزع به نحو غاية إنسانية، تتمثّل على ما يرى د. زيتون إما في تحقيق العقل المطلق في مثال (هيغل)، وإما في تحقيق الحرية الإنسانية التي تنتج عن وعي الضرورة في مثال آخر (ماركس).

أما موضوعية التاريخ الاجتماعي، فليست قدَريه تقهر الذوات الفاعلة أو النحن المجتمعية

وتسلبها القدرة على الفعل؛ بل هي نتاج شروط التفاعل وسياقاته التي تتدرج فيه هذه النحن، الأمر الذي يؤول إلى أنّ الفرد يفعل ويبدع من داخل سياقات التفاعل بالذات. هكذا، يتاح لي أنّ استخلص حداثياً، أن الحقيقة هي نتاج الكشف المفهومي عن قوانين الواقع والعالم (الطبيعة)، بمعنى أن الحقيقة العامة لا تكون وجهة نظر، لأن الواقع ليس مبعثراً، وأنّ العالم ليس فوضوياً، بل على العكس. فكل منهما يتشكل من بنية تتوافر على آليات اشتغال أو قوانين خاصة بها. والبنية هنا، هي التي تؤطر النص الحداثي سواءٌ أكان فكرياً أم أدبياً بحيث يحضر فيها منتج النص فاعلاً وخلافاً، إنما من داخل سياقات مخصوصة؛ إذ إنّ السياق هو مصدر تأسيسي للنص يقدّم لمنتجه كل إمكانات الخلق والإبداع في نتاجه وتلك هي حال الأعم الأغلب من النصوص الفنية والحية في التاريخ..

**3 ـ نقدّ إلى نقد**

• بنى د. علي زيتون مقدمة تختلف عمّا هو متداول تقليدياً في مقدمات النقد الروائي. فقد ضمّن بناءها كيفية تعرفه إلى الروائي الإيطالي أمبرتو إيكو، حين طلب إليه تقديم بحث عن رواية الأخيرة اسم الوردة. وقد جذبته هذه الرواية إلى قراءة سائر الروايات الأيكوية. وفي ضوء مقولة إيكو: ما لا يمكن تنظيره ينبغي سرده؟ ابتدأ د. زيتون بالسرد، ثم عاد إلى التنظير، ومن ثم قدّمه في كتابه على الأول. وهو في هذا وذاك، كان يتفحص نقدياً وبعين حداثية فكرية إيكو ما بعد الحداثية؛ الأمر الذي جعله أولاً يحاور مقابلات إيكو حول ثلاثة عناوين هي: الحقيقة والتاريخ والقضايا الكبرى أو السرديات الحداثية الكبرى...

**أ ـ نموذج أول:**

وقفة مع هذه العناوين المفهومية. حول المفهوم الأول (الحقيقة) يقول إيكو (ص 18): "لم يكن هناك سوى أفضليات لا حقائق".

يستدعي هذا القول، بعد الحفر على سياقه، أن ليس هناك سوى الحقائق النسبية (الأفضليات)، التي تحيل إلى الأحداث المفردة والمبعثرة، وإن الحقيقة العامة، لا تعدو كونَها جمعاً لما هو نسبي. ذلك أنّ إيكو الما بعد حداثي ينفي موضوعية الواقع أو العالم من حيث أن موضوعية الأخير تشكّل مجال الكشف المعرفي عن القوانين القارة في بنيته، أيّ عن حقائقه العامة. ولعل قول إيكو (ص 19): "أصبحت اعتقد أكثر فأكثر بإمكانيّة أن العالم غير موجود وبأنه ليس سوى نتاج لغوي"؛ يؤكد ما ذهبت إليه من نفي لموضوعية الواقع، بحيث لا يجد قوامه الوجودي إلا باللغة؛ وكأنما اللغة في نظره، ذات قوام يتحدد بذاته حتى تكون خالقة أو متعالية على الواقع، وليست مخلوقة، أو من نتاج سياقاته العامة في الفكر والثقافة والأيديولوجيا؛ أي بعبارة أخرى، مخلوقة من رحم التاريخ الاجتماعي....

وفيما خص المفهوم الثاني (التاريخ)، يقول إيكو (ص 20): "كانت هذه الإشاعات السبب في انبثاق التاريخ الكبير". هنا، أعتقد أن مصطلح الإشاعات يحيل عند إيكو إلى النظام المنهجي في التفكير الحداثي. وهو ما حددّه د. علي بالجدلية المثالية الهيغلية، وبالجدلية المادية الماركسية. والمعروف أن هذين المنهجيْن أتاحا لصاحبيهما أن يقاربا التاريخ الاجتماعي رغم اختلافهما من منظور كلي وشمولي. فكانت مقاربة كل منهما تمثّل سردية تاريخية كبرى ترسم مسار التقدم البشري المتعاقب من مرحلة إلى أخرى نحو تحقيق العقل المطلق أو تحقيق الحرية الإنسانية. وحيث يرى إيكو أنّ انبثاق التاريخ الكبير الذي يعني به السردية التاريخية الكبرى، يعود إلى الإشاعة، لا يبقى أمامه من مخرج سوى أن يرى بأن التاريخ مسرح للوهم (ص 20). ومسرح الوهم في منهج التفكير ما بعد الحداثي، يحيل إلى رفض التاريخ العام للواقع بما هو كلية مجتمعية، كما إلى رفض مساره الغائي. ذلك أن الواقع في النظر ما بعد الحداثي هو مجموع من الأحداث المتجاورة على شكل جزيري لا يربط بينها عام أو كل. وبذلك، يكون التاريخ، تاريخ حدث جزيري لا ينزع كما أشرت آنفاً إلى أي هدف أو غاية إنسانية كبرى.. وفيما يرتبط بالمفهوم الثالث (القضايا الكبرى)، يرى إيكو (ص 21)، أن المجتمع تخلى عن الجدل حول المبادئ الكبرى وانتقل من مرحلة الحداثة والاهتمام بالقضايا الكبرى إلى مرحلة ما بعد الحداثة والاهتمام بالجزئيات والتفاصيل.

يحفزني هذا القول لأتناول بإيجاز نظرة الحداثة إلى المجتمع. فالمجتمع في هذه النظرة إما هو نظام أو بنية أو نسق... وهو بذلك، يشكّل كُلاً يختلف من حيث طبيعته عن طبيعة العناصر (الأفراد) الداخلة في تكوينه. لكن الكل هنا ليس متعالياً على الأفراد، بمعنى أنه ليس متخارجاً عنهم، إذ إنّ الفرد يحضر في الكل والكل يحضر في الفرد. وهذا ما تبرهن عليه العلاقة بين الطرفيْن وفق معادلة الاستدخال والاستخراج. فالاستدخال يعني حضور المجتمع في الذات الفردية، والاستخراج يعني حضور الذات الفردية في المجتمع. وعلى هذا الأساس رأت السوسيولوجيا الحداثية، أن الفرد هو حامل الكل المجتمعي، وأن فعله أو إبداعه يتم من داخل هذا الكل.

ولطالما كان الأمر كذلك، يغدو الكل متسقاً مع ذاته لجهة الاهتمام بالقضايا الكبرى نحو: الوطنية والقومية والصراع الطبقي والعدالة والمساواة والخير والحق والجمال... ويغدو الفرد حاملاً لتلك القضايا. ذلك أن الاثنيْن يعبران عن سردية حداثية كبرى... أما المجتمع في النظر ما بعد الحداثي، فقد تفكك بفعل العولمة، ولم يعد يشكل نظاماً أو نسقاً أو كلاًّ، بل أصبح عبارة عن جمع من الأفراد لا رابط مجتمعياً بينهم، حيث لكل منهم قصته الصغرى أو اهتمامه بالجزئي أو بالتفصيل في المعيش اليومي حتى ولو اتصف بالهامشية وأحياناً بالتفاهة.

هنا يبدو المجتمع في ضوء هذا النظر كأنه محادثة حول قصص أو سرديات صغرى

يتبادل الأفراد سردها فيما بينهم، سواء في العالم الواقعي أم الافتراضي... لكن حتى من جذّر مقولة التفكك، وتحدث تحليلياً عن فوات المجتمع ونهايته أو نهاية تصوّر عنه (آلان تورين)، لم يستطع في نهاية تحليله أن ينفي الرابط المجتمعي بين الأفراد، إذ رأى أنّ الفرد لا يمكن له أن يحلّق فوق المجتمع، أو أن ينفصل جذرياً عنه. وهذا يعني أن ما بعد الحداثة التي تروّج للفردانية الجذرية، لم تمتلك معرفة قطعية، تؤهلها لنفي العلاقة التي أرستها المعادلة الحداثية بين المجتمع والفرد.

وهكذا، يتبدى بوضوح أن النقد الحداثي لأيّ نص ما بعد حداثي، أيّا كان نوعه أو طبيعته، يحمل ضرورته المعرفية بجدارة، لأنّ البناء على النظام، أو التشييد على الكل، هو وحده الذي يواجه الفوضى والتشظي والتفكيك..

**ب ـ نموذج ثان: الأثر المفتوح**

في كتابه "الأثر المفتوح" يورد إيكو (ص 26)، "أن الإنسان الوسيط يستدعي عالماً محدداً حيث يستطيع العيش والتوجه حسب علامات مؤكدة. أما الإنسان الحديث، فيرى ضرورة تأسيس مسكن جديد من دون أن يعرف قوانينه الغامضة، فيبقى مسكوناً على الدوام بذكرى الطفولة الضائعة". ينطوي هذا النص على مفاهيم الزمن (الوسيط والحديث)، والثقافة (العلامات)، والعالم المجتمعي (المسكن)، واللانظام أو الفوضى (القوانين الغامضة).

إنّ الزمن يظهر عند إيكو في ضوء نصه هذا، بأنه ليس خطاً تصاعدياً، ولا مساراً لولبياً ذا نزوع تقدمي، إنما هو حَلَقي وتراجعي في آن. وما يؤكد ذلك، هو أن الإنسان الحديث مسكون على الدوام بذكرى الطفولة، أي أن عودة الزمن الحاضر أو الحديث إلى الزمن الماضي تعني في وجه آخر أن الحاضر يتقوم بالماضي. في حين أن الحاضر الحداثي، يكثّف في لحظته الجارية لحظتي الماضي والمستقبل. فهو الذي يستدعي الماضي إليه ويفسّره. ذلك أن الأعلى هو الذي يفسّر الأدنى. وهو أيضاً الذي ينزع نحو التقدم على نحو متواصل، لِما تحمله لحظته من إمكانات لبناء الآتي...

وما بين حاضر يعود أو يتراجع، وحاضر يستدعي ويفسّر وينزع، يظهر الماضي عند إيكو متعالياً على الحاضر. وهذا التعالي، أراه قد وجد تعبيره في دعوة ما بعد الحداثة بصفتها أيديولوجيا العولمة المعاصرة، إلى إحياء ثقافة الأمس "الأزلي"، ما قبل الدولتية تحت مسمى التنوع الثقافي.. هذا الأمس الأزلي هو ما قصده إيكو في ظني، في حديثه عن العلامات المؤكدة، أي عن ثقافة العُرف والتقليد والعقل الإيماني. وصفة المؤكد لتلك العلامات تحيل إلى الثبات والاستقرار، كما إلى الأمان والطمأنينة لدى الإنسان الوسيط في عالمه المجتمعي. ذلك أن العُرف والتقليد بما هما نظام لهذا العالم، يتكرران داخل حلقة تتصف بالثبات والديمومة.

وأن العقل الايماني يتسم بالوثوق الغيبي المعرفي، أو الانحباس في دائرة النص الماضوي. وفي المقابل، يرى إيكو، أن الإنسان الحديث يعيش في مسكن جديد، أي في عالم مجتمعي لا يعرف قوانينه الغامضة. وهذا يدل على أن العالم الجديد ينحكم إلى التغير المستمر حيث يعجز العقل عن معرفة قوانينه بسبب غموضها..

هنا يتضح جلياً، أن عجز العقل عن الكشف المعرفي، يتأتى من نظرة إيكو ما بعد الحداثية. وهي النظرة التي تقوض العقل وتهدمه كأداة للإنتاج النظري، هي في النظر الحداثي لا تعجز عن كشف القوانين الكامنة غير الغامضة أو المجهولة، في بنية العالم المجتمعي.. وحيث يتقوض العقل أو ينهدم، يعيش العالم المجتمعي في حال اللانظام أو الفوضى. وإزاء هذه الحال يتبعثر العالم ويتشظى، ويغدو كل حدث فيه قائماً بذاته. فيدخل الإنسان في دائرة حَدَثية ضيقة، ولا يعود أمامه سوى أن يسرد من داخل دائرته بالذات. وبعد أن يستغرقه السرد الحدثي، لا بد من أن تتسلّل إليه وضعية القلق الوجودي التي لاحظها د. علي، أو العصاب الاستفزازي. وهي وضعية قاد إليها نص إيكو، والتي لا يفيدها كثيراً تذكر الطفولة الضائعة على تخوم الأمس "الأزلي".

إنّ العقل الحداثي الذي يستكشف معرفياً النظام في العالم، أو قوانينه العامة، أو بنيته الكلية؛ هو وحده الذي يمسك بيد الإنسان الحديث ويقدّم له سردية كبرى تخرجه من سرده الحدثي ومن تلك التخوم على حد سواء..

أما حين يتبعثر العالم ويتشظى، وحين يتقوّض العقل، فلا يعود مستبعداً في ضوء التحليل الحَفْري، أن يدعو الفكر ما بعد الحداثي إلى تشظية الله بما هو خالق أو مطلق أو عقل كلي أو نظام كوني؛ أو أقله إلى نسيانه على ما كان يقول ميشال فوكو في لحظة متعته الخاصة..

لكن إذا ما نظرتُ إلى مشهد آخر؛ أجد طفلاً فلسطينياً يحمل حجراً ويضرب به الجندي الصهيوني. فالمشهد هذا يعني أن الحجر ليس سوى سردية كبرى (القضية الوطنية)، ينتجها عقل حداثي وينقض بها فكر نيتشه وإيكو وفوكو، بعد أن أعادت قبضة الطفل إحياء الله بأبهى صوره...

إذن، التنظير ممكن في كل ميدان...

أخيراً، بعد قراءة هذين النموذجيْن وتصفح سائر أجزاء الكتاب، يحدوني صدق القول: إنّ د. علي زيتون هو ناقد روائي مبدع وخلاق سواء في سرد التنظير أو في تنظير السرد...

إنه الشاهد الأمين على عالية النهر...

# باب اللغة العربية وآدابها

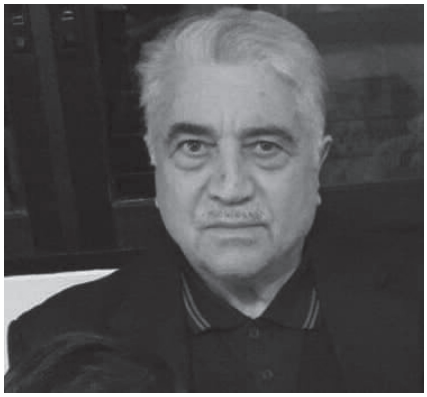

# "اللغة العربية الفصحى في مواجهة العاميّة والحروف اللاتينية"

**بقلم الأستاذ الدكتور أحمد محمد فارس،**
**أستاذ اللغة والأدب في الجامعتين: اللبنانية والعربية.**
Ahmad.Fares@aub.edu.lb

الحمد لله الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علّمه البيان، ميّزه بالعقل، وحباه بالفهم، وفضّله على كثير مِمَّن خلق تفضيلاً، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وهو القائل: "أنا أفصح العرب، بيد أنّي من قريش...". وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وبعد:

فإنّ اللغة هي الأساس للعلوم كلها، ومادتها بدءاً بالحروف، فالكلمات، فالجمل، فالفِقر، فالمقاطع، فالنص، وهي الوسيلة المعبّرة عن خلجات القلوب ونهضات الشعوب، وهي جسر يصل بين الحياة والفكر وكل ما في الدنيا من مشاهد، وصور في الطبيعة أو المجتمع ينتقل بصورة رائعة إلى الذهن بطريقة الألفاظ أو الكتابة، وكذلك كل ما في الذهن من خواطر ومشاعر وأفكار، ينتقل إلى الآخرين، ومن عصر إلى عصر، ومن جيل إلى جيل باللغة.

ولذلك فإن الكلمة رمز الخلق والإيجاد**]إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ[**(النحل/ 40)

والشاعر الجاهلي جعل الكلام نصف الحياة الإنسانية، أو أحد أجزائها الثلاثة في قوله:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ـ فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وقيل: "اليد واللسان تلك هي الإنسانية"

فاللغة أداة الرقيّ في الحياة، ونمو الفكر، وهي أشبه بالرموز الرياضية، بل أشبه بالنقود التي يُرمز بها إلى القيم.

وعرّفها ابن جني بقوله: "أصوات يعبّر بها كُلُّ قومٍ عن أغراضهم"[1].

وعرّفها آخرون، ومنهم العالم اللغوي الأميركي إدجار ستيرتفنت بأنها: «نظام من رموز ملفوظة عُرفية بوساطتها يتعاون ويتعامل أعضاء المجموعة الاجتماعية المعنية».

وعرّفها جفونر في مقدمة كتابه «المنطق» محدِّداً وظائفها بأنها «وسيلة للتوصيل، وأداة للتسجيل، ومساعد آليّ للتفكير»، فاللغة بمقتضى هذا التعريف توصل الأفكار، وتسجلها، وتساعد الفكر على التفكير.

وقد أخرج ابن جني «الكتابة» من تعريف «اللغة» إذ إنَّ الكتابة نظام من الاتصال، ذو علاقة خاصة باللغة المنطوقة في أنّها تعتمد عليها»[2]. وفصّل فندريس في الخلاف بين اللغة «المنطوقة»، و«الكتابة»، وشرح معنى اعتماد الكتابة على اللغة حين قال: «وهكذا نرى أنّ الاستعمال يتفق مع التقاليد في تأكيد اختلاف اللغة المكتوبة عن اللغة المتكلَّمة، والواقع أنهما لا يختلطان أبداً، ومن الخطأ أن نظن أنّ النص المكتوب يعتبر تمثيلاً دقيقاً للكلام»[3].

وقد فصّل فندريس مبيناً الفرق بين لغة الكلام والكتابة، في قوله: «يتجلى في أوضح صورة في مسألة الرسم، فلا يوجد شعب لا يشكو منه، إن قليلاً وإن كثيراً، غير أن ما تعانيه الفرنسية والإنكليزية من جرائه قد يفوق ما في غيرهما، حتى أنّ بعضهم يُعدّ مصيبةً الرسم عندنا كارثة وطنية» ثم يقول: «لا يوجد رسم واحد يمثل اللغة المتكلَّمة كما هي... ومن ثم كان من المعتاد في كتب الأصوات أن تصور الأصوات اعتماداً على لغة معروفة للقارئ، لا على الجهاز الصوتي للإنسان»[4].

**اللغة والثقافة:**

اللغة هي الثقافة، والثقافة هي اللغة، وهما متلازمان، ولا شكّ أن اللغة هي المُعَبِّر الأهم عن ثقافة المجتمع، ويقصد بها ما يسود المجتمع من أنظمة العقائد والعادات والتقاليد والأفعال، وردود الأفعال، وحيث إنّ اللغة هي الوجه الناطق عن الثقافة، فإن المجتمع الكلامي هو الذي تسوده لغة تعبِّر عن ثقافته، «وهناك مجتمعات تتكلم لغة واحدة، ومع ذلك تعد مجتمعات كلامية مختلفة»[5]، فاللغة الإنكليزية في الولايات المتحدة الأميركية تختلف عن إنكليزية الجزر البريطانية في كثير من المفردات وأساليب النطق، وتختلف عن إنكليزية استراليا وغيرها، واللغة الألمانية في سويسرا تبتعد عن أصلها، ويزداد تأثرها بجارتها الفرنسية، حتى لتوشك أن تكون لهجة متميزة عن ألمانية الألمان، وهكذا اللغة الفرنسية في شمال فرنسا وجنوبها.

**التنوع اللغوي:**

لا توجد لغة على هيئة واحدة، أو على مستوى واحد، وإنما هناك تنوع لغوي، يبدو على

هيئة لهجات إقليمية، جغرافية، أو لهجات اجتماعية، أو لهجات مهنية، تخصّ مهنة معينة، ولا توجد لغة إنسانية تجري على نمط واحد، إنما اللغة الواحدة مستويات وأنواع، فهناك لهجة الفرد، إذ لكل شخص طريقته في النطق، وله خصائصه الصوتية التي تميزه عن غيره، ولكل واحد اختياراته من الألفاظ. ومن الجمل، ولذلك يعرف الإنسانُ مَنْ يطلبه على الهاتف فور سماع صوته؛ لأن لكل شخص بصمة صوتية معينة، وهناك اللهجات الإقليمية الجغرافية، فلهجة السهول لها خصائص تميزها عن لهجة الجبال، ولهجة الصحراء عن لهجة المدن، وهناك اللهجات الاجتماعية، واللهجات الخاصة التي تميز مهنة عن مهنة، فثمة لهجة الأطباء، والنجاريين والحدادين، والصياديين والبنائين، واللصوص، وهناك لغة خاصة لأهل القانون والدعاة.

وهناك عاميات تجري على مستويات، وهناك اللغة الفصيحة، وهي أيضاً لها مستويات كثيرة.

وفي كل لغة توجد فصيحة «عامة» تمثل النمط العام، ونراها في وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، وفي المحاضرات العامة والتقارير السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها.

«وفي معظم اللغات توجد فصيحة معاصرة، وفصيحة تراثية، وهذه الأخيرة ليست شيئاً واحداً، وإنّما تجري على مستويات تحددها طبيعة التراث ذاته»[6].

وحتى النطق بالفصحى يختلف من دولة إلى أخرى تبعاً للصوت الذي يحدد بلد المتكلم، إن كان لبنانياً أو سورياً، أو مصرياً، أو فلسطينياً، أو مغربياً....

وحتى اللهجات أيضاً فإنها مستويات تبعاً للمناطق التي تستتبع اختلافاً في التعبير، ويبدو ذلك واضحاً، في مناطق كل بلد، وهو وطن واحد لكل المناطق لكن لكل منطقة نظام لغوي يتفاوت عن الآخر، وإذا أخذنا لبنان مثلاً، وبدأنا بالعاصمة بيروت، وجدنا اختلافاً في اللهجة ما بين منطقة البسطة، ومنطقة الطريق الجديدة، ومنطقة رأس بيروت، ومنطقة الأشرفية، وكذلك الحال في صيدا، وصور، وطرابلس، وعكار، والجبل وبعلبك وعكار، وغيرها، ويمكن للسامع أن يحدّد بلد المتكلم.

وإذا عرفنا ذلك، تبيَّنا بسهولة تباين الأمم في التفكير والنطق، لاختلاف نظم الحياة التي تستتبع الاختلاف في هذا الأمر، فللعرب نظامهم، وللفرنسيين طريقتهم، وللإنكليز إلْفهُمْ، وهكذا دواليك من الاختلافات الناجمة عن تشعب الأمم وافتراقها، واختلاف عاداتها، ونظم الحياة فيها، بل إن كل فئة في المجتمع تختلف عن الأخرى فالزارع والصانع والمثقف لا يسير كلٌّ منهم جنباً إلى جنب بجوار الآخر لتفاوت العادات، ونظم الحياة، وإنّ التفكير اللغوي لا يسير على نظام واحد، على مرّ الدهور، واختلاف الأمكنة والعصور، بل إنّه يخضع لمؤثرات. منها الحالة العقلية للشعب واختلاف البيئة والوراثة.

**اللغة العربية:**

اللغة العربية هي اللغة الشريفة التي نزل بها الذكر الحكيم، بلسان عربي مبين، وهي لغة عالمية، وأمّ اللغات كما وصفها المستشرق الإنكليزي «اللورد هاردلي»، وهي لغة المستقبل بالرغم من الحملات الظالمة عليها من الداخل والخارج، وإنّ الذين يناهضون العربية، يتهمونها بأنها لا تتسع لكل المعاني، التي يراد التعبير عنها، وأنها لا تفي بكل حاجات العصر ومقتضياته لأنها – على حد تعبير المغرضين– لغة أبي تمام والبحتري والمتنبي وشوقي، أي: لغة الشعر والمدح، لا لغة العلم والحضارة.

ويُعدَّ هذا تجنّباً، وجحوداً، وقد يكون جهلاً بالوجوه المشرقة التي أتاحت للغة العربية الازدهار والسيادة في مختلف العصور، لغة استوعبت جوانب العلم والحضارة، ولعلهم لم يدروا أنّ راية العربية لم تنتكس إلا يوم انْصاع المنهزمون من العرب إلى دعاة اليأس والهزيمة.

ومهما يكن من أمر فإنَّ العربية ستنتصر، وتشق طريقها، ولو كان هناك من يناهضها، ويحاربها بالطرق الملتوية.

فاللغة العربية لغة شريفة، شرّفها الله بنزول القرآن الكريم بها، وتكفل بحفظ القرآن الكريم من أي تحريف أو تصحيف، فقال:**]إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ[**(الحجر 9)، وحفظ القرآن الكريم يقتضي حفظ لغته العربية، حتى يرث الله الأرض وما عليها، ومن عليها، ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وهما بلغة العرب"[7].

وتتسم بالجمال، وتمثل قِمَّة الإبداع اللغوي عندما تصاغ في صورة شعرية، لما تشتمل عليه من غنى في مفرداتها، وإتقان محكم في تراكيبها، وزخرف في أشكالها، وجمال موسيقيّ في جرْسها.

والسجع في النثر، والقافية في الشعر، والفواصل في الآيات القرآنية تشهد بموسيقية اللغة، وتدل على جمالها، ومن أبرز ذلك ما فيها من ألوان بديعية: لفظية، ومعنوية، عن طريق الكلمة المفردة. وغيرها، أو الكلمة ضدها، أو الألفاظ الموضوعة لمعنى واحد، أو اللفظ الذي له معانٍ كثيرة، يقول الجاحظ واصفاً لغة العرب، وحديث الأعرب مُزْهُوّاً: «ليس في الأرض كلام هو أمتعُ ولا ألذُّ في الأسماع، ولا أفتقُ للسان، ولا أجودُ تقويماً للبيان من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء والعلماء البلغاء».

إنَّ العلماء العرب كانوا ينظرون إلى اللغة العربية على أنّها أفضل اللغات جميعاً، وهي حقيقة يمكن تقبلها من خلال نشأة علم اللغة من أنه نشأ لفهم النص القرآني الكريم، فالعربية هي لغة القرآن، وهي مستودع عقائده وأحكامه.

وقد تحدّث أبو الحسين أحمد بن فارس عن «أفضلية» العربية على سائر اللغات، عارضاً

الأسباب التي يراها، وأهمها أنها لغة الوحي الكريم... قال: أقول إنَّ العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة والفُتيا بسبب، حتى لا غنى بأحدٍ منهم عنه، وذلك أن القرآن نازلٌ بلغة العرب، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – عربي، فمن أراد معرفة ما في كتاب الله – جل وعزّ – وما في سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وفي كل كلمة عربية، أو نظم عجيب، لم يجد من العلم باللغة بُدًّا...» [8].

وقال أبو منصور عبد الله بن محمد الثعالبي: «أما بعد حمد الله على آلائه، والصلاة والسلام علي محمد وآله، فإنَّ من أحبَّ الله أحبّ رسوله المصطفى – صلى الله عليه وسلم – ومّنْ أحبّ الرسول أحب العرب، ومن أحب العرب أحب اللغة العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العرب والعجم، ومن أحب العربية عُني بها، وثابر عليها، وصرف همته إليها، ومن هداه الله للإسلام، وشرح صدره للإيمان، وآتاه الله حسن سريرة فيه اعتقد أن محمداً – صلى الله عليه وسلم– خيرُ الرسل، والإسلام خيرُ الملل، والعربَ خيرُ الأمم، والعربية خيرُ اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة، إذْ هي أداةُ العلم، ومفتاحُ التفقّه في الدين، وسبب في إصلاح المعاش والمعاد...» [9].

**مواجهة التحديات:**

إنّ اللغة العربية تواجه تحدّيات كثيرة، وتتنامى هذه التحديات مع مرور الزمن، وتقدم التكنولوجيا، حتى باتت هذه التحديات خطراً على اللغة العربية، يهدف إلى إنهاكها؛ لأنها لغة تتكلم بها نسبة كبيرة من سكان العالم، وهي لغة حيّة ما زالت تحتفظ بكثير من الخصائص، كقوة الألفاظ، ورصانة المعاني، وحيوية في الاشتقاق؛ ولأنها لغة القرآن الكريم، الذي تعهد الله بحفظه.

وهذه التحديات قديمة، متمثلة في فئةٍ من الداعين والمجاهرين لتغييرها أو تيسيرها – كما يدّعون– عن طريق إيجاد مقترحات جديدة الهدف المعلن منها تخليص الرسم العربي من عيوبه، أو إلى هجر الحرف العربي، واستبداله بالحرف اللاتيني، وتعد هذه الدعوةُ الأكثر خطراً، لأنها تقطع الصلة بين ماضي العرب، وتراثهم، وبين حاضرهم وما آلوا إليه، وهدم الحضارة العربية، وسلخ المسلمين عن تاريخهم وتراثهم، وحضارتهم، وليسهل على أعدائهم إملاء ما يريدون، بعد قطع جذور دوحتهم، حيث لا تقوى على الصمود أمام نسمة هواء.

وقامت محاولات بادّعاء تيسير الكتابة العربية، وقُدِّمت مقترحات ومشاريع عديدة، منها: مشروع أنستاس ماري الكرملي في العراق لتدوين الحركات واندماجها في سياق الكلمة نفسها عام 1935، ودعوة طه حسين إلى النظر في إصلاح الكتابة العربية عام 1937، ومقترح على الجارم سنة 1944، ومقترح علي عبد الواحد وافي عام 1946 ومشروع محمود تيمور

إلى مجمع اللغة العربية في القاهرة عام 1951، ويقوم على اختصار صور الحروف ليصبح لكل حرف صورة واحدة قابلة للاتصال والضبط بالحركة.

هذه المقترحات والمشاريع التي فكر فيها اللغويون، وأصحاب الفكر وقدموها من خلال نشرها في الصحف والمجلات، أو تقديمها إلى المجامع العلمية اللغوية، أو تقديمها بشكل كتيّب باءت بالفشل، وبقيت مجرد محاولات، والأهداف من ورائها مختلفة ومتعدِّدة ومعروفة.

**الدعوة إلى اعتماد العامية وكتابة العربية بالحروف اللاتينية:**

انطلقت الدعوة إلى إحلال العاميات العربية محل الفصحى انطلاقاً من الربع الأخير من القرن التاسع عشر، ففي العام 1880م دعا مدير دار الكتب المصرية المستشرق الألماني ويليهم سبيتا إلى اعتماد العامية المصرية بديلاً عن الفصحى، واستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، وقدّم في كتابه: «قواعد العربية العامية في مصر» جدولاً مقارناً بين الحروف العربية وما يقترحه مقابلها من حروف لاتينية، وفعل الشيء نفسه ثلاثةٌ من المستشرقين الإنكليز هم: وليام ولكوكس، الذي واصل دعوة»سبيتا»، فنشر سلسلة من المقالات بهذا الخصوص في مجلة الازدهار عام 1893م، متسائلاً: لمَ لا يتوافر المصريون على مخترعات الآن؟ ليجيب سريعاً: ذلك أنهم يفكرون بلغة؛ ويكتبون بلغة أخرى. وأعقبه في الدعوة إلى العامية كارل فولرس، الذي خلف سبيتا في إدارة دار الكتب المصرية، فألف كتاباً عنوانه: «اللهجة المصرية الحديثة» ثم وضع «سيلدون ويلمر» الذي تولى القضاء في المحاكم الأهلية في القاهرة. مؤلفاً يعزف فيه على النغمة ذاتها عام 1901، بعنوان «العربية المحلية في مصر» منادياً بجعل العامية المصرية لغة للكتابة الأدبية، وداعياً إلى اعتماد الحروف اللاتينية بديلاً عن الحروف العربية.

وناصر هذه الدعوة بعض المثقفين المصريين بتفاوت في مواقفهم من العربية، وطريقة كتابتها، من أبرزهم:

أحمد لطفي السيد، وسلامة موسى، ولويس عوض، وعبد العزيز فهمي، وأشد الدعوات وأقساها على اللغة العربية ومصيرها، تلك التي أطلقها المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون عام 1929، في محاضرة له بجمع من الشباب العربي في «الكوليج دي فرانس» حيث قال: «لا حياة للغة العربية إلا إذا كتبت بالحرف اللاتيني».

وقامت دعوات مماثلة في لبنان، أقدمها دعوة الأب مارون غصن عام 1925، إلى تبني العامية لغة، واللاتينية حرفاً؛ وألف الخوري حداد كتاباً في العامية، بعنوان: «في مِثْلُه هالكتاب»، وتبنى هذه الدعوة نفر من الكتاب والشعراء اللبنانيين، من أبرزهم: أنيس فريحة، وسعيد عقل؛ ويوسف الخال.

وكتابة العربية بحروف لاتينية كانت معتمدة في إرسال البرقيات إلى المغرب العربي، وقد

انتشرت في الآونة الأخيرة بين الشباب، منذ ظهور الهاتف المحمول، وشبكة الانترنت، حيث يكتب الشباب الكلمات العربية باللغة اللاتينية، مثل جملة اية الأحوال: eh alahwal. وكيفكم kefkon، وهكذا دواليك.

ونذكر أن في جلسة المجمع اللغوي المصري التي انعقدت في 3/5/1943، تقدم عبد العزيز فهمي باقتراح، دعا فيه إلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، وإلى هجر الفصحى، وإحلال العامية مكانها، وكانت كلماته التي صاغ بها مقترحاته تنمُّ عن نقمة عاتية على الفصحى، لغة القرآن، ولغة العالم العربي من أربعة عشر قرناً، وبلغ به الغلوّ والحنق إلى درجة وصف الدعوة إلى تعلم الفصحى بأنها تحمل في ذاتها محنة حائقة بأهل العربية".

ولا بُدّ من الإشارة إلى أنه قد صدر في سنوات المحنة في لبنان منذ عام 1975، صدرت جريدة في منطقة عين الرمانة باللجهة العامة اللبنانية، واسم الجريدة "لبنان" وكان سعيد عقل يكتب الافتتاحية فيها بما يسميها خماسيات، وتحتاج قراءتها إلى منجّم مغربي لفك طلاسمها.

لم تلق هذه الدعوات كلها القبول، وتُعدّ تجديداً للدعوة التي نفذّها مصطفى كمال أتاتورك في تركيا، واستبداله الحروف اللاتينية بحروف اللغة التركية وهي حروف عربية، ولكن القياس يأتي مع الفارق الكبير. فالتراث العربي والاسلامي المكتوب باللغة العربية أغزر وأكثر كمًّا من التراث التركي، وتراثنا الأدبي والفقهي والتاريخي والفلسفي مسجل باللغة العربية، بحروفه المعروفة، والهدف الأساس من هذه الدعوات الخبيثة قطع الصِّلة تماماً بين الأجيال القادمة وتراث الأمة وتاريخها وقطع الصلة بينهم وقراءة القرآن الكريم بالصورة التي نزل بها جبريل – عليه السلام – على النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – فضلاً عن أن الكتابة بالحروف اللاتينية ستشغل حيزاً أوسع بكثير من الحيز الذي يشغله المكتوب بالعربية، فكلمة "محمد" تتكون من أربعة أحرف (كتابة)، أما في اللاتينية فتكون من ثمانية أحرف، فضلاً عن الوقوع في اللبس، فحرف الحاء يعبّر عنه باللاتيني بالهاء، والعين بآ، والضاد بالدال، والصاد بالسين، وحرف D اللاتيني يقابل الدال والضاد، فكلمة داني Dani يمكن أن تقرأ «داني» بمعنى قريب أو اسم علم، من فعل دنا، ويمكن أن تقرأ ضاني، بمعنى لحم الخراف.

إنّ العربية الفصحى ستبقى المستوى الكلامي المثالي، والقاسم المشترك بين أفراد المجتمع العربي، وإنّ جميع الدعوات التي كانت سابقاً، وما يليها من دعوات في المستقبل ستسقط؛ لأنَّ اللغة العربية مرتبطة بالقرآن الذي تكفل الله بحفظه، والتكفل بحفظ القرآن تكفل أيضاً بحفظ اللغة العربية إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، وإن اللغة العربية لم تضق ذرعاً بالتعبير عن شؤون الحياة قديماً وحديثاً فقد اتسعت للعلوم والفنون والمهن والصناعات على اختلاف أنواعها، وللحضارة على كثرة مظاهرها، فنهضت بالمواد الشرعية والرياضية والعلوم النفسية والاجتماعية، وهي لسان الفلسفة والسياسة والقصص، ومختلف ضروب المعاملات. ولم تقف

أمام أية شعبة من شعب المعرفة أو الحضارة وقفة المتعثر الحائر، بل كان لها من قوة حيويتها، وعظم مرونتها، وغزارة ثروتها، وسلامة أسسها، ما أتاح لها الخوض في مختلف مناحي القول والتعبير عن شتى مظاهر التفكير:

قال حافظ إبراهيم على لسان اللغة العربية:

وسِعْـتُ كتــاب الله لفظـاً وغايـةً ـ وما ضقت عن آيٍ به وعظاتِ
فكيف أضيقُ اليوم عن وصفِ آلةٍ وتنسيــق أسمــاء لمختــرعاتِ
أنا البحرُ في أحشائه الــدُّرُّ كــامِن فهل سألوا الغواص عن صدفاتِ

**الحواشي:**

1 . ابن جنّي، أبو الفتح عثمان: الخصائص، ج1، ص 33، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب بالقاهرة، 1952. والجرجاني، علي بن محمد، التعريفات ص 196، ط2، القاهرة 1357هـ/1938م.

2 – Caroll, John B.: Language and Thaught, prentice – Hall, Inc, New Jersey. P.3.

3 . الراجحي، د. عبده، فقه اللغة في الكتب العربية، ص 62،/ دار النهضة العربية، بيروت 1430هـ/ 2009م.

4 . فندريس، اللغة، ص 406–404، ترجمة الأستاذ عبد الحميد الدواخلي، والدكتور محمد القصاص، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، 1950.

5 . الراجحي، د. عبده: علم اللغة التطبيقي، ص 30، دار النهضة العربية، بيروت، 1425هـ/2004م.

6 . م.ن. ص 42.

7 . ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، ص 453، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.

8 . ابن فارس، أحمد أبو الحسين، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، ص 64، تحقيق الدكتور مصطفى الشويمي، بيروت 1963.

9 . الثعالبي، أبو منصور عبد الملك، فقه اللغة وسر العربية، ص 2، القاهرة، 1284هـ.

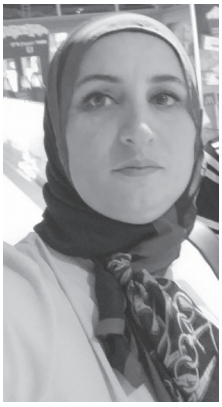

# قراءة حجاجية في رواية "جونتنامو" للكاتب يوسف زيدان

**الدكتورة هبة الحشيمي**
**الجامعة اللبنانية كلية الآداب والعلوم الإنسانية**
drhibahouch@hotmail.com

لقد أردنا برصد قراءة الرّواية الزيدانيّة؛ أن نفهم النثر الأدبي عند الراوي "يوسف زيدان"، وما ينطوي عليه، من قيم جماليّة تداوليّه، وإظهار القيم التي حُجِّبتْ بالألفاظ، وإبراز التدقيق فيها، والإشارة الحجاجيّة العامة.

ولعل السؤال الذي يُثار في الرواية هو ما يمكننا صياغته على النحو الآتي: هل يتسع النثر الزيداني للوظيفتين التخييلة والتداولية؟ وهل يفضي السرد والنثر إلى تداخل نمطين من الخطاب، الخطاب التداولي الحجاجي والخطاب الأدبي التخييلي؟

من الواضح، في هذه الرّواية، أنّ الصّورة السّائدة ذاتُ مقاصد جماليّة ووظيفيّة حجاجيّة تداوليّة، ووظيفة أدبيّة غير قابلة للالتباس؛ مما فسح المجال لبروز تصوّر مغاير عن المجتمعات التي نعرفها، بوسائل الإعلام، وبتداخل العادات بالطقوس الدّينيّة. ونتيجة ذلك ظهرت معاييرُ في التلقي والقراءة شكلت أساسًا لتقويم الرّواية المتمثّلة في قدرة الزيدانيّ البيانيّة والحجاجيّة.

تأثرت هذه الرواية بالأفكار الفلسفية التي كانت ردة فعل على التّصرفات الوحشيّة التي خلخلت منظومة القيم، فأكّدت مبادئ الحريّة والالتزام بقضايا المجتمع والوطن، والتي تحقق للفرد الوعي الكامل للتحرر من القيود السياسية والاجتماعية، ولعب الرّاوي ثورته على الواقع وبثّ أفكاره في مجتمعه للحدّ من الظّلم والإضطهاد والعنصريّة.

وقد نشطت رواية "غونتنامو" بالفلسفة الوجوديّة وقد لمسنا آثارها الفكرية والأدبية في كامل الرّواية وساعدت على بنائها. قفد جاء هذا الإبداع أكثر صدقًا في تجسيد الموقف الحقيقي

للسجناء المظلومين في "غونتنامو" من أي عمل آخر ليوسف زيدان، في حين يدعوني بحثي إلى دراسة حجاجية، وتفسير الطريقة الزيدانية في بناء هذا الفكر الوجودي القائم على الحرية والمسؤولية، وعلى معارضة الالتزام الحزبيّ.

We wanted to monitor the reading of the novel Zeidaniyeh; to understand the literary prose of narrator "Yusuf Zidan ", and what it entails, the aesthetic values of the deliberative, the presentation of the values that were read in terms, the visibilityof the narrative, and the reference of the generalargumation.

Perhaps the question that arises in the novel is what we can formulate as follows: is the Zidani scattering for posts and deliberative? Does the narrative and prose lead to the overlap of two types of discourse, the deliberative discourse ofargumation and the optional literary discourse.

In this novel, it is clear that the dominant picture is one of aesthetic, functional, deliberative, and non-ambiguous literary purposes; This has allowed the emergence of a different perception of the societies we know, by the media, and by the intermingling of customs with religious rituals. As a result, there were criteria for receiving and reading, which formed the basisfor the evaluation of the novel's ability to graph and stone.

This novel was influenced by philosophical ideas that reacted to the brutal behaviors that created the value system, affirming the principles of freedom and commitment to the issues of society and the nation, and which achieves to the individual the full awareness of liberation.

الرواية ليست هدفاً تسجيلياً، بل ذات هدف توجيهي، تثقيفي، علاجي وترفيهي أحياناً نسجل وقائع، والهدف من تسجيلها، هو التعبير عن العاطفة، أو التغيير في المفهوم الخاطئ، أو التثقيفي؛ لكنّ هناك هدفاً أسمى من هذا وذاك هو الهدف التوجيهي، فالله سبحانه وتعإلى ما أورد في القرآن الكريم عدداً من القصص – وهذه قصص عن عدد من الأنبياء الكرام – إلا لهدف توجيهي. ومن تلك القصص علينا أن نأخذ منها قاعدة تنير لنا الطريق في حياتنا، كذلك علينا أن نأخذ من هذه الروايات الحديثة قاعدة، أيضًا، تنير لنا الطريق في حياتنا.

لقد درست رواية غوانتنامو للروائي يوسف زيدان، فلا ينبغي أن نفهمها فهماً تسجيلياً أو فهماً تعبيرياً فقط، بل يجب أن نفهمها فهماً توجيهياً وتغييريًّا أيضًا.

- هذه الرواية تتحدث عن سجن غوانتنامو، وما يدور فيه من ظلم وتعذيب، فلم يكن هدف الراوي التسجيل، وليس الهدف أيضًا هو التعبير، إنما الهدف هو التوجيه والتنبه من الدول التي تدّعي وتطالب بالحرية، وبالوقت ذاته تحتفظ بأكبر بؤرة من العبودية والتعدي على حقوق الإنسان.

وفي الرواية أيضا ينبغي علينا أن نفهم الحقيقة التالية:

إن في الإنسان جانباً عقليّاً، وجانباً نفسيّاً، كما إن فيه جانباً سلوكياً، فكل من نما فيه جانب على حساب آخر، أو تصرف بالتعبير المعاصر؛ فهو مغالٍ بتصرفه، وكل من حقق التوازن بين هذه الكليات الثلاث فقد حقق نجاحه في عصره.

التطرف سهل دائماً، أما التوازن فصعب، الموقف إيجاباً أو سلباً سهل على الإنسان، أما الصعوبة هي في أن يجمع بين الثقافة والحضارة والدين والعمل الصالح. حجم الإنسان بحجم عمله، والذي يرجح العمل الصالح على العبادة، يشعر بالنجاح الكبير والفرح العظيم. فمن الروايات هذه يجب أن نستنبط أنه لا بد من التوازن الدقيق المستمر بين التطور الحاصل، وحب الوطن، وحب انتمائنا إلى أرضنا وأهلنا وعشيرتنا.

إذن: العقل غذاؤه العلم، والقلب غذاؤه الحب والإيمان؛ فهذا هو التفوق .الإنسان دائماً يتحرك وفق باعثين؛ باعث العقل الذي يقودك إلى المادة وحب السيطرة، وباعث الهوى الذي يقود الإنسان إلى الحب والكره: لولا هذه النوازع الأرضية لما كان هناك معنى لاستقامتك، أو لترقيتك عند المجتمع.

إصلاح المجتمع أولى، أن تكون إيجابياً أولى، أن تسهم بنشر الحق أولى، لكن أحياناً هناك حالات خاصة بآخر الزمان، بظروف صعبة جداً، تشعر أنك لا تملك شيئاً، لا تملك أولادك، وأن الفساد عمّ، وأن ثمة خمسين حاجزاً من الفساد، قبل أن يصل أحدهم إليك، في مثل هذا الظرف الصعب هل هناك شيء يريح الإنسان؟ هل يملك الناس التغيير لمجرى حياتهم؟

نعم، نغير لنتغير، الكبيرة التي حولك لا تملكها، لكن المجتمع يملكها، فإذا غيرت ما هو في حوزتك، وما هو بإمكانك، تولى المجتمع عنك ما ليس بإمكانك. فعلينا أن نبدأ بأنفسنا أولا.

لقد أردنا برصد قراءة الرّواية الزيدانيّة؛ أن نفهم النثر الأدبي عند الراوي "يوسف زيدان"، وما ينطوي عليه، من قيم جماليّة تداوليّة، وإظهار القيم التي حُجّبتْ بالألفاظ، وإبراز التدقيق فيها، والإشارة الحجاجيّة العامة.

ولعل السؤال الذي يُثار في الرواية هو ما يمكننا صياغته على النحو الآتي: هل يتسع نثر الزيداني للوظيفتين التخييلة والتداولية؟ وهل يفضي السرد والنثر إلى تداخل نمطين من الخطاب، الخطاب التداولي الحجاجي والخطاب الأدبي التخييلي؟

من الواضح، في هذه الرّواية، أنّ الصّورة السّائدة ذاتُ مقاصد جماليّة ووظيفيّة حجاجيّة تداوليّة، ووظيفة أدبيّة غير قابلة للالتباس؛ مما أفسح المجال لبروز تصوّر مغاير عن المجتمعات التّي نعرفها، بوسائل الإعلام، وبتداخل العادات بالطقوس الدّينيّة. ونتيجة ذلك ظهرت معايير في التلقي والقراءة شكلت أساسًا لتقويم الرّواية المتمثّلة في قدرة الزيدانيّ البيانيّة والحجاجيّة.

تأثرت هذه الرواية بالأفكار الفلسفية التي كانت ردة فعل على التّصرفات الوحشيّة التي

خلخلت منظومة القيم، فأكّدت مبادئ الحريّة والالتزام بقضايا المجتمع والوطن، والتي تحقق للفرد الوعي الكامل للتحرر من القيود السياسية والاجتماعية، ولعب الرّاوي ثورته على الواقع وبثّ أفكاره في مجتمعه للحدّ من الظّلم والاضطهاد والعنصريّة.

وقد نشطت رواية "غونتنامو" بالفلسفة الوجوديّة وقد لمسنا آثارها الفكرية والأدبية في كامل الرّواية وساعدت على بنائها. فقد جاء هذا الإبداع أكثر صدقًا في تجسيد الموقف الحقيقي للسجناء المظلومين في "غونتنامو" من أي عمل آخر ليوسف زيدان. في حين يدعوني بحثي إلى دراسة حجاجية، وتفسير الطريقة الزيدانية في بناء هذا الفكر الوجودي القائم على الحرية والمسؤولية، وعلى معارضة الالتزام الحزبيّ.

يقول سعيد المسجون في سجن "غونتنامو"، وهو بطل الرواية بعدما رسم الحلّاق الصّليب بشعره بواسطة مكنة الحلاقة: "هل نحن مسجونون، أم نحن مأسورون، أم نحن مأسورون في حرب لم ندخلها، أم أعداء مهزومون حسبما يزعمون؟.... أنا ما عاديت أحدًا ولا حاربت يومًا، ولا اقترفت ما يستوجب الأسر." [1]

ويرفض بطل الرواية انتماءه لأي حزب أو منظمة إرهابية ويقول: "لقد اختطفوني عن طريق الخطأ على الحدود التي كانت تفصل بين باكستان وبلاد الأفغان، وكنت أقوم بتغطية الأحداث هناك ..... ولكنني لست العدوّ الذي يظنون."[2]

وهذا الموقف الأخير، كما يقول يوسف الشاروني، " شديد الشّبه بالموقف الوجودي على نحو ما عبّرت عنه سيمون دي بوفوار في روايتها: المثقفون". [3]

إن هذه الأفكار المنبثقة من مذهب فلسفي هي التي تختار مسار الأحداث ومسار بنائها، أما من حيث البناء المتشكل من الأفكار الدينية، والآيات القرانية، والأحاديث النبوية؛ فهي لإقناع القرّاء بهذه الأفكار، ورغم إيمانه ومعرفته العميقة بالدين؛ فهو غير منتسب لأي حزب أو مجموعة عدائية ولا ضد أي أحد حتى اليهود. يجيب الجندي الأمريكي حين سأله المسجون عن تناول الشطائر من لحم الخنزير:

- أخبرني هل أنت متديّن؟
- نعم، الحمد لله.
- فلماذا تناولت الشطائر التي فيها لحم الخنزير؟
- للضرورة.
- ماذا تقصد، أليس هذا اللّحم محرّمًا عندكم وعند اليهود؟

---

1 . زيدان يوسف، جونتنامو، دار الشروق، ط1،2004، ص19.

2 . م.ن. ص 20-19

3 . يوسف الشاروني، دراسات في الأدب العربي المعاصر، القاهرة: المؤسسة المصرية، 1964،ص102.

- لا شأن لي باليهود، هو في ديننا محرّم حين يتاح طعام غيره، وعند الضرورات تباح المحظورات." [1]

تنتج عن هذه التجربة الزيدانية أشكال روائية مختلفة، تتحكم بأفكار الراوي الوجودية وبمعتقد الراوي الكليّ المعرفة. يروي الراوي عذابه في سجن "جونتنامو" عندما وجدوه عن طريق الخطأ بمنطقة ما بين أفغانستان وباكستان، يبحث عن أخبار وينقلها كونه صحافيّا في جريدة وكونه أيضًا يتقن اللّغة الانكليزية؛ فهو يمثل حكايات الشباب الذين يسجنون ظلمًا، ويظلمون داخل سجنهم.

تبدو هذه الرواية كأنها سيرة ذاتية من ثلاث حلقات، ما قبل السجن وخلال السجن وما بعد السجن. غير أن تحكم أفكار الراوي باختيار الأحداث وبنائها، أفقدها صفات السيرة الذاتية، وجعلها تمثل عذاب كل مسلم زجّ في سجن "أم الحريات" بالخطأ أو بطريقة الاتهام المباشر.

يريد الراوي، في "غونتنامو" أن يبثّ أفكارًا مفادها أن الفرد حرّ في تصرفاته ومسؤول أمام هذا التصرف، وأن يصور العذابات التي تلحق بالمسجونين في هذا السجن، من عذاب نفسي، إلى عذاب جسدي، إلى عذاب جنسي، وعذاب عقائدي.

يقول الرواي مع نقاش دار بينه وبين الحارس ينبهه عن عدم إثارة الفوضى وإطاعته بالقواعد المسموحة:"

- لم يعد يهمّني.
- ماذا، هل تعلن العصيان؟
- بل أعلن أنني بريء وأنكم ظالمون، وليس بأيديكم أكثر مما فعلتم سابقًا بي. والاختيار الآن لكم، فإما أن تطلقوني، وإما أن تقتلوني فتستريحوا مني وأستريح.
- نعم، فهمتُ. أنت إذن من الجهاديين الانتحاريين...
- أنت لم تفهم شيئًا، ولن تفهم أبدًا. ولن أردَّ بعد الآن عليك، ولا على أيّ واحدٍ منكم. "[2]

في كل الرواية، كانت شخصية البطل مركزيّة جاهزة، تؤدي خطابها المتأثر بالأفكار الوجوديّة، وتبدو الأحداث مقحمة من تجربة شخصيّة صادقة عانت الظّلم، تخضع لشروط السجن إلى حدٍّ ما، فيجد المسجون نفسه ثائرًا داخليًّا.

يقول: "ما جرى جديد في مرات التحقيق التالية، كانت الأسئلة الغبية هي هي، وصمتي الممل هو هو، وكانت هذه الجلسات العبثية تطول حتى.... إذ جلس يومها أمامي محققان لم أهتم بالنظر إلى وجهيهما، بدأ أحدهما الكلام بقوله إنهما من فرقة التحقيق الجنائي فلم أفهم من ذلك شيئًا، ثم أضاف: سؤالي الأول هو: هل تعرّضتّ لأي نوع من أنواع التعذيب؟ فقلت: تعرضتُ

1. زيدان يوسف، جونتنامو، ص 38.
2 . زيدان، يوسف، غوانتنامو، ص 38

لكل الأنواع....سألني المحقق الآخر إن كنت قد أمضيتُ أكثر من شهر في الحبس الانفرادي، فقلت أكثر بكثير! فقاما من فورهما وتركاني من دون أن ينظرا خلفهما وانصرفا غاضبين".[1]

والواقع أن هذا التميّز بالهدوء هو ميزة الإقناع، أي التوجه إلى المستمع بالمبررات المقبولة ليبني عليها رأيه.

**القراءة الحجاجيّة:**

الحِجاج هو توجيه خطاب إلى متلق ما لأجل تعديل رأيه أو سلوكه أو تعديل كليهما معًا. يقول أرسطو: إذا كان من المخجل ألا يتمكن الإنسان من الدفاع عن نفسه بالقوة العضلية، فإنه من العبث ألا يتمكن من الدفاع عن نفسه بالكلمة، إذ بها، لا بالقوة العضلية، يتميز الإنسان.[2]

وضع "يوسف زيدان" شبكة من الكلمات جعلها سيدة الموقف، وجعلت منه سيد هذا السجن، وسيد المظلومين وسيد الكلمة؛ في حين كان بعض السّجناء، قد جعل من الكلمة عائقًا بينه وبين السّجّان. هذا يعني أن اللغة هي التي نتوسل بها، ويثقفها الإنسان ويهذبها من ضروب المعاني والأضداد والترادف والإيحاءات..... إلخ. هو هذا إذن مجال الحجاج.

هذه الطريقة التي استخدمها "زيدان"، هي اللغة المعتمدة في الحجاج، وهي بعيدة كل البعد عن اللغة المستعملة في لغة العلوم. إن محاولة التأثير في القارئ أو المستمع بواسطة اللّغة هو ما ندعوه حجاجًا.

مادة الحجاج هي، وفق أرسطو، الأفعال الإنسانية والمصالح الإنسانية. وهذه المادة تمتاز في عمومها بالغموض، وهذا الغموض هو إحدى وظائف الحجاج وهو نقيض اللغة العلمية المصنوعة والاصطلاحية.

يقول فيليب بروتون:" الإقناع واحد من الحالات الأساسية للتواصل، وذلك تبعًا لكون القصد هو التعبير عن إحساس أو حالة أو نظرة خاصة إلى العالم أو إلى الذات، أو الإخبار، أي الوصف الموضوعي إلى أقصى درجة، لمقام ما، أو ، بالإضافة إلى ذلك، الإقناع، أي التوجه إلى المستمع بالمبررات المقبولة لتبني رأي ما"[3]

لذا تسعى هذه الدراسة إلى إعادة بناء مفهوم بلاغة الرواية الزيدانيّة، أيّ ما شكله النص في الرواية من تأثير وتأثر بالمجتمع. وطرح الإشكاليات المتجددة والتي تتيح لطرح إثارات عن أسئلة حجاجية متجددة بتجدد الأفق[4].

---

1 . زيدان يوسف، غوانتنامو، ص88.

2- Aristote, Rhetorique, ed. Livre de poche, p. 80

3- Philipe Breton, L'argumentation dans la communication, p.4

4- Hans Robert Jauss, Pour une hermeneutique litteraire, Editions Gallimard, Paris, 1988, p394-416.

**تبويب العنوان:**

إن عنوان الرواية "جونتنامو" يشكل رمزًا سياسيًّا واجتماعيًّا له دلالاته المكانية والاجتماعية والزمانية، وهكذا فالعنوان متشعّب رغم صغر حجمه، ويعود إلى الصراعات السياسية بين أميركا وأفغانستان وغيرها من الدول التي تبنّت ابن لادن. وهنا يتبدل الحدث، ويبقى الرابط المكاني سببا يتحول إلى ألم السجون وظلمة جدرانه وضيق مساحته على المظلومين والمعذبين بسبب جوهري أم بغير سبب.

ويعطينا العنوان وعيًّا ضمنيًّا لما سيحدث داخل الرواية لنقرأ عن معذبٍ ومظلومٍ جديد، يكشف لنا المحجوب ويؤكد ما يدور في السجون حتى ولو كان قرب تمثال الحرية. ويظهر الراوي في إيمانه وإرادته إذ تمثلا أقوى من السلاسل وأقوى من الحرمان والكبت النفسي والعذاب الجسدي. فجسّد السجانين في صورة الغلاف التي تظهر ظلالاً غير واضحة وكبيرة جداً لبعد نور الحق عن هذه الأجساد وعن الإنسانية، وحيث يغلب اللون الأسود والألوان القاتمة.

لقد كتب الروائي يوسف زيدان روايته وهو يحاول مشاركة القرّاء والعرب والعالم ظلمًا يدور داخل السجون الغربية والعربية، ولو برواية قصة أو حدث يعبر بها عن مجموعة أحداث تحصل معهم في كل يوم وكل ساعة وكل دقيقة.

نستطيع أن نفهم سجن جونتنامو كما يعرفه الكاتب، (المسمّى بـ"جونتنامو" وهو واحد من المعتقلات العسكرية، ويسمى المواقع أو الحُفر السوداء، وهي لا تقع داخل حدود أمريكا ومعظمها مجهول لا يعرف عنه الناس شيئاً. "لكن هذا المعتقل الذي نتعذّب الآن فيه، سمع به أناس كثيرون داخل أمريكا لأنه قريبٌ منها، ولا يفصله عنها غير البحر، وهو مكان مستأجر من كوبا منذ عشرات السنين والكوبيّون لا يحبّون وجود الأمريكين فيه، ويكرهون جنودهه كراهية الأتقياء للموبقات لكنهم لا يستطيعون طردهم فيصبرون عليهم على مضض، حتى ينتهي عقد الإيجار الذي مدته مائة عام.")[1]

يدور الحجاج في الرواية، بتصوير العذاب النفسي والجسدي للجماعي وللفردي، ولأفرادٍ من أمةٍ كُرِهت ونُبِذت، والتي تحارب وتقاوم لتبقى بأرضها وتتمسك بالدين والقيم والعادات والتقاليد، ولو كانت على حساب حياتهم الشخصية.

يقول بيير أوليرون: "وحتى وصف الأحداث، وعرض الصور، هما أحيانًا حجج ضمنية لدعم أطروحات يستعين المدافعون عنها بتركها رهينة الخفاء". [2]

1. زيدان يوسف، غوانتنامو، ص259

2- Pierre Oleron, L'argumentation,p3.

**التصوير الحجاجي:**

لا يمكننا النظر إلى أسلوب النثر والخطاب وآلياته الحجاجية عند "يوسف زيدان" بعيداً عن دلالاته أو محتواه، فالراوي يمتلك القدرة على الاحتجاج للشيء ونقيضه، للإصلاح في الصورة. فيخرج الاحتجاج في صورة عذاب وقهر وحرمان وصورة تعدّ على الحرمات، وعلى كرامات المسجونين وتعدّ على الحقوق الإنسانية". هم لا يكفون عن شنائع أفعالهم وقبائح المزاح.... كنتُ أغضّ بصري وأشيحُ عنه وأتلو في سري سورة (الكافرون). [1]

سارت الرواية على وتيرة الحجج القرآنية لنفهم أن الراوي من المتعمقين بدراسة الديانة الإسلاميّة، ويؤكد أنه ليس من المجاهدين في الأفغان، لأن الراوي يفسر إثارته للموقف الذي تعرض له، في قوله : "راح السجناء عند مروري أمام أقفاصهم، يكبرون، ليشجعوني. وعندما مررت من أمام القفص الكبير المحبوس فيه خمسة مسجونين، هتفوا لي وكبّروا، كأنني مجاهدٌ يخرج في سبيل الله. ابتهجت، ثم تنبّهتُ إلى أنني لست مجاهداً وأن هذه، ليست سبل الله."[2]

رغم انتماء نصوص الرواية السردية إلى مجال الأخبار وانبثاقها من المدونة الخبرية، فإنها تتميز بمكونات السردية الهزلية أو بالحجة الهزلية التي تتداخل مع النمط السردي، فيقول: "سبحان الله! ما هذا الذي نخفيه عنهم؟ أخذوني من عيادتهم إلى زنزانتي مترنحًا من أثر النزف والضعف واليوم المرير الذي لم أذق فيه الزاد. لحظة مررتُ بالمحبوسين في شارع الزنازين، عادوا للهتاف لي كأنني واحدٌ من الفاتحين، في طريقه لغزوةٍ جديدةٍ مجيدةٍ. كنتُ كلما اقتربت من موضعهم علوا بالتكبيرات أكثر، وتعالوا باسمي كأنه ترنيمة انتصارٍ وفرح." [3]

إن أهمية هذه الحجج الهزلية تكون في إقامتها وعيًّا انتقاديًّا وشكلا مختلفًا من الروايات؛ فقد قدمت الخبر الطريف الذي تثير به القارئ عجبًا أو دهشة أو ابتسامة أو ضحكا، مستهزئًا بعقول السجناء المهووسين، ومقدما وعيًا لإصلاح عما يدور في أفكار الشباب المخطوفين بأفكارهم ومبادئهم، وغاية هذه الحجج أيضًا التسلية والاستمتاع بما يحكى، والنقد والسخرية والوعظ بطريقة غير مباشرة.

حين يورِد الكاتب الخبر الذي يحتوي على عدة أنواع سردية، والتي تحمل السمة التعجبية والدهشة، فإن هذه السمة تثير الغموض حول مفهوم الأدب الهزلي، ذلك أن سمة التعجب تحيل إلى حقل بلاغي مغاير لبلاغة الضحك. فهل تستوعب الحجج نصوصا غير هزلية، نصوصًا توصَل بالغرابة والتعجيب؟!

1 . زيدان يوسف، غوانتنامو، ص 93

2 . زيدان يوسف، غوانتنامو، ص 25.

3 . زيدان يوسف، غوانتنامو، ص 46

**بلاغة زيدان الحجاجية**

نَجدُ أن التناقض سمة من سمات هذه الرواية، بحيث اقترن بالمقدرة البيانية وقوة الإقناع، إنْ من ناحية قيمة الموضوع وطبيعته، وإنْ من ناحية استعمال الآيات القرانية كحجج وبراهين بصرف النظر عن موقف المتكلم والقارئ .

يظهر زيدان في هذا الموقف بقدرته على إقلاب الحجة والبرهان والتحكم بهذه الحجة من خلال اقتران الحدث بالقرآن والأحاديث النبويّة الشريفة. فالراوي لا يستنكف عن القول كما يقول الله عز وجل في كتابه "وإذا بطشتم، بطشتم جبارين"، "الله يعلم وأنتم لا تعلمون"، "الشمس والقمر بحسبان"، "علّمه البيان"، "والنجم والشجر يسجدان"، "كل من عليها فان"، "فبأيّ آلاء ربكما تكذبان"، "يسأله من في السموات والأرض"[1] .

هذا الصوت الإلهي الذي يكثر في الصفحات الأولى من الرواية يشكل إحدى سمات الرواية ويشكل أدبا دينيا بحد ذاته. وهو الذي سجن ظلمًا بسبب تدينه وإعطائه صفة الباكستاني الإرهابيّ لأميركا، وقد قبض عليه بينما كان في تغطية صحافية لأحد مواقع النزاع بين أميركا والمجموعات الباكستانية المناهضة لابن لادن .

وهذا المعيار هو الذي يفسر شخصية البطل الذي اشتمل على الحجة الدينية والمنطقية؛ لمقارنة الوضعين بين أطروحتين متضادتين وهما: أطروحة المقاومة بالعلم والتأني، وأطروحة مناقضة وهي أطروحة الهمجية والعنف والظلم.

وأكد "يوسف زيدان" على أفكار أميركا الخاطئة، وإصدار الحكم المسبق على كل مسلم بأنه إرهابي. وقد استمرت هاتان الأطروحتان المتضادتان إلى آخر الرواية.

تبدأ الرواية بمقدمة من ثلاث كلمات مكررة "وكأنّ كل ما كان، ما كان" ثم تكررت ليثبتها بالحجة القرآنية (كل من عليها فان) مرتين في فقرة واحدة، إن لم يستعمل الحجة القرآنية مباشرة فقد استعملها كلمات من القرآن بقوله "كالأعوام العجاف" بالسورة القرآنية "يوسف" (سبع عجاف).

واستمر هذا المعيار لآخر الرواية على الرغم من الحداثة التي طرقت على الرواية من عناصر السرد وسردِ الأحداث وتطوّرها. كتب الراوي موضوعات أخلاقية وموضوعات تنشر مبادئ الدين والعدل والصبر بسلوك المسلم المؤمن، الذي نراه في أدبه امتدادًا للخطاب الديني الذي يلفت به فكر ونظر القارئ للمبادئ والسلوك المثالية، وهي التي تسيطر على الأسلوب وعلى حساب الوظيفة الجمالية والبديعية، وهي نظرة تقوم على تخيّل الواقع، ليقدم النتيجة الطبيعية لهذا التخيّل وهي النظر إلى الأطروحة المدعومة بالمقاومة والإيمان والتفكير العقلي والبعد عن العنف بوصف ظواهر سلوكية موسومة للمؤمن، وبذلك تهيمن الوظيفة التداولية العملية على الوظيفة الأدبية الجمالية.

1 . زيدان يوسف ، ص 11-10

دعم الراوي أطروحته بالهزل والتهكم ووجهها إلى صنف خارج عن دائرة المسؤولية الدينية (المارينز) في قوله، "أنت الآن في قبضة المارينز" الذين يريد تحقيرهم ومذلتهم في قوله: "أتانا زعيق كالنعيق بل النهيق" وفي تصويره للمشهد بنقلهم بحافلة يقول "جاءت حافلة مكشوفة السقف كتلك التي كان أبي ينقل فيها الخراف"[1]. وهذا الأسلوب التهكمي سمة من سمات اقتران الجد بالهزل، أو الامتزاج بين السامي والوضيع في سياق واحد، ليختار القارئ ويقارن بين الأطروحتين ويختار المناسب ما يحقق العدالة.

تبرز بلاغة الراوي بتضطلعه بالبعد التداولي النفسي والفكري، وهذه البلاغة ضرب من الإبداع لا يتأتى محاكاته إلا لمن يمتلك الشروط، التي تتهيأ لكاتب مبدع وراوٍ أصيل، أوليس من السهل أن تجتمع في غيره؟

يقول :"للبحر رائحة تحرّك الأرواح وللقهر مقدرة على حدّ أركان اليقين... ظهري تملأُه الأوجاع كان فيه أشواكاً دقاقاً، وكذلك ركبتاي لكن روحي التحفت بالذكر الحكيم وحلقت مجدداً بأجنحة الآيات المواسيات: "مرجَ البحرين يلتقيان بينهما برزخٌ لا يبغيان"...فارحم أنت يا رحمان، يا رحيم "كل يوم هو في شأن" كن اليوم يا رب في شأني الضئيل". [2]

**تعدد الأصوات**

إن تتعدد الأصوات في الرواية وخاصة حين سيطر صوت الجندي الأميركي بنبرته القاسية وبقوله "بالتأكيد، لست هنا لأرحب بكم، فأنتم لا تستحقون ذلك. جئت لأحذّركم. أنتم تجسيد الشر. أنتم عدوٌّ محاربٌ لأميركا... وأنا أعرف أن لكم أدمغة فاسدة مريضة مليئة بالعنف والإرهاب، لذلك أحذركم. لن يظل الحظ في جانبكم إذا فكرتم في أيّ عصيان. العصيان جزاؤه الموت".[3]

وهذا التعدّد الصّوتي يشكّل إحدى سمات (أدب الرواية) ويقدّم موضوعات جادة متداخلة مع الموضوعات الهزليّة لتوجه إلى أصناف متعددة من المتلقين، ولم تنحصر في صنف واحد من القرّاء.

أدخل الكاتب صوت الشيخ أيضا في مخيلته. الصوت الذي جعله تحت الله مرتبة وجعله رفيقًا ومصباحاً لحياته ومصدرالقوة، أي الحوار المونولوجي، وقوله "صدق الشيخ، بالقرآن يستغني الإنسان عما سوى الله. وإذا حضر الله في قلب الإنسان أنساه ما سواه حتى طعامه والشراب وسائر الحاجات". يظهر هنا إبراز القدرة الحجاجية التي تجلّت في دفاع الشيخ عن

1 . زيدان يوسف، جونتنامو، ص13.
2 . زيدان يوسف، جونتنامو ، ص14.
3 . زيدان يوسف، جونتنامو ، ص 18-17

الصبر وتحمل التحديات، فإنه طرح جملة من الصور والأشكال التعبيرية التي لا تنحصر وظيفتها في الاحتجاج فقط، بل تمتد إلى ارتباطها بالبلاغة والوظيفة الجمالية والتأويلية. لذلك أكمل الراوي بعد هذا القول بقوله: "صرت منذ ذاك اليوم كلما اشتدّ بي الجوع وحصر معدتي، تلوتُ في سري الآيات فأنسى ما أنا فيه من طلب الجسم"[1] .

لقد أغنى الكاتب روايته بمفهوم (التلوين العقلي) وعمل على توسيع مداه وإظهار وجوهه (للعقل)، وفيها إشارته إلى المكونين الأسلوبي والحجاجي في هذه الرواية، فلم تقتصر الرواية على إبراز أساليب الحجاج، بل أجاد الكاتب أساليب التصوير أيضاً إذ يقول:"انهال الحراس بالعصيّ على المسكين الذي نظر ناحية السور، فأخذ يتلّقى تحت المطر الضربات حتى تكوّم حول أصفاده وهو يموء مثل قطة ولبوءة لفظتها أحشاءُ أمها بناحيةٍ قاحلة."[2]

وبهذا يُدرك القارئ مقام الخطاب المخصوص الذي يقتضي أن يتجه التحليل إلى إبراز بياناته الحجاجية، كونها تقوم على الحجج وتسعى إلى التأثير والإقناع وإحراز الغلبة على المظلومين، مقابل الأطروحة المضادة وهي الظلم الاميركي للأفغانيين. لقد شكلت المقابلة بين السجون والجنود مقامًا خطابيًّا ملائمًا للوظيفة الحجاجية التي حرصت على استخراج الراوي لوجوهها من مُناظرة جرت بين هؤلاء في عدّة مواقفَ أخرى مختلفة ومتعدّدة.

يتداخل الخطاب الحجاجي والخطاب الجمالي حيث يتشكل الخطاب الأول من بُنياتٍ حجاجية تَوخّت توصيل الرسالة إلى المتلقي وإقناعَه بمحتواها وهي أن العرب بخلاف ما يدعيه الاميركان ليسوا بإرهابين ومتوحشين بل الفئة الطاغية عندهم هي المثقفون والمتحاورون بطريقة أدبية حجاجية مقترنه بالقرآن وبحقوق الإنسان والحريات. ويشكل الخطاب الجمالي حقلًا من الاستعارات والكنايات والصور البلاغية التي جعلت في النص أفقاً للتأويل، ويظهر في قوله: "خرج سعيداً من حدود دائرة البؤس المؤطّرة بكرات الشعر المنفوش وفي قلبها يقبع المسجونون".[3]

ويقول في مكان آخر: "ورأيت شفاعة كهذه من قبل في قندهار، لكن هذا أمعن في الإذلال المهين وأنكى لمنهكين لا يملكون إلا التساقط في طين المهانة" "وقد صرنا كالعراجين المعْوَجّة أو بؤساء المهرّجين. نحن البؤس متجسداً". "تكوّرت متألماً متكسّر الأركان كسيف الروح، ومنكسراً على نفسي" [4].

دعم زيدان على لسان المسجون أطروحته بعده أسئلة مترابطة متلاحمة بصورٍ لمجموعة دلالات استعارية وقيم دينية واجتماعية وحضارية وإنسانية في قوله: "ما الذي أتى بنا إلى هنا؟

1 . زيدان يوسف، جونتنامو، ص 28.
2 . زيدان يوسف، غونتنامو، ص 18.
3 . زيدان يوسف، جونتنامو، ص 19.
4 . زيدان يوسف، ص 21.

وما سرّ هذا الاختبار الربّاني المرير؟ ولماذا خلق الله الإنسان (من نطفة أمشاج، نبتليه)، ثم أبعده عنه، وجعله يسعى إليه وأخبره بمنتهاه (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فمُلاقيه) فلأيّ سبب كان النأي أصلاً؟ وما غايةُ الله من البشر؟ هل (ليعبدون) فيعرفون الكنز المخفي في نفوسهم، ويبقى الله هو الغني عن العالمين، وعن عبادتهم المستغني عنها؟"

**أسلوب زيدان الحجاجي:**

هذا الأسلوب الاستفهامي تداخل في الأسلوب السردي والحجاجي ليجعل الخطاب التداولي، يقوم على آليات الدفاع ورسائل الحجاج ودفع الضياع الذي يسيطر عليه، ويغوص في الخطاب التخييلي حتى إن أسفر عن غاية حجاجية ذلك أن قارئ هذه الرواية ليس مجرد متلق يراد منه الاقتناع بالأفكار، لكنه متلقٍ مشاركٌ في النص بتأويله للأجوبة والصور البلاغية والسور القرآنية التي تجلب منه الفائدة وإبداء الرأي.

لقد قسّم الراوي الرواية إلى صيغتين، صيغة الخطاب الحجاجي، وصيغة الخطاب السردي. ينتمي إلى الخطاب الأول سردُ ووصفُ الأحداث وتطوراتُها والحوارات والسرد وسجالاتها، وبينما ينتمي الخطاب الثاني إلى أفعالهم وظلمهم وحيلهم للأطروحة المضادة (الأيام والأسابيع توالت على ساكنة كئيبة، حتى توقفت عن عدّها وعن الاعتداد بأيّ شيء، بل صرت اللا شيء. كأن الكون كف عن الدوران من حولي، وصار يدور بباطني. أنام طويلاً وأصحو على أضغاث الأحلام والدوار الذي ينتظرني ليدفعني إلى نوم جديد...).[1]

وظيفة السرد هنا لا تنحصر في القدرة البيانية لتصوير الملل والبطء وسير الزمن ولا في القدرة على الصنعة الأسلوبية، بل نتجاوزها إلى القدرة على تصوير صغائر الأمور وجلائلها، وهذا هو التغلغل في دواخل الشخصيات والنفس الإنسانية وتصويرها بدقة، لأن في ذلك مصدرا لمشاركة القارئ بعواطف الأسى والحزن والضجر التي تسيطر على الراوي.

ينتقل السرد بعدها من سؤال البيان إلى سؤال التصوير، من النظر إلى الأدب بوصفه شكلاً من أشكال التزيين والقدرة على الإقناع وإفحام الخصوم إلى اعتباره أداة من أدوات التعبير عن الإنسان وقيمه، وروايةً تجسد خبرة صاحبها في فهم الحياة الإنسانية وتصوير الواقع تصويراً دقيقاً وهذا ما ربط بلاغة الرواية وقيمتها الجمالية.

**واقعية الراوية**

ويقدم الراوي قراءة حجاجية عبر القراءة التاريخية والشواهد الحقيقية لتاريخ سجن أبو غريب؛ وذلك من خلال ذكر الأمكنة المحدّدة، والمتزامنة ليؤكد مصداقية الرواية، فيقول: "وقد اعترفت

1 . زيدان يوسف ، غوانتنامو ، ص 33.

الجنرال جانيس كاربينسكي المشرفة على إدارة معتقل أبو غريب، بأن (جيفري ميلر) أوصاهم هناك بمعاملة المعتقلين كالكلاب، وباستعمال أشنع الوسائل للحصول على الاعترافات بما في ذلك إطلاق الكلاب الشرسة على المعتقلين المقيدين، والمعصوبي الأعين"[1].

هذه الحقيقة التي جابت الآفاق أطلقها زيدان في نهاية الرواية، وتأكيدًا منه على تكرار الظلم في السجون التي تخضع للحكم الأميركي. لقد انطلق الرواي من الآيات القرآنية معتمدًا على أقوى حججٍ؛ وهي حجج مسلمٌ بها من قبل الجميع، لثقتهم بالقرآن الكريم، وقد بثّ الفكر الإسلامي المعادي للإرهاب، الفكر البعيد كل البعد عما يعتقد به الفكر الأمريكي.

إن السياق التاريخي والمكاني كفيلان بتشكيل حجج واقعية للرواية، وبهذا يبرزُ المكوّن الحجاجي، بعد تواريه في ظل أحداث الرواية الذي أخذ الحيز الأكبر فيها. "يوم الأربعاء في وقت الضحى، استدعاني "مارتن كين" فذهبتُ إليه تحدوني الأحلام.....قال إنه يستغرب أحوال المسلمين في شهر رمضان إذ يهتمون بالطعام والمشروبات.... ويتعاركون فيه مع بعضهم البعض في شوارع المدن العربية، مع أنه شهر العبادة". [2]

استعمل الرواي أسلوب الجدل، لأن الجدل هو ضرب من الخطاب يقصد به ضرب من الرياضة اللغوية أو اللفظية، وهو خطاب تراعى فيه اعتقادات واقتناعات المخاطب لأجل تثبيتها أو تعديلها. يقول أرسطو في تعريف الجدل: "هو الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان."[3]

- " يعني كان سهل تخطفوني، وموش سهل تفرجوا عني!
- تقريبًا كده. إنت تعرف، سهل جدًا إنك تنزع الزرع من مكان، لكن صعب تعيد زرعه في مكان تاني.
- لأ، ما هو صعب. أنا ما راح أطالبكم بأي تعويضات، ولا حتى هاقول إني كنت هنا.
- عظيم، يعني إنت عندك استعداد توقع على الكلام ده.
- نعم...
- متأكّد من كلامك ده؟
- نعم متأكّد جدًا. [4]

برز هذا المعيار من الجدل بصورة دقيقة ومفصلة لم يسبق لها نظير في الروايات الأخرى، صورة اكتفت بالإشارة إلى قوة الجيوش وسيطرتها على التحكيم والقضاء، دون تفسير مظاهر هذه القوة. وعلى الرغم من أهمة هذه المظاهر وضرورتها في الاستجابة لأحد معايير الأفق

1 – زيدان يوسف، غوانتنامو، ص242
2 – زيدان يوسف، ص 200.
3 – أرسطو، الخطابة، ترجمة : عبد الرحمن بدوي، ص 29.
4 – زيدان يوسف، غوانتنامو، ص201

الجدلي الذي سعى الكاتب إلى تشكيله، غير أن كثرته في الرواية والاكتفاء بإجراءاته، قد يؤدي إلى حال اللاتوازن وعدم التكافؤ في معايير التواصل مع القارئ. هذا الاستعمال من الجدل هو من زاوية الحجاج من جهة النزعة الاختبارية، إنها نزعة ذات أهداف تعليمية بالدرجة الأولى، وتسعى إلى إثبات فعالية حجج الراوي، ولأجل ذلك كان يسعى أيضًا إلى البعد الجمالي في تركيب الجمل في هذه النصوص.

يقول في موضع آخر: "ابتدرني المحقّق بصوتٍ كالزعيق: إذن، أنت من مثيري الشغب والاضطراب.. لم أجب.. قالت الشمطاءُ بصوت كالفحيح: لماذا تخالف النظام وتنشر الفوضى؟ قلتُ:

- رفع الآذان واجب وليس فوضى، هذا نظام الله للمسلمين.
- لا شأن لنا الآن بالدين. النظام هنا هو طاعة الحرّاس، والالتزام بالقواعد الواضحة لهذا السجن.
- طاعة الله أهمُّ عندي، وأولى، وهذا ليس سجنًا.
- وما هو في برأيك، إذن؟
- جحيم أرضيٌّ تضعون فيه سبعماية بريء؛ لأنكم ظالمون ولا تعرفون الحق."[1]

إن المناظرة التي قام بها الراوي بينه وبين سجناء آخرين شكلت مقامًا خطابيًّا ملائمًا للوظيفة الحجاجية أو ل"النزعة الكلامية الخطابية الجدلية" التي حرص على استخراج وجوهها من مناظرة جرت بينهم. كانوا يتفقون في بعض الأفكار مثل قوله: "منعوا عني الطعام يومين، والأدوية، فما وهنتُ وما توقفتُ عن إعلاء كلمة الله وعن رفع الآذان في مواقيته، بحسب ما أستطيع التحديد.... وكان المحبوسون يفرحون بالأذان ويعقبّون عليه بأصواتٍ عاليةٍ تأتيني من بعيد، مختومة بعبارات من نوع "أكرمك الله يا أبا بلال... والله ما قصّرت يا صوت الحق... حيّاك الله يا أخي."[2]

لم يقتصر جدل الراوي بين السجان ونفسه أو بين السجناء وبينه بل تعداها إلى مرافقة شيخٍ من خياله يستشيره في كل المصائب والنائبات والمناقشات ففي قوله:"سمعتُ صوتًا أعرفه يأتيني من داخلي هامسًا بوضوح وحكمةٍ: يا ولدي، الكراهية تُظلم القلب وتحرق الروح فلا تكن من الخاسرين، واصفح الصفح الجميل... يا ولدي، لا تبكِ... "[3]

وحين يكلّم مهيرة زوجته في سرّه وكأنها أمامه "لو كان بيدي المر لعدت إليكِ الآن. لكنني لن أتأخر، لا تقلقي. ولا تخرجي من البيت إلا للضرورة، ولا تتكلمي مع الغرباء.

1. زيدان يوسف، غوانتامو، ص 86
2. زيدان يوسف، غوانتامو، ص 82
3. زيدان يوسف، غوانتامو ، ص 51

سأعود إليكِ، بإذن الله قريبًا."

يناديها كأنها تسمعه ويقول لها: "يا مهيرة، أنت امرأتي. وإن متُّ، فلا تتزوّجي رجلا غيري، أرجوكِ، .....سأعود وسيكون لنا يا مهيرة أطفال، عشرة أو أكثر، ويكبرون وأنت لنا الأمُّ.... " [1]

أول ما يلفت نظرنا في هذا التحليل الجديد أو المنظور الجديد هو اعتماد تعريف جديد لدلالة الجملة، فالجملة كانت تعتبر في المنظور السابق تلك الوحدة الأساسية التي ينصرف إليها الوصف الدلالي العلمي في إطار هذا التوجّه[2]، والذي يؤكد أنسكومبر وديكرو أن دلالتها ليست إلا خلاصة إرشاداتها[3]، وأهم مظهر ضمن هذه الإرشادات هو الإرشادات الحجاجية، وقد كان الميل إلى ربط هذه الإرشادات بعمل الروابط والعوامل المبثوثة في بنية الجملة، فحضور هذه العناصر هو الذي يؤدي إلى إدراج الحجاجية في البنية الدلالية للجمل في صورة إرشادات حجاجية.

## الخاتمة

إن هذه الراوية تطرح إشكالية، دافع عنها زيدان وعدد من الروائيين الذين سبقوه في إطار التوجّه، ضمن سرد أخبار السجناء الموضوعية، وبأنها لا تقف عند حدود الحديث عن علاقات داخل اللغة والرواية؛ بل هي تضع بين أيدينا الأدوات اللازمة لمقاربة جديدة في الأحداث. والتي هي عبارة عن رزمة من المواضع التي تستدعيها هذه الرواية.

إن القيمة الدلالية لجمل رواية "غوانتنامو" حققت نجاحها، كونها فرضت وجهة نظر حجاجية حين كانت في مواجهة الواقع وضمن وضعية خطابية بعينها، وتحقق ذلك حين أخذنا الجملة من مجموعة مواضع تطالعنا عليها من عدة مسارات حجاجية. يقول ديكرو في هذا الخصوص [4]:" إن الجملة يمكن وصفها باعتبارها رزمة من المواضع، وهذه المواضع يفترض أنها تمثل إمكاناتها الحجاجية". وهو يشير هنا إلى أن دلالة الجملة تتحدد انطلاقا من إمكاناتها التأليفية مع جمل أخرى عبر مجموعة من الإرشادات، وعامل هذا الإرشادات أصبح أعمق ويحقق العلاقات التراكبية التي حددت قيمة الجمل ضمن التعالق البنيوي العام لهذه الرواية.

---

1 . زيدان يوسف، غوانتنامو، ص 68

2 . رشيد الراضي، الحجاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو، مجلة عالم الفكر المجلد 34 العدد 1 يوليو سبتمبر 2005، ص 220.

3 . يعرف ديكرو الإرشادات في كتابه « كلمات الخطاب» بأنها مجموعة من التوجيهات تقدمها الجملة لأولئك الذين يهمون بتأويل ملفوظ معين من ملفوظاتها، وتطالبهم بالبحث في وضعية الخطاب، عن المعطيات التي تفيد بصورة ما في إعادة بناء المعنى المقصود من المتكلم.

4 – O. Ducrot, les topoi dans "la theorie de l'argumentation dans la langue" , in CPlantin (ed): lieux communs stereotypes clichés, Paris, Kime, pp. 233–248, p.239.

إن هذه الخاصية في الرواية هي في الحقيقة عامية وتشمل كل المسجونيين في سجن "غوانتنامو" وفي سجن "أبو غريب" في العراق. وهذا الانتقال من الخاص إلى العام هو اشتراك الفرد بهموم الآخر، والتغلغل في عمق الحياة اليومية لهؤلاء السجناء. يجري الفكر الإرهابي ويتّهم به كل شخص يحمل الفكر الإسلامي لأنه هذا الفكر الإرهابي يجري جريانا مرنًا تقريبًا متخففًا من الأعباء التي تستلزمها الممارسات الفكرية العالمية والتي تميل فكريا إلى صورة المسلم القائمة على درجات القطع واليقين، لذلك فإن هذا الموضع يرد في مرافعات قضائية أو محاورات فكرية أو خطب سياسية ... بسبب طبيعية الجدل لتظل هذه القضية مفتوحة على الاعتراض والدحض وتبقى موضع ظن يمتد أثره على نحو عميق في الفاعلية الاجتماعية.

وبهذا يؤكد الراوي أنه يلتزم بالأدب الملتزم ويهتم بقضايا المجتمع ليقف على علاقة هذا الأدب بالمجتمع، حيث نرى يوسف زيدان مصوّرًا اجتماعيًّا بارعًا، قد صورّ أدقّ طبقات المجتمع وهم المسجونون كما صوّر أهم وجوه حياتهم الاجتماعية وما ترك من فرع في حياتهم اليومية في السجن إلا وطرحه في الرواية. وأظهر براعته في أدب السجون ووصف معاناة السجناء ومعاملة الجنود لهم، وقدم معاناتهم مع المجتمع الخارجي (عائلاتهم، أحبائهم، ...) وصوّر العذاب النفسي وتأثيره على حياتهم اليومية وما يترك لديهم من الآثار السلبية والذكرى المؤلمة وما ينتج عنه من معاداتهم للمجتمع.

## المصادر والمراجع

1- أرسطو، الخطابة، ترجمة : عبد الرحمن بدوي، منشورات دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1986.

2- رشيد الراضي، الحجاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو، مجلة عالم الفكر المجلد 34 العدد 1 يوليو سبتمبر 2005.

3- زيدان يوسف، جونتنامو، دار الشروق، ط1،2014.

4- يوسف الشاروني، دراسات في الأدب العربي المعاصر، القاهرة: المؤسسة المصرية، 1964.

5-Aristote, Rhetorique, ed. Livre de poche, Paris,2007.

6-Hans Robert Jauss, Pour une hermeneutique litteraire, Editions Gallimard, Paris, 1988.

7-Pierre Oleron, L'argumentation,Puf,Paris, 1983.

8-Philipe Breton, L'argumentation dans la communication, Paris ed. La decouverte, 1996.

9-O. Ducrot, les topoi dans "la theorie de l'argumentation dans la langue" , in CPlantin (ed): lieux communs stereotypes clichés, Paris, Kime,1971

# جملة الحال التي فعلها ماض وخلاف النحاة في تقدير (قد) دراسة نحوية دلالية

**د. عبير بدر عبد الستار البدر**
**أستاذ مساعد في الجامعة المستنصرية كلية الآداب**
Abeer.albadr@yahoo.com

## ملخص

طالما ردد النحاة البصريون مقالة أن الفعل الماضي لا يجوز أن يأتي حالا؛ وذلك لأن دلالته على حال الفاعل أو المفعول في الزمن الحالي، تتقاطع مع دلالة الفعل الماضي الزمنية، فهو يدل على زمن مضى وانقضى في السياقات العامة والأحكام التقعيدية، فالشواهد والنصوص التي فيها جملة حالية فعلها ماض، كثيرة، وقد سوغ البصريون، ذلك بوجوب اقتران الفعل الماضي بـ (قد) ظاهرة أو مقدرة؛ إذ إن وجودها يعمل على تقريب دلالة الفعل الماضي من الزمن الحالي، وقد قيل إن الكوفيين أجازوا عدم تقدير (قد) اعتمادا على سماعهم وقياسهم على شواهد من القرآن وكلام العرب وأشعارها، ولكن الباحث المدقق يجد أن الكسائي والفراء وهما شيخا مدرسة الكوفة قد تابعا البصريين في وجوب (قد) ظاهرة أو مقدرة بعد جملة الحال التي فعلها ماض، مما يجعلنا نميل إلى أن التخفف من تقدير (قد) قد جاء من متأخري الكوفيين وكذا بعض البصريين الذين نظروا إلى ظاهر اللغة ولم يتلمسوا دقائقها في التعبير بسبب ابتعادهم عن عصر الفصاحة.

## Abstract

Basrah School Grammarians had frequently repeated that the past tense of a verb should not come as an adverb (HAL) because its indication as an adverb(HAL) to the subject or the object in the present time, intersect with the indication of time

concerning the past tense of the verb. It indicates a time that has gone and passed in the common contexts and rules provisions. The poetic evidence and the the texts that contain an adverbial sentence (HAL) whose verb is in the past are many. Basrah Grammarian have argued that the past verb should be accompanied with(QAD) implicitly or explicitly. The presence of (QAD) approximates the indication of the past tense to the present time. It has been said that the Kufa Grammarian had permitted not to use (QAD) explicitly depending on their knowledge of the language by hearing it (Al-sama'a) and their measurement (Al-kiyas) from the wholly Quran, spoken Arabic, and Arabic poetry. However, a thorough researcher finds that the two elders of the Kufa school, al-Kasa'i and al-Fur'a, had followed the Basris in the necessity of having (QAD) explicit or implicit after the adverbial phrase whose verb is in the past. That makes us tend to embrace the idea that not using (QAD) was used by the latter Kufa Grammarians, along with some of the Basrah Grammarians who had known only the outside meaning of the language without laying a finger on its accurate expressions because of the long time that separates them from the age of eloquence.

## مقدمة

إن الحال بوصفه مصطلحا نحويا يرتبط بأصل دلالته ببيان ما كان عليه الإنسان أو غيره من خير وشر[1]، ويتقيد بوقت حصول مضمونه ويتعلق الحدث الذي في الكلام بالفاعل أو المفعول أو بما يجري مجراها[2]. لذا كان وقوع الفعل الماضي جملة حالية موضع خلاف بين النحاة لا في أصل الوقوع لأن الفعل الماضي وقع في موضع جملة الحال في ما لا يُحصى من المواضع وهو من المسموع المطرد الذي يقاس عليه، ولكن النحاة اختلفوا عند نقطة مهمة ترتبط (بالزمن) الذي يدل عليه الفعل الماضي والزمن الذي يتقيد به الحال؛ لذلك قرر جمهور النحاة تقدم (قد) في الماضي المثبت، ظاهرة مقدرة في الجمل الفعلية التي فعلها ماض وتقع في موضع الحال. وقد أجاز فريق آخر من النحاة جواز أن يقع الماضي حالا بنفسه بلا تقدير لـ (قد).

### دلالة الحال تتقاطع مع الزمن الماضي والمستقبل

إن البحث في مصطلح الحال يقودنا إلى سبب التسمية، فالحال سمي حالاً (لأنه لا يجوز أن يكون اسمُ الفاعل فيها إلا لما أنت فيه تطاول الوقت أو قصر، ولا يجوز أن يكون لما مضى وانقطع ولا لما لم يأت من الأفعال إذ الحال إنما هي هيئة الفاعل أو المفعول وصفته في وقت ذلك الفعل)[3]

واختص الحال باسم الفاعل لأن العربية في وسعها التعبير عن الزمن الحالي باستعمال

(اسم الفاعل)[4] ومن هنا كان اسم الفاعل صيغة رئيسة في التعبير عن (الحال) بوصفه باباً نحويا يراد منه بيان هيئة الفاعل أو المفعول، يقول ابن الأنباري(ت577): اسم الفاعل يراد به الحال.[5]

والحق أن الحال تختص دلالته ببيان الهيئة ويرتبط بالزمن الحالي في علاقة مؤقتة زمنيا لذا كان احتمال تغييرها وتحولها قائما دائما، فلا يمتد ببيان الهيئة خارج الزمن الحالي (فإذا قلت: (جاءني زيد ماشيا) لم ترد أنه يعرف بأنه ماش ولكن خبرت بأن مجيئه وقع في هذه الحال، ولم يدلل كلامك على ما هو فيه قبل هذه الحالة أو بعدها))[6].

ومن كل ما تقدم لم يجوّز جمهور النحاة وقوع الفعل الماضي حالا لعدم دلالته عليها، فلا تقول (جاء زيد ضحك) ونحن نريد (ضاحكا)[7]؛ لأن الفعل الماضي لا يراد به الحال، فلم يجز أن يقع حالا.[8]

وأما الفعل المستقبل فلا يقع موقع الحال لأنه لا يــدل على الحال، فلا تقول:

( جاء زيد سيركب)، ولا (أقبل محمد سوف يضحك).

**دلالة الفعل الماضي مع (قد)**

جوز النحاة أن تقع الجملة الفعلية التي فعلها ماض حالا إن جاء مع هذا الفعل (قد) لأنها تقرب الماضي إلى الحال، فالماضي المقترن ب(قد) يفيد معنى التوقع كما هو رأي الجمهور، ومنهم الخليل (170هـ) الذي قال: يقال (قد فعل) لقوم ينتظرون الخبر، ومنه قول المؤذن: (قد قامت الصلاة) لأن الجماعة منتظرون لذلك.[10]

ويقول ابن يعيش (ت 643هـ) إن مجيء (قد) قبل الماضي يؤهله للوقوع حالا؛ لأن (قد) تقربه من الحال ألا تراك تقول: (قد قامت الصلاة) قبل حال قيامها ولهذا يجوز أن يقترن به (الآن) أو (الساعة) ، فيقال: ( قد قام الآن أو الساعة).[11]

والحق أن قرب حدوث الفعل الماضي في حالة اقترانه بـ (قد) جعله مستمرا بالحدوث إلى زمن التكلم الذي هو زمن الحال[12]، فعندما أقول (قد قامت الصلاة) فدلالة ذلك أن الصلاة قد قامت في زمن غير متراخ ولا منفصل عن الزمن الذي تكلمت بهذا الفعل مما أعطى دلالة الزمن الحالي الذي هو زمن التكلم.

**الأفعال التي لا تقع حالا حتى مع (قد)**

اشترط النحاة لجواز وقوع الفعل الماضي حالا أن تسبقه (قد) لأن وجود (قد) يحقق دلالة الحال، ويجعل الماضي مستمرا بالحدوث إلى زمن التكلم، وهناك أفعال ماضية لا تصلح أن تقع حالا حتى مع تقدير (قد)، حرص بعض النحاة على بيانها وتصنيفها وذكر الأسباب التي أبعدتها من أن تكون في موقع الحال، ويمكن تقسيمها على أقسام هي:

1. الأفعال الماضية الجامدة، مثل: عسى، ونعم، وليس، وهي لا تقع حالا لأن صيغتها لا تفيد الزمان، وهي أفعال غير متصرفة، فأشبهت الأسماء، أما قول عدي بن الرقاع:[13]

**لولا الحياء وإن رأسي قد عسا فيه المشيب لزرت أم القاسم**

فـ (عسا) قد وقعت حالا، ولكنها ليست عسى التي عرفناها بأنها لا تتضمن الدلالة الزمانية، وهي فعل غير منصرف إنما (عسا) معناها: اشتد، يقول الجوهري: (وعسا الشيء يعسو عسوا وعساء ممدود . أي يبس واشتد وصلب))[14]وهي ليست (عسى) الجامدة.[15]

2. أفعال مثل (كاد، أراد)، وقد امتنع وقوعها حالا لأنها أفعال تدل على الإرادة وهي شيء يكون، فلا نقول: (كاد قد قام) ولا (كاد قام) لأن ما بعدها لا يكون ماضيا.[16]

3الأفعال الإيقاعية، مثل: (بعت، طلقت) لأن المتكلم بها لا ينظر إلى وقت يحصل فيه مضمونها بل مقصودة إيقاع مضمونها وهو مناف لقصد وقت الوقوع.[17]

4. الفعل المضارع المنفي؛ لأننا لا نستطيع أن نضمر (قد) مع المنفي لأن (قد) توكيد، والنفي لا يؤكد، فلا تقول: (ما قد ذهبت)، ولكنك تقول: (ما ذهبت). [18]

**الخلاف النحوي بين النحاة في جواز وقوع الفعل الماضي حالا**

عرض أبو بكر الأنباري (ت577هـ ) لمسألة الخلاف النحوي بين النحاة في تقدير (قد)، فزعم أن الكوفيين يذهبون إلى أن الفعل الماضي يجوز أن يقع حالا واستمدوا أدلتهم من النقل والقياس.

فالنقل جاء في قوله تعالى: (أو جاؤوكم حصرت صدورهم) سورة النساء 90، فحصرت: فعل ماض وهو في موضع الحال، والتقدير (حصرة صدورهم)، واستدلوا، بقول أبي صخر الهذلي[19]:

**وإني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر**

فـ (بلله) فعل ماض، وهو في موضع الحال، فدل وقوع الفعل الماضي خاليا من (قد) على جوازه.

وأما القياس، فلأن كل ما جاز أن يكون صفة للنكرة نحو: (مررت برجل قاعد وغلام قائم)، فينبغي أن يجوز أن يقع حالا للمعرفة نحو: (مررت برجل قعد وبالغلام قام) وما أشبه ذلك.[20]

ولم يجوز النحاة البصريين أن يقع الحال فعلا ماضيا، لأنه لا يدل على الحال عندهم، ولا يجوز إلا إذا اقترن بـ (قد) ، نحو: (مررت بزيد قد قام) وذلك لأن (قد) تقرب الماضي من الحال، فجاز أن يقع معها حالا.[21]

وقال البصريون إن احتجاج الكوفيين، بقوله تعالى: (أو جاؤوكم حصرت صدورهم) ليس بحجة من أربعة أوجه.

الأول: إن (حصرة) صفة لـ (قوم) المجرور في أول الآية، وهو قوله تعالى: (إلا الذين يصلون إلى قوم) النساء/90

الثاني: إن (حصرة) صفة لـ (قوم) مقدر ويكون التقدير فيه: (أو جاؤوكم قوما حصرت صدورهم) والماضي إذا وقع صفة لموصوف محذوف جاز أن يقع حالا بالإجماع.

الثالث: أن تكون (حصرة) خبرا بعد خبر كأنه قال: أو جاؤوكم ثم أخبر، فقال: (حصرت صدورهم).

الرابع: أن تكون (حصرة) محمولا على الدعاء لا على الحال ، كأنه قال: (ضيّق الله صدورهم)، كما يقال: (جاءني فلان وسع الله رزقه، وأحسن إليّ غفر الله له)، فاللفظ في ذلك كله لفظ الماضي ومعناه الدعاء، كثير في كلام العرب ، قال الشاعر[23]:

**ألا يا سيالات الدحائل بالضحى عليكن من بين السيال سلام**

**ولازال منهلّ الربيع إذا جرى عليكن منه وابـــل ورهام**

فأتى بالفعل الماضي ومعناه (الدعاء)، ومثله قول قيس بن ذريح[24]:

**ألا يا غراب البيت هيّجت لوعـــة - فويحك خبرني بما أنت تصرخ**

**أبالبين من ليلى فإن كنت صادقـــــا فلا زال عظم من جناحك فضخ**

**ولا زلت من عذب المياه منفـــرا ووكرك مهدوم وبيضك مشدوخ**

**ولا زال رام قد أصابك سهمـــه فلا أنت في أمن ولا أنت تفرخ**

**وأبصرت قبل الموت لحمك منضجا على حر جمر النار يشوى ويطبخ**

فأتى بالفعل الماضي في هذه المواضع ومعناها الدعاء ، فكذلك قوله تعإلى: (حصرت صدورهم) لفظه لفظ الماضي ومعناه الدعاء، أما قول الشاعر (كما انتفض العصفور بلله القطر)، فإن التقدير (قد بلله القطر) إلا أن (قد) مقدرة تنزلت منزلة الملفوظ، ولا خلاف أنه إذا كان مع الفعل الماضي (قد) فإنه يجوز أن يقع حالا.[25]

**مناقشة ما أورده أبو البركات وتقيمه**

من مراجعة مقالة أبي البركات في عرضه لمسألة الخلاف بين البصريين والكوفيين في جواز وقوع الفعل الماضي حالا نتمكن من الوقوف على بعض الإشكاليات منها:

1. إن أبا البركات ذكر أن الأخفش (225هـ) وهو بصري قد خالف البصريين واتفق مع الكوفيين في جواز مجيء الفعل الماضي حالا من غير حاجة لتقدير (قد)، ولكنه أغفل أن يذكر أن الفراء وهو شيخ الكوفيين، قد اتفق مع البصريين وخالف الكوفيين في هذه المسألة ولا يمكننا أن نعتذر له، بأنه لم يطلع على رأي الفراء.

2. إن الذي يبدو من معالجة أبي البركات لآراء البصريين أن البصريين لا يجعلون حذف (قد) قبل الفعل الماضي الذي يقع حالا، مما تكاثر في كلام العرب، بل يرونه من الشاذ الذي يمكن توجيهه على أنه ضرورة شعرية؛ لذا فهو يتكلف توجيه الشواهد التي لا يمكن ردّها مثل قوله تعإلى: (أو جاؤوكم حصرت صدورهم)(النساء90)، فلا يقرّ بأن (قد) مقدرة في مثل

هذه الشواهد، وهذا خلاف ما استقر عليه النحو البصري الذي وجدته في مؤلفاتهم، يقول ابن الحاجب: (ولابد في الماضي المثبت من(قد) ظاهرة أو مقدرة)[26]، وقال في قوله تعالى: (أو جاؤوكم حصرت صدورهم) (النساء90)، (قالوا إن (قد) فيه مقدرة)[27].

ولو راجعنا ما نقله أبو البركات نجده لم يذكر أن (قد) مقدرة، وجاء لإعراب الآية المذكورة آنفا وهي بعيدة عما استقر عليه أمر هذه المسألة عند نحاة البصرة، فالخلاف ليس في ( هل يقع الفعل الماضي حالا)[28] كما عنون أبو البركات هذه المسألة لأنه قد وقع ولكن الخلاف في وجوب وقوع (قد) قبل الفعل الماضي الذي يقع حالا ظاهرة أو مقدرة على ما يرى البصريون وعدم وجوب ذلك عند الكوفيين.

**الفراء ووجوب تقدير (قد)**

الفراء شيخ من شيوخ الكوفيين ، ولكنه أوجب وجود (قد) ظاهرة أو مقدرة قبل الفعل الماضي الذي يقع حالا، يقول الفراء في قوله تعالى: (وكنتم أمواتا))(البقرة28)، المعنى . والله أعلم وقد كنتم، ولولا إضمار(قد) لم يجز مثله في الكلام ألا ترى أنه قال في سورة يوسف: (إن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت)(يوسف27)، المعنى والله أعلم فقد كذبت...)[29].

إن عبارة الفراء واضحة، فهو يوجب تقدير (قد) بعد الفعل الماضي الواقع حالا وعدم صحة الدلالة المقصودة دونها.

وقد يقال إن الفراء انفرد في خلافه مع الكوفيين في هذه المسألة، ولكننا عندما نراجع كتاب (معاني القرآن للفراء) لا نجده ينسب لأستاذه الكسائي خلافا لرأيه المذكور آنفا على كثرة المواضع التي ردّ فيها عليه وخالفه الرأي، بل راح الفراء ينقل شواهد تثبت مقالته في هذه المسألة من سماع الكسائي من بعض الأعراب، يقول الفراء: (أتاني ذهب عقله، يريدون قد ذهب عقله وسمع الكسائي من بعضهم يقول: فأصبحت نظرت إلى ذات التنانير)، فلو كان للكسائي رأي مخالف للفراء في هذه المسألة لحاول أن بيديه ويعرج عليه.

والحق أن الفراء قد استوقفني لأنه كان يأتي بأمثلة وشواهد على هذه المسألة فيها الفعل الناقص (أصبح) فنراه في موضع يقول: (وقد قرأ بعض القراء وهو الحسن البصري حصرة صدورهم كأنه لم يعرف الوجه في أصبح عبد الله قام أو أقبل أخذ شاة)[30].

وقد ذكرت آنفا استشهاده بسماع الكسائي من بعضهم (فأصبحت نظرت إلى ذات التنانير).

واستشهاد الفراء بـ (الفعل الماضي أصبح) هي دقة محصها الفراء في أساليب العربية، فمن جانب إن خبر (أصبح) في قولهم: (أصبح عبد الله قام) يعربه الكوفيون حالا، ولما كان الفعل الماضي (قام) في محل نصب خبر (أصبح) تبين جواز أن يقع الفعل الماضي حالا، ولكن الخلاف لا يقف عند هذه المسألة؛ لأن الفراء في هذا الموضع يوجب تقدير (قد) وهذا

ما تتصل منه سائر الكوفيين كما ذكر أبو البركات.

أما الجانب الآخر وهو الأهم الذي جعل الفراء وأستاذه الكسائي من قبل يتخذان الفعل الناقص (أصبح) جزءا مهما من تركيب شواهدهما في هذه المسالة أن (أصبح لا تدل على معنى الإصباح كما هو ظاهر دلالتها بل تدل وهي فعل ناقص على معنى الانتقال كما أكد ذلك علماء العربية [31] ، فعندما أقول: (أصبح عبد الله قام) من غير تقدير لـ (قد) سوف لا تؤدي (أصبح) معنى الانتقال؛ لأن الانتقال لابد أن يحدث في زمن التكلم، فيحصل الافتراق الزمني الذي حصل فيه الانتقال.

وبغض النظر عن تأييدي لهذا الفريق أو ذاك، فإني أقول إن علينا أن نتنبه إلى إحساس الرعيل الأول أو المتقدم من النحاة لأنهم الأقرب منا لهم فعندما يرون تقدير(قد) فذلك أمر حذقوه في اللغة وخفي عنا، والحق أن التخفف من تقدير (قد) لم يأت إلا من بعض المتأخرين الذين لم يجدوا فرقا بين قولهم: (أصبح عبد الله قام) و(أصبح عبد الله قد قام).

وقد يكون التخفف من تقدير (قد) متسقا مع سمت الكوفيين في بناء أقيستهم وصياغة قواعدهم النحوية؛ إذ يأخذون بظاهر اللغة ويبتعدون من التأويل والتقدير، ولكن مراجعة آراء شيوخهم في هذه المسألة يجعلنا نختلف مع ما نسب إلى الكوفيين من تركهم لتقدير (قد) قبل الفعل الماضي الذي لا يقع حالا.

وأعتقد أن التخفف من تقدير (قد) في الوضع المنظور قد نضج عند نحاة متأخرين ليسوا كوفيين وحسب بل من الكوفيين والبصريين، فأبو حيان (ت745هـ) بصري المذهب رأى أن الشواهد على مجيء الحال فعلا ماضيا بلا (قد) قد جاء فيما لا يحصى من كثرة[32] وهو الذي عرف بأنه شديد التمسك بآراء النحاة الأوائل[33]، ولكنه كان يعتنق المذهب الظاهري[34]وهذا ما انعكس على بعض آرائه النحوية؛ لذا كان ميالا إلى التخفف من تقدير (قد) .

## الخاتمة

إن مصطلح (الحال) في النحو العربي يحمل دلالتين هما:

(1) بيان الهيئة

(2) الزمن الحالي

وتترابط هاتان الدلالتان المكتسبتان من معنى الحال في اللغة ليصبح ما يطلق عليه الحال متوافرا عليهما معا، ومن هنا كان وقوع الفعل الماضي حالا متناقضا مع ما يدل عليه هذا المصطلح في اللغة العربية، لذا راح النحاة يتبارون للخروج بوجه يفسر هذا الباب النحوي الذي تكاثرت أمثلته في فصيح العربية فلم يعد وجودها مقتصرا على بعض الأمثلة في كلام العرب، فكان هناك أكثر من رأي وتوجيه يفسرها أو يبررها

وتتبع أبو البركات هذه الآراء والتوجيهات؛ ولكنه عرضها وفقا لمنهجه في كتابه (الإنصاف) على أنها مسألة خلافية بين نحاة البصرة والكوفة، فجاءت المسألة محددة تنصرف عن كثير من دقائق الاختلاف والاتفاق الذي يأخذ به هذا النحوي أو ذاك، فالبصريون كما عرض آراءهم أبو البركات يلجأون إلى التأويل في الأمثلة التي يكون فيها الفعل الماضي في موقع الحال، فإذا أعيتهم الحجة، وانقطع بهم السبيل كانت (قد) المقدرة قبل الفعل الماضي مطيتهم لتستوي حجتهم وتقام قاعدتهم.

أما الكوفيون فكانوا يجوزون وقوع الفعل الماضي حالا قياسا على أمثلة فصيحة في النقل والقياس.

ولكن المدقق في هذه المسألة يجد أن الخلاف لا يقف عند هذه الحدود التي رسمها أبو البركات، فالفراء والكسائي وهما شيخا مدرسة الكوفة لم يتفقا مع ما نسبه أبو البركات للكوفيين، بل نجد أن للفراء رأيا واضحا وصريحا أغلفه أبو البركات يتفق تماما مع ما ذهب إليه الجمهور من نحاة البصرة من تقدير لـ(قد) قبل الفعل الماضي الذي يعرب حالا.

إن معالجة الفراء لهذه المسألة وغيرها مهمة إذ تعطينا الأمثلة التي تداولها في كتابه (معاني القرآن) صورة عن حذقه لأساليب العربية. فنحن مع الفراء يجب أن نتفقد الأمثلة والشواهد التي يذكرها لأنها تفشي أسرار تبنيه لهذا الرأي أو ذاك فـ (أصبح) فعل ناقص يختاره الفراء لبيان وجوب تقدير ( قد) قبل الفعل الماضي الذي يقع حالا، فالقارئ يجب أن يعرف جملة من المعارف النحوية ليتمكن من استبطان حكمة الفراء في اختياره لهذا المثال أو ذاك.

## الهوامش

□□ □ينظر: لسان العرب: ( ح و ل)
□□ □ينظر: شرح الكافية: 2/ 50. 51، في النحو العربي نقد وتوجيه: 84.
□□ □شرح المفصل: 1/372.
□□ □ينظر: خصائص العربية:41
□□ □ينظر: الإنصاف:1/ 257.
□□ □معاني النحو: 2/ 709.
□□ □ينظر: شرح المفصل:1/ 396.
□□ □ينظر: الإنصاف: 1/257.
□□ □ينظر: شرح المفصل:1/396، شرح الكافية: 2/ 81.
□□□ □ينظر: مغني اللبيب:1/228.
□□□ □ينظر: شرح المفصل:1/396.
□□□ □ينظر: مغني اللبيب:1/228.
□□□ □ديوان عدي بن الرقاع:99
□□□ □لسان العرب: (ع س ا)
□□□ □ينظر: معاني القرآن للفراء: 1/24، مغني اللبيب:1/229.
□□□ □ينظر: معاني القرآن للفراء:25.1/24.
□□□ □ينظر: شرح الكافية:2/77.
□□□ □ينظر: معاني القرآن للفراء:1/282
□□□ □البيت في خزانة الأدب: 1/552
□□□ □ينظر: الإنصاف:1/253.
□□□ □ينظر: الإنصاف:1/253.
□□□ □ينظر: الإنصاف: 1/253.
□□□ □البيت غير منسوب لشاعر وهو في: معجم البلدان: 2/ 444
□□□ □ديوان قيس بن الملوح:94
□□□ □ينظر :شرح المفصل:1/396، شرح الكافية: 2/82.
□□□ □ينظر: شرح الكافية: 2/84.
□□□ □ينظر: الإنصاف: 1/252.
□□□ □ينظر: المصدر نفسه.
□□□ □معاني القرآن للفراء: 1/24
□□□ □المصدر نفسه.
□□□ □ينظر: المقتصد:1/399.
□□□ □ينظر: البحر المحيط: 3/450.
□□□ □ينظر: تاريخ علوم العربية: 201.
□□□ □ينظر: الدرر الكامنة: 1/85.

## المصادر والمراجع


القرآن الكريم

الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، تأليف الإمام كمال الدين أبي البركات الأنباري (ت577هـ) الطبعة الرابعة.

البحر المحيط، أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن حيان الأندلسي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 2002م .

خصائص العربية في الأفعال والأسماء، دراسة لغوية مقارنة، د. إسماعيل أحمد عمايرة، الطبعة الثالثة، عمان . الأردن1992م .

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، شهاب الدين العسقلاني، الطبعة الأولى، حيدر آباد1350هـ .

ديوان عدي بن الرقاع، شاعر أهل الشام95هـ . 714م، جمع وشرح ودراسة: د.حسين محمد نور الدين، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، الطبعة الأولى1410. 1990.

ديوان قيس بن الملوح (مجنون ليلى) رواية أبي بكر الوالبي، دراسة وتعليق: يسرى عبد الغني، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى، 1420.1990، بيروت /لبنان.

شرح الكافية، ابن الحاجب رضي الدين محمد بن الحسن الإستربادي (ت 686هـ) ، تحقيق: أحمد السيد احمد، المكتبة التوفيقية، القاهرة (د.ت).

شرح المفصل للشيخ العلامة موفق الدين ابن يعيش النحوي(ت 207هـ) تحقيق: أحمد السيد أحمد و إسماعيل عبد الجواد عبد العني، المكتبة التوفيقية، القاهرة، 2001م.

معاني القرآن، يحيى بن زياد الفراء (ت207هـ) تحقيق: محمد بن علي النجار وآخرين، الطبعة الأولى، دار الكتب، 1955م.

معاني النحو، الدكتور فاضل صالح السامرائي، مطبعة التعليم العالي في الموصل 1987م.

معجم البلدان

المقتصد في شرح الإيضاح ، عبد القاهر الجرجاني (ت447هـ)،تحقيق: كاظم بحر المرجان، دار الرشيد بغداد،1982م.

مغني اللبيب عن كتب الأعاريب،جمال الدين ابن هشام الأنصاري (ت761هـ)، تحقيق:مازن المبارك وآخرين ،دار الفكر، الطبعة السادسة،بيروت1985م.

النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، مصر، الطبعة الرابعة(د. ت).

# التداخل النصي في شعر ابن حمديس الصقلي (ت527هـ)

**أ.م.د. صادق جعفر عبد الحسين**
**جامعة ذي قار- بغداد/ كلية الآداب**
**قسم اللغة العربية**

## الملخص

إن مفهوم التداخل النصي غربيُّ الولادة إلا أننا نجد جذوره في النقد العربي القديم عبر مصطلحات نقدية مثل السرقة والإغارة والاستعانة وغيرها، وهذا ما يدل على أن هذا المفهوم لصيق بالحياة الأدبية والنقدية عند العرب، وهذا ما أشار إليه كل من جوليا كرستيفا ورولان بارت من حتمية تداخل النصوص؛ لاعتبارات تتعلق بالموروث الثقافي للذهن البشري والذي يقوم جزء منه على قراءة التجارب والأقوال السابقة وإعادة تمثلها في المقامات والأحداث والظروف المشابهة؛ لذا فإن النص يتداخل بنسب متفاوتة مع النصوص السابقة له متداخلة.

وبعد قراءة ديوان ابن حمديس، الذي جاء أثرا لما يتمتع به الشاعر من تنوع في مصادر ثقافته وسعة إدراكه وكثرة مطالعته وتنوعها لشعر الأقدمين، وجدناهُ حافلا بالكثير من التدخلات النصية لشعراء جاهليين وإسلاميين وعباسيين وكان التداخل مركزاً على فحول منهم امرؤ القيس والأعشى والنابغة والمتنبي وغيرهم.

## Summary

The concept of textual overlap in Western birth, but we find its roots in the ancient Arab criticism through critical terms such as theft, raiding, use and others, which indicates that this concept of the summer of literary and monetary life of the Arabs, as indicated by Julia Kristeva and Roland Bart of inevitability overlap Texts; for

considerations related to the cultural heritage of the human mind, part of which is to read past experiences and words and re-represent them in denominations, events and similar circumstances; therefore, the text overlaps in varying proportions with the previous texts overlapping.

After reading the book of Ibn Hamdis, which came rich for the poet's enjoyment of diversity in the sources of his culture and the wide range of knowledge and the diversity and diversity of many of the textual interventions of the poets of the ignorant and Islamists and the game of Sein was overlapping centers of the people of the people of Qays.

## التداخل النصي اللغة والمفهوم:

إن التداخل النصي عبارة مكونة من مفردتين، يستوجب الوقوف عليهما لغة كل على حدة؛ ليستوي لدينا معناهما معا:

1. التداخل لغةً: جاء في معجم لسان العرب: (الدخلُ رجلٌ متداخل، ودخّل كلاهما: غليظ دخلٍ بعضه في بعض، وناقة متداخلة الخلق إذا تداخل جسمها واكتنزت واشتد أسرها، وتداخل المفاصل ودخالها دخول بعضها في بعض)[1]، ودلالة التداخل هي تشابك أمرين أو أكثر في كل واحد يصعب التفريق بينهما.
2. النص لغةً: النص يعود إلى مادة (نصَّ أو نصص)، فقد جاء في جمهرة اللغة (نصصت الحديث أنصه نصاً، إذا رفعته)[2]، فدلالته هنا هي الرفع والارتفاع، كما أن دلالته الرفع والظهور نجد لها أثراً في مفهوم التداخل النصي عبر قانون الإحلال والإزاحة الذي تمارسه العلمية التداخلية النصية، فالنص ينظر في عالم مليء بالنصوص الأُخَر، وخلال عملية الإحلال والإزاحة قد يقع النص في ظلها، وقد يتصارع مع بعضها[3].

وإن عملية الصراع هذه هي التي ترى نصاً دون آخر وتظهره من بين مجموعة نصوص تشكل بمجموعها النص، فالنص إذن جيولوجيا كتاباتٍ كما يعبر عنه رولان بارت ويشبهه بطبقات أي مجموعة من النصوص المنضدة، فالتداخل النصي هو إظهار ورفع وكشف لهذه النصوص.

وجاء التداخل النصي في تاج العروس بما يقارب المصطلح الحالي للتداخل النصي ومفهومة، (تناصّ القوم: إذا ازدحموا)[4]، وهنا نرى معنى الازدحام قريبا جداً من مفهوم التداخل النصي إذ يشكل ازدحاماً من النصوص، والدلالة هنا قريبة من دلالة الرفع والظهور بلحاظ ما جاء في قاموس المحيط: (حية نصناص: أي كثيرة الحركة)[5]، فالنصوص في حركة مستمرة والتداخل النصي هو ترحال للنصوص وتداخل فيما بينها مزدحمة تتمثل بعضها بعضاً في توافق أو اختلاف.

إن مصلح التداخل النصي غير منفصل عن مصطلح نقدي آخر هو النص، حظيَ بتعاريف متنوعة عبرت عن اتجاهات متباينة من المعرفة الإنسانية[6].

فالنص كما تعرفه جوليا كرستيفيا: (جهاز عبر لساني يعيد توزيع نظام اللسان بواسطة الربط بين كلام تواصلي يهدف إلى الإخبار المباشر بين أنماط عديدة من الملفوظات السابقة عليه أو المتزامنة معه)[7]، فالنص عندها إنتاجية قائمة على ربط متداخل بين النصوص السابقة ومتزامنة معه (أي تداخل النصوص)، وهذه الإنتاجية هي التي تكون تداخلاً نصياً، فالنص عند كرستيفا هو (ترحال للنصوص وتداخل نصي، ففي فضاء نص معين تتقاطع وتتنافى ملفوظات عديدة متقطعة من نصوص أخرى)[8].

أما رولان بارت فقد عرّف النص على النحو التالي: (السطح الظاهري للنتاج الأدبي نسيج الكلمات المنظومة في التأليف والمنسقة بحيث ترفض شكلا ثابتاً ووحيداً)[9].

فإذا كان النص عند كرستيفا يتجه نحو النسق أي الدال وعبارةً عن تبادل نصوص، فإن تعريف بارت يستلزم تشكيل النص من جمل وفقرات بنسيج منسق وهو بتعريفه يوحي للنص سطحاً ظاهرياً لا بد أن تكون له بنية داخلية تعتمد جملة من المرجعيات.

أما الباحث محمد مفتاح فيعرف النص بـ :(مدونة حدث كلامي ذي وظائف متعددة)[10].

فالنص ليس صورة فوتوغرافية أو رسماً بل هو توالف من كلام وحدث واقع في زمان ومكان معينين، لا يعيد إنتاج نفسه انتاجية مطلقة، مثله مثل الحديث التاريخي، وهو تواصلي يهدف إلى الإيصال المعلوماتي والمعرفي ونقل التجارب إلى المتلقي، كما أنه تفاعلي وظيفته التفاعلية أن يقيم علاقات اجتماعية بين أفراد المجتمع، وهو توالدي، فالحدث اللغوي لا ينبثق من العدم بل يتولد من أحداث تاريخية ونفسية ولغوية تتناسل منها أحداث لغوية أخرى لاحقة لها[11].

وقد ظهر مصطلح التداخل النصي تحت مسمى (التناص) للمرة الأولى على يد جوليا كرستيفا في أبحاث لها بين عامي (1966-1967)، وصدرت في مجلتي (تيل – كيل) و(كراتيك )، وأعيد نشرها في كتابيها (سيمونك) و(نص الرواية)، وفي مقدمة كتاب ديستوفسكي لباختين[12]، وهو ترجمة (Inter texte) في الفرنسية، إذ إن (Inter) تعني تداخل النصوص في حين (texte) تعني النص، والأصل مشتق من الفعل اللاتيني (textenre) بمعنى النسيج أو الحبك[13].

غير أن بعض النقاد ترجمه إلى التناص بوصفه صيغة تفاعل من ضمن دلالاتها التداخل والاشتراك[14].

ويرى تزفي تانتو دوروف أن باختين أستاذ جوليا كرستيفا هو أول من استعمل المصطلح وأوجده وسماه (تداخلا)، ولم يسمه تناصا، ويعدّ ميخائيل باختين أول من صاغ نظرية شاملة في التداخلات النصية، كذلك (الحوارية) ففي كل أسلوب جديد هناك عنصر من رد الفعل على

الأسلوب السابق[15]، فلم يعد الأسلوب هو الرجل بل أصبح يعني الرجلين أو أكثر.

**التداخل النصي في النقد العربي القديم**

إن مفهوم التداخل النصي وإن كان ظهر حديثاً على يد باختين وفيما بعد على يد جوليا كرستيفا وغيرهما من الباحثين مثل رولان بارت وتودروف وميشيل ريفاتير، فإنه لم يكن غائبا عن أذهان النقاد العرب القدامى من خلال رؤيتهم لقضية السرقات الشعرية ففرقوا بين ما هو متاح من المعاني للشعراء جميعا وبين السرقات الحقيقية المحضة، فالشعراء ينهلون من منبع واحد في أفكارهم وموضوعاتهم بما هو مشاع من وحدة الأغراض واللغة والموضوعات وغيرها من المعاني المراد التعبير عنها في أشعارهم.فالجاحظ يرى أن )المعاني مبسوطة إلى غير غاية ممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصودة ومحصلة محدودة)[16]، أو هي كما عبر عنها في غير موضع من أن المعاني موضوعة في الطريق يعرفها العربي والأعجمي.

لقد تنبه العرب إلى التداخل النصي الذي ينجم عن الاشتراك العام في المعاني وسمو بعض السرقات المحمودة وفصلوها عن السرقات المذمومة والتي فصلوا القول فيها من إغارة، وسرقة، وغصب، وإلمام، وتناسب، واحتذاء، ومثال، وقلب وغيرها[17].

أما عبد القاهر الجرجاني فلم يسمي ذلك بالسرقة، لأنه أعاد قراءة التعبير في نظريته (النظم) فلم يول أهمية للفظ فقط، أو للمعنى فقط بل اعتمد النظم الذي يتألف منهما وفقا لمبدأي الاختيار والتوزيع. فالأول في الألفاظ والثاني في المعاني، وعمد إلى (ابتداع مصطلحات نقدية خالية من التهييم والتحريم والتشكيك وهذه المصطلحات بدلالاتها النقدية قريبة من التداخل النصي بمفهومه الثقافي العام كما ورد في (الأخذ) و(الاستمداد) و(الاستعانة)[18].

كما أكد النقاد القدامى على حتمية تداخل النصوص في معانيها وألفاظها ففصلوا القول في السرقات، ولم يعابروا المعاني الشائعة منها.

لقد وعى الشعراء أنفسهم حقيقة التداخل النصي منذ العصر الجاهلي وما بعده من العصور، فنحن نرى عنترة بن شداد يقول: **هل غادرَ الشُّعراءُ مـــن متردّمِ**

**- أم هل عرفتَ الدارَ بعد توهـــمِ**[19]

أي أنه لم يبق للشعراء في عهده معنى إلا وقد سبقه إليه الشعراء الذين قبله.

أما امرؤ القيس، فقد قال فيه محمد بن سلام الجمحي أنه سبق العرب إلى ما ابتدعه، فاتّبعه فيها الشعراء. إنه يبكي كما بكى من سبقه على الأطلال، فيقول:

**عوجا على الطلل المُحيل لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن خذام**[20]

أما كعب بن زهير بن أبي سُلمى، فنراه يقول قول سابقيه ويؤكده فيقول:

**مـــا أرانا نقـــول إلاَّ مُعـــاراً أو معـــاداً مـــن قولنا مكروراً**[21]

إن ما أدركه هؤلاء الشعراء، وهم جاهليون، مما اختزنته أذهانهم كان محل نقد لأشعارهم إذ إن أثر الحفظ بادٍ في تكوين الشاعر الإبداعي، فنرى أن ابن طباطبا العلوي يشترط على الشاعر أن يديم النظر في أشعار العرب التي اختزنتها ذاكرتهم ؛لأنه سيمثلها ويحولها بشكل جديد في نصه الشعري، يقول: (فإذا جاش فكره بالشعر أدى إليه نتائج ما استفاد مما نظر فيه من تلك الأشعار)[22]، فهو يدعو الشعراء إلى المداومة على مراجعة أشعار القدماء ومطالعتها لشحذ قرائهم، فالشعر عنده ملكة مكتسبة لا إلهام أو موهبة.

## أنواع التداخل النصي

تباينت الآراء في تحديد تعريف جامع للتداخل النصي، باختلاف تعريفات النقاد، غير أنه من الممكن تحديد نوعين رئيسين منهما تنضوي تحتهما أنواع أخرى من التداخل النصي وهذان النوعيان هما: التناص الظاهر أو الصريح والتناص الخفي أو المضموني[23] . وترى جوليا كرستيفا أن هناك ثلاثة أنواع من التناص هي:

1. النفي الكلي: ومنه يكون المقطع الدخيل مقلوباً ومعنى النص المرجعي مقلوباً أيضاً.
2. النفي المتوازي: حيث يظل المعنى المنطقي للمعنيين هو نفسه.
3. النفي الجزئي: حيث يكون جزء واحد فقط من النص المرجعي منفياً[24].

وهذه الأنواع من التناص تعتمد على حجم حضور النص المرجعي في النص، ففي النفي الكلي والمتوازي يكون حضور النص المرجعي كلياً، فيما يكون حضوره في النفي الجزئي جزئياً، وهذا ما يشير إليه جيرار جينيت من خلال تعريفه لمصطلح التداخل النصي فهو (التواجد اللغوي سواء أكان نسبيا أم كاملاً أم ناقصاً لنصٍ في نص آخر)[25].

ويقسم جينيت التناص إلى ثلاثة أقسام، فالأثر الأدبي يأتي من البنيات المتوارثة التي تشكل ما يشبه انطلاقا للأعمال الفردية وتنطوي على الموروث الجمعي في الحضارة في ثلاث علاقات:

1. علاقة أو إنجاز تحقيق مضمون معين كان يشكل في تلك البنيات وعداً.
2. علاقة تحويل معنى قائم أو شكل متوفر والذهاب بهما أبعد.
3. علاقة خرق يتقدم فيها الكاتب إلى معنى أو شكل قائمين أو محاطين بهالة من القدسية واللامساس فيقبلها أو يطرح ما هو ضدهما أو يكشف عن فراغهما[26].

## آليات التداخل النصي

على الرغم من تعدد آليات التداخل النصي، يبرز منها آليتان رئيسيتان هما: (الحوار والامتصاص). فالحوار يعمل على توظيف مرتفع من قراءة النص، فآلية الحوار كما عبر عنها

محمد بنيس )أعلى مرحلة من قراءة النص الغائب إذ يعتمد النقد المؤسس فيها على أرضية عملية صلبة تحطم مظاهر الاستلاب مهما كان نوعه وشكله وحجمه)[27]، أو هي (محاورة نص لنص آخر فيكون منتج النص اللاحق محاوراً ومستمعاً لمنتج النص السابق في آن واحد)[28] أي كما عند باختين.

أما آلية الامتصاص، فهي مرحلة أخرى من قراءة النص الغائب وهي (تنطلق أساساً من الإقرار بأهمية هذا النص وقداسته فيتعامل وإياه بوصفه حركة وتحولاً لا ينفيان الأصل بل يسهمان في استمراره كجوهر قابل للتجدد)[29]، أي أن النص يصبح مسرحاً لعملية تحويلية يتعاطى خلالها (النص اللاحق مع النصوص الأخرى بوعي حركي متجدد مع الإقرار بالاحترام أو التبجيل لتلك النصوص)[30].

وهناك آلية ثالثة هي آلية (الاجترار)، التي يوردها محمد بنيس وبعض الباحثين أيضاً، ويذكر بنيس أنها سادت عصور انحطاط الشعر، إذ يتعامل الشاعر عبرها بوعي سكوني مع النص الغائب من خلال تمجيده ظواهر شكلية منفصلة عن التطور والإبداع[31]، فهي لا تمثل آلية تناصية لأنها تخالف الشرط الإبداعي للتواصل النصي الذي يستوجب تحقيق الزيادة المعنوية عبر التفاعل النصي، فضلاً عن أن هذا التعامل المحتذى دون حذف أو إضافة يقترب من أنواع التداخل النصي في حجم التواجد اللغوي للنص السابق مرة، وقد يقع في دائرة السرقات الشعرية التي سبقت الإشارة إليها مرة ثانية. لكن في النهاية لا تمثل آلية الاجترار التداخل النصي مع غياب الإنتاجية[32]، كما أن آلية التوالد والتي تعني (استخراج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه أو يزيد فيه زيادة)، تبدو أقرب إلى آلية الامتصاص التي لا ينفي فيها النص مرجعيته لكنه يسهم في استمرارها عبر توليد جديد متصل للمعنى وهذه الخاصية التوليدية اعتمدت من قبل بعض الباحثين.

أما النوع الثاني من آليات التناص فتمثله آليتا (التمطيط ) و(الاختصار)، إذ توظَّف هاتان الآليتان في جمّ التواجد النصي المرجعي في النص الذي تبقى دلالته مساندة للمستوى الدلالي الناتج عن تفعيل وظيفة آليتي (الحوار) أو (الامتصاص)، غير أن محمد مفتاح يعتقد أن معظم آليات التداخل النصي تقع تحت آليتي (التمطيط) و(الإيجاز). فالتمطيط يشمل الجناس بالقلب والتصحيف (الأناكرام) والكلمة (الباكرام) والشرح الذي يعبر عنه بأنه أساس كل خطاب، فالشاعر قد يجعل البيت الأول محوراً ثم يبني عليه القصيدة، وقد يستعير قولاً بصيغ مختلفة، استعارةً وتكرارا، ويكون على مستويات الأصوات والكلمات والصيغ والشكل الدرامي فضلاً عن أيقونة الكتابة[33].

أما آلية (الاختصار أو الإيجاز أو التكثيف) فيكون عملها بعكس عمل آلية التمطيط وقد عدت الإحالة من أشكال الإيجاز، فقد ركز محمد مفتاح على (الإحالات التاريخية الموجودة

في القصيدة التي كانت سنة متبعة في الشعر القديم)[34]، مما يدخل في الإيجاز كذلك فقد عُدَّ التلميح داخلاً آليةَ الإيجاز أيضاً.

أما جيرار جينيت، فيعبر عن الإيجاز بالتكثيف فـ(توظيف نص أو عدة نصوص مختلفة في نص معين ينبغي إخضاعه لعمليتي التكثيف والتمطيط بحسب الأهمية التي يوليها المؤلف صاحب النص)[35].

لقد حفل ديوان ابن حمديس بالتداخل النصي وكان هذا التداخل النصي من الكثرة الشيءَ الكبير، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على سعة معرفته بالشعر وكثرة المداومة على مراجعة شعر الأقدمين، وهذا الأمر نتج عنه لغة شعرية عالية في ألفاظها وأساليبها ودلالاتها فاضت على لسان ابن حمديس فضلاً عن تنوع مصادر معرفته الثقافية، ويمكن أن نحدد عاملين أساسين في تنوع ثقافة الشاعر، الأول هو تعلقه بفحول الشعراء من جاهلين وإسلامين وعباسيين والاطلاع على أشعارهم، ويمكن للمطلع على ديوانه أن يجد هذا الأثر واضحاً عنده، ولاسيما تأثره بشعراء كبار أمثال امرئ القيس والنابغة الذبياني وعنترة وزهير، والأعشى والفرزدق والمتنبي وابن المعتز وبشار بن برد وغيرهم من قامات الشعر العربي.

والعامل الثاني هو أن الشاعر عاش في أكثر من بيئة، بين صقلية التي ولد فيها ثم ترحاله داخل الأندلس ومنها إلى أفريقيا، فاختلفت عليه البيئات وتنوعت الثقافات، وهذا الاختلاف أحسن شاعرنا الاستفادة منه، لأن هذا التنوع يزخر بتنوع رواة الشعر وقائليه وتعدد الآثار الأدبية سواء أكانت مكتوبة أو ملفوظة وهذا ما ترك بصمة ثقافية عالية في شعره.

وقد تنوع التداخل النصي في شعره بين التداخل النصي الديني والتاريخي والذي اتصل حتى بالجانب الاسطوري في العقل العربي وكذلك التداخل الشعري الفني الذي أفاد فيه ممن سبقه. ويمكن تقسيم أنواع هذا التداخل كما يلي:

**1. التداخل النصي الديني :**

ما لا يخفى على أحد أن القرآن الكريم كان ولا يزال المعين الأدبي والعلمي والإعجازي الذي لا ينضب، وهو على الدوام كان المائدة الغنية التي أثرت الشعراء بعد نزوله وإلى اليوم، ونرى أن جميع فحول الشعراء من العصر الإسلامي إلى الآن قد تأثر بالقرآن بشكل أو بآخر قليلاً كان ذلك التأثير أو كثيرا، إلا أنه لابد منه، فالقرآن قد تطرق إلى كليات المعارف والعلوم والثقافات فضلاً عن تعدد موضوعاته بين الإنسانية والأخلاقية والقيمية والمعرفية وغيرها من الأمور مما لا يمكن عده وإحصاءه، ومن الشواهد على التداخل النصي الديني في شعر ابن حمديس قوله:

**وليلةٍ حالكةِ الإزارِ**
**مَدّتْ جناحاً كسوادِ القارِ**
**يَحجُبُ عنّا غُرّةَ النّهارِ**[36]

هذه الأبيات متداخلة نصيّا أيضاً مع قوله تعالى: ﴿**أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَ مَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾[37].

وهنا استخدم الشاعر آلية الامتصاص ليؤكد حركية النص القرآني بما لا ينافي الأصل، بل جاءت الأبيات في دلالة استمرارية تحاول التوسع في هذا النص الغائب عن أذهان المتلقين في لحظة الترقب لما يقوله الشاعر، وليؤكد الشاعر قابليته وسعة حفظه لهذه الآية وتمثلها في الشعر.

وفي نفس القصيدة يطالنا تداخل نصي آخر مع القرآن في قوله:

**كالجمر بين الهُدبِ والأشفارِ  تكادُ ترمي الصيد بالشرارِ**[38]

وهنا تداخل مع النص القرآني الذي جاء في صفة النار التي أعدت للمكذبين وكما جاء قوله تعالى :﴿**إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ**﴾[39]، فقد شبه الشاعر عين الحبيبة بأنها في غاية الجمال أي أنها تتقد جمالاً، وشبه هذا الانتقاد مع احمرار شفتيها بلون النار أو بالأحرى بالشرار المتطاير منها، وهنا نجد آلية الحوار مع النص القرآني فهو يأخذ المعنى ويحاوره من جانب ويعيد إنتاجه بصوره أدبية فنية عالية.

وكذلك قول الشاعر :

**هنّ الحِسانُ وَحَربُها الهجْــرُ  فلذاك يجبُنُ عندها الذِّمْرُ**[40]

وهذا النص متداخل مع قوله تعالى: ﴿**فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ**﴾[41]، فالشاعر يسوق نصه متحاوراً مع النص القرآني، ومستوقفاً عند هذا الحسن الذي يشبهه بحسن الحور العين، وما يترتب عليه من انصياعه وخضوعه أمام هذا الجمال الأخاذ، معللاً خضوعه بأن الأبطال لا يستطيعون مقاومته وتجاهله، فقد وضع هذه المسلَّمة كي يعذره المتلقي فيما ذهب إليه من الخضوع ثم قدم له بوصف الحسن الخيالي، وهذا النص يتداخل مع نص قرآني آخر هو قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ**﴾[42]، والآية هنا تتحدث عن يوسف النبي (ع)، وكيف أن جماله أجبر نسوة المدينة على الخضوع له.

ومن الأمثلة الأخرى على تداخل نص ابن حمديس مع النص القرآني قوله:

**تُفجّرُ الماءَ منها كلما وَضَعتْ  لهجعةٍ منهما ناراً على نارِ**[43]

وهذا النص قد تماثل مع نصين قرآنيين، أخذهما الشاعر وأعاد إنتاجهما في نص واحد

وخرج به إلى غرض جديد، والآيتان اللتان تمثل بهما، الأولى قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ**﴾[44]، وهنا أخذ الشاعر المعنى وقلبه وهذا ما يسمى بظاهرة التمطيط في التداخل النصي باستخدام قلب المعنى الصالح لمعنى الجديد، والآية الثانية قوله تعالى: ﴿ **يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾[45]، وهنا أخذ الشاعر معنى النار التي يوقدها الزيت والذي يخرج لدلالة الإضاءة، فضلاً عن أن هذا الزيت يضيء من دون أن تمسه النار، أفاد الشاعر من دلاله الإضاءة في الزيت ليصف بها حبيبته وهجعتها.

ومن الأمثلة الأخرى قوله كذلك:

**فالحمد للهِ مجري النورِ من غَسَقٍ وجاعلِ الليل في تلطيف أحجارِ**[46]

وهو يتناول معنى العزيز في قوله تعالى: ﴿**أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً**﴾[47]، وقوله تعالى: ﴿**فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾[48]، فجمع الشاعر المعنيين من غير أن يأتي بجديد فيهما أو في معنييهما، وهذه الآلية تسمى بالاجترار أي أنه أعاد إنتاج النص بنفس الآلية الشكلية، من غير أن يطور في المعنى أو يجمل فيه.

أما في قول الشاعر:

**إنّ حُسْنَ الثناءِ بعـدك يَبقـى ـ لك بالذكـرِ منـه عيشٌ مُكرَّرْ**[49]

يتداخل هذا البيت مع معنى قوله تعالى: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً**﴾[50]، وهذا النص جاء يتحدث عن ابراهيم النبي(ع) والذي وهب الله له من رحمته وجعل له لسان صدقٍ عليا أي الذكر الحسن بين الناس أو على ألسنتهم، وهذا اللسان الصدوق بحقه، كان قد طلبه إبراهيم (ع) من ربه، وهو يتداخل أيضا مع البيت الشعري كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ**﴾[51]، وشاعرنا هنا امتص المعنين ليبالغ في مدح صاحبه لأن الإبداع في المعنى هو في إطلاق معنى بعد أن كان مقيداً بإبراهيم النبي (ع) وذريته من الإنبياء، فالشاعر بدا بآلية الاجترار بإيراد المعنى نفسه إلاّ أنه أدخل آلية ثانية هي الامتصاص، ليجدد المعنى ويعطيه الاستمرارية ويضفي عليه من الحياة بعد أن كان خاصاً لا عاماً.

أما في قول ابن حمديس:

**كأنّ عَصَا موسى النبيّ بضربها ـ تُريكَ من الأظلام مُنْغلقَ البحرِ**[52]

نلاحظ أن البيت يتداخل نصياً مع قوله تعالى: ﴿**فَأَوْحَيْنَا إِلى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**﴾[53]، فهنا يحاور الشاعر النص الغائب ويعيد إنتاجه من جديد؛ لأن عصا موسى استخدمها النبي (ع) من أجل الفرار من فرعون وجنوده

أما عصا الممدوح، فهي تعلق الظلام الذي هو الأسنة والسيوف وغبار الحرب.

ومن التداخل النص الديني قول ابن حمديس:

**مَـن كـانَ عنـهُ يُدَافِـعُ القَـدَرُ لـم يُـردِهِ جـنٌّ ولا بَشَـرُ**[54]

وهذا البيت يتداخل مع قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُّؤَجَّلاً**﴾[55]، يأخذ الشاعر المعنى القرآني ويعيد إنتاجه محوّراً إياه من خلال استعمال الاسلوب البلاغي المتمثل في الاستعارة التي خرجت للتجسيم فأعطى للقدر وهو معنوي قابلية الدفاع عن ممدوحه، والدفاع صفة إنسانية قائمة على الفعل الإنجازي، فهو من جانب مؤيد للنص الغائب ومن جانب آخر معيد إنتاجه في الوقت نفسه.

ومن التداخل النصي أيضا قول الشاعر:

**كفَى سيفُكَ الإسلامَ عاديةَ الكُفرِ وَصُلْتَ على العادينَ بالعزّ والنصر**

**وأصبحَ قولُ المبطلين مكذّبـــاً ومدّ لكَ الرّحمنُ في أمدِ العُمـــر**[56]

ونجد المعنى في البيتين متداخلا مع نصيين قرآنيين هما، الأول قوله تعالى: ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ**﴾[57]، والثاني قوله تعالى: ﴿**وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً**﴾[58]، فنرى الشاعر استخدم المعنى الأول أي النصرة لمن ينصره، أمر الله في البيت الأول وأكمل المعنى في الشطر الثاني من البيت الثاني ثم جاء بمعنى زهوق الباطل في الشطر الأول للبيت الثاني وزهوق الباطل هو نتيجة حتمية لمجيء الحق.

وقد استخدم الشاعر التكثيف أو الاختصار وهذه الآلية هي معاكسة لآلية التمطيط؛ لأنها تقوم على الإيجاز لذلك جاء الشاعر في البيتين بمعان موجزةٍ النصين القرآنيين.

وكثيراً ما استعمل شاعرنا أكثر من معنى واحد في تداخل نصه مع القرآن الكريم كاستعمال نصين قرآنيين أو أكثر ليعيد إنتاج معانيهما ليصبها في قالب جديد ومن ذلك قوله:

**ظمآنُ يستسقي أُجاجَ دموعِهِ مـــن عارضِ البردِ الشيبِ زلالا**[59]

فالنصان القرآنيان المتداخل معهما هذا البيت هما، أولا قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ**﴾[60]، والذي يؤكده نص آخر قريب من معناه في قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا**﴾[61]، وهنا استعمل الشاعر آلية التكثيف خير استعمال فجمع معنى النصين أو أكثر في معنى واحد، وخرج به إلى غرض الغزل، وشبه دموع الحبيب بالمطر ومذاقها بالزلال أو الفرات معتمداً على إيجاز معاني الأفكار السابقة، ليورد معناه الجديد في صورة جملية مبتدعة.

ومن الأمثلة الأخرى قول الشاعر في التداخل مع نص واحد:

**رفعـــوا عُيونَهُمُ إلى قمرٍ فَرَماهُـــمُ برُجُومـــهِ القمـــر**[62]

وهذا البيت متداخل مع النص قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا**

**رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ﴾**[63]، وهنا يجتر شاعرنا المعنى نفسه محاولا التحايل باستعمال لفظة (قمر) بدلاً من الصفة التي وردت في القرآن للكواكب فجاء معناه بنفس معنى النص القرآني تماماً كما أن ألفاظه جاءت نفسها، إلا أنه شبه أعداء الممدوح بالشياطين التي ترجم.

ومن أجمل التداخلات النصية الدينية التي ساقها لنا ابن حمديس في ديوانه في هذه الأبيات الثلاثة والتي تداخلت مع خمسة نصوص قرآنية، والأبيات هي:

**مَنْ تَوَسدتُ في حشايا حشاها وارتدى اللحمَ فيه والجلدَ عظمـــي**
**وضعتني كَـرها كمـــا حملتني وجرى ثديُها بشربي وَطُعمـــــي**
**شَرَحَ الله صَدرَها لي فأشهـــى ما إليها أحضانُ جسمي وضمّي**[64]

أما النصوص القرآنية المتداخلة مع هذه الأبيات فهي:

1. قوله تعالى: **﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾**[65].

2. قوله تعالى: **﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾**[66].

3. قوله تعالى: **﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾**[67].

4. قوله تعالى: **﴿وَانظُرْ إِلى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً﴾**[68].

5. قوله تعالى: **﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾**[69].

وهنا جاء التداخل النصي بجميع آلياته من اجترار وامتصاص وحوار وتكثيف وتمطيط، إلا أن الآليتين الأبرز في هذه الأبيات هما آليتا الامتصاص والحوار من خلال إعادة إنتاج المعنى وفق المعنى الجديد الذي قصده الشاعر والذي أراد به بيان عطاء الأم وحنانها وحنوها على أبنائها وأن الإنسان مهما فعل، فهو يبقى في دائرة التقصير عن الإيفاء بحقها، أما المعنى الذي أرادته الآيات في هذا الشأن فكان التأكيد على حق بر الوالدين معاً مع بيان خصوصية الأم وفضلها، وجاء معنى الشاعر متضمناً معنى الانشراح من آية أخرى وبناء اللحم على العظم من آية غيرها، ليقدم في النهاية ثمرة جديدة قطفها من معاني الآيات مجتمعة في كلٍ متكاملٍ ينماز بالإتقان والإبداع والإجادة.

## 2. التداخل النصي التأريخي:

من الطبيعي جداً أن نجد شخصاً بثقافة شاعرنا الواسعة المتنوعة قد ألمَّ في شعره بالجوانب التاريخية واعتمدها مادة لشعره، كونها جزءاً مهماً من المرجعية الثقافية المؤسسة لعقلية المبدع والمتلقي العربيين على السواء.

وقد تنوعت مصادر التداخلات النصية الحمديسية تاريخياً بين الإحالة إلى عوامل شخصية تاريخية، أي شخصيات تاريخية، وبين حوادث تاريخية، وبين أماكن تاريخية، وأخرى تاريخية مؤسطرة تحمل التاريخ الأسطوري، الذي كان حافلاً به العقل الجمعي العربي، ويمكن أن نحدد التداخلات النصية التاريخية في شعر ابن حمديس، والتي وردت في ديوانه، كما يأتي:

أ. التداخلات النصية للشخصيات التاريخية، ومن الأمثلة عليها قول الشاعر:

**من كلّ أروعَ في ذؤابةِ حميـــرٍ نـــــاهٍ بألسنـــــةِ القواض بِآمـــر**[70]

وهنا نجد الإحالة التاريخية في وصف ممدوحه أنه فرع من ذلك الأصل وهم عربُ حِمير تماشياً مع الرأي الذي يقول إن أصل العرب جاء من اليمن، وهنا يريد أن يؤكد أن الممدوح عربي أصيل، وهذا ما ينسجم مع سجاياه التي قدم لها قبل أن ينهي قصيدته بهذا البيت، وكثيراً ما استشهد الشاعر بشرف الرجوع إلى عرب حمير في وصفه لممدوحيه.

ومن الأمثلة الاخرى قول الشاعر في أصالة نسب الممدوح إلى عرب حمير أيضاً:

**من سادةٍ أخلاقُهُمْ وحلومُهُـــمْ تتعرضـــانِ بسائطـــاً وجبـــــالا**

**أقبالُ حِميَر لا يَردّ زمانُهُـــــمْ لهمُ بمـــــا أمرُوا بـه أقـــوالا**[71]

فنرى النص أيضا تداخل تاريخياً مع هؤلاء الأقوام الذين لا يرد زمانهم، ومن الشخصيات التاريخية الأخرى التي أوردها في شعره مسيلمة الكذاب:

**إذا جالَ في علم الغيوبِ حسبتهُ مسيلمةَ الكذابُ قـــام مـــن القبـــر**

**أباطيلُ تجري بالحقائقِ بينهـــم ـ من الكذبِ منهم لا عن السبعةِ الزهر**[72]

وهنا نجد التداخل النصي في شعر ابن حمديس مع قصة مسيلمة الكذاب وشخصه الذي عُرف بالكذب على الدعوة الإسلامية وادعائه النبوة كذباً.

ومن الشخصيات التي تداخل نصه معهم تاريخيا قيصر الروم وكسرى الفرس، ولا سيما كسرى الذي كثيراً ما ورد ذكره مرتبطاً بالمديح على لسان الشاعر فيقول:

**يرعى الرّعايا بعينٍ من حفيظتهِ ويبســـط العـــدلَ منـــه ليـــنٌ قاس**

**كأنّ سَورة كسرى عند سورتـــهِ سكونُ صورةِ كسرى وهـو في الكاس**[73]

فيشبه ممدوحه بكسرى الذي عرف عنه العدالة في شعبه، لذا يقول إنه يرعى شعبه أي الممدوح، وإنه بسط العدل فيهم، وإن سَورته كسورة كسرى، أي أن سطوته وغضبه وشدته هي نفسها عند كسرى، فإذا دققت النظر إلى الكاس فإنك لا ترى صورة الممدوح بل ترى صورة كسرى نفسه ساكنة في الكاس من غير حركة.

ومن الشخصيات الأخرى المتداخلة في نصه ما جاءت في قوله:

**أين من عمـــر اليبابَ، وجيلٌ لبس الدهرَ مـن جديس وطســـــم**

**وملوك مـــن حميرٍ مـلأوا الأر ض، وكانتْ من حكمهم تحت ختم**[74]

فنراه أحال تاريخيا إلى شخصيات من أقوام جديس وطسم وهم من عرب اليمن، وأكد قوله على تعزيز المدح بذكر الملوك من حمير والذين دانت لهم الأرض على حد قوله.

ب. التداخلات النصية مع الحوادث التاريخية، ومن أمثلة ذلك قوله:

**كأنّ سليمانَ ابن داودَ لـــم تُبحْ  مخافتُه للجنّ فـــي شَيدِهِ مَهْـــــلا**

**كأنّ عيونَ السحر نافذةٌ لـــــه  على كل بـــانٍ غايةً منه أو فضـلا**[75]

وهنا يطالعنا ابن حمديس بتداخل حادثة الجن مع سليمان النبي (ع) وكيف أن الجن كان يخاف منه وكأن عيون السحر مفتوحة له في تسخيره للجن في كل غاية يطلبها أو فضلٍ أراد نيله، كما أن الابيات لا تخلو من تداخل نصي واضح مع القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ..... يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ**﴾[76]، فالشاعر استعار قصة النبي سليمان لغرض المديح، ومن الطبيعي أنه قد تداخل في نصه مع القرآن الكريم؛ لأنه هو من أوقفنا على هذه القصة بتفاصيل دقيقة خلافاً لما وردت على ألسنة العرب قبل نزوله، وقد استعمل الشاعر آلية الاجترار مستوحياً القصة كما وردت في تاريخها من غير زيادة فيها.

ومن الحوادث التاريخية الأخرى يقف ابن حمديس في وصف من غدروا به ويصفهم بالخوارج الذين لمح ذكرهم ولم يذكرهم صراحة مستوحياً أكثر من حادثة تاريخية في أبياته والتي يستشهد منها بما يناسب المقام، إذ يقول:

**وأولو المكايدِ إنْ رأوا فُرصـــاً  ركبـــوا لهـــا العزمات وابتـــدروا**

**والمصطفى سمتـــــهُ كافـــرةٌ  لتضيـــرهُ، أو مسّـــهُ الضّرر**[77]

وهنا نجد الشاعر قد استحضر قصة النبي (ص) مع اليهودية التي سمته مستخدماً آلية التكثيف أو الاختصار؛ كون الشاعر مسترسلاً في ذكر الأمثلة عن أصحاب الغدر والمكائد والذين يمثل لهم أيضاً بأمثلة أخرى فيقول:

**وعـــلا معاويةٌ بـــذي شُطبٍ  عنـــد الصّبـاحِ لشَجّـــةِ غُـــدر**[78]

والشاعر لا يزال مسترسلاً بتداخلاته النصية للحوادث التاريخية وبنفس آلية التداخلية النصية وهي التكثيف؛ لأنه لا يكاد يمسُ المعنى حتى يتركه لغيره، ليؤكد على مرارة الغدر الذي طاله والذي شبههُ مرة بغدر اليهود وثانية بغدر الخوارج، ويقدم صورة جديدة للغدر والمكيدة وأن اصحابها سيطالون الفشل حتماً.

واستعمل التكثيف في تداخل النص بالحادثة التاريخية في قوله:

**بمعتقـــــةٍ قدّمـــتْ فـــأتـــتْ  للشَّـــربِ بلـــذّاتٍ جُـــــدد**

**سُبيـــتْ بسيـــوفٍ مـــن ذهـــب  مـــن أهـــل السبت أو الأحد**[79]

وتتداخل الأبيات نصياً هنا مع قصتي اليهود والنصارى وتحديدا سبب احتفاء كل منهم بيوم خاص فالسبت ليهود وهو الذي ذكر في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ**﴾[80]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿**وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ**﴾[81]، فنجد الأبيات متناصة مع هذه القصة التاريخية التي ذكرها القرآن الكريم، وتعتمد على آلية التكثيف أو الاختصار للاطراد في بيان معانيه كونه في محل وصف الخمرة لا في محل الحديث عن ديانة اليهود أو النصارى. أما محل ذكرهم في البيتين فجاء لجودة إعدادهم للخمور.

**ج.التداخلات النصية مع المكان التاريخي:**

ومن أمثلة ذلك في قول الشاعر:

**ذا كعبةُ الجودِ الذي كفُّهُ ركنٌ لنا لثمٌ به واستلام**
**لا تحسبوها حجراً إنّها من ساكبِ المعروفِ أختُ الغمام التمام**[82]

وهنا يحاور الشاعر المكان التاريخي ويعيد إنتاجه بتشبيه ممدوحه بالكعبة والركن الذي يلثم فيه الحجر الأسود، وإن المعنى الذي قصده الشاعر هنا تشبيه تمام الكعبة أو تمام جودها وبركتها وما فيها من حجر وما يصاحبه من شعائر، بتمام جود وكرم الممدوح فكلاهما (الكعبة، الممدوح) هما من ساكب المعروف أي الله سبحانه ليتم بهما النعمة على الناس.

وقد أخرج الشاعر المعنى الجديد من خلال أسلوب التشبيه بشكل مبتدع جديد، إذ شبه عاقلا بجماد في حين تأتي البلاغة باعتماد التشبيه من خلال التشخيص أي إعطاء الجمادات والحيوانات صفة الإنسان، والحديث على ألسنتها أو جعلها تتحلى بصفة التنفس أو الإبصار أو غيرها، أما تشبيه العاقل بالجماد، فجاء نحو تشبيه العاقل بالجبل أو السيل أو غيرها من الجمادات التي لها صفة القوة والبقاء، إلا أن شاعرنا هنا ساق تشبيه العاقل (الممدوح) بالجماد الذي يحمل صفة القداسة فهو ليس كجماد حاله باقي الجمادات بل إنه بيت الله الحرام، والتشبيه جاء نادراً لما للكعبة من الحرمة عند المسلمين، لذا جاء الشاعر بهذا المعنى الجديد من خلال الجرأة في التشبيه.

**د. التداخلات النصية مع الاساطير التاريخية:**

ومن الأمثلة على ذلك:

**فلا تهو الفتاةَ وأنتَ شيخٌ فأبعدُ وصلها من صيدِ عنقا**[83]

يتداخل البيت نصياً مع الأسطورة التاريخية لطائر العنقاء، والذي له اسم من غير وجود، ولكنه راسخ في الثقافة والذهنية العربية، على الرغم من اعتراف الجميع أنه أسطورة من نسج

الخيال. الشاعر هنا يؤكد معناه دالاً على استحالة الوصال بين الشيخ الكبير والفتاة من طرف الفتاة لا من طرف الشيخ مستعملاً التكثيف في صواب المعنى المقصود، ومن الأمثلة على ذلك قول ابن حمديس:

**عطبتْ بــه مُهّجُ الجبابــرة الإلى بَصُروا بكسرى في الزمان وقيصرا**[84]

وهنا نراه متداخلا مع أسطورة الجبابرة التاريخية والذين ذكر لنا القرآن الكريم من أمثلتهم النمرود، والذي لم يصرح بل ورد في معرض الحديث عن النبي إبراهيم (ع)، أما في ثقافة الشعوب الأخرى كاليونان والرومان، فإن تسمية الجبابرة لا تدل على أشخاص معينين بل تأتي للدلالة عليهم بأن لهم قوى خارقة بوصفهم متسلطين عتاة لا يمكن هزيمتهم، ثم يعطف الشاعر على ذكر شخصيات تاريخية محددة بقوله (كسرى) و(قيصرا)، وقد وقف عند هذين الملكين أيما وقوف في بيان معنى القوة والسطو (مال الملك ومجده).

ومن الأمثلة الأخرى قوله:

**فكأنّمــا زخرتْ غواربُ دجلـــــةٍ وكأنمــا نُشرتْ وشائعُ عبقـــرا**[85]

وعبقر موضع في الجزيرة العربية كان العرب يعتقدون أنه موضع الجن ومسكنهم وينسبون إليه كل عجيب وعمل خارق جيد فيستعمل التكثيف في تعجبه من فعل الممدوح وكثرة عطائه من ذهب وفضة ويشبهه بكثرة غوارب نهر دجلة.

**التداخل النصي الشعري**

لقد ذكرنا سابقاً فضل ابن حمديس وكثرة اطلاعه وتنوع مصادره الثقافية، التي تتضح من خلال ما تقدم، وهنا نقف على مصادر ثقافته الشعرية وتداخلاته النصية مع الشعراء، ولاسيما الفحول منهم.

ومن التداخلات الشعرية النصية في شعر ابن حمديس قوله:

**فهــمُ هــمُ أسـدُ الأســود براثناً وأرقّ أبنـــاء الملـــوكِ نعـــالا**[86]

وهذا البيت متداخل نصياً مع بيت النابغة الذبياني الذي يقول فيه في مدح الغساسنة:

**رقاق النعال طيب حجراتهـــــم يحيون بالريحان يوم السباسب**[87]

وكذلك البيت الذي قبله أيضاً:

**إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهدي بعصـــائب**[88]

فجمع الشاعر معنى البيتين في بيت واحد مجتراً له من غير تجمل في المعنى القديم، بل أخذ معنى البيت الثاني والذي يعني الشجاعة ووصف ممدوحيه بالأسد.

ومن الأمثلة الأخرى قول الشاعر متداخلا نصياً مع النابغة أيضاً، إذ يقول:

**يردّ عن الضرب الحديدَ مثلما ويثني عن الطّعنِ الوشيجَ مُقصفا**[89]

وهو متداخل مع بيت النابغة الذي يقول فيه:

**ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهــن فلــول مـــن قراع الكتائب**[90]

وابن حمديس هنا استعمل آلية الحوار في تداخل نصه مع نص النابغة، إذ أخذ المعنى كمحاورٍ له وزاد فيه وجمله، إذ جعل السيف مقصفاً أي أن نهاياته مثلمة أيضاً من الطعن، فضلا عن المعنى السابق له في نص النابغة الغائب.

ومن تداخل نصوص ابن حمديس مع نصوص النابغة أيضا ًقوله:

**أضحتْ أيادي يَديهِ وهي تُؤنسُـهُ إذ أوحشتـــهُ مَعاليــهِ مـــن النُّظرا**

**مؤيـد بمضـــاءِ الــرأي يحمـدُهُ لا يحُمَدُ السيف الا ماضياً ذكــرا**[91]

والبيت هنا متداخل مع بيت النابغة:

**خطا طيف حجن في حبال متينة تمــد بهـــا أبـــد إليـــك نوازع**[92]

والتمطيط هو الآلية المعتمدة في أبيات ابن حمديس، إذ يعمد إلى معنى جديد وهو العطاء والكرم والذي يستأنس به الممدوح إذا استوحش مقدماً معنى جديداً مبتكراً.

أما عن تداخل نصوص شاعرنا مع امرئ القيس فقوله:

**ومنجردٍ كالسيد يُعْملُ أرضـــهُ فنبني سماءً فوقه سمكها النّقعُ**[93]

وهذا البيت متداخل مع بيت امرئ القيس:

**وقد أغتدي والطيرُ في وكناتها بمنجــرد قيـــد الأوابـــدِ هيكل**[94]

وكذلك هو يتداخل مع بيت بشار بن برد:

**كأن مثار النقع فوق رؤوسنـــا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبـــــه**[95]

وهذا البيت ينسبه البعض إلى امرئ القيس والحق أنه لبشار كونه واردا في ديوانه ولم يرد ذكره في ديوان امرئ القيس.

فتداخل الشطر الأول لابن حمديس مع بيت امرئ القيس معتمداً فيه آلية التكثيف، أما الشطر الثاني من بيت ابن حمديس فهو متداخل مع بيت بشار بن برد واعتمد فيه آلية الحوارِ أي محاورة المعنى الوارد في البيت وإعادة صياغته بمعنى جديد لبقاء ديمومته واستمراره معا.

ومن التداخل النصي مع امرئ القيس أيضا في قوله:

**كأنّ انهزام الليل بعد اقتحامِهِ تموجُ بحرٍ ناقضَ المد بالجزر**[96]

يتداخل مع امرئ القيس الذي يقول فيه:

**وليل كموج البحر أرخى سدولـــه علــيّ بأنواع الهمـــوم ليبتلـــي**[97]

وهنا نرى آلية التمطيط إذ يأخذ شاعرنا المعنى بلطيف الحيلة ويعيد إنتاجه ويولده نصاً جديداً مشابها لشكل الأول مغايراً لمعناه تماماً، فليل امرئ القيس طويل مسدل لا يكاد ينقضي، وليل ابن حمديس مهزوم بعد أن حاول اقتحام ظواهره فهو يأخذ صفة الذي يحتار بين الأقدام

أو الهرب من جنبه والذي يشبهه ابن حمديس بتناقض المد والجزر فحين ينوي أن يصول على ابن حمديس لاتطاوعه نفسه فيتراجع مهزوماً.

ومن التداخل النصي لابن حمديس مع عنترة بن شداد قوله:

**وكأنّ أطـــرافَ السيوف نواجـــذٌ يحرقنَ في شدق الحِمام الكاشـــر**[98]

وهنا يتداخل البيت مع بيت عنترة بن شداد إذ يقول:

**فوددتُ تقبيـــل السيوف لأنهـــا لمعـت كبـــارق ثغرك المتبســمِ**[99]

وهنا أيضاً تجد لطيف الحيلة عند ابن حمديس فيحور البيت عن عنترة ويصرفه إلى معنى من خلال تمطيطه ليخرج معنى مبتكراً بحلة مغايرة إلا أنها ليست في سياق الرقة والغزل، بل في وصف اشتداد الحرب وكثرة القتال، فالمعنى عند ابن حمديس هو أن النواجذ تلتهم القتلى، وليست ثغر عبلة الباسم.

ومن التداخلات مع الشعراء الجاهليين، التداخل مع شعر الأعشى ميمون وذلك في قول الشاعر:

**حبذا فتيانُ صدقٍ أعرســـــوا بعـذارى من سُلافاتِ الخمـــوزْ**[100]

وهو متداخل مع قول الأعشى:

**وكأس كعينِ الدّيكِ باكرتُ حدَها بفتيانٍ صدقٍ والنواقيس تضربُ**[101]

والآلية التداخلية النصية هنا وقعت على شطر واحد فقط من بيت الاعشى وهو (وكأس كعين الديك باكرت حدها)، وهي آلية التمطيط التي حُور فيها المعنى من وصف الخمرة بعين الديك إلى معنى وصفها بعذارى، مستعملاً أسلوب الاستعارة المكنية والتي خرجت إلى التجسيم، ولا أنسى أيضاً آخر كلمة من الشطر الأول في بيت ابن حمديس وهي (أعرسوا) والتي خرجت إلى معنى مغاير لمعنى الأعشى، فالأول جاء مشبها بالفرس أي في بيت ابن حمديس، والثاني كان محدداً لطول المكوث في مجلس الخمر حتى قرعت الكنائس في الصباح.

أما تداخل نص ابن حمديس مع نص المتنبي فهو من الكثرة بمكان وهذا يعكس تأثر شاعرنا بهذه القامة الكبيرة التي لا يمكن أن يذكرالشعر دون أن تكون حاضرة، فالمتنبي شاغل الدنيا؛ لذا كان لابن حمديس من تداخل النصوص مع المتنبي ما يفوق الإحصاء كثرة، ومن امثلة ذلك قوله:

**سُعودُكَ فـــــي نيلِ المُنى لا توقفتْ من اللهِ تجري، لا من الشمس والبدر**[102]

وهذا البيت يتداخل نصيا مع بيت المتنبي:

**أبـــــدا أقطعُ البـــــلادَ ونَجمـــي فـــي نُحـــوس وهمتـــي في سُعُودِ**[103]

فيحاور ابن حمديس بيت المتنبي من جانب، وذلك في دعواه للمدوح بدوام السعود، إلا أنه يعيد إنتاج المعنى الآخر في بيت المتنبي فيقول أن السعود من الله وليس للشمس والبدر أي

تأثير في ذلك منطلقاً من تكذيب التنجيم خلافاً للمتنبي الذي يؤيد تأثير النجوم في السعود أو النحوس لا عن إيمان بالتنجيم، بل ليخرج إلى معنى الفخر بنفسه، وأنه يتحدى ذلك النحس ويحوله إلى سعد لا نحس فيه.

ومن الأمثلة الاخرى للتداخل النصي قول ابن حمديس:

**في جحفلٍ يَغْشَى الوقائعَ زاحفـــــاً بسمـــــاءِ أجنحـــــة وأرضِ حوافـــر**[104]

ليتداخل هذا البيت مع نص المتنبي:

**خميس بشرق الأرض والغَرب زحفُهُ وفي أذنِ الجوزاءِ منـــــهُ زَمـــــازِمُ**[105]

والآلية التداخلية النصية هنا هي الامتصاص، إذ أخذ ابن حمديس معنى المتنبي من غير أن ينفي أصله بل من أجل إضفاء الاستمرارية، فدلالة المعنيين على كثرة جيش الأعادي وأنه يملأ الأرض ويغشى السماء، إلا أن معنى المتنبي جاء ليدل على كثرة أصوات الزحف والتي تصل إلى الجوزاء وهي برج في السماء، ومعنى ابن حمديس جاء أشمل وأوسع من معنى المتنبي لأنه جعل السماء أجنحة للجيش والأرض له حوافر وكأنه يصوره بحصان طائر دلالة في المبالغة على هول الجيش وكثرة عدده، من هنا نجد أن آلية الامتصاص أعطت لمعنى المتنبي الاستمرارية لإيمان ابن حمديس بجمال هذه الصورة الشعرية فسعى إلى تخليدها لا نقضها.

ومن الأمثلة الأخرى على تداخل نصي مما قاله ابن حمديس:

**ضحكتْ تُقهقهِ والكمـــاةُ عوابسٌ بالضـــربِ فـــوق فوانسٍ ومغافـــر**[106]

والبيت متداخل مع قول المتنبي في سيف الدولة الحمداني:

**تمر بكَ الأبطالُ كَلمى هزيمـــةً وَوَجهـــكَ وضُـــاحُ وثَغرك باســـمُ**[107]

فاجتر ابن حمديس في تداخل نصه بنص المتنبي للمعنى نفسه، ولم يستطع أن يتجاوزه إلى أي إبداع، سوى أنه غير في بعض الألفاظ والتي جاءت كظواهر شكلية أكثر تقديمها معنى جديدا أو مبتدعا، وهذا يدل على إعجاب ابن حمديس بهذا المعنى، وشهادة منه بعدم قدرته على تجاوزه.

ومما تقدم من أمثلة على تداخل شعر الشاعرين، نرى أن ابن حمديس قد تأثر كثيراً بالمتنبي الذي ملأ صوته الفضاء وأخذت أبياته بين الناس مأخذ الأمثال، بل إن بعضها أصبحت أمثالاً. أما تداخل نصوص ابن حمديس مع شعراء عباسيين آخرين فقد ذكرنا منهم بشار والمتنبي، وسنذكر أيضاً تداخل نص ابن حمديس مع أبي تمام، إذ يقول:

**ينوبُ منابَ السيف من الروع ذكـرُهُ فما ذكرٌ ماضٍ يسيلُ مـــن الذكرِ**[108]

يتداخل مع بيت أبي تمام الذي يقول فيه:

**فتىً ماتَ بين الطَعنِ والضَربِ ميتةً تقومُ مقام النَصرِ إن فاتهُ النصرُ**[109]

فامتص ابن حمديس معنى أبي تمام وخرج به من الرثاء إلى غرض المديح، فالمعنى الأول

عند أبي تمام هو أن المرثيّ محمد بن حميد الطائي . وهو أحد قادة الجيش الذي استشهد في الحرب ، وان ميتته تعدُّ نصراً ؛ فهو لم يقتل مهزوماً بل قتل متقحمٌ صفوفَ الأعداء من غير خوف ولا وجل، إلا أن المعنى الذي خرج اليه ابن حمديس أن ذكر الممدوح عند أعدائه يروعهم كما يروعهم السيف المسلط على رقابهم، وهذا السيف في غاية المضاء كناية عن شدة الخوف والرهبة عندهم.

ومن التداخل بين ابن حمديس وابن المعتز ما قاله ابن حمديس:

**وَشَربةٍ من دم العنقودِ لـو عُدمِتْ لـم تلفِ عيشاً له صفوٌ بلا كدر**(110)

ويتداخل البيت مع بيت ابن المعتز:

**عللاني بصـــوت نـــــاي وعود واسقيـــاني دم ابنــة العنقـــود**(111)

فيحاورابن حمديس نص ابن المعتز مؤكداً عليه لجماله وموقعه في نفسه، ويعيد إنتاجه ليدل على استمراريته في تأكيده أن الخمرة لو عدمت فإن العيش الذي ينماز بالصفو سيتكرر زيادة في معنى ابن المعتز الذي كان يتعلل بالشرب.

## الخاتمة

من الطبيعي أن نجد في ديوان ابن حمديس صاحب الثقافة المتنوعة الكثير من التداخلات النصية والتي تبين عقلية هذا الشاعرالفذ، فوقفنا في البحث على بيان هذه التداخلات النصية التي منها تداخلات دينية مع القرآن من خلال آليات التداخل النصي من اجترار وامتصاص وحوار وتمطيط وتكثيف، وكذلك بيان التداخل النصي الذي جاء مطابقاً للنص الغائب إذ جاءت فيه التداخلات حرة في استحضار المعنى كاملاً لإعجاب ابن حمديس به وأخرى من خلال استحضار نصف المعنى وقلب المعنى المتبقي أو الخروج به من غرض إلى غرض كأن يكون المعنى الأصلي جاء في الفخر فيخرج به إلى الغزل أو غيره، وثالثة من خلال امتصاص المعنى الأصلي وتقديمه بحلةٍ جديدة تحمل في طياتها قابلية ابن حمديس للابتكار والإبداع.

ووجد البحث أن التداخل النصي التاريخي، جاء متنوعا في التداخل مع الشخصيات التاريخية والحوادث والأساطير التاريخية والأماكن التاريخية، أما فيما يتعلق بتداخل النص مع الشعر، فمن أبرزما توصل إليه البحث أن ابن حمديس تأثر بشكل كبير بأشعار الفحول من الشعراء الجاهليين والإسلاميين وصولاً إلى العباسيين، فضلاً عن أن البحث وجد قابلياتٍ فنية وإمكانيات توفيقية وإبداعية لابن حمديس مع أشعار هؤلاء الشعراء.

وأخيراً، فإن حجم التداخلات النصية الهائل في ديوان ابن حمديس يؤكد على شاعريته، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا يدعونا هذا الكم الكثير إلى إغفال شعرية الشاعر وأفكاره وصوره ومعانيه المبتكرة والتي هي حصيلة ثقافته الشخصية والبيئة التي عاش بها.

## الهوامش

1. لسان العرب، ابن منظور،15 /1343، مادة (دخل).
2. جمهرة اللغة ، ابن دريد ،ج1 ،مادة (نص).
3. ينظر: التناص وإشاريات العمل الأدبي، صبري حافظ : 11 .
4. تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، م4 : 28 .
5. التناص (تداخل النصوص) في شعر خليل حاوي، رمضان البالاني: 7.
6. ينظر : سيميائية النص الأدبي، أنور المرتجي:42.
7. علم النص : جوليا كرستيفيا ،ترجمة : فريد زاهي : 21.
8. المصدر نفسه:21.
9. نظرية النص ، رولان بارث ،تر :محمد خير البقاعي : 34.
10. تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، محمد فتاح : 12.
11. ينظر : تحليل الخطاب الشعري ، محمد مفتاح : 120.
12. ينظر : في اصول الخطاب النقدي الجديد ، مجموعة مؤلفين ،تر: احمد الميداني : 105.
13. ينظر : المصطلح النقدي ، عبد السلام المسدي: 119.
14. ينظر: التطبيق الصرفي : عبده الراجعي: 38.
15. الشعرية : تودورف ، تر : شكري المبخوت ورجاء سلامة ، ط1 : 86.
16. ينظر: البيان والتبين ، الجاحظ ط2: 76.
17. ينظر : محاضرات في تاريخ النقد عند العرب ،ابتسام مرهون وناصر حلاوي ،ط1 : 286 . 269.
18. اصول مصطلح التناص في النقد العربي القديم ، فاضل عبود التميمي : 70.
19. ديوان عنترةبن شداد ، تحقيق : فوزي عطوي ، ط1 ، 1968.
20. ديوان امرؤ القيس ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم : 114.
21. شرح ديوان كعب بن زهير ، تحقيق علي فاعور،ط1 : 26.
22. عيار الشعر ، ابن طباطبا العلوي : 16 .
23. ينظر: تحليل الخطاب الشعري ، محمد فتاح : 121 .
24. ينظر:علم النص ، جوليا كرستيفا: 79-78.
25. مدخل لجامع النص ، جيرار جينيت : 90.
26. اودنيس منتحلا ، كاظم جهاج ، ط2 : 54.
27. ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب ، محمد بنيس : 235.
28. التناص في شعر العصر الاموي ، بدر ان البياتي : 54.
29. ظاهر الشعر المعاصر في المغرب ، محمد بنيس : 253.
30. التناص في شعر العصر الاموي : 253.
31. ينظر : ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب : 253.
32. المصدر نفسه : 253.
33. ينظر:تحليل الخطاب الشعري،محمد مفتاح : 125 . 127.
34. تحليل الخطاب الشعري،محمد مفتاح: 127.
35. مشكلة التناص في النقد الادبي المعاصر ، محمد اديوان: 46 .
36. الديوان : 3 . 16.

37. المصدر نفسه: 188.
38. النور: 40.
39. الديوان : 190.
40. المرسلات : 32.
41. الديوان : 199.
42. الرحمن : 70.
43. يوسف : 31.
44. الديوان : 202.
45. البقرة: 74.
46. النور : 35.
47. الديوان : 202.
48. الاسراء : 78.
49. الانعام : 96.
50. الديوان : 204.
51. مريم :50.
52. الشعراء : 84.
53. الديوان : 215.
54. الشعراء :63.
55. الديوان : 218.
56. ال عمران :145.
57. الديوان : 224.
58. الحج:40.
59. الاسراء : 81 .
60. الديوان: 389.
61. الفرقان : 53.
62. الاحقاف : 24.
63. الديوان : 219.
64. الملك: 5.
65. الديوان : 478.
66. لقمان: 14.
67. الاحقاف : 15.
68. الانشراح : 1.
69. البقرة :259.
70. المؤمنون :14.
71. الديوان : 211.
72. المصدر نفسه : 288. 289.
73. المصدر نفسه: 224.
74. المصدر نفسه: 283.

75. المصدر نفسه: 478.
76. سبأ : 13.
77. الديوان:379.
78. المصدر نفسه:219.
79. المصدر نفسه:219.
80. المصدر نفسه : 159.
81. البقرة : 65 .
82. الاعراف : 163.
83. الديوان: 461.
84. المصدر نفسه : 339.
85. المصدر نفسه : 235.
86. المصدر نفسه : 235.
87. المصدر نفسه : 389.
88. ديوان النابغة الذبياني : 16.
89. المصدر نفسه : 14.
90. ديوان ابن حمديس:318.
91. ديوان النابغة الذبياني : 15.
92. الديوان : 211.
93. ديوان النابغة الذبياني : 15.
94. الديوان :310.
95. ديوان امرئ القيس : 74.
96. نظرات في ديوان بشار :41.
97. ديوان ابن حمديس : 215.
98. السبع المعلقات :29.
99. ديوان ابن حمديس: 210.
100. ديوان عنترة بن شداد:84.
101. ديوان ابن حمديس:197.
102. ديوان الاعشى :30.
103. ديوان ابن حمديس :
104. شرح ديوان المتنبي : 272.
105. ديوان ابن حمديس: 210.
106. شرح ديوان المتنبي :272.
107. ديوان ابن حمديس: 210.
108. المصدر نفسه : 216.
109. شرح ديوان ابي تمام: 313.
110. ديوان ابن حمديس : 105.
111. ديوان ابن المعتز:181.

## المصادر والمراجع


- **القرآن الكريم**

1. أصول مصطلح التناص في النقد العربي القديم، فاضل عبود التميمي، مجلة الموقف الثقافي، 2000م.
2. أدونيس منتحلاً، كاظم جهاد، مطبعة مدبولي ، القاهرة ، ط2 ، 1993.
3. البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ ، تح: عبد السلام هارون ، مكتبة الخاتمي ، مطبعة لجنة التاليفوالترجمة والنشر ، القاهرة ط2 ، 1960.
4. تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد ، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ،منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت.
5. تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) ، د. محمد فتاح ،دار التنويرللطباعة والنشر ، بيروت ، 1985.
6. تداخل النصوص ، جورج روبريش ، تر:الطاهر الشيخاوي ورجاء بن سلامة ، الحياة الثقافية ، تونس ، ع50 ، 1988.
7. التطبيق الصرفي ، د.عبدة الراجحي ، دار المعرفة الجامعية ،الاسكندرية ، مصر ، د.ت.
8. التناص (تداخل النصوص)في شعر خليل حاوي ، رمضان البالاني ، رسالة ماجستير ، كلية التربية ، جامعة الانبار ، 1998.
9. التناص في شعر العصر الاموي ، بدران البياتي، اطروحة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة الموصل ، 1996.
10. التناصواشاريات العمل الادبي ، د. صبري حافظ ، مجلة الف ، القاهرة ، ع4 ، 1984.
11. جمهرة اللغة ، ابن دريد ابو بكر محمد بن حسن الازدي البصري ، دار صادر ، بيروت ، د.ت.
12. ديوان ابن المعتز، تح: كرم البستاني، دار صادر ، بيروت ، د.ت.
13. ديوان ابن حمديس ، صححه وقدم له : د. احسان عباس ، دار صادر ، بيروت.
14. ديوان الاعشى الكبير ميمون بن قيس ، شرح وتحقيق : محمد بن حسين ، مكتبة الاداببالجمايز ، الاسكندرية،1950.
15. ديوان المتنبي ، دار بيروت للطباعة والنشر ، د. تحقيق ، بيروت ، 1983.
16. ديوان النابغة ، عناية : حمدوطماس ، ط2 ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، 2005.
17. ديوان امرئ القيس ، تح :محمد ابو الفضل ابراهيم ، ط2 ،دار المعارف ، مصر ، 1964.
18. ديوان عنترة بن شداد ، تح: فوزي عطوي ، ط1 ، الشركةالبنانية للكتاب ، بيروت ، 1968.
19. ديوان كعب بن زهير ، تح : علي فاعور ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1987 م.
20. السبع المعلقات ، ابي عبدالله الحسين بن احمد الزوزني لجنة التحقيق في الدار العالمية ، تح : الدار العالمية للنشر، 1993.
21. سيميائية النص الادبي ، انور المرتجي ، مطبعة افريقيا الوسطى ، الدار البيضاء ، 1987م.
22. شرح ديوان ابي تمام ، الاعلم الشنفري ، تح: ابراهيم فادن ، قدم له وراجعه : محمد بشريفة ، ج2 ، منشورات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية.
23. شرح ديوان المتنبي ، تح : عبد الرحمن البرقوقي ، ج2 ، الطبعة الرجمانية ، مصر ، 1930.

24.شرح ديوان عنترة ، الخطيب التبريزي ، قدم له ووضع هوامشه وفهارسة ، مجيد طراد ، دار الكتاب اعربي ، ط1، بيروت ، 1992.
25.الشعرية ، تزيفتانتودورف ، تر : شكري المبخوت ورجاء سلامة ، دار طوبقال للنشر ،الدار البيضاء،ط1 ،1987.
26.ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب (مقاربة بنيوية تكوينية) ،محمد بنيس ، ط2 ، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت ،1985.
27.علم النص ،جوليا كرستيفا ، تر: فريد زاهي ، مراجعة عبد الجليل ناظم ، دار طوبقال ، الدار البيضاء ، 1991م.
28.في اصول الطاب النقدي الجديد ، مجموعة مؤلفين ، تر: احمد المديني ، ط1 ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1987.
29.عيار الشعر، محمد بن احمد ابن طباطبا العلوي ، تح: عباس عبد الساتر ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت، 1982.
30.القاموس المحيط ، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، دار الجبل ، المؤسسة العربية للطباعة والنشر.
31.محاضرات في تاريخ النقد عند العرب ، د. ابتسام مرهون وناصر حلاوي ، منشورات العطار، 2014.
32.مدخل لجامع النص ، جيرار جينيت ، تر: عبد الرحمن ايوب ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد.
33.مشكلة التناص في النقد الادبي المعاصر، محمد اديوان ، الاقلام ،6،5،4 1995م.
34.المصطلح النقدي، د. عبد السلام المسدي، مطبعة كويتب، 1994م .
35.نظرات في ديوان بشار بن برد ، د. شاكر الفحام ، مطبوعات مجمع اللغة العربة بدمشق.
36.نظرية النص، رولان بارت، تر: محمد خير البقاعي، مركز النماء القومي ، بيروت ، 1989م.

# باب الفلسفة

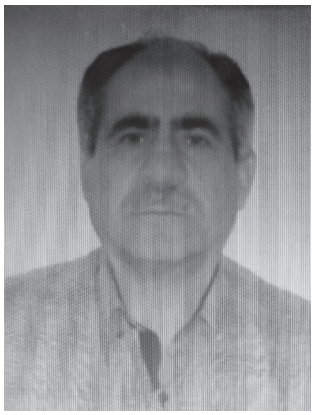

# البنوك اللاربوية . دورها . وإشكالياتها

**الدكتور علي مشيك**
**أ.م.في الجامعة اللبنانية كلية الآداب /قسم الفلسفة**
mcheik166@gmail.com

In this research, we discuss the subject of univested banks, focussing at its importance, role, and natural work. In addition to the existed problems these univested banks are still in need to develop its regulations that fits the existed situation.This research is not enough alone to put the required solutions.So,we need more and more researches and discussions about these subjects to find them.

نعالج في هذا البحث موضوع البنوك اللاربوية مسلطين الضوء على أهميتها ودورها وطبيعة عملها بالإضافة إلى الإشكاليات القائمة، فهي بحاجة لتطوير أنظمتها بما يتلاءم مع متطلبات الواقع القائم. إن هذا البحث لا يكفي وحدَه لوضع الحلول المطلوبة بل هناك حاجة لكثير من الأبحاث حول تلك الموضوعات.

**أ- مقدمة: أهمية البنوك اللاربوية ودورها**

إن الهدف الأساسي الذي دفعني إلى اختيار هذا البحث، هو ما رأيته من أهمية البنوك اللاربوية، في المجتمعات النامية. فتسليط الأضواء على هذه المؤسسات، قد يفيد في تحسين ظروف عملها، لتستمر في تقديم خدماتها؛ ليس فقط على صعيد المجتمعات الإسلامية، بل لكافة المجتمعات النامية، حيث هي بأمس الحاجة لوجود مثل تلك المؤسسات في بلدانها.

آثرت أن أعتمد الأسلوب الموضوعي، مبيّنا الإشكاليات القائمة، حول طبيعة عمل تلك

البنوك، ومسلطا الأضواء على مدى ما تقدّمه من خدمات للمجتمعات النامية.

صحيح أن سبب وجود تلك المؤسسات يعود بالأساس لتلبية حاجات داخل المجتمعات الإسلامية، وقد استندت إلى أسس دينية وعقائدية، إلا أن لها فوائد جمّة في معظم مجتمعات العالم، سواء أكانت إسلامية أم غير إسلامية. لذلك، من الضروري تبيان الأسس العلمية التي قد تستند إليها تلك المؤسسات، في سبيل بقائها واستمراريتها وتفعيل دورها وإسهامها في تحقيق التنمية المطلوبة لكل المجتمعات النامية.

والبنك اللاربوي هو كناية عن مؤسسة مالية، لا تختلف عن البنوك الربوية في شيء، من ناحية الإيداع والسحب والتنظيم الداخلي. فهي لا تختلف إلا من حيث نسبة الفوائد المقررة. كما أن البنك اللاربوي يحتاج لمديرية تختص بالمضاربة. فهو يركز بشكل أساسي على المضاربة، في حين أن البنوك الربوية تعتمد على الفوائد التي تجنيها من الزبائن.

تنتشر البنوك اللاربوية في العديد من الدول الإسلامية، وذلك بهدف المساهمة في بلورة نظامها الاقتصادي، ليكون مستقلا عن الاتجاهات الرأسمالية والاشتراكية، مستمدا دائما مشروعيته من القرآن الكريم، بما يتضمنه من مفاهيم اقتصادية.

جاء هذا النظام جامعا بين مبادئ الرأسمالية ومبادئ الاشتراكية. ومن أهم أسسه الحرية الاقتصادية المشروطة، والملكية الخاصة والتوجيه والتأميم، والبنوك اللاربوية.

لا شك أن هذه الظاهرة قد تزايدت في البلدان الإسلامية، في السنوات الأخيرة. وذلك عائدٌ لما تلبيه من حاجات المواطنين، بفوائد زهيدة نسبة للفوائد المرتفعة التي تفرضها البنوك الربوية.

هذه المؤسسات المالية قد تتطلبها المجتمعات النامية، وخاصة لمساعدة الفئات الاجتماعية ذات الدخل القليل. إنها حاجة ملحّة لمجتمعاتنا، لتيسير الحاجات وتأمين الأموال المطلوبة. إن تلك الأموال قد تظهر أهميتها في تأمين فرص عمل لغير الميسورين، وللعديد من العاطلين عن العمل. فهي تساعد في تخفيف حدّة البطالة، كما أنها تساعد في تنشيط حركة الإنتاج، وفي زيادة الدخل القومي.

إن توفير رأس المال من شأنه تحفيز النمو وزيادة كمية الإنتاج وتحسين نوعيته، ولقد لعبت رؤوس الأموال الدور الأساسي في نشوء الرأسمالية الحديثة".[1]

يؤكد الاقتصاديون على أهمية رأس المال ودوره في تنشيط حركة الإنتاج. فهو يفيد في المحافظة على الرأسمال الوطني وتجديده، بالإضافة إلى أنه "ينشئ رأس مال جديد هو الأساس في تقدم الشعوب ورقيها".[2]

وغالبا ما تلجأ الدول النامية إلى الاقتراض من المصارف الأجنبية للقيام بمشاريع إنتاجية وخدماتية. وتستخدم تلك القروض "في زيادة الطاقة الإنتاجية للبلدان المقترضة وذلك بتجهيزها برؤوس الأموال وبالمعدات الضرورية لتحقيق الإنماء الاقتصادي، ما يؤدي عند نجاح هذه

العمليات إلى زيادة كمية الادخارات الداخلية وبالتالي إلى زيادة الإنتاج والدخل".[3]

يرى رئيس مجلس إدارة شركة صمويل مونتيغ، السير مايكل باليزر، أن الطلب على تمويل الأسواق المحليّة يتزايد، وأن المصارف والمؤسسات المالية "تلعب دورا كبيرا في التنمية الاقتصادية العربية ولكن القيام بهذا الدور، بصورة ملائمة، يجب أن يتابع بتوسيع خدماتها وزيادة خبرتها من خلال المبادلات المالية من أجل تطوير أسواق مالية ناشطة والمحافظة عليها في المنطقة".[4]

تلك المؤسسات، في المجتمعات النامية، قد تساهم بشكل أساسي، في تحقيق التنمية، بكل أشكالها الاقتصادية والبشرية. فهي تؤمّن الأموال المطلوبة لسدّ الحاجات الاستهلاكية أو الحاجات المطلوبة للمؤسسات الإنتاجية.

على صعيد الاستهلاك، تزيد هذه المؤسسات من كميته، بالإضافة إلى تأمين حاجات متنوعة، وقد تذهب تلك الأموال في سبيل التعليم، وفي سبيل تقوية المهارات. إن تلك الأموال مطلوبة، حتى لو اقتصرت على تأمين الحاجات الغذائية. فهناك سوء تغذية، تعاني منه المجتمعات الفقيرة، وهو قد يؤدي بدوره إلى انتشار الأمراض وزيادة حدّة الفقر.

تزداد الحاجة في المجتمعات النامية لتحقيق التنمية، وقد تتوسع "ظاهرة الانفجار السكاني المنتشرة في العديد من البلاد العربية ما يحتم القيام باستثمار كبير إذا أردنا أن نرفع مستوى الدخول الفردية".[5]

التنمية الاقتصادية تتطلب "رفع مستوى المعيشة للأغلبية الساحقة من السكان، وهي حتمية بدونها لا تستقر التنمية".[6]

التنمية المطلوبة تتطلب تنمية اقتصادية وتنمية بشرية مستدامتين. وهي تحتاج لدراسات وتخطيط وقيامِ مشاريع إنتاجية تشمل سائر القطاعات، كالقطاع الزراعي والتجاري والصناعي والخَدَميّ أو سواها من القطاعات. وهذا كله يفتقر إلى الأموال اللازمة لتوظيفها في الاستثمار. والدول النامية تعاني بسبب ذلك من الديون التي تتراكم من وقت لآخر.

يؤكد محمد أبو مندور ، مدير مركز الدراسات الاقتصادية الزراعية في مصر سابقا، أن قطاع الزراعة في معظم البلدان العربية يواجه عوائق أمام توفير الاستثمارات اللازمة، "بزيادة عبء الدين الخارجي وخدماته واتساع فجوة الموارد المحلية والعجز في موازنة الدولة من الموارد الحقيقية مقارنة بالإنفاق الجاري".[7]

ورغم عمل بعض الدول على جلب الاستثمارات القومية، إلا أن التنمية الزراعية لم تنل "إلا نحوًا من 16 بالمئة من إجمالي القروض المقدمة من الصناديق العربية... ورغم ذلك، فإن القروض وجهت لمشروعات سريعة الربح توفر لها البنية الأساسية ولم يعط لمشروعات البنية الأساسية الاهتمام الكافي.[8]

هكذا قد تستخدم تلك الأموال المتوفرة، في تحفيز كافة القطاعات الإنتاجية، وهذا ما يساهم في تحقيق تنمية، وإيجاد فرص عمل خاصة لأبناء الطبقة الفقيرة الذين يجلسون في منازلهم من دون أي عمل.

يرى الإسلاميون أن تأدية الزكاة داخل المجتمع الإسلامي يساهم في تحسين النشاط الاقتصادي، حيث يستفيد منها كل من يتداولها. أما اكتنازها وحبسها فيؤدّي إلى كساد الأعمال وانتشار البطالة وركود الأسواق وانكماش الحركة الاقتصادية بصفة عامة.

وجود تلك المؤسسات المالية اللاربوية له أهميته الكبرى، لأن غالبية السكان يحجمون عن الاستدانة بفوائد عالية خوفا من عدم قدرتهم على تسديدها. أما عندما تتوفر تلك الأموال، من دون فوائد، أو بفائدة قليلة، فإن المواطنون سيقدمون على الاستدانة، بهدف إيجاد فرص عمل لهم أو بهدف إنشاء مؤسسات تحقق لهم أرباحا. وهذا ما يؤدّي بدوره إلى تسريع حركة الاقتصاد وزيادة سرعة النمو وتزايد الدخل القومي بالإضافة إلى تحسين المستوى المعيشي لدى الأفراد.

تلك المؤسسات المالية من شأنها أن تجعل كل فئات المجتمع تشارك في العمل والإنتاج. إذ إن عدم توفر الأموال في البلدان النامية يبقى العائق الأهم أمام التنمية.

ومفهوم التنمية الاقتصادية هو "مفهوم حديث مرتبط تاريخيا بتطور الرأسمالية وسيطرتها على العالم وبطموح شعوب العالم الثالث إلى تغير أحوالها إلى ما تحسب أنه الأفضل".[9] وهي عملية نوعية وإرادية تتطلب تخطيطا وتنفذ مشاريعها ضمن مراحل. وكل مرحلة منها تتطلب توفر سيولة نقدية، إنْ على مستوى الدراسة والتخطيط أو على مستوى تنفيذ الخطط أو على مستوى المراقبة والحفاظ على الإنجازات وضمان استمراريتها.

هكدا انتشرت البنوك اللاربوية، في العديد من البلدان الإسلامية مثل المدينة المنورة وكراتشي وحيدر آباد، إلى جانب وجود بنوك ومصارف تعمل على تنشيط حركة التنمية، وتعطي قروضا ميسّرة بفوائد بسيطة في مصر والكويت والمملكة العربية السعودية وتركيا ودبي وليبيا ومعظم الدول العربية والإسلامية. وقد أدّت تلك البنوك خدمات لا يستهان بها لمجتمعاتها.

**ب- الظروف الممهدة للبنوك اللاربوية**

تعود أسباب وجود تلك المصارف في المجتمعات الإسلامية والعربية، بشكل أساسي، لمبدأ تحريم الربا ولحاجة تلك البلدان إليها.

الفكر الإسلامي، بشكل عام، يحرّم الربا والفائدة. وقد تضمّن القرآن الكريم العديد من الآيات التي تحرّم التعامل بالفائدة والربا. وكذلك، جاءت مجمل الاجتهادات والأفكار الإسلامية منسجمة مع ما جاء به كتاب الله. وجاء الفكر الإسلامي المعاصر هادفا إلى مواجهة التحديات

الغربية، بما تتضمنه من إلحاد وعلمنة، وتعامل بالربا، وحريّة اقتصادية مطلقة، حيث التصرّف بالأموال والأعمال وممارسة كل أنواع الاحتكار.

وساعدت على انتشار تلك النظرية أيضا أحكام الشريعة الإسلامية حول مسألة عدم اكتناز الأموال وعدم تجميدها. والسماح بتزايدها، فقط، وفق أساليب محدّدة ومشروعة. إذ إن التصرّف بتلك الأموال ليس مطلقاً وإنما هو تملّك لأجل تحقيق المنفعة وذلك باستغلالها واستثمارها وفق ما حدّدته الشريعة الإسلامية. فهي تنظر إلى العمل على أنه الوسيلة الوحيدة للتملك، كما تحرّم الغش والاحتكار.

يرى عبد الرحمن الكواكبي أن الشرائع السماوية والحكمة السياسية والأخلاقية والعمرانية "حرمت الربا بقصد التساوي والتقارب بين الناس في القوة المالية"[10]. وهو يرى كذلك أن اكتناز الأفراد لتلك الأموال يمكّن الاستبداد الداخلي، حيث يقسّم المجتمع إلى قسمين: العبيد والأسياد. كما أن تلك الأموال قد تدفع بالدول القوية إلى الاعتداء على الدول الضعيفة.

تؤكد المفاهيم الإسلامية على العدالة وحق العيش لكل فرد وحق الكفاية لكل مسلم. ويرى سيد قطب أن الإسلام "يهدم النظام الطبقي من أساسه، ويقرّر التفاوت بين الأفراد بتفاوت المواهب والاستعدادات".[11]

تنبه المفكرون الإسلاميون المعاصرون لخطر المؤسسات المصرفية التي تعتمد على الاتّجار برؤوس الأموال. وقد تزايدت تلك المصارف في العصر الحديث خاصة بعد الثورة الفرنسية. وكان لها تأثير مهم على السياسة الدولية. وقد اعتبرها البعض أداة من أدوات الاستعمار الغربي.

رأى هؤلاء المفكرون أن من الواجب التصدّي لتلك المؤسسات، ومن الضروري إيجاد بدائل عنها، تعمل على إقراض المواطنين، بفوائد أقل، تتوافق مع الشريعة الإسلامية، فتبلور في أذهانهم فكرة مؤسسات لاربوية، لا تشكل خطرا على الفرد والمجتمع.

لقد تبلور هذا الاتجاه الإسلامي الحديث، عند كل من سيد قطب ومحمد باقر الصدر ومصطفى السباعي ومالك بن نبي وعيسى عبده وعبد الهادي النجار وراشد الغنوشي ومحمد حسين فضل الله ويوسف القرضاوي. لقد عمل معظم هؤلاء المفكرين على استقلالية المنهج الإسلامي، وحرصوا جميعا على أهمية تحديث قوانين الفقه، لتلبي الحاجات العصرية للإنسان وتراعي تحقيق العدالة الاجتماعية. ترتكز مبادئ الفقه تلك، برأيهم، على أسس محدّدة، أهمها: التكافل العام والتوازن الاجتماعي والتحرّر الوجداني والمساواة الإنسانية.

يتفق الفقهاء جميعا في مسألة تحريم الربا وتتباين آراؤهم حول تحديدهم لمفهومها ولمفهوم الفائدة. فهناك فوائد مشروعة عند البعض منهم. يربط عيسى عبده، مثلا، مسألة تحريم الربا بالإنتاج. فهو يحرّم الربا القائم على أساس قرض الاستهلاك. وقد اتفق الفقهاء على ذلك،

رغم أن ذلك القرض يسد حاجة ملحة عند بعض الأفراد. وهو يرى أن "الدافع إلى اعتناق هذا الرأي هو دافع إنساني يأبى وفقهُ المصلحُ الاجتماعي أن يسمحَ للقوي باعتصار الضعيف واستغلاله".[12] كما أن تيسير قروض الاستهلاك برأيه، يعتبر علاجا للداء الاستعماري، كالمسكنات التي تخدّر الأعصاب، حتى لا يشعر المريض بالألم كما أنه يربط ظاهرة الربا بالاستعمار الغربي. فهي في السابق، كانت عبارة عن نوع من الزيادة، مقابل أجل معين. أما مع وجود الصيرفة الغربية، التي بدأت منذ القرون الوسطى على أيدي اليهود، فقد تحولت، إلى منشآت مصرفية وبنوك وشركات أموال ضخمة.

أما عبد الهادي النجار، فإنه يرى أن تسمية الربا بالفائدة لا يغيّر من طبيعته شيئا. والفائدة برأيه "ليست إلا إضافة إلى رأس المال المقترض، وهي عبارة عن ربا سواءٌ في طبيعته أو في حكم الشريعة الإسلامية".[13]

وهو يرد مسألة تحريم الربا إلى منع الظلم ومنع أكل أموال الناس بالباطل. ويذكر بأن القرآن الكريم حرّم ربا النسيئة، وهو الذي يقع بين الدائن والمدين، بفرض زيادة على أصل الدين، في مقابل تأجيل دفع الدين مدة معينة. أما ربا الفضل، فهو بيع المتماثلين بزيادة أحدهما على الآخر، كأن نبيع ذهبا بذهب أو فضة بفضة، فالسنّة الشريفة قد حرّمته.

هكذا يتفق كل الفقهاء على تحريم كل أنواع الربا، مستندين في ذلك إلى القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة. وذلك لما ينتج عنها من مظالم ومخاطر، حيث ينتظر صاحب الأموال أرباحه الناتجة عن أمواله وغيره يتعب ويشقى.

يحلّل النجار أنواع الودائع لدى البنوك، وهي ثلاثة: ودائع تحت الطلب، وتعرف بالحساب الجاري، ليس عليها فوائد، بل يفرض عليها عمولة محدّدة، مسموح بها شرعا. ودائع ادخارية تدفع البنوك عليها فوائد. وهذه محرّمة شرعا. ودائع لأجل، وهي تودع نظير فائدة معينة. وهي محرّمة أيضا. كما يرى أن الاسلام يحرّم الفائدة على القرض المصرفي لسببين:

الأول، لأن البنك يحصل على الفائدة زيادة على أصل القرض.

وثانيا، لأن البنك قد استغلّ الودائع ليتصرّف فيها من دون علم أصحابها.

أما بالنسبة للتعامل مع الأوراق النقدية، فيراها محرّمة سواء أكانت حكومية أو غير ذلك، لأنها تدر فائدة على القروض. أما بالنسبة للتعامل بالأسهم، فهو مشروع في رأيه، لأن حامل السهم شريكٌ يتحمل الربح والخسارة.

أما محمد حسين فضل الله فإنه يعتبر ممارسة المسلم للربا مُخرجَهُ من دينه. ففي المجتمع الإسلامي، ليس هناك من حاجة للتعامل بالربا. وهو يربط مسألة تحريم الربا بالجانبين المادي والروحي معا. "والمدين لا يشعر في ضوء هذا، بضرورة لممارسة ذلك، إلا في الحالات الخاصة التي يحتاج فيها المجتمع إلى سلوك ذلك لمواجهة بعض الحالات الاقتصادية الصعبة

التي تفرض ذلك"[14].

ويعالج نور الدين عتر مسألة الربا، فيضع أسسا لمصرف يجمع ما بين النشاط المصرفي العصري والحكم الشرعي الإسلامي. وهو لا يلغي المصارف القائمة بل يعمل على تحسينها لتتوافق أعمالها مع أحكام الشريعة الاسلامية. فوجودها ضروري للفرد والمجتمع، حيث تساهم في سد الحاجات وتوفير الخدمات المالية. إن تلك المصارف تقبل الودائع وتعتبرها قرضا حسنا، ولا تدفع لأصحابها فوائد بل إن البنك اللاربوي يستفيد من "المبالغ التي تتجمع لديه عادة في استثمارات مناسبة مشروعة".[15]

أما محمد باقر الصدر، فهو يرى أن السياسة المالية للدولة الإسلامية تعمل على المساهمة في إقرار التوازن الاجتماعي والتكافل العام ، كما أنه يؤكد على أن الإسلام أعطى الأولوية لتحقيق الحاجات الضرورية. وترك لولي الأمر الاجتهاد في الأمور الأخرى.

هكذا مهّد الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر لفلسفة تقف إلى جانب الفئات المعدمة والفقيرة. وأقرّ مجمل المفكرين الإسلاميين بضرورة تخفيف الأعباء وضرورة مساعدة الطبقات الفقيرة وتأمين حاجاتها الضرورية. لقد أيّدوا جميعا أهمية التأميم والتوجيه الاقتصادي من قبل الدولة.

إلى جانب التوجيهات الإسلامية، هناك عامل آخر كان له أثره في ضرورة إيجاد مؤسسات مالية لا تتعامل بفوائد، فالمجتمع كان بأمس الحاجة لوجود كافة المؤسسات المالية. وقد تزايد انتشار البنوك الربوية واضطر المجتمع للتعامل معها، رغم جنيها الأرباح الطائلة. فهناك عدم إمكانية في تحقيق تنمية اقتصادية من دون وجود مؤسسات مالية تؤمن الأموال المطلوبة. وقد اضطر العديد من الإسلاميين المتمولين أن يؤمنوا أموالهم في تلك البنوك. لقد أقروا جميعا بالملكية الفردية وبحق الفرد في حفظ أمواله. وتنبهوا إلى أهمية تلك الأموال في تحقيق المشاريع الإنتاجية على مختلف الأصعدة.

لقد أقر الفقهاء المعاصرون بأهمية البنوك المالية، حيث أصبحت ضرورة اقتصادية لا يمكن الاستغناء عنها. فهي توفّر الأموال المطلوبة للمشاريع الضخمة، بالإضافة إلى حفظها لأموال الأفراد. فهي حاجة ضرورية في المجتمع المعاصر.

أما عيسى عبده ، فهو يؤكد على أن تحريم الربا يعود لأسباب دينية وعلمية. أما الأسباب الدينية، فهي ما ورد في الشرع من تحريم لكل أنواع الربا. وأما الأسباب العلمية، فهي تعود لعوامل إنتاجية واجتماعية، حيث التعامل بالربا يؤدّي حتما إلى تفاوت طبقي كبير، وهذا يعني عدم المساواة في توزيع الثروة الوطنية، كما أنه يؤدي إلى تحوّل المرابين إلى فئة غير منتجة. وهذا ما ينعكس بدوره على تراجع النشاط الإنتاجي، وقد يؤدّي إلى هيمنة المرابين على الثروة وتملكهم وسائل الإنتاج

وكذلك يرى عبد الهادي النجار أن تزايد الإقبال على الإيداع في البنوك الربوية، يؤدي إلى التضخم المالي، ويؤدي إلى احتكار رؤوس الأموال، وتتزايد معه المشكلات الاجتماعية.

يؤكد معظم المفكرين الإسلامين على أن المرابين، يعملون على استثمار أموالهم واستغلالها كوسائل إنتاج، في حين أن تلك الأموال مخصّصة في الأصل، لتسهيل التبادل للسلع. ومن شأن ذلك أن يحوّل تعب العمال إلى حساب المرابين.

أما السبب العلمي الذي لم يفطن له الإسلاميون، فهو ما يتعلق بالخدمات التي تقدمها البنوك اللاربوية على صعيد الإنتاج القومي، إذ إن توزيع الثروة على كافة المواطنين من شأنه أن يضخ الحركة والنشاط داخل الطبقة الفقيرة والمعدمة. فهذه تمتلك إمكانيات مهمة. وبدلا من أن تبقى معطلة فإنها تشارك في عملية الإنتاج لو توفرت لها الأموال الضرورية التي بإمكانها أن تساعدها في تحريك نشاطها من جديد.

إن طبيعة المجتمعات النامية قائمة بشكل أساسي على القطاع الزراعي، حيث أغلبية السكان يعملون في الزراعة، وهي لا تزال تستخدم أساليب قديمة في العديد من المناطق. والمجتمعات الزراعية تبقى مداخيلها دون المطلوب.

القطاع الزراعي يتميز بأمور خاصة به، من حيث عدم وجود لتقسيم العمل والتخصص، كما هو عليه القطاع الصناعي. والآلة الزراعية لا تستخدم "إلا فترة محدودة من الزمن بالإضافة إلى أن الأعمال الزراعية المتنوعة تستدعي استعمال آلات خاصة بكل منها، وهكذا تجمدُ هذه الآلات عن العمل وقتا طويلا في كل عام، أي أن رؤوس الأموال الزراعية تجمد شطرا كبيرا من السنة بدون أن تدرّ أي ربح على صاحبها، وهكذا يكون معدل استهلاكها السنوي مرتفعا جدا".[16] كما أن دور الآلة في الصناعة هو دور أساسي، بينما يبقى دورها ثانويا في الزراعة، وذلك لارتباط الزراعة بعوامل الطبيعة، من حيث المناخ وهطول الأمطار. وقد تتعرض المواسم في بعض الأحيان إلى الفساد بسب موجات البرد أو بسبب شدة الحرارة. لهذه الأسباب، يضطر المزارع إلى الاقتراض في أكثر الأحيان. كما أنه ليس بمقدور كل المزارعين إيفاء القروض وما يترتب عليها من فوائد، في حال كانت مرتفعة.

هكذا يضطر المزارع إلى الاقتراض، عندما يحتاج لتأمين البذار أو لتأمين حاجات أسرته، وقد تتراكم عليه تلك الديون من سنة إلى أخرى، وتحت ضغط الحاجة يرضخ للقبول بفوائد عالية، وهذا ما يؤدي إلى عدم إمكانية تسديده تلك الديون، وقد تستخدم تلك الفوائد "لغرض جعل تسديد الدين مستحيلا بحيث يصبح المدين في وضع من العبودية المستديمة".[17]

إن هذه الفئة من المجتمع، بدلا من أن تبقى عالة على الفئات الأخرى، حيث أنها تحتاج لأمور عديدة ومتنوعة، من مأكل وملبس وطبابة وتعليم وغير ذلك. فهي تبقى معطلة عن العمل بحجة عدم وجود فرص عمل أمامها، في حين أن بمقدورها أن تعمل وتنتج وتساهم في

زيادة الدخل القومي، بالإضافة إلى رفع مستواها المعيشي وتخفيف المعاناة عنها، عندما تتوفر لها الأموال والخبرة.

**ج- البنوك اللاربوية وطبيعة عملها**

يرى الإسلاميون أن أي تزايد للمال من دون عمل هو نوع من الربا؛ وليس الانتفاع بالمال إلا بالقدر الذي يدفع الحاجة، من دون الإسراف أو التقتير. والمال تعود ملكيته لله فقط، فتملكه يقتصر على المنفعة فقط. وحقوق الله في المال ثابتة، ولا يجوز التصرّف به بشكل عشوائي.

يرفض الإسلاميون أن يحبس المال بأيدي فئة معيّنة في المجتمع، دون الفئات الأخرى. كما أنّهم يؤكدون على أن الفروقات الاجتماعية الكبيرة، قد تؤدّي إلى مفاسد وصراعات اجتماعية. كما أنهم يؤكدون على أن العمل، وحده فقط، هو الوسيلة الأساسية في التملك الشرعي.

ميّز الصدر في أطروحته عن البنك اللاربوي، بين المجتمع الإسلامي الذي يحرّم الربا بشكل كامل وغيره من المجتمعات التي تتعامل به، فرأى أن تطبيق تحريم الربا داخل المجتمع الإسلامي يؤتي ثماره المرجوة بشكل كامل، "ولا يخلق مضاعفات ويساهم مع باقي أجزاء النظام الإسلامي في تحقيق الأهداف الرئيسية التي يتوخاها الإسلام في تنظيمه الاجتماعي".[18]

أما تطبيق تلك الإجراءات، بحسب رأي الصدر، خارج المجتمعات الإسلامية، فلا تؤتي كل ثمارها، وذلك لأنها تطبق على بنك خاص دون سائر البنوك الأخرى. البنك اللاربوي برأيه، سوف يحمل بذرة التغيير الشامل في نظام الصيرفة.

أما طبيعة عمل البنك فيشرحها الصدر على النحو التالي: يجرى عقد بين المودع والمستثمر، على أن يقدّم المودع المال، مقابل ما يقدّمه المستثمر من عمل، وتكون الأرباح بنسب وبحسب ما يتفقان عليها. والمستثمر، بهذه الحال، لا يضمن رأس المال، بل يضمنها البنك، بوصفه وسيطا بين الطرفين. كما أنّه يشترط على المودع أن تكون ودائعه ثابتة، وأن يوافق على المضاربة المقترحة. وبالمقابل فهو يشترط على المستثمر أن يكون أمينه وقادرا على الاستثمار، وأن يخضع للشروط التي يمليها البنك عليه في العرض، ليحدّد مشروعه المقترح للاستثمار، كما يشترط عليه الالتزام بتقسيم الأرباح بحسب الاتفاق، وإلزامه بأن تكون كل أعماله المصرفية بواسطة البنك؛ فيلتزم بسجلات دقيقة، ويزوّد البنك بكل مستجد في مشروعه.

وعلى البنك برأيه كذلك، أن يسعى لتحقيق المضاربة، إذ لا يجوز تأجيل استثمار الودائع، "ولا التماهل في تهيئة الفرصة المناسبة للمضاربة الناجحة بها بقصد توفير سيولة نقدية في خزانته".[19]

في هذه الحال، إذا ربح المشروع، كانت لصاحب المال نسبته المقرّرة سابقا. أما إذا خسر،

فلا يكون له أي نسبة من الربح. وتتمثل أهداف البنك اللاربوي، بسعيه لاكتساب الأرباح عن طريق المضاربة، بشكل تفوق فيه نسبة الأرباح نسبة الفائدة التي تدفعها البنوك الربوية، وذلك بهدف جذب المودعين للتعامل معه.

تشبه أعمال البنوك اللاربوية أعمال مثيلاتها من البنوك الربوية، من حيث طريقة السحب والإيداع، وضمان الأموال، ودقة الحسابات، وتوفر السيولة، وتأمين كافة الخدمات المطلوبة داخل المؤسسات المصرفية.

وأما على صعيد التنظيم الداخلي، فهي تشبه البنوك الربوية، من حيث مجلس الإدارة وتعدّد المديريات بتعدّد الأقسام والمهام، بل إنها تحتاج لوجود مديرية تختص بالمضاربة، وذلك لأجل متابعة تنفيذ المشاريع التي يوافق عليها البنك.

يرفض الصدر أن تسمى الودائع بهذا الاسم، بل يسميها قروضا مستحقة الوفاء أو محدّدة لأجل محدّد. فهو يعتبر أن "ملكية العميل تزول نهائيا عن المبلغ الذي وضعه لدى البنك، ويصبح للبنك السلطة الكاملة على التصرف فيه".[20]

ويحدّد الصدر سياسة البنك اللاربوي بأمور محدّدة، أهمها: عدم مخالفته أحكام الشرع، قدرته على الحركة والنجاح، اعتبار النشاط العملي داخل المصارف مصدر دخل، هدفه يتحدد في شكل جهاد في سبيل الله، وليس لأجل تزايد الأموال وتزايد الأرباح فقط، ومن دون وجه شرعي. كما أنه يؤكد على العمولة بوصفها أجرة عمال.

يعمل البنك اللاربوي على إلغاء الفائدة على رأس المال إذا لم تترافق مع عمل أو نشاط. فيحلل الصدر الفائدة التي تأخدها البنوك الربوية إلى عناصر ثلاثة: مبلغ يؤخد لأجل التعويض عن الديون الميتة، ومبلغ يؤخد كتغطية لنفقات البنوك، ومبلغ يؤخذ كربح خالص لرأس المال. والصدر يلغي الجزء الأول أو يستغني عنه، بتوسيع نطاق الائتمان العيني والابتعاد عن الأمور التي لا تتوفر فيها الثقة الكاملة الكفيلة بإعادة الأموال وعدم ضياعها.

أما العنصر الثاني فيقرّه الصدر، على أساس أنه يؤمّن للعمال وللموظفين ولأصحاب الأبنية ما يستحقونه من أجور وتكاليف. وهذا أمر مشروع برأيه، ويخرّجه فقهيا بأن من حق الكاتب الذي يكتب الأموال أن يتقاضى أجرا على عمله.

أما بالنسبة للعنصر الثالث، وهو المتعلق بالربح الخالص لرأس المال، فيلغيه الصدر نهائيا، وذلك لاعتباره يشتمل على الربا.

ويسمح الصدر للبنك بأن يشترط على المقترض أن يقرضه لدى وفائه الدين، مقدارا يساوي مجموع ما ألغاه من فائدة، بأجل يمتد لفترة من الزمن. وهذا لا يعدّ ربا، برأيه، وليس فيه أي مانع شرعي.

يسمح البنك اللاربوي لنفسه، بالتعامل بالفائدة أو الربا مع بنوك تجارية تستخدم الربا كوسيلة

إنتاجي. وهو يبرّر ذلك بجواز التعامل مع الكافر. وهذا ما ذهب إليه فقهاء الإمامية والحنفية.

يلعب البنك اللاربوي دور الوسيط بين المودعين والمستثمرين، فهو ينظم علاقات الإيداع، بشكل يختلف عما تعمل عليه البنوك الربوية الأخرى. فهو يحتاج لأموال أضخم مما تحتاجه البنوك الربوية، وذلك ليتمكن من القيام بدوره في تحقيق أو تنشيط التنمية في المجتمعات النامية.

يحدّد الصدر الأموال المودعة، فيقسّمها قسمين. قسم منها هي أموال متحرّكة لا يتوجب على البنك أن يدفع عليها فوائد. وقسم ثابت يخضع للمضاربة كما ذكرنا.

وفيما يخصّ تعامل البنك اللاربوي مع البنوك الربوية الأخرى فيجري عليها حكم عقد البيع لا حكم عقد القرض. والمحّرم شرعا هو جعل شيء مقابل تأجيل القرض. أما عقود البيع فليس فيها تحريم.

ويذهب بعض المجتهدين إلى جواز بيع الدين بأقل منه، كبيع كمبيالة مثلا قبل موعدها، بأقل من قيمتها. أما الصدر فيرى أن هذه المسألة تبقى موضع بحث، وذلك لورود بعض الروايات التي تتعارض معها. والإسلام يسمح ببيع الذهب بالفضة، ويحرّم بيع الذهب بالذهب.

أما عن اتجار البنك وتعامله بالمستندات، فهي عملية مشروعة لدى بعض الفقهاء، لأنها تخضع للشراء والبيع. بينما تبقى موضع شك لدى البعض الآخر. والبنك اللاربوي برأي الصدر يتعاطى فقط بالسندات التي تصدرها الحكومة أو بعض الجهات التي يسمح البنك لنفسه بأخذ الفائدة منها.

**د- الإشكاليات القائمة**

إن وجود بنوك لاربوية في المجتمع النامي عملٌ في غاية الأهمية، وذلك بما تقدّمه من خدمات مالية لفئات المجتمع المختلفة. فهذه المؤسسات تساهم بتخفيف حدّة الفروقات الطبقية. والإسلام لا يقر التفاوت إلا على أساس المواهب والقدرات والخبرات. وسياسته الاقتصادية تهدف إلى "ضمان تحقيق الإشباع لجميع الحاجات الأساسية لكل فرد إشباعا كليا".[21]

هذه المؤسسات لها إيجابياتها على مختلف الأصعدة، الحياتية والاقتصادية والتربوية والتنموية. فهي تساهم في تهيئة فرص عمل للعاطلين عن العمل ، كما تساعد في تأمين الحاجات المطلوبة، بالإضافة إلى ما تقوم به من تجميع المدّخرات المتفرقة، لتجعل منها رؤوس أموال يمكن أن تموّل أضخم المشاريع الإنمائية. من شأن تلك المصارف القدرة على اجتذاب الأموال من بعض الدول المجاورة والأكثر غنى إلى دول أخرى أكثر حاجة لها. وهي، بالإضافة إلى ما تقدّمه من تشجيع الاستثمارات لتحقيق التنمية، توثق العلاقات بين الدول العربية والإسلامية فيما بينها. فهي تفيد في توزيع الثروات، وتساهم في وجود نظام متوازن يمنع

التضخم، كما أنها تخلق نشاطات اقتصادية وإنتاجية.

تقدّم تلك المصارف لعملائها الاستشارات الاستثمارية والمصرفية، وتساعد في تمويل اقتناء الموجودات والشركات. فهي تشارك في عملية التنمية. وهي تستقطب الكفاءات والإمكانيات المتوفرة، لتستخدمها في مجال الأسواق المالية العالمية. وقد دخلت تلك المصارف في شركات أندونسية وباكستانية. إنها تقوم باستثمارات بهدف الحصول على رؤوس الأموال، حيث هي العامل الأساسي في تحقيق تنمية اقتصادية. إنها تقدّم خدماتها في مجال دعم المشروعات المشتركة وتحريك الأموال بين الدول. كما أنها تساهم في دعم المؤسسات الصغيرة، وتعمل على رفع مستوى الحرفيين في بعض الدول، ضمن عقد مشاركة يهدف لتجديد الأدوات والورش. "إن مبدأ المشاركة في المشاريع يقلل من تكلفة التمويل وبالتالي تكلفة السلعة على المستهلك النهائي".[22]

ورغم كل هذه الإيجابيات تبقى هناك بعض الإشكاليات التي تتمحور حول عمل البنوك اللاربوية، من حيث قدرتها على تغطية كافة الأموال ومن حيث كيفية استيفائها ومن حيث حريتها في العمل ومن حيث حفاظها على التوازن الاجتماعي.

لقد تنبّه الصدر إلى ما تواجهه تلك المؤسسات من إشكاليات في تقديم خدماتها ما بين المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية. وبحسب رأيه، "يؤتي تحريم الربا في مجال التطبيق كل ثماره المرجوة، ولا يخلق مضاعفات ويساهم مع باقي أجزاء النظام الإسلامي في تحقيق الأهداف الرئيسية التي يتوخاها الإسلام في تنظيمه الاجتماعي".[23] أما عملها خارج المجتمعات الإسلامية، أي تلك التي لا تطبق النظام الإسلامي، فيبقى في حدود معينة حيث لا يؤتي كل ثماره.

يؤكد نبيل عبد الإله نصيف، وكان يرأس أحد المصارف في البحرين، على ما تواجهه المصارف الإسلامية، التي تخلو من عنصر الفائدة، من عوائق تتمثل "في مجالات العمليات المصرفية وإدارة السيولة والعلاقات بينهما وبين السلطات الإشرافية والرقابية المركزية بخصوص النسبة النقدية ونسبة السيولة وكفاية رأس المال وتسهيلات المقرض الأخير واحتمالات تعارض العقود الإسلامية مع بعض القوانين الوضعية".[24]

إن تلك المؤسسات قد لا تؤتي ثمارها المطلوبة، بشكل كاف، حتى داخل المجتمعات الإسلامية بل تظهر بعض التعقيدات أمام المقترضين والمودعين على السواء؛ فالمقترض يضطر لعرض مشروعه الاستثماري على البنك، ويمكن ألا تحصل موافقة عليه، هذا بالإضافة إلى إلزامه بتقديم كل المعلومات المستجدّة، وكذلك الحاجة إلى وجود علاقة بين المقترض والمقرض.

البنك اللاربوي لا يدفع فوائد على الأموال المودعة، بل يدفع بدلا عنها نسبة من الأرباح،

وقد ترتفع أو تنخفض حسب الأرباح المتوفرة. والمودع في تلك الحال، قد يفضّل أن يضع أمواله في بنوك ربوية ويأخذ قيمة ثابتة عليها. وقد يضطر المقترض تحت ضغط العلاقات المعقدة والمعاملات المركبة إلى اللجوء إلى البنوك الربوية، ربحا للوقت وللربح الأسرع.

أما المودع فهو لا يعرف مسبقا قيمة أرباحه بل إنه سيبقى رهين المشرفين والوسطاء الذين من مهمتهم تقدير قيمتها ونسبها.

إن هذا الأسلوب من شأنه أن يعيق عمل العديد من المقترضين بسبب عدم وجود شفافية في التعامل معهم، سواءٌ بالنسبة لإدارة البنك أو للوسطاء والمشرفين.

يشترط البنك اللاربوي على المستثمر أن يكون أمينه وأن يلتزم بتقسيم الأرباح. والإشكالية هنا تتمثل في مدى معرفة الطريقة الواجب اتباعها حتى نكشف المستثمر على حقيقته فيما إذا كان أمينه أم لا.

ثم، ألا يتظاهر العديد من الأفراد المحتالين بأنهم أمناء وأوفياء، وهم يخفون حقيقتهم؟

ثم، كيف يتصرف البنك في حال كثرت أعداد المودعين؟ ألن يؤدّي ذلك إلى تفضيل بعضهم على البعض الآخر، بهدف خدمتهم وتسريع استثمار ودائعهم قبل غيرهم؟ ألن تلعب المحسوبية والزبائنية دورها في هذا المجال؟

إن عدم تحديد البنك اللاربوي النسبة المقرّرة للمودعين، قد يؤدي إلى إعطاء البعض نسبة أعلى مما يأخذه الآخر.

كيف يحق للبنك اللاربوي أن يلعب دور الوكيل عن المودع؟ ألن يؤدي ذلك إلى الاستفادة من الأموال من دون مقابل عمل فعلي؟ ألن يتعارض هذا مع أحكام الشريعة التي أكدت على شرعية الاكتساب فقط بالعمل؟

ثم إذا كان هذا البنك يسمح لنفسه اعتبار ما يأخذه من أرباح المشاريع بمثابة أجرة كتابة، فكيف يسمح لنفسه بأن يساوي ما بين أجرة الكتبة والأرباح العائدة له؟ ألن تفوق قيمة الأرباح كلفة الكتابة؟ ثم ما هي الضمانة حتى يقر البنك للمودع بما يستحقه من أرباح؟ ألن تطمع إدارة البنك بأن تستأثر بنسبة كبيرة من الأرباح؟

ثم، كيف يبقى للبنك الحق في إلزام المودع أن يترك وديعة تساوي قيمتها قيمة ما ألغي من فائدة ولمدة طويلة؟ وفيما لو كان المقترض يقترض للاستهلاك، هل يجوز أن نلزمه بهذه الوديعة؟ هل يتمكن المقترض لأجل سد الحاجة أن يقترض من البنك اللاربوي؟ هل عولجت هذه المسألة، ووضعت لها التشريعات وكيفية الإقراض وكيفية الاستيفاء؟ أم أن هذا البنك يحجم عن الإقراض للاستهلاك بحجة أن هذا المال معد للمشاريع الاستثمارية والمضاربة فقط؟

ثم، كيف يشرّع البنك لنفسه عدم دفع أي قيمة على الأموال المدّخرة؟ وهل بإمكانه استخدام تلك الأموال بمشاريع إنتاجية يستفيد منها من دون أن تكون هناك أي نسبة للمودع؟ ألا يكون

من الأفضل لو شجع المدّخرين بحوافز معينة؟ ثم، هل يقدم المدّخر على إيداع أمواله بهذه الطريقة؟

قد تتعدد حاجات الناس وتتباين من فرد لآخر ومن واقع لآخر. وهناك حاجات مطلوبة للاستهلاك فقط، في حين أن البعض بأمس الحاجة للأموال، كي يتمكنوا من تسيير أمور مصالحهم ومؤسساتهم. وهذا يتطلب مؤسسات مالية متعددة ومتنوعة، من حيث تنوع خدماتها وتنوع اختصاصاتها.

إن الواقع الاجتماعي القائم يشهد تنوّع تلك المؤسسات. وهناك إقبال قوي على التعامل والاقتراض من مؤسسات القرض الحسن. وتنتشر تلك المؤسسات ومثيلاتها بشكل قوي، في حين أن التشريع القانوني الرسمي، من قبل الحكومات يبقى بعيدا عن تلك الظاهرة.

هذا الواقع يستدعي تدخلا من قبل الدولة، لمساعدة البنوك اللاربوية، المخصصة لإقراض المواطنين من دون فوائد. أما البنوك التي تعمل في مجال المضاربة فيترك لها الحرية في اختيارها لمشروعاتها، ولما تقدمه من أرباح للمودعين، إذ إنها ملزمة بالتعامل مع عملائها بما يتعاهدون عليه، وبما تعمل وفقه باقي البنوك.

إن كل التشريعات التي تدور حول البنوك اللاربوية لا تنطلق من دراسة واقعية وعلمية لواقع المجتمع القائم . قد يكون المطلوب تنمية زراعية في أماكن معينة وتنمية صناعية في أماكن أخرى. الدراسة المطلوبة يجب أن تكون مرتبطة بالواقع الاجتماعي بكل مشاكله.

من الضروري أن ينطلق المشرّع من واقعه الاجتماعي، لذلك فمن واجبه أن يلم بمشاكل مجتمعه وبما يعاني منه الاقتصاد القائم من مشكلات، "وإلا جاء التشريع ناقصا وغير مطابق للواقع الاجتماعي[25]، وتطبيق ذلك التشريع المخالف قد لا يؤدّي إلى نتائج إيجابية.

المعالجة الحقيقية قد لا تتحقق إلا من خلال الدراسة الواقعية والميدانية، على أرض الواقع . فهي تتطلب القيام بإحصاءات موضوعية، كما تتطلب معرفة واضحة بأحوال الواقع الاقتصادي، على الصعيد المحلي والعالمي، من قبل المتخصصين في العلوم الاقتصادية.

**هـ- خاتمة: استنتاجات واقتراحات**

هكذا بعد استعراضنا لعمل المصارف الإسلامية وتبيان إيجابياتها وسلبياتها، لا بد من العمل على تلافي الأخطاء، بهدف تشجيع

نشاطاتها وتوجيهها نحو اعتماد أساليب تخطيط ممنهجة، تعمل على تحقيق تنمية اقتصادية وبشرية حقيقية ومستدامة.

تلك التنمية قد لا تتحقق فقط، بمجرد بعض التوجيهات والإرشادات، نطلقها من حين لآخر، بل إنها تتطلب دراسة واقعية وموضوعية لمشاكل اقتصادياتنا، سواءٌ على صعيد الزراعة أو

الصناعة أو الخدمات وغير ذلك.

فعندما نقف بموضوعية على مشاكل واقعنا ونتعرف على طبيعة عمل تلك المصارف، يسهل علينا اقتراح الحلول المطلوبة. إن واقع المجتمعات النامية يقوم على القطاع الزراعي كقطاع أساسي، حيث يعمل فيه العدد الأكبر من السكان. أما القطاع الصناعي، فهو لا يستوعب سوى أعداد قليلة من العمال. أما قطاع الخدمات، فرغم أنه يستوعب عددا لا يستهان به، فإنه يبقى مختلفا عما هو عليه قطاع الخدمات في الدول الصناعية المتطورة. تلك الدول ترتكز بشكل أساسي على قطاع الصناعة، ثم قطاع الخدمات، ويأتي قطاع الزراعة في المرتبة الأخيرة من حيث مساهمته في الدخل القومي ومن حيث نسبة عدد العمال الأقل العاملين ضمنه، ومن حيث اهتمام الأنظمة السياسية به وتخصيص ما يستحقه من دعم مالي.

أما المجتمعات النامية، فهي بحاجة لتطوير كافة قطاعاتها. وهي تحتاج لتطوير قطاع الزراعة أكثر، وذلك بما يؤمّنه من موادّ أولية وبما يستوعب من عاملين بحيث يتم تدعيم الاقتصاد الوطني. تنمية القطاع الزراعي تساهم في رفع مستوى الدخل لكافة المزاراعين. تنمية القطاع الزراعي، تبقى الدعامة الأولى، في تنمية القطاعات الأخرى داخل المجتمعات النامية. هذا ما ينعكس إيجابا على تحريك عجلة النشاط الاقتصادي، بشكل عام.

المجتمع الزراعي اليوم، هو الأكثر حاجة لوجود مصارف لاربوية، لأنها تموّل كافة المزارعين، كما تدعم كافة المؤسسات الصغيرة التي تحتاج لرؤوس الأموال لتحريك نشاطها. وقد دلت الإحصائيات المتوفرة على أن تلك المصارف قد ساهمت في تنمية القطاعات الاقتصادية في المجتمعات الإسلامية، بنسب متفاوتة.

القطاع الزراعي، على المستوى العالمي، قد لا تتعدى مساهمته 4 بالمئة من الإنتاج العالمي. أما البلدان النامية، فالزراعة فيها لا تزال تساهم بدخل بنسبة تزيد على 25 بالمئة من دخلها القومي.

ومع أن تلك الإحصاءات تتباين بين مجتمع وآخر، حيث لكل مجتمع مشاكله الخاصة به ولا يمكن أن نتعرّف عليها إلا بعد إجراء دراسة موضوعية وميدانية لكل منطقة على حدة، فمن الضروري القيام بتلك الدراسات، حتى يتسنى لنا معرفتها بهدف الوقوف على طبيعتها والعمل على مساعدتها.

يرى السير مايكل باليزر أن لتلك المؤسسات المالية دورا متواصلا على صعيد تأمين الدعم المالي في المجالات الإقتصادية والجغرافية. إن القدرة على تحقيق الطموحات الاقتصادية والاستفادة من مسيرة السلام، برأيه، تتوقف في الدرجة الأولى «على القدرة على مواجهة ثلاثة تحديات في مجال التنمية:

التحدي الأول: إعادة النمو الاقتصادي المطرد في عدّة مجالات.

ثانيا: تطوير الموارد البشرية.

ثالثا: إدارة الموارد الطبيعية النادرة مثل المياه.

يترتب على المؤسسات المتعددة الأطراف أن تركز جهودها على هذه المجالات. إن استراتيجية البنك الدولي لمنطقة الشرق الأوسط وأفريقيا الشمالية تركزعلى هذه المجالات الثلاث».[26]

تزداد أهمية تلك المؤسسات المالية، في المجتمعات النامية، بسبب ما تؤمّنه من رؤوس أموال تستثمر في مشاريع إنتاجية وخدماتية في كافة المجالات. فهي تستثمر في الزراعة والصناعة والتجارة، كما تستثمر في التنمية البشرية، كتنمية القدرات ونشر العلوم والمعارف، ونشر التوعية الاجتماعية، وتطوير الإعلام والحفاظ على بيئة نظيفة.

مطلوب من القطاع العام المشاركة مع القطاع الخاص، بغية العمل على تحقيق تنمية شاملة اقتصادية وبشرية، وهذه تحتاج لرؤوس أموال ضخمة توظف من أجل تحقيق المشاريع الإنتاجية. هناك «ضرورة لتطوير أسواق رؤوس الأموال التي تستطيع أن تدعم هذا التطور الجديد... إن المصارف العربية والمؤسات المالية تحتاج إلى تكييف وتطوير إستراتيجياتها الخاصة في المنطقة لكي تعكس هذه المتغيرات وخاصة على صعيد تطوير أسواق رؤوس أموال محلية ناضجة، فيترتب على مجتمع مالي في العالم العربي أن يبتكر ويتكيف مع الشروط القائمة لكي يؤمن القيادة الضرورية لمواجهة التحديات التي قد تواجهها المنطقة».[27]

تزداد أهمية تلك المصارف للمجتمعات النامية بسبب عدم قدرتها على مواكبة العولمة المعاصرة، حيث أصبح بمقدور الدول الغربية الرأسمالية أن تتحكم بمصير المجتمعات النامية.

لقد تحكمت الشركات العالمية بالأسواق الاقتصادية، كما لجأت لعقد اتفاقات فيما بينها لتتقاسم النفود، بهدف فرض هيمنتها على الدول الضعيفة. وقد تطورت هذه التكتلات، في السنوات الأخيرة، وأصبح من المستحيل الحديث عن تكتل قومي مستقل.

العولمة، اليوم، تخدم اقتصاد السوق أي الاقتصاد الرأسمالي القائم على اكتساب الأرباح وتحكّم رأس المال العالمي بمصير الشعوب الفقيرة.

يرى بعض الاقتصاديين أن الاقتصاد العالمي، اليوم، يشهد ارتفاعا ملحوظا لقوة المال على قوة الإنتاج. كما أصبحت المعرفة عاملا أساسيا وحيويا في الإنتاج. وقد أصبحت أولويات السياسة الاقتصادية اليوم، تتمثل بتقوية المهارات وإنتاج قوى عاملة متعلمة.

لقد تحوّل الاقتصاد العالمي عبر القرنين الماضيين، حيث تقلص دور القطاعات الأولية، كالموارد الطبيعية، وانخفضت إسهامات الصناعات التحويلية، وتزايدت تجارة التقسيط والنقل والخدمات والصناعة البنكية والإدارة، لتصبح العنصر الأهم في الاقتصاد العالمي.

أصبحت المجموعات المالية العالمية المعاصرة تتملك وتتلاعب بآلاف مليارات الدولارات،

وهذا ما يمنحها القدرة على توجيه القرار السياسي والاقتصادي العالمي. قد تلجأ تلك المؤسسات المالية الكبرى إلى المضاربات في الأسواق المالية، وقد تحوَّل قسم كبير من تلك الأموال، عن قطاعات الإنتاج إلى الأسواق المالية. وقد أدى ذلك إلى ارتفاع أسعار الفائدة عالميا.

يعطي البنك الدولي للإنشاء والتعمير قروضا سنوية للدول الفقيرة تقدر بمليارات الدولارات بفوائد عالمية، وهو يولي الأهمية في تحقيق تعجيل النمو «وتخفيض عدد الفقراء، وتطبيق الاستراتيجيات البيئية على أفضل نحو ممكن في البرامج القطرية الخاصة بالدول».[28]

المطلوب اليوم الحفاظ على المصارف اللاربوية وصيانتها وتحسين أدائها، بمعالجة المشاكل التي تواجهها، سواءٌ على صعيد المقرض للمال أو على صعيد المستقرض أو من حيث طريقة التعامل ومدى الإقدام على التعامل مع تلك المصارف. الإشكالية تبقى في مدى نجاحها ومدى فعاليتها وقدرتها على المواجهة بوجه البنوك الربوية.

تلك الإشكاليات لا تحل إلا باعتماد الدراسات الميدانية، من قبل متخصصين، وضمن خطط ممنهجة، تعمل ضمن غايات مرسومة ومحدّدة. تلك المصارف لو توفرت لها الظروف المناسبة، من معارف وتخطيط وعلاقات وقوانين، قائمة على أسس علمية، لتمكنت من تحقيق نمو أفضل لكافة المجتمعات النامية، سواء أكانت إسلامية أم غير إسلامية.

لا ندّعي أننا، في بحثنا هذا، قد توصلنا لوضع حلول للمشكلات التي تواجه البنوك اللاربوية، بل إننا سلطنا الأضواء على تلك الموضوعات، لعلها تكون موضع دراسات من قبل الباحثين، في الأمور الاقتصادية والاجتماعية.

## الحواشي

1- رودنسون، مكسيم، الإسلام والرأسمالية، ترجمة نزيه الحكيم، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط 4، بيروت 1982، ص 26.
2- رجب، عزمي، الاقتصاد السياسي ، دار العلم للملايين ، ط 8 ، بيروت 1985 ، ص 188.
3- المصدر نفسه، ص 194.
4- التحديات الاقتصادية للعالم العربي في مواجهة التكتلات الدولية ، أعمال المؤتمر الدولي الثالث الذي نظمه مركز الدراسات العربي الأوروبي، من 9 إلى 11 ك 2 ، 1995 ، في دبي ، ط 1 ، تشرين أول 1995، ص 259.
5- عبد الفضيل ، محمود ، الفكر الاقتصادي العربي وقضايا التحرر والتنمية والوحدة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط 2 ، بيروت 1985 ، ص 57 .
6 - المصدر نفسه ، ص 55.
7- التحديات الاقتصادية للعالم العربي في مواجهة التكتلات الدولية ، مرجع مزكور سابقا ، ص114.
8- م. ن. ص 114.
9- التنمية المستقلة في الوطن العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط1 ، بيروت 1987 ، ص 28.
10- الكواكبي ، عبد الرحمن ، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة 1931، ص 58.
11- قطب ، سيد ، معركة الإسلام والرأسمالية ، دار الشروق ، ط 11 ، القاهرة ، 1990 ، ص 48.
12- عبده ، عيسى ، الربا ودوره في استغلال موارد الشعوب ، دار البحوث العلمية ، ط 2 ، 1977 ، ص 30 .
13- النجار ، عبد الهادي ، الإسلام والاقتصاد ، سلسلة عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1983 ، ص100.
14- فضل الله ، محمد حسين ، مفاهيم إسلامية عامة ، الحلقة الثامنة ، دار الزهراء ، ط 2 ، بيروت 1982، ص 7.
15- عتر ، نور الدين ، المعاملات المصرفية والربوية وعلاجها في الإسلام ، مؤسسة الرسالة ، ط 3 ، بيروت 1978 ، ص 114.
- 16- الاقتصاد السياسي ، مرجع مزكور سابقا ، ص200.
- 17- مقدمة في علم الاقتصاد الحديث ، جوان روبنسون وجون ايتويل ، تعريب فاضل عباس مهدي ، مراجعة محمود عبد الفضيل ، دار الطليعة لطباعة والنشر ، ط 2 ، بيروت 1988 . ص 110.
18- الصدر، محمد باقر، البنك اللاربوي ، دار التعارف للمطبوعات، ط 6، بيروت 1980، ص 6.
19- المصدر نفسه، ص 30.
20- المصدر نفسه، ص 84.
21- النبهاني، تقي الدين، النظام الاقتصادي في الإسلام ، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع ط 4، بيروت 1990 ، ص 62.
22- التحديات الاقتصادية للعالم العربي في مواجهة التكتلات الدولية ، مرجع مزكور سابقا ، ص 275 .
23- الصدر ، البنك اللاربوي ، مرجع مزكور سابقا . ص 6.
24- التحديات الاقتصادية للعالم العربي في مواجهة التكتلات الدولية ، مرجع مزكور سابقا ،ص 278 .
25-رجب ، عزمي ، الاقتصاد السياسي، مرجع مزكور سابقا ، ص 36
26- التحديات الاقتصادية للعالم العربي في مواجهة التكتلات الدولية ، مرجع مزكور سابقا ، ص 276.
.27- المصدر نفسه، ص 261.
28- العلاقات الاقتصادية الدولية، محمد عيسى عبد الله ،دار المنهل اللبناني ،ط 1 ،بيروت 1998، ص222.

## فهرس المراجع:


1- التحديات الاقتصادية للعالم العربي في مواجهة التكتلات الدولية ، أعمال المؤتمر الدولي الثالث الذي نظمه مركز الدراسات العربي- الأوروبي من 9 إلى 11 ك2 ، 1995 في دبي ، ط1 ، تشرين أول 1995.

2- التنمية المستقلة في الوطن العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط1 ، بيروت 1987.

3- رجب ، عزمي ، الاقتصاد السياسي ، دار العلم للملايين ، ط 8 ، بيروت 1985.

4- رودنسون ، مكسيم ، الإسلام والرأسمالية، ترجمة نزيه الحكيم ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ط 4 ، بيروت 1982.

5- الصدر ، محمد باقر، البنك اللاربوي ، دار التعارف للمطبوعات ، ط 6 ، بيروت 1980.

6- عبد الفضيل ، محمود ، الفكر الاقتصادي العربي وقضايا التحرّر والتنمية والوحدة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط 2 ، بيروت 1985.

7- عبده ، عيسى ، الربا ودوره في استغلال موارد الشعوب ، دار البحوث العلمية ، ط 2 ، 1977.

8- عتر ، نور الدين ، المعاملات المصرفية والربوية وعلاجها في الاسلام ، مؤسسة الرسالة ، ط 3، بيروت 1978.

9- العلاقات الاقتصادية الدولية ، محمد عيسى عبد الله وموسى ابراهيم ، دار المنهل اللبناني ، ط 1 ، بيروت 1998.

10- فضل الله ، محمد حسين ، مفاهيم إسلامية عامة ، دار الزهراء ، ط2 ، بيروت 1982.

11- قطب ، سيد ، معركة الإسلام والرأسمالية ، دار الشروق ، ط 11 ، القاهرة 1990.

12- الكواكبي ، عبد الرحمن ، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة 1931.

13- مقدمة في علم الاقتصاد الحديث ، جوان روبنسون وجون ايتويل ، تعريب فاضل عباس مهدي ، مراجعة محمود عبد الفضيل ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ط 2 ، بيروت 1988.

14- النبهاني، تقي الدين، النظام الاقتصادي في الإسلام ، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع ، ط 4 ، بيروت 1990.

15 - النجار، عبد الهادي ، الإسلام والاقتصاد ، سلسلة عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1983.

# باب التاريخ

# السياسة في لبنان بين الطوائف والأحزاب السياسية

**بقلم الدكتورة راما عزيز دراز**
**منتدب للتدريس في كلية العلوم الإنسانية في جامعة بيروت العربية**
ramaroka@hotmail.com

## ملخص

يتضمن بحث "السياسة في لبنان بين الطوائف والأحزاب السياسية" للدكتورة راما عزيز دراز جملة من المفاهيم والتطورات السياسية والطائفية والحزبية، ودراسة للطوائف المؤثرة في الكيان اللبناني سواء الطوائف الإسلامية أو المسيحية. كما يتضمن البحث دراسة للبناء الاقتصادي اللبناني، والبناء السياسي والسمات والخصائص الاقتصادية والسياسية التي تميز بها لبنان منذ ولادته عام 1920 إلى التاريخ الحديث والمعاصر.

هذا، وقد تضمن البحث أيضاً دراسة لأهم الأحزاب اللبنانية المؤثرة في السياسة اللبنانية، وفي مجريات التطورات السياسية اللبنانية.

لقد استطاعت الباحثة تسليط الأضواء على الطوائف والمذاهب والأحزاب اللبنانية وأثرها المباشر في جميع الأحداث والتطورات السياسية والطائفية، وفي تكوين لبنان الحديث والمعاصر.

The sectarian issue in Lebanon was not a fabricated or new issue, but an old one with a historical basis. And overlapped with the issues of the region and associated with them from long periods, and overlapped with international forces directly, and thus affected the attitudes and policy of the Lebanese communities. Whatever the reasons for the sectarian issue, in fact, the ideological and material basis is the element that made it a problem

And gave it the status of continuity because sectarianism is a manifestation of ideological and economic benefit to the community of one another, according to supporters or opponents.

This differentiation led to the acute class division of Lebanese society in terms of its structure and composition and thus became a society characterized by instability and dependence

It seems that while social construction must have a clear impact on the political and economic trend within Lebanon, sectarian diversity is supposed to be a cultural source for Lebanon. However, this may constitute the general framework for all internal conflicts in Lebanon and may therefore be affected by the Palestinian presence inside Lebanon

There is in Lebanon, about eighteen range for each religious and political council

## مقدمة:

بعد فتح العثمانيين للبلاد العربية عام 1516م، كانت الإمارة الناشئة "آل معن" أوضح وأهم تشكيل سياسي في المنطقة المعروفة باسم جبل لبنان[1].

كان الدروز متفوقين في العدد، وكان المسلمون السنة يسكنون المدن الساحلية، أما الشيعة فكانوا يقطنون في وادي البقاع وجبل عامل وكانت الأجزاء الشمالية من الجبل يقطنها الموارنة[2]. وخلال هذه الفترة من الحكم كان للمسلمين السنة مكانتهم العليا في الإدارة والحكم[3]. وتميزوا كذلك بتفوقهم في المجالات الثقافية والدينية، وكذلك كان لهم الدور الحقيقي في مقاومة التسلط الأوروبي على الشام بصفة عامة وعلى لبنان بصفة خاصة[4]. ومن أهم تلك الدول فرنسا التي حصلت على امتيازات دينية وتجارية في المنطقة من السلطان العثماني سليم الأول في النصف الأول من القرن السادس عشر، وبعد تجربة الحملة الفرنسية التي فتحت مصر أمام مصادر النفوذ الغربية الحديثة خاصة بعد محاولة توسيع ذلك النفوذ لمحمد علي وحلفائه حيث اتجهت فرنسا نحو شمال أفريقيا وعملت على احتلال الجزائر 1831[5]، ثم فرضت الحماية على تونس عام 1881م وعلى المغرب سنة 1908م، ومنذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر تركت فرنسا المشرق العربي أمام بريطانيا، في مقابل سيطرتها على المغرب العربي، إلا أنها عملت على تفعيل دورها الديني والثقافي في الشام[6]. وعملت على تحقيق ذلك عن طريق

1 ـ قاسم، جمال زكريا وآخرون: الأزمة اللبنانية أصولها – تطورها، أبعادها، المنطقة العربية للتربية والثقافة، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ط1، 1978م، ص12.

2 ـ نصر، سليم وآخرون، الطبقات الاجتماعية في لبنان، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1، 1982، ص29.

3 ـ المرجع السابق، ص30.

4 ـ قاسم، جمال زكريا: الأزمة اللبنانية، ص10.

5 ـ النحوي، عدنان: على أبواب القدس، دار النحوي للنشر والتوزيع، الرياض، ط2، 1993م، ص53.

6 ـ تقي الدين، سليمان: التطور التاريخي للمشكلة اللبنانية 1970–1920، دار ابن خلدون، بيروت، ط1، 1977م، ص21.

الإرساليات الدينية في معاهدها في لبنان[1].

وكان انتهاءُ الحرب العالمية الأولى وانتصار دول الحلفاء دافعاً لتقسيم الولايات العربية بين إنجلترا وفرنسا تبعاً لاتفاقية سايكس بيكو[2].

والحقيقةُ أن عام 1920م كان مفصلاً في تاريخ لبنان، حيث أصبحت القومية هي القضية الرئيسة بالنسبة للقوى الداخلية في لبنان، فالجنرال غورو أعلن رسمياً فصل سوريا عن لبنان بإعلان دولة لبنان الكبير مدعياً بأن المسلمين والمسيحيين قد قبلوا بهذا الإعلان بعد أن نال التأييد والمباركة من البطريرك الماروني "إلياس الحويك". وكان الموقف الإسلامي يسير في رفض صيغة لبنان الكبير بسبب ارتباطهم تاريخياً بالوحدة السورية[3].

**أولاً: البناء الاجتماعي:**

لم تكن القضية الطائفية في لبنان قضية مفتعلة أو جديدة، إنما هي قضية قديمة ولها أساسها التاريخي[4]. وتداخلت مع قضايا المنطقة وارتبطت بها منذ فترات بعيدة، كما تداخلت فيها القوى الدولية بشكل مباشر، وبذلك أثرت في اتجاهات وسياسة الطوائف اللبنانية[5]، ومهما تعددت الأسباب للقضية الطائفية فالحقيقة أن الأساس العقائدي والمادي لها هو العنصر الذي جعل منها هماً جماهيرياً لمؤيديها، وأعطاها صفة الاستمرارية، وذلك لأن الطائفية تعد مظهراً عقائدياً واقتصادياً يعود بالفائدة على طائفة دون الأخرى بحسب مؤيديها أو معارضيها[6].

وأدى ذلك التمايز إلى الانقسام الطبقي الحاد في المجتمع اللبناني من حيث بنيته وتشكيله، وبالتالي أصبح مجتمعاً يغلب عليه طابع عدم الاستقرار والتبعية[7].

من نافل القول أن للبناء الاجتماعي أثرا واضحا على الاتجاه السياسي والاقتصادي داخل لبنان. وفي حين يفترض أن يكون التعدد الطائفي مصدراً حضارياً وتاريخياً للبنان، فإن ذلك التعدد قد شكل، للأسف، الإطار العام لجميع النزاعات الداخلية في لبنان مضافا إليها عامل الوجود الفسطيني.

---

1 ـ الطاهري، حمدي: سياسة الحكم في لبنان، دار النهضة العربية، القاهرة، ط2، 1968م، ص324.

2 ـ تقي الدين، سليمان: التطور التاريخي، ص21.

3 ـ حلاق، حسان: تاريخ لبنان المعاصر، ص7.

4 ـ غليمور، دافيد: دروب الانهيار – تأريخ سياسي للأزمة اللبنانية، حسان يوسف (ترجمة)، دار المروج، بيروت، ط1، 1988م، ص31 – عدوان، أكرم: تطور العلاقات السورية اللبنانية 1976–1958م، رسالة ماجستير (غير منشورة)، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1992م، ص38.

5 ـ حلاق، حسان: تاريخ لبنان المعاصر، ص5 – قربان، ملحم: تاريخ لبنان السياسي، ج2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1980م، ص36.

6 ـ عدوان، أكرم: تطور العلاقات السورية اللبنانية، ص38 – غليمور، دافيد: دروب الانهيار، ص36.

7 ـ نصر، سليم: الطبقات الاجتماعية، ص1، قرباني، ملحم: تاريخ لبنان السياسي، ص36.

يوجد في لبنان حوالي ثماني عشرة طائفة لكل منها هيئة دينية وسياسية ومن أهم هذه الطوائف:

**المذاهب والطوائف الإسلامية:**

هي الطوائف التي أصبح لها وجود بعد الفتح الإسلامي، حيث تحول قسم كبير من سكان لبنان المسيحيين إلى الإسلام[1]، ومن أهم هذه الطوائف:

**أ- الطائفة السنية:**

تعتبر طائفة السنة من أهم الطوائف الإسلامية في لبنان بسبب كثرة عددها مقابل الطوائف الأخرى، ويتمركز العدد الأكبر منها في مدينتي بيروت وطرابلس[2]. ويعتبر مسلمو بيروت هم طليعة اللبنانيين فهم أصحاب الأملاك ورؤوس الأموال، ويعملون بالتجارة منذ أقدم الأزمنة، ويطغى التفكير التجاري على عقولهم[3]. وعندما أعلن الفرنسيون بيروت عاصمة للبنان الكبير، وجد زعماء المدينة أنفسهم أمام الأمر الواقع، فرضخوا له أما مسلمو طرابلس فرفضوا ذلك، وطالبوا بالوحدة مع سوريا، لا سيما وأن الموقع الجغرافي يربطهم بشكل محكم معها، بالإضافة إلى أن مصالحهم الاقتصادية والتجارية تجعلهم على صلة دائمة مع سوريا[4].

وللطائفة السنية دور فعال في الحياة السياسية، فالدستور اللبناني يعطيها حق رئاسة الوزراء، كما يمثلها في مجلس النواب عدد من النواب[5].

**ب . الطائفة الشيعية:**

ظهر الشيعة في لبنان زمن الدولة الفاطمية، حيث كان المذهب الشيعي هو المذهب الرسمي للدولة الفاطمية، وبذلك قوي نفوذهم في لبنان، واستوطن قسم كبير منهم في صور وصيدا وبعلبك. كما تقيم مجموعة ضئيلة منهم في بيروت مركز الطائفة السنية[6].

وأهم خلاف بين الشيعة والسنة هو المسألة الدينية، وقد استغل الفرنسيون هذا الخلاف،

1 ـ كوبان، هيلينا: لبنان – 400 سنة من الطائفية، سمير عطا الله (ترجمة)، منشورات هاي لايت، لندن، د. ط، د. ت، ص21 – غليمور، دافيد: دروب الانهيار، ص31.

2 ـ كوثراني، وجيه: الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، 1920-1860م، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط3، 1982م، ص32 – غليمور، دافيد: دروب الانهيار، ص31.

3 ـ سكوبان، هيلينا: لبنان – 400 سنة من الطائفية، ص21 – غليمور، دافيد: دروب الانهيار، ص31.

4 ـ الطاهري، حمدي: سياسة الحكم، ص28.

5 ـ ماريديني، زهير: فلسطين والحاج أمين الحسيني، دار إقرأ، بيروت، ط1، 1986م، ص104 – شديد، محمد: الولايات المتحدة والفلسطينيون، جمعية الدراسات العربية، القدس، ط1، 1985م، ص90.

6 ـ قاسم، جمال زكريا: الأزمة اللبنانية، ص403.

لذلك أصبح الشيعة يحجمون عن الانضمام إلى سوريا كغيرهم من المسلمين[1]. ويشارك أبناء هذه الطائفة بشكل مباشر في الحياة السياسية حيث يمثلهم في مجلس النواب بعض النواب، ويعطيهم الدستور اللبناني حق رئاسة المجلس النيابي[2].

### ج . الطائفة الدرزية:

تنسب إلى الداعي محمد بن إسماعيل وكان تركياً[3]، وهم يرفضون بشدة أن يطلق عليهم اسم الدروز، ويفضلون بدلاً منه اسم الموحدين[4].

وتعود نشأة هذه الطائفة إلى أوائل القرن الحادي عشر، حيث جاء محمد نشتكين إلى سوريا سنة 1020م، ثم انتقل إلى لبنان، وأخذ يدعو إلى مذهب جديد يدور حول الحاكم بأمر الله[5]، وفي القرن التاسع عشر وقعت بينهم وبين الموارنة في لبنان فتنة مهدت للتدخل الأوروبي في البلاد[6].

وقد نص الدستور اللبناني على أن الدروز من الطوائف الإسلامية[7]، ويختلفون عن المسلمين في كثير من الشعائر، ومنها الصوم والصلاة والزكاة، وهذه الشعائر أسقطها عنهم الحاكم بمجرد توحيدهم له، وتأييدهم لولايته[8]. ومن أبرز شخصيات هذه الطائفة في لبنان الشهيد كمال جنبلاط ذو المشاركة الفاعلة في الحياة السياسية، ويعتبر المؤسس الحقيقي للحزب التقدمي الاشتراكي الذي يمثل هذه الطائفة، كما برز من بعده نجله الوزير وليد جنبلاط وحفيده النائب تيمور وليد جنبلاط. وتشارك هذه الطائفة في الحياة السياسية اللبنانية إذ يمثلها في الحكومة عدة وزراء وعدة نواب في المجلس النيابي[9]. ويوجد أكبر أعداد هذه الطائفة في

---

1 ـ الطاهري، حمدي: سياسة الحكم، ص29 – غليمور، دافيد: دروب الانهيار، ص23.

2 ـ كوبان، هيلينا: لبنان 400 سنة من الطائفية، ص18 – عدوان، أكرم: تطور العلاقات السورية اللبنانية، ص41.

3 ـ الحفني، عبد المنعم: موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 1999، ص343.

4 ـ كامل، محمد حسين: طائفة الدروز – تاريخها وعقائدها، دار المعارف، مصر، ط2، 1968م، ص6.

5 ـ كوثراني، وجيه: الاتجاهات الاجتماعية، ص33.

6 ـ رزق، هدى: الدروز – التشتت والهوية – سوريا وفلسطين ولبنان، الاجتهاد، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة، بيروت، العدد 21، السنة الخامسة، يونيو 1993م، ص142 – عبد الغني، مصطفى: معجم مصطلحات التاريخ العربي الحديث والمعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 2003م، ص339.

7 ـ الطاهري، حمدي: سياسة الحكم، ص31.

8 ـ عبد العزيز، عمر: تاريخ لبنان الحديث، مكتبة كريدية، بيروت، د. ط، د. ت، ص8.

9 ـ اسماعيل، محمود: فرق الشيعة بين التفكير السياسي والنفي الديني، سينا للنشر، القاهرة، ط1، 1995م، ص73.

سوريا، ثم في لبنان، كذلك يوجد عدد منهم في فلسطين[1].

ويتضح مما سبق أن للدروز توجهات وطنية وقومية، واقترن ذلك بانفراد هذه الطائفة ببعض الآراء الدينية المميزة. ومن الممكن أن يكون لهذه الطائفة دور إيجابي تجاه الفلسطينيين داخل لبنان وخاصة بعد حرب 1948م.

**المذاهب المسيحية:**

يعود بدء انبثاقها إلى الانقسامات التي أحدثتها المناقشات اللاهوتية في أواسط القرن الخامس حول طبيعة السيد المسيح، وما تبعها من مصادمات أدت إلى انفصال نصارى سوريا والعراق ومصر عن الكنيسة الموحدة الكاثوليكية، وبالتالي إلى تأليف تلك الفرق المسيحية الشرقية المتخاصمة[2]. تبع ذلك انتقال المسيحية من سورية إلى لبنان، حيث ضم المجتمع اللبناني العديد من هذه الطوائف التي انتشرت في مناطق عديدة منها الجبل والكورة والمتن والوسط والشمال. وهذه الطوائف:

**1 . الطائفة المارونية:**

تنسب إلى القديس مارمارون*3[4]، وتعتبر من أهم الطوائف المسيحية في بلاد الشام، لا بسبب عددهم في شمال لبنان، بل بسبب الدور السياسي الذي لعبته في تاريخ البلاد، والدور القيادي لها في توجيه السياسة اللبنانية[5]. ويمثل هذه الطائفة في الحكومة عدد من الوزراء، وعدد من الـنواب في مجلس النواب[6]. وحظيت الطائفة بهذه المكانة بسبب دعم فرنسا لها بكافة الوسائل، رغم أنها تمتلك القليل من الأماكن التاريخية والثقافية باستثناء بعض المقاطعات الكنيسية[7]. لذلك نجد أن هذه الطائفة تعتبر لبنان عربي الوجه، غربي الثقافة. يجمع بين مدنية الغرب وروحانية

1 ـ كوثراني، وجيه: الاتجاهات الاجتماعية، ص33 – عدوان، أكرم: العلاقات السورية اللبنانية، ص42 – عبد الغني، مصطفى: المعجم، ص339، رزق، هدى: الدروز – التشتت والهوية، الاجتهاد، ع21، ص141.

2 ـ سرحال، أحمد: النظم السياسية والدستورية في لبنان والدول العربية، دار الباحث، بيروت، ط1، 1980م، ص193.

*3 . مارمارون: رجل دين كاثوليكي، ينسب إليه ظهور الطائفة المارونية التي استمدت تسميتها منه ويعد من القديسين وكان ظهوره فيت ركيا في القرن الخامس الميلادي، وهاجر بعض أنباءه في القرن السابع إلى لبنان هرباً من اضطهاد اليعاقبة لهم حيث أسسوا الطائفة المارونية، عدوان، أكرم: العلاقات السورية اللبنانية، ص43.

4 ـ رندل، جوناثان: حرب الألف سنة حتى آخر مسيحي، بشار رضا (ترجمة)، د. ن، د. م، ط1، 1984، ص49.

5 ـ المرجع السابق، ص49.

6 ـ عدوان، أكرم: العلاقات السورية اللبنانية، ص43.

7 ـ الطاهري، حمدي: سياسة الحكم في لبنان، ص23 – غليمور، دافيد: دروب الانهيار، ص32.

الشرق[1]. لذا كان المجتمع الماروني في صراع مستمر للحصول على الهوية القومية في ظل مجتمع مهيمن[2]، غير أن اتفاقية الطائف عام 1989 أكدت على هوية لبنان العربية.

وبالنظر إلى ما كانت تتصف به هذه الطائفة من مستوى سياسي واجتماعي وثقافي، فإنه لم يتح لغيرها من الطوائف نتيجة رعاية ودعم فرنسا لها.

## 2 . الروم الأرثوذكس:

هم عرب في أنسابهم، فهم ينتمون إلى الغساسنة الذين كانوا في سوريا منذ الفتح الإسلامي، وقاموا بمساعدة الفاتحين ضد الرومان، وتغلبت هويتهم القومية على دينهم، فأسلم قسم منهم، وبقي قسم آخر على دينه القديم مع اندماج الجميع بشكل كلي مع المجتمع الإسلامي[3]، ولقد برزت هذه الطائفة في القرن التاسع عشر واستقرت في المناطق الساحلية[4]، وفي المدن الكبرى التي يتواجد فيها السنة، حيث كانت علاقتهم طيبة معهم[5].

ولذلك اتخذت فرنسا سياسة فيها الكثير من التعسف تجاه الأرثوذكس، وشجع الموارنة هذه السياسة لما بين الطائفتين من تنافس عقائدي[6]. ويمثل هذه الطائفة في المجلس النيابي بعض النواب، ولها مناصب في الوزارة وتعتبر من أهم الطوائف في لبنان[7].

## 3 . الروم الكاثوليك:

تنسب إلى الغساسنة، بالإضافة إلى أنها كانت جزءاً من الأرثوذكس لكنها انشقت عنهم في القرن الثامن عشر[8]، وتتركز في منطقة زحلة، ويتميز أفرادها بالثراء الفاحش، وأخذ مواقعهم في الأماكن الحساسة في الدولة، وسبب ذلك أنهم غالباً ما يكونون حلفاء للموارنة، ويمثل هذه الطائفة في المجلس النيابي بعض النواب ولها منصب واحد في الوزارة[9].

---

1 ـ كوثراني، وجيه: الاتجاهات الاجتماعية في لبنان، ص33 – غليمور، دافيد: دروب الانهيار، ص32.

2 : Gilmour, David: Dispossessed – The ordeal of the Palestinians 1917–1980, Sidgwick& Jackson, London, 1st. ed, 1980, p. 178.

3 ـ الطاهري، حمدي: سياسة الحكم في لبنان، ص24 – شديد، محمد: الولايات المتحدة والفلسطينيون، ص124.

4 ـ كوثراني، وجيه: الاتجاهات الاجتماعية في لبنان، ص34 – عدوان، أكرم: العلاقات السورية اللبنانية، ص44.

5 ـ قاسم، جمال زكريا، وآخرون: الأزمة اللبنانية، ص403.

6 ـ الطاهري، حمدي: سياسة الحكم في لبنان، ص25.

7 ـ قاسم، جمال زكريا وآخرون: الأزمة اللبنانية، ص33.

8 ـ كوثراني، وجيه: الاتجاهات الاجتماعية في لبنان، ص34 – عدوان، أكرم: تطور العلاقات، ص45.

9 ـ قاسم، جمال زكريا وآخرون: الأزمة اللبنانية، ص407 – الطاهري، حمدي: سياسة الحكم في لبنان، ص25.
Gilmour, David: The Ordeal of the Palestinians, p. 178.

### 4 . الأقليات:

بجانب الطوائف الكبرى، هناك العديد من الطوائف الأخرى والتي تعرف باسم الأقليات، وقد خصص قانون الانتخاب مقعداً نيابياً للعلويين ومقعداً نيابياً للأقليات المسيحية، ومن هذه الطوائف طائفة العلويين والآشوريين والسريان وسواها[1].

### ثانياً: البناء الاقتصادي في لبنان:

يعتمد ثلثا سكان لبنان إلى حد بعيد على الزراعة، وذلك في إطار نظام إقطاعي عشائري طائفي[2]، عملت على تثبيته سلطة الانتداب 1943-1920م التي استغلت الخلافات الطائفية إلى أقصى الحدود لاستغلال موارد البلاد الاقتصادية، واستمرار نفوذها الاستعماري في لبنان[3] الذي هو في الأصل تشكيلة اجتماعية اقتصادية رأسمالية لا تزال مشتملة على علاقات إنتاج اجتماعية وغير اجتماعية فيها طبقة منفردة من الإقطاعيين، قليلة الارتباط بالصناعة أو بالقطاع المصرفي، كذلك تتضح الأهمية القصوى للانتماء العائلي والعشائري والطبقي في تحديد هوية اللبنانيين، حيث ينقسم المجتمع اللبناني إلى ثلاث فئات اقتصادية[4]، غير أن لبنان شهد بعد عام 1943 بعض الفئات التي اهتمت بالقطاع الصناعي والقطاع المصرفي بشكل بارز.

إن تلك الطبقات تضم العائلات التي تمارس نفوذها من خلال موقعها الأساسي في الحكم، فمميزات السياسة التي اتبعتها السلطات اللبنانية مقارنة مع تلك التي اتبعتها الكثير من الدول النامية كفلت حرية المبادرة للقطاع الخاص للسيطرة بنسبة محددة على الحركة الاقتصادية[5].

ونظراً لأن هذه الطبقة تتميز بمستوى ثقافي وتعليم مرتفع، ولما تمتلكه من إمكانات مادية هائلة، فقد منحها القانون اللبناني امتيازات خاصة بها[6].

إن الفلسطينيين أصحاب الأموال وذوي النفوذ والمهن كانوا يتمتعون بمعاملة خاصة أو اعتبارات معينة، فقد أعطيت الأولوية في الحصول على إذن عمل لذوي التحصيل العالي أو المهنيين المتخصصين، أو لأولئك الذين لهم أصول لبنانية، وللمتزوجين من نساء لبنانيات، حيث استطاع بعض الفلسطينيين مثل إميل البستاني اللبناني المولد والذي هاجر إلى فلسطين

1 ـ قاسم، جمال زكريا: الأزمة اللبنانية، ص405 – شديد، محمد: الولايات المتحدة والفلسطينيون، ص9.
2 ـ نصر، سليم: الطبقات الاجتماعية، ص21.
3 ـ قاسم، جمال زكريا: الأزمة اللبنانية، ص410 – غليمور، دافيد: دروب الانهيار، ص27.
4 ـ قاسم، جمال زكريا: الأزمة اللبنانية، ص391.
5 ـ كوثراني، وجيه: الاتجاهات الاجتماعية، ص38 – عدوان، أكرم: العلاقات السورية اللبنانية، ص26 – غليمور، دافيد: دروب الانهيار، ص25.
6 ـ قاسم، جمال زكريا: الأزمة اللبنانية، ص410.

في فترة الانتداب، وأسس شركة للتعاهدات والتجارة – استطاع نقل نشاط شركاته إلى بيروت بعد حرب 1948، واستطاع الحصول على إقامة واستثمار أمواله في التملك[1].

فالدستور اللبناني ينص على أن الحقوق والحريات العامة تتطابق مع فلسفة المذهب الفردي ونظرته لها، حيث يقوم بالاعتراف بالحقوق والحريات التقليدية ويمنع الدولة من التدخل في المجالات الاقتصادية والاجتماعية تماشياً مع السياسات الخارجية[2].

ويتضح من طبيعة البناء الاجتماعي والاقتصادي في لبنان أن المجتمع اللبناني امتاز بالتعددية وكثرة الطوائف ذات العقائد والتقاليد المختلفة، ما أثر على علاقة لبنان مع دول الجوار سواءٌ إيجابياً أم سلبياً وخصوصاً مع فلسطين وسوريا التي تربطهما علاقات تاريخية وطيدة مع لبنان.

**ثالثاً: البناء السياسي:**

يتأثر النظام السياسي في لبنان بالبناء السياسي داخل الدولة التي تقوم على قاعدتين أساسيتين، الأولى: إطار دستوري خاص من جانب، والثانية: مؤسسات سياسية ترتبط به من جانب آخر، وتنظّم العلاقة بين هذه المؤسسات حسب قواعد معينة[3].

وُضع الدستور اللبناني عام 1926م حيث مُنح المفوض السامي سلطات تتعارض مع سلطات المسؤولين اللبنانيين وتحد منها. ولا تتفق مع كرامة البلاد وسيادتها[4]. ولقد جاء ذلك الدستور على غرار دستور الجمهورية الفرنسية الثالثة الذي صدر عام 1875م، ذلك أن الدستور وليد لإرادة الدولة المنتدبة، وأن ممثلي تلك الدولة هم الذين قاموا بوضع مشروع الدستور بمفردهم دون مشاركة من المجلس التمثيلي اللبناني أو فئات الشعب[5] وهذا ما يخالف المادة الأولى من صك الانتداب التي تلزم الدولة المنتدبة بوضع نظام أساسي للحكم بالاتفاق مع السلطات المحلية، يأخذ بالاعتبار حقوق الأهالي ومصالحهم. ويتميز نظام الحكم في لبنان في ذلك الدستور بأنه جمهوري، حيث أن مواده[6] تخلو تماماً من أي نص أو إشارة

1 ـ سميث، بإميلا آن: فلسطين والفلسطينيون، إلهام بشارة الخوري (ترجمة)، دار الحصاد، دمشق، ط1، 1991م، ص149. أنظر أيضاً: حلاق، حسان: موقف لبنان من القضية الفلسطينية 1952–1918م، مركز الأبحاث (م. ت. ف)، بيروت، ط1، 1982م، ص12.

2 ـ بسيوني، عبد الغني: القانون الدستوري اللبناني، الدار الجامعية، بيروت، د. ط، 1987، ص252.

3 ـ عدوان، أكرم: العلاقات السورية اللبنانية، ص73.

4 ـ شمعون، كميل: مذكراتي، د. م، د. ط، 1969، ص25 – بسيوني، عبد الغني: القانون الدستوري اللبناني، ص41.

5 ـ رباط، أدمون، وآخرون: لبنان والبنية الطائفية، منشورات دار الفن والأدب، بيروت، ط1، 1985م، ص47.

6 ـ بسيوني، عبد الغني: القانون الدستوري اللبناني، ص23.

تتعلق بالديانة التي يجب أن يدين بها رئيس الجمهورية أو الطائفة التي ينتمي إليها[1]. الأمر الذي أدى بالمسلمين إلى عدم الاعتراف به، وقاموا بعقد مؤتمرات وحدوية في بيروت ودمشق للمطالبة بالانفصال عن لبنان والالتحاق بالوحدة السورية[2].

ولقد كان شارل دباس أول رئيس لبناني مسيحياً أرثوذكسياً[3]. ولكونه من هذه الطائفة، رحب به بحذر المسلمون السنة والشيعة والدروز كما كان اختياره مقبولاً من جانب المسيحيين الأرثوذكس والموارنة لكونه استقلالياً لبنانياً قديماً[4].

ويبدو أن اختيار سلطات الانتداب له بالذات سهل له المهمة بالتوافق بين جميع الطوائف، خصوصاً أنه أحد أبناء طائفة أقلية في لبنان الأمر الذي يجعل سلطات الانتداب تسيطر عليه وتجبره على تنفيذ سياساتها أكثر من أي شخص من طائفة كبيرة، ولأنه كان حليفاً للفرنسيين منذ العهد العثماني.

وبقيت البلاد في حالة عدم استقرار خلال عهد شارل دباس حتى انتهت مدة رئاسته عام 1932م[5]. وتنافس بعده على الرئاسة كل من إميل إده وبشارة الخوري ورغم أنهما مارونيان فقد حظي إميل إده بتأييد السلطات الفرنسية[6] أما الخوري فقد مال إليه المسلمون بسبب علاقته الحسنة معهم واستيائهم من تصرفات خصمه الذي عمل خلال فترة وزارته السابقة في عهد شارل دباس على تعزيز البعثات الكاثوليكية[7].

وقد ترشح الشيخ محمد الجسر وهو سني وكان يرأس مجلس النواب في عهد شارل دباس نفسه لرئاسة الجمهورية، وأصبح أقوى المتنافسين، إذ كان يؤيد ترشيحه كل من المسلمين والكاثوليك والأرثوذكس الذين وجدوا فيه حلاً للخلاف القائم بين المتخاصمين[8].

ولما كانت سياسة فرنسا تعتمد على تشجيع الطائفية، فقد رأت في وصول شيخ مسلم إلى منصب رئاسة الجمهورية عائقاً أمام تحقيق أهدافها، فلجأت إلى تعطيل الدستور وحل البرلمان، وقامت بتعيين شارل دباس من جديد رئيساً للجمهورية وللحكومة في وقت واحد، وبذلك فرضت الصراعات الطائفية في البلاد[9].

---

1 ـ شمعون، كميل: مذكراتي، ص25.
2 ـ حلاق، حسان: تاريخ لبنان المعاصر، ص9. أنظر أيضاً: حلاق، حسان: مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة، عدة صفحات. الطاهري، حمدي: سياسة الحكم في لبنان، ص157.
3 ـ شمعون، كميل: مذكراتي، ص25.
4 ـ الخصوصي، بدر الدين: القضية اللبنانية في تاريخنا الحديث والمعاصر، د. م، ط1، 1978م، ص90.
5 ـ الطاهري، حمدي: سياسة الحكم في لبنان، ص127.
6 ـ حلاق، حسان: تاريخ لبنان المعاصر، ص127.
7 ـ الخصوصي، بدر الدين: القضية اللبنانية، ص90.
8 ـ تقي الدين، سليمان: التطور التاريخي، ص58.
9 ـ الطاهر، حمدي: سياسة الحكم في لبنان، ص158، قاسم، جمال زكريا: الأزمة اللبنانية، ص189.

غير أن لبنان شهد صفحات إيجابية في مجال العمل السياسي لا سيما في الفترة بين 1936-1932م، حيث برزت بين اللبنانيين حركات سياسية قومية ووطنية تجمع بينهم وتوحدهم إلى حد ما في مجال العمل السياسي ضد الممارسات الفرنسية[1]. وبدأت تتبلور معارضة وطنية شاملة لسياسة الانتداب برزت بوضوح من خلال ظهور ما يسمى بالأحزاب السياسية[2].

تنص المادة الثامنة من الدستور اللبناني على أن الحرية الشخصية مصونة وفي حمى القانون ولا يمكن تحديد جرم أو تعيين عقوبة إلا بمقتضى القانون[3].

لذلك فإن حرية الاعتقاد مطلقة كما أن الدولة تحترم جميع الأديان وتكفل إقامة الشعائر الدينية تحت حمايتها على ألا يكون ذلك فيه إخلال للنظام العام. وبهذا تقر القوانين بحرية إنشاء الأحزاب المعترف بها رسمياً على الرغم من ذلك فهنالك أحزاب غير مرخص لها قانونياً[4].

وفيما يلي كلمة موجزة عن بعض الأحزاب اللبنانية:

**أولاً: الأحزاب اللبنانية ذات الأغلبية الإسلامية:**

**1 . حزب النجادة:** أنشئ عام 1936م على أنه منظمة شبه عسكرية، وأغلب عناصر الحزب من طائفة السنة[5]، على أنه لا يوجد في قانون الحزب ما يمنع انضمام أي فرد من باقي الطوائف الإسلامية الأخرى لعضويته، لأن الحزب يرى أن الدين مسألة شخصية بحتة ليس من حق أحد التدخل فيها[6]. وقد حدد الحزب المبادئ العامة لسياسته الداخلية في المادة الأولى من نظامه الأساسي حيث ورد فيها أن النجادة حزب لبناني سياسي ديمقراطي عربي تحرري[7]. أساسه القاعدة الشعبية العريضة الداعمة للميثاق الوطني والنظام السياسي والاقتصادي المنبثق عنه[8]، الذي يعمل على فرض المساواة وتكافؤ الفرص بين جميع الأفراد

1 ـ الطاهري، حمدي: سياسة الحكم في لبنان، ص158.
2 ـ تقي الدين، سلميان: التطور التاريخي للمشكلة اللبنانية، ص58، الخصوصي، بدر الدين: القضية اللبنانية، ص94.
3 ـ بسيوني، عبد الغني: القانون الدستوري اللبناني، ص254.
4 ـ قزما، يوسف: الطائفة في لبنان، دار الحمراء، بيروت، ط1، 1989م، ص15.
5 ـ قاسم، جمال زكريا: الأزمة اللبنانية، ص298.
6 ـ سرحال، أحمد: النظم السياسية، ص207.
7 ـ النادي الثقافي العربي: القوى السياسية في لبنان، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1970م، ص146.
8 ـ تقي الدين، سليمان: التطور التاريخي، ص75.

داخل الدولة، ويطالب الحزب بأن تكون الرئاسة الأولى دورية بين المسلمين والمسيحيين[1]، وكذلك يعمل على تحرير المجتمع اللبناني من السيطرة الخارجية، وبث الروح الوطنية والعدالة الاجتماعية، وتطبيق مبادئها في مختلف الميادين[2]. وقد حدد الحزب المبادئ العامة لسياسته الخارجية بتدعيم سياسة التضامن العربي والدفاع عن حقوق العرب المشروعة، وخاصة في فلسطين، التي نادى الحزب بضرورة تحريرها بشكل كامل من الاحتلال[3]، والرئيس عدنان الحكيم كان أحد أبرز رؤسائه.

### 2 . حزب الهيئة الوطنية:

أسس عام 1950م على يد شخصيات إسلامية، أبرزها رياض الصلح[4].ومن أهم مبادئ الحزب أن لبنان بلد عربي المقصد والطابع، فتاريخه جزء من تاريخ الأمة العربية المجاورة، ومصالحه الاقتصادية والسياسية مرتبطة بمصالح إخوانه العرب، لذلك ستذهب سدى كل المخططات الاستعمارية الهادفة إلى خلق قومية لبنانية مصطنعة مستقلة عن القومية العربية، المرتبطة بالقضية الفلسطينية بشكل إيجابي وفعال والعاملة على شجب السياسة الدولية الداعمة للكيان الصهيوني[5].

### 3 . الحزب التقدمي الاشتراكي:

تأسس عام 1949م على يد كمال جنبلاط، ومعظم عناصره من الدروز[6]، علماً أن واضع نظامه الأساسي كان العلامة الشيخ عبدالله العلايلي المسلم السني البيروتي. وكان يمثل طموحات ومصالح رجال الفكر والعمال والفلاحين وأرباب المهن الخاصة[7]. ومن مبادئ الحزب الجمع بين إيجابيات الأحزاب السياسية والاجتماعية المتضاربة في العالم الأحزاب الإسلامية، الشيوعية والديمقراطية وغيرها[8]، لمساندة الشعوب المضطهدة، وقد انتهج سياسة مساندة الوجود الفلسطيني في لبنان، والعمل من أجل الضغط على الحكومة اللبنانية والمسؤولين لإشراك القوى اللبنانية في تأييد ومساندة الشعب الفلسطيني[9].

---

1 ـ قاسم، جمال زكريا: الأزمة اللبنانية، ص298 – النادي الثقافي: القوى السياسية، ص146.
2 ـ قاسم، جمال زكريا: الأزمة اللبنانية، ص298.
3 ـ الطاهري، حمدي: سياسة الحكم، ص258 – قاسم، جمال زكريا: الأزمة اللنبانية، ص298.
4 ـ سرحال، أحمد: النظم السياسية، ص207.
5 ـ النادي الثقافي: القوى السياسية، ص29 – تقي الدين، سليمان: التطور التاريخي، ص75.
6 ـ سرحال، أحمد: النظم السياسية، ص207.
7 ـ تقي الدين، سليمان: التطور التاريخي، ص75.
8 ـ عدوان، أكرم: تطور العلاقات السورية اللبنانية، ص63.
9 ـ النادي الثقافي: القوى السياسية، ص77 – الطاهري، حمدي: سياسة الحكم، ص273.

### 4 . حزب الكتائب:

تأسس في عهد الانتداب الفرنسي عام 1936م، وغالبية أعضائه من الطائفة المارونية، لكن لا يمنع انضمام أبناء الطوائف الأخرى له، إلا أن طبيعة تكوين الحزب ونزعته تجعل من المستحيل انضمام أي مسلم سني إليه، وكذلك الحال بالنسبة للمسيحيين الأرثوذكس[1]. وأطلق عليه أيضاً اسم حزب الشباب، لكونه يركز على أن تكون غالبية أعضائه من الشباب[2]. ويرجع ذلك إلى رغبة المسؤولين عن الحزب بتنشئة هؤلاء الشباب حسب العقيدة التي يؤمنون بها[3]. وقد برز الحزب في بداية الأمر كحركة رياضية، ثم تحول إلى حركة سياسية تأخذ طابعاً عسكرياً[4] ومن أبزر قادة الحزب الشيخ بيار الجميل مؤسس الحزب، ثم الشيخ بشير الجميل الذي عين قائداً لفرقة كتائبية مقاتلة، ثم أصبح فيما بعد ولأيام قليلة رئيساً للجمهورية[5]. كما برز شقيقه الشيخ أمين الجميّل الذي أصبح بدوره رئيساً للجمهورية اللبنانية (1982–1988).

وتقوم المبادئ الأساسية للحزب على اعتبار أن لبنان جزء من بلاد البحر الأبيض المتوسط وأن موقعه الجغرافي يجعله جزءاً من البلاد العربية[6]. وبذلك أخذ بالمناداة بفكرة القومية اللبنانية وعمل على إبرازها، حيث يرى الحزب أن لبنان وطن مستقل بحدوده المنبثقة في الدستور المعلن 1926م، وأن اللبنانيين من مقيمين ومغتربين أمة واحدة، ذات قومية مميزة تجمعهم إرادة واحدة وتاريخ مشترك، خاصة المسيحيين منهم الذين يجب أن يكون لهم أكثرية الوظائف الحكومية والمقاعد النيابية[7].لذلك عارض الحزب الوجود الفلسطيني في لبنان، وحاربه بكل الوسائل، كما أنه كان دوماً معارضاً للوحدة العربية حرصاً على استقلال لبنان[8].

### 5 . حزب الاتحاد الدستوري (الكتلة الدستورية):

أسس عام 1934م بقيادة بشارة الخوري[9]، وهو يمثل البرجوازية الناشئة المتضررة من سياسة الانتداب الفرنسي والداعية للتعاون مع الأقطار العربية[10]. ويعتبر الحزب نفسه لبنانياً

1 ـ تقي الدين، سليمان: التطور التاريخي، ص75 – غليمور، دافيد: دروب الانهيار، ص42.
2 ـ قاسم، جمال زكريا: الأزمة اللبنانية، ص294.
3 ـ الطاهري، حمدي: سياسة الحكم، ص253، غليمور، دافيد: دروب الانهيار، ص42.
4 ـ سرحال، أحمد: النظم السياسية، ص207.
5 ـ مركز الإعلام والتوثيق: بشير الجميل والقضية اللبناني، دار الابجدية للطباعة النشر، د. م، د. ط، د. ت، ص6.
6 ـ قاسم، جمال زكريا: الأزم اللبنانية، ص294.
7 ـ النادي الثقافي: القوى السياسية، ص20 – غليمور، دافيد: دروب الانهيار، ص42.
8 ـ النادي الثقافي: القوى السياسية، ص20.
9 ـ قاسم، جمال زكريا: الأزمة اللبنانية، ص295.
10 ـ تقي الدين، سليمان: التطور التاريخي، ص75 – حمدي: سياسة الحكم، ص288.

يعمل في نطاق الأنظمة والقوانين. ومن المبادئ التي نادى بها أن فلسطين عربية ويحق لشعبها استعادة كافة أراضيه من خلال اللجوء إلى كافة الوسائل والطرق لتحقيق هذا الهدف[1]. وكان منافساً لحزب الكتلة الوطنية التي كان يرأسها الرئيس إميل اده.

### 6 . حزب الوطنيين الأحرار:

أسس عام 1958م بقيادة كميل شمعون، ويضم الحزب الأصدقاء الشخصيين له الذين يسايرونه في مخططه السياسي سواء بالنسبة للسياسة الداخلية أو الخارجية[2]. ويحرص الحزب على علاقات طيبة مع الدول العربية ويدافع عن قضاياها[3]. ومن مبادئ الحزب تصنيفه الصهيونية بأنها خطر محدق. استولت على فلسطين، وكذلك تهدد لبنان في أرضه وكيانه كما تهدد باقي الدول العربية المحيطة به[4] على الرغم من ذلك فإن سياسة الحزب لا تتعاطى أي نشاط يقصد به النيل من وحدة لبنان حتى ولو كان على حساب الفلسطينيين[5] وتقضي سياسة الحزب بتدعيم العلاقات مع الدول الكبرى وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية[6].

عطفا على ما سبق، تدعو مبادئ حزب الأحرار إلى تعزيز النظام الداخلي والحكم الديمقراطي في لبنان بالإضافة إلى مناهضة الدعوات الطائفية والعنصرية والإقليمية إلا أن استراتيجية الحزب لا تقبل أي أعمال تؤثر على علاقات لبنان مع الدول الخارجية، فبإمكانه بالتالي أن يتخذ مواقف مختلفة تجاه الوجود الفلسطيني في لبنان وخاصة بعد حرب 1948م، وغالباً ما تكون هذه المواقف سلبية.

### 7 . حزب الكتلة الوطنية:

أسس عام 1935م، ويعتبر حزب البرجوازية المارونية، وهو من أقدم الأحزاب، وقد عايش لبنان منذ ما قبل الاستقلال[7]، حيث كان يعكس وجهة النظر المارونية التقليدية، وبدأ وجوده على أساس طائفي وسياسي بزعامة إميل اده في إطار التنافس على زعامة المسيحيين[8]، بينه وبين الشيخ بشاره الخوري.

---

1 ـ النادي الثقافي: القوى السياسية، ص136 – سرحال، أحمد: النظم السياسية، ص207.
2 ـ قاسم، جمال زكريا: الأزمة اللبنانية، ص297 – غليمور، دافيد: دروب الانهيار، ص43.
3 ـ الطاهري، حمدي: سياسة الحكم، ص291.
4 ـ النادي الثقافي: القوى السياسية، ص112 – غليمور، دافيد: دروب الانهيار، ص43.
5 ـ سرحال، أحمد: النظم السياسية، ص208.
6 ـ قاسم، جمال زكريا: الأزمة اللبنانية، ص322.
7 ـ تقي الدين، سليمان: التطور التاريخي، ص75.
٨ ـ قاسم، جمال زكريا: الأزمة اللبنانية، ص٢٩٦ – النادي الثقافي: القوى السياسية، ص٣٤.

لذلك يعتبر من الأحزاب التي أنشأتها مجموعة من الأشخاص تربطهم مصالح طائفية وانتخابية. ولا يختلف هذا الحزب عن الكتائب من حيث طبيعته السياسية، لكن ذلك لا يعني الانسجام والتآلف بين الفئتين في كافة المجالات السياسية إذ إن العلاقة بينهما قد تكون أحياناً محكومة بمعايير خاصة تباعد بينهما كالتنافس على الزعامة واستقطاب العناصر[1] ومن مبادئ الحزب أن يبقى لبنان صغيراً وأن يظل مسيحياً خالصاً[2].

كان حزب الكتلة الوطنية حزباً لبنانياً طائفياً موالياً للسلطات الفرنسية في فترة الانتداب الفرنسي، أسسه الرئيس إميل اده، ومن أبرز وجوهه فيما بعد نجله ريمون اده.

وهكذا، يلاحظ من خلال التيارات السياسية في لبنان، كم كانت الطائفية بأحزابها المذهبية تتجاذب لبنان وشعبه بين مشرّق ومغرّب.

1 ـ الطاهري، حمدي: سياسة الحكم، ص284.
2 ـ النادي الثقافي: القوى السياسية، ص34.

# إشكالية النظام السياسي اللبناني من الدستور إلى الوفاق الوطني

**بقلم الدكتورة: إيمان مرداس**
**دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر**
iman.merdass@gmail.com

## ملخص البحث:

أجمع الكُتاب على تصنيف لبنان ضمن الجمهوريات غير المستقرة بسبب التركيبة السياسية المعقدة القائمة على جملة من المتناقضات والاختلافات، والتي أفررت سلسلة من الاهتزازات طالت كافة الميادين، وسلسلة من الصراعات بين القوى السياسية المنقسمة على ذاتها. يتناول البحث دراسة المرتكزات الأساسية لهذا النظام، وتتبع الأحداث منذ إعلان الجمهورية ودستورها الأول عام 1926م حتى الاستقلال والميثاق الوطني عام 1943م، والتسوية في اتفاق الطائف بعد الحرب اللبنانية، والأوضاع الدستورية المختلفة، لأنها أحد الأسباب الرئيسة الكامنة وراء دوام إشكالية ممارسة السلطة في لبنان.

## Abstract:

The Authors classified Lebanon with the unstable republics because of the complex political structure based on a number of contradictions and differences,which have spawned a series of tremors in all fields and a series of conflicts between divided political forces.The study examines the basic principles of this system, and follows the events since the declaration of the republic and its first constitution in 1926 until its independence and the national charter in 1943, the settlement in the Taif agreement after the Lebanese war,because it is one of the main reasons behind the prolonged problem of exercising power in Lebanon.

**الكلمات المفتاحية:**

النظام السياسي، دستور، ميثاق وطني، اتفاق.

Keywords: Political System, Constitution, National Charter, Agreement

**المقدمة:**

عند البحث في إشكالية النظام السياسي اللبناني، لا بد من دراسة المرتكزات الأساسية لهذا النظام، وتتبع الأحداث منذ إعلان الجمهورية ودستورها الأول عام 1926م، مرورًا بالميثاق الوطني عام 1943م، وصولًا إلى تسوية اتفاق الطائف بعد الحرب اللبنانية. ومن البديهي عند دراسة النظام السياسي أن نُلقيَ نظرةً فاحصة، نمرّ بها على الأوضاع الدستورية المختلفة والأحداث السياسية المتعددة التي تعاقبت على لبنان، وإيضاح التطور أو التغيرات الجذرية التي حصلت للنظام السياسي اللبناني.

وصل الصّراع في لبنان إلى ذروته عام 1920م عندما أعلن الجنرال غورو دولة لبنان الكبير حيث عمل الانتداب الفرنسي على توسيع مساحة لبنان ليضمّ المنطقة التي عرفت تاريخيًّا بمتصرفية جبل لبنان الذاتية الحكم والتابعة للدولة العثمانية. وبذلك أصبحت الدّولة اللبنانية تضمّ سلسلة جبال لبنان الغربية وسهل البقاع والسّفح الغربي من جبال لبنان الشرقي. وبناءً لهذا التغيير الدّيموغرافي وسياسة الانتداب، انقسم الشعب اللبناني إلى تيّارين: تيار مسيحيّ كياني لبنانيّ موالٍ للانتداب، وتيّار عروبي من أكثريّةٍ إسلاميّة يطالب بالوحدة مع سوريا.

كَلفت وزارة الخارجية الفرنسية لجنة لوضع الدستور اللبناني فوضعت اللجنة مسوّدة دستورٍ استوحته من دستور الجمهورية الثّالثة في فرنسا، والمتعارف عليه صياغة الدساتير في المراحل الانتقالية أو في ظل ظروف غير اعتيادية تعترضها صعوبات جمة نظرًا لغموض الواقع السياسي المحيطة به، فما بالك بسياسة استعمارية تمسك زمام الأمور، فقد وضعت فرنسا أثرها في الدستور، وفي طريقة تطبيقه، وعملت جاهدة على تكريس مفهوم العلاقات التقليدية بين مختلف الطوائف اللبنانية، وتكريس الطائفية في بنود وأحكام الدستور.

وعلى ضوء هذا الدّستور أصبح لبنان جمهورية ديمقراطية برلمانية يتوزع الحكم فيها على ثلاث سلطات منفصلة وهي: سلطة تنفيذية مؤلفة من رئيس الجمهورية والوزراء، سلطة تشريعية تضم النواب والشيوخ وسلطة قضائية بيد القضاة والمحاكم. وكانت سلطة الانتداب تسترسل في طغيانها للسّيطرة على المراكز الحساسة مستغلة الخلافات الطائفية والسياسية بين اللبنانين، لذا شهد الدستور تعديلات عدة قبل إعلان استقلال لبنان وتأسس النظام السياسي الجديد وفق نظام دستوري.

انتهى عهد الانتداب الفرنسيّ على لبنان، وانتهت معركة الجلاء عام 1946، فانتقلت السلطات الواسعة التي كان يتمتع بها المفوض السّامي، إلى رئيس الجمهورية الذي أصبحت

له الكلمة الأخيرة في تقرير شؤون البلاد، ليبدأ لبنان مرحلة جديدة بعد نيله الاستقلال بعد أن اعترفت الدول الأجنبية والعربية تباعًا باستقلاله، فتبادل لبنان التّمثيل السياسي والدبلوماسي والقنصلي مع معظمها، كما ساهم في تأسيس جامعة الدول العربية عام 1945، وانضم إلى هيئة الأمم المتحدة عام 1945. **وبالرغم من سعي الكثيرين لإنشاء وطن بعيد عن التجاذبات الخارجية (عربية وغربية) إلا أنّ لبنان ظل يعيش ومنذ رحيل آخر جندي فرنسي عن أراضيه عام 1946م وإلى يومنا هذا حالة من عدم الاستقرار السياسي، تخللتها فترة عانى فيها لبنان من رحى حرب أهلية استمرت خمسة عشر عاماً (1990-1975)، شهدت خلالها البلاد اقتتالًا طائفيًّا وقوميًّا انعكس سلبًا على البنية السياسية والاجتماعية والاقتصادية للدولة اللبنانية، بسبب توزيع السلطة السياسية بين الطوائف.**

**وبسبب** الانهيار السياسي والتدهور الأمني، ظهرت سلسلة من المشروعات الإصلاحية وكثرت الوثائق، أولها عام1976م، وآخرها 1989م، حيث نشطت مساعي الدول العربية والغربية إلى إيجاد حل نهائي وجَدي للقضية اللبنانية، وإعادة الأوضاع الطبيعية إليه خاصة بعد الفراغ في سدة الرئاسة حيث تعذر انتخاب رئيس للجمهورية، فظهرت حكومتان تتقاسمان الدولة بين عامي 1989-1988، وامتد الانقسام الطائفي إلى الجيش، فكان اتفاق الطائف الذي وافق عليه النواب اللبنانيون بتاريخ 22 تشرين الأول/أكتوبر 1989م في مدينة الطائف في المملكة العربية السعودية، وليد المؤسسة البرلمانية والتحكيم العربي والدعم الدولي والأمريكي، الداعي إلى تحقيق الوفاق الوطني بين الفئات المتحاربة، ومساندة الشرعية اللبنانية في بسط سلطتها الكاملة على كافة التراب اللبناني.

يُعتبر اتفاق الطائف ميثاقا جديدا أعاد النظر في الخطوط العامة للنظام اللبناني والقواعد الثابتة في الحكم، لكنه لم يولد فعليًا على وجه الكامل، ولم يُطبق في جوانب كثيرة أهمها إلغاء الطائفية السياسية، كونها الآفة الكبرى التي فرقت اللبنانيين حول قضايا مصيرية، لذا أصبح من المستحيل مع أية صيغة ماضية حاضرة أو مستقبلية بناء لبنان موحدًا، إذا دامت الصراعات الداخلية والتبعية الخارجية.

## أهمية البحث:

يهدف البحث إلى الوقوف على نشأة النظام السياسي في لبنان منذ إصدار دستور عام 1926م حتى اتفاق الطائف، وبيان إشكالية هذا النظام الذي سيظل قضية استقطابية فى إطار استمرارية الطائفية على أساس مبدأ تقاسم السلطة، والتركيبة السياسية المعقدة التي تقوم على جملة من التناقضات والاختلافات وفي إطار تجاذب الواقع المحلي بين مجموعة من القوى والمصالح الإقليمية والدولية ما خلق علاقة جدلية بين المتغيرات السياسية المحلية والإقليمية

والعالمية، وبين قدرة النظام على خلق حالة من التوافق بين مختلف طوائف لبنان، أو الوصول إلى صيغة تسوية لطبيعة وآلية النظام الدستوري اللبناني.

## منهجية البحث:

نظرًا لما شهده لبنان من تغييرات جذرية ومنعطفات كبيرة في نظامه السياسي، اعتمدت في هذا البحث على المنهج التاريخي، إذ لا يُمكن إدراك أية حالة سياسية، اقتصادية، اجتماعية، دون العودة إلى جذورها التاريخية، كذلك اعتمدت المنهج التحليلي من خلال استقراء وتحليل واقع النظام السياسي اللبناني ودراسته على ضوء الحقائق القائمة من أجل الحصول على حقائق علمية يُمكن من خلالها الخروج باستنتاجات صحيحة، كما اعتمدت المنهج المقارن كونه أساس ميدان النظم السياسية، لأنه يستهدف العمليات الحكومية في الممارسة والتطبيق بمختلف نماذجها.

## حدود البحث:

تمثلت حدود البحث بالآتي:

أ- الحدود الزمنية: اقتصر البحث على الفترة الممتدة من عام 1926م حتى عام 1989م.

ب- الحدود المكانية: اقتصر البحث على رصد نشأة النظام السياسي في لبنان منذ إصدار دستور عام 1926م حتى اتفاق الطائف، وبيان إشكالية هذا النظام في زعزعة الساحة الداخلية اللبنانية.

وبناء عليه، تم تقسيم البحث إلى ثلاثة مباحث، ويشتمل كل مبحث على عدد من المطالب:

**المبحث الأول:** بنية النظام اللبناني: تناولت فيه تكريس قواعد النظام الطائفي، إذ يُعتبر الدستور اللبناني أول من أرسى القواعد الأساسية للطائفية، بالرغم من احتوائه على نصوص تؤكد المساواة بين المواطنين، وعدم التمييز بينهم على أساس انتمائهم الطائفي.

**المبحث الثاني: الميثاق الوطني:** الذي انبثق خلال معركة الاستقلال عن فرنسا، والتي ساعدت على تكوينه، وتشكيل قواسم مشتركة مكّنت اللبنانين من الالتقاء الوطني والسياسي.

**المبحث الثالث: اتفاق الطائف عام 1989م:** الذي يُعتبر من أهم الاتفاقيات التي وضعت أسس الحياة السياسية في لبنان بعد الحرب المأساوية التي شهدها على مدى خمسة عشر عامًا.

## المبحث الأول: بنية النظام اللبناني:

يقوم النظام السياسي اللبناني على وثيقتين رئيسيتين[1](1): واحدة مكتوبة وأخرى غير مكتوبة، إلى جانب بعض القواعد العرفية.

1 . باسم الجسر: **ميثاق 1943 – لماذا كان؟ وهل سقط؟**، دار النّهار للنّشر، بيروت 1987م، ص10.

الأولى: تتمثل في الدستور الذي أنشئ عام 1926م وهو مستوحًى من دستور الجمهورية الفرنسية الثالثة، وأقره المجلس التمثيلي اللبناني برعاية الانتداب الفرنسي.

الثانية: تتمثل في ميثاق عام 1943م، وهو عبارة عن اتفاق ضمني أو تسوية سياسية أو صيغة توازن (طائفي– وطني) التقى عليه الزعماء السياسيون الذين قاموا بدورٍ بارزٍ في تحقيق استقلال لبنان في عام 1943م، وظلوا ومن خلفهم من السياسيين ورجال الدولة يستشهدون به أو يرجعون إليه في ممارستهم للنظام السياسي اللبناني، أو يعبترونه جسر الخلاص في كل أزمة يعاني منها لبنان، وهو ميثاق غير مكتوب.

إن كلا المصدرين (الدستور والميثاق) مكملان لبعضهما البعض من حيث الممارسة العملية للسلطة، وعدم المجاراة أو التوفيق بينهما أدى إلى نشوب أزمات حكومية ووطنية حادة، فدوام إشكالية ممارسة السلطة في لبنان تعود إلى تكريس الطائفية وعدم التوازن بين صلاحيات السلطة وما يترتب عليها من مسؤوليات.

## المطلب الأول: تكريس قواعد النظام الطائفي:

خلق توسيع حدود جبل لبنان وتحويله إلى دولة لبنان الكبير عام 1920م معضلات سياسية ووطنية بسبب التغيير الذي طرأ على النسب الطائفية لسكانه والتي أدت إلى تبدل المواقف السياسية والوطنية[2][1]. وحتى تأسيس دولة لبنان الكبير كانت نسبة المسلمين قد بلغت في جبل لبنان حوالي 20% من مجموع السكان[3][2]، وفي حينه لم تشكل الديمغرافيا الإسلامية تهديدًا للوجود المسيحي في الجبل. لكن هذا الوضع سرعان ما تغيرت ملامحه بعد إنشاء دولة لبنان الكبير، حين خسر المسيحيون تفوقهم الديمغرافي الساحق، لا سيما وأنّ توزيع السكان في جبل لبنان عام 1919 كان يعتمد بشكلٍ كبيرٍ على المسيحيين وعلى الدروز وبعض الأقليات الطائفية[4][3].

وعلى الرغم من شعور الموارنة بالانتصار على سائر الطوائف من جراء تطبيق الصيغة الوطنية التي نادوا بها إلّا أنّهم أدركوا خسارتهم للأكثرية العددية، أما المسلمون فلم يخفوا شعورهم بالمرارة جراء تحولهم من طائفة تُمثل الأكثرية السكانية في الدولة العثمانية إلى طائفة ثانية في الكيان اللبناني الجديد[1][4]، علمًا أنّ المناطق التي ألحقت عام 1920م (بعلبك، البقاع،

1 . باسم الجسر: **الصراعات الوطنية والوفاق اللبناني (1920–1975 )**، دار النهار للنشر، بيروت، 1981م، ص 43.

2 . مسعود ضاهر: **تاريخ لبنان الاجتماعي ( 1914– 1926 )**، دار المطبوعات الشرقية، بيروت، ط2، 1984م، ص55– 58– 59.

3– Andre' Bruneau: **Traditions et Polititique de la France au Levant** ,Paris ,1931. p: 309– 310.

4 . علي عبد فتوني: **تاريخ لبنان الطائفي**، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2013م، ص 69.

حاصبيا، راشيا)، شكلت الطوائف الإسلامية الأغلبية الساحقة من سكانها[1][2]. ومن ناحية ثانية، تم توزيع مقاعد المجلس التمثيلي لدولة لبنان الكبير والمؤلف من (15) عضوًا على أساس طائفي عوضًا عن المساواة في عدد أعضائه، ووُهبت الطائفة المارونية الهيمنة على بقية الطوائف، وذلك بتمثّيلها في المناطق اللبنانية كافة باستثناء طرابلس، على الرغم من أن مدينة بيروت تُعتبر المعقل الأساسي للسنة والأرثوذكس[2][3]، وتساوى الشيعة مع الموارنة في الجنوب حيث الأكثرية الشيعية، أما في جبل لبنان فلم يُعيَّن ممثل درزيّ واحد رغم وجودهم وبأعداد كبيرة[3][4]، وهكذا تكرس النظام الطائفي في لبنان وأصبح القاعدة الأساسية للحياة السياسية.

ولعل أخطر ما فعله الفرنسيون لترسيخ الفرقة والتباعد بين الشعب اللبناني هو تقسيم الطوائف اللبنانية إلى خمسة عشر مذهباً[4][5]، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل عمدوا إلى احتضان الموارنة وحمايتهم عبر الوظائف والمقاعد النيابية، وجعلهم الفئة الأولى الحاكمة في لبنان، الأمر الذي زاد في بلورة التمايز الطائفي بين الموارنة والمسيحيين من جهة، وبين المسلمين والمسيحيين من جهة أخرى[5][6]. وكان الولاء الماروني يزداد لفرنسا كلما ازداد العداء الإسلامي لها، وقد عبر البطريرك إلياس الحويك عن هذه العلاقة والتأييد لفرنسا بقوله[6][7]: «يكفينا أن نتأكد من وجود الدولة الفرنسية بيننا، فهذا عربون نهوض بلادنا واستقلالها، فنحن ثابتون على حبها في كل الأحوال». علماً أنه كان ينتقد السلطات الفرنسية في بعض ممارساتها.

ومن ناحية أخرى، اعتبر المسلمون أن بعض المسيحيين عقبة في وجه الوحدة العربية، خاصة عندما أقدمت

حكومة حبيب باشا السعد في عهد الرئيس شارل دباس عام 1928م على محاولة جعل اللهجة العامية هي اللغة الرسمية للبلاد، والتي تُمكن طلاب البكالوريا من استخدامها في الامتحانات ليقضي بذلك على اللغة العربية الأصلية، وجاء بعده إميل إده، فكان أوّل قراراته إلغاءُ المدارس الرسمية التي يستفيد منها الطلاب المسلمون والمسيحيون الفقراء، فاعتبر

---

1 . مسعود ضاهر: **تاريخ لبنان الاجتماعي (1914– 1926 )**، مرجع سابق، ص57 .

2 . علي عبد فتوني: المرجع السابق، ص71. نقلًا عن محمد جميل بيهم: **بين مشرق ومغرب (1920 – 1969)**، بيروت، 1969م، ص 23.

3 . المرجع نفسه: ص 72.

4 . رياض الصمد: **الطائفية ولعبة الحكم في لبنان**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1977م، ص 90.

5 . محمد طي: **المسألة الطائفية في لبنان**، دراسات عربية، العدد الأول، السنة العاشرة، 1973م، ص 74– 75.

6 . علي عبد فتوني: **تاريخ لبنان الطائفي**، المرجع السابق، ص 76. انظر أيضًا: جورج أنطونيوس: **يقظة العرب**، ترجمة د. ناصر الدين الأسد، د. إحسان عباس، دار العلم للملايين، ط8، 1987م، ص 498.

المسلمون بأنّ إلغاء التعليم الرسمي تهديم لأسس السيادة القومية والوطنية[1](1)، وفي إطار ترسيخ التفرقة بين اللبنانيين، يذكر أحمد طربين في كتابه «الوحدة العربية في تاريخ المشرق» الآتي[2](2): «لتثبيت سلطتهم أشاع الفرنسيون بين صفوف الدروز والشيعة أن فكرة الوحدة العربية من صناعة الطائفة السنية، وأن نجاحها سيقضي على مصالحهم». لذا بات شعار الحقوق الطائفية والمساواة المطلب الأساسي، نظرًا للممارسات الفرنسية الّتي شعر المسلمون من خلالها بأنّ هناك خطة سياسية للقضاء على تطلعاتهم. وجاء عام 1932م الذي يعتبر مرحلة مفصلية في تكريس الطائفية في النظام السياسي اللبناني،وذلك للأسباب التالية:

**أ- الإحصاءات السكانية:** استنادًا إلى الإحصاءات السكانية التي جرت في عام 1932م، حقق المسيحيون نتيجة التزوير تفوقًا طفيفًا على المسلمين (51.7% مقابل48.3%)[3](3)، هذا الفارق البسيط أدى إلى ظهور توتر بين الطائفتين، كما أخذت بُعدًا آخر من الناحية السياسية يتعلق بنصيب كل طائفة من مغانم النظام السياسي وارتباط ذلك بحجمها، فالخوف من الزيادة في عدد المسلمين دفع إميل إده أثناء الانتداب الفرنسي إلى المطالبة بلبنان صغير ضمن حدود جغرافية تضمن للمسيحيين بمختلف طوائفهم أكثرية ساحقة 80%، لأن الزيادة المطردة للمسلمين ستحوّل لبنان الكبير إلى دولة إسلامية، وللحفاظ على مصالحهم ووجودهم وامتيازاتهم سار الموارنة بخطة رباعية الأهداف وبتأييد من سلطة الانتداب وهي[4](4):

- الإبقاء على النظام الطائفي في لبنان والدفاع عنه.
- الاستحواذ على امتيازات تضمن لهم الإمساك بالبلاد والدفاع عن مصالحهم الاقتصادية.
- محاولة زيادة عددهم عن طريق تجنيس المسيحيين المغتربين.
- إيجاد هوية لبنانية تقوم على ميراث ثقافي خاص بهم.

من هنا، أصبح التحول الديموغرافي عاملًا مؤثرًا في الحياة السياسية اللبنانية في ظل ادعاء تفوق المسلمين العددي من جهة، وتمسك المسيحيين بنتائج إحصاء عام 1932م من جهة ثانية. وبسبب عدم وضوح الأكثرية المطلقة، بدأ كل فريق يسعى لتعزيز عدد أفراد طائفته بطرق غير مباشرة: المسلمون من خلال المطالبة بتجنيس الأكراد وعرب وادي خالد،

---

1 . حسان حلاق: **الأبعاد الطائفية والسياسية في مواقع الحكم في لبنان**، منشورات جمعية متخرجي المقاصد، بيروت، 1987م، ص 232- 233.

2 . أحمد طربين: **الوحدة العربية في تاريخ المشرق العربي (1800- 1958)**، جامعة دمشق، 1977م، ص 235- 236.

3 . آني لوران وأنطوان بصبوص: **الحروب السرية في لبنان**، دار مختارات، بيروت، 1988 ص192- 194. راجع أيضًا: علي حسين الشامي: **ندوة عودة الكفاءات اللبنانية المهاجرة**، منشورات وزارة المغتربين، ط1، 1996م، ص 175.

4 . عبد الرؤوف سنو: دراسة بعنوان: **لبنان حتى مطلع القرن الحادي والعشرين قراءة في تطور ومقومات التعايش الطائفي وممارساته**، لا تاريخ، ص 3 – 4.

والمسيحيون من خلال منح الجنسية اللبنانية للأقليات المسيحية القادمة من سوريا إضافة إلى الأرمن والمغتربين.

**ب- تحديد هوية رئيس الجمهورية:** في إطار التنافس والصراع الداخلي، تجاذب الساحةَ اللبنانية اتجاهان[1](1): الأول يصر على مارونية المرشح لرئاسة الجمهورية، والثاني يدعو إلى تولي مسلم رئاسة الجمهورية، وقد رشح الشيخ محمد الجسر نفسه لهذا المنصب بدعم من بعض الموارنة، لكن سلطات الانتداب رفضت هذا الترشيح لأن الحفاظ على وجودها يقتضي ترسيخ هيمنة المسيحيين، وبالتالي يجب أن يكون رئيس الجمهورية مسيحيًّا[2](2).

**ج- علاقة المسلمين بالانتداب:** عمل بعض القادة المسلمين على تخفيف حدة السلبية في تعاطيهم مع سلطة الانتداب، وسعوا للحصول على المراكز[3](3). وبالمقابل بدأت الأوساط المارونية تشعر بأهمية استمالة المسلمين، فعمد رئيس الجمهورية إميل إده إلى إسناد رئاسة الوزراء إلى مسلم سني هو النائب خير الدين الأحدب وهي المرة الأولى التي يتولى فيها مسلم رئاسة الوزراء منذ بداية عهد الجمهورية اللبنانية[4](4).

هذه المحاولات لم تنهِ الاتجاهات الطائفية في لبنان، بل ازدادت حدة لا على أساس طائفي وحسب وإنما على أساس مذهبي، وأصبح السياسيون يتقدمون بمطالب لأبناء مذهبهم وليس لأبناء طائفتهم، وبات اللبنانيون يشكلون فرقًا على أساس الدين، وينظرون إلى أي موضوع من نقاط مختلفة، وهكذا استمرت الانقسامات قائمة بينهم[5](5).

## المطلب الثاني: الدستور اللبناني:

### أ- الإطار التاريخي لنشأة الدستور:

أثارت نشأة دستور عام 1926م جدلًا بين رجال السياسة والمؤرخين اللبنانيين إذ اعتبر بعضهم أن هذا الدستور قد أعدته السلطة المنتدبة، وأنه نسخة عن دستور الجمهورية الثالثة الفرنسية، بينما رأى آخرون العكس واعتبروا أنّه نتاج لبناني محض[6](1). وطبقًا لذلك كان

1 . وليد عوض : **أصحاب الفخامة رؤساء لبنان**، الأهلية للنشر، بيروت، 1977م، ص 190 .

2 . حسان حلاق: **التيارات السياسية في لبنان (1943 – 1952 )**الدار الجامعية، بيروت، ط2، 1984 م، ص 76 – 77.

3 . الأب ريمون هاشم: **الانتداب الفرنسي على لبنان**، منشورات الجامعة الأنطونية ، بيروت، ط1، 2007م، ص 321.

4 . المرجع نفسه: ص 326.

5 . حسان حلاق: **مذكرات سليم علي سلام ( 1868 – 1938 )**، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت، 1982م، ص 84.

6 . ميشال شيحا: **في السياسة الداخلية**، ترجمة أحمد بيضون، دار النهار للنشر، بيروت، ط1، 2004م، ص 51- 69.

المندوب السامي مصدرا للسلطتين التشريعية والتنفيذية، أي هو الذي يُعين حاكم لبنان الكبير، كما أنشأ المجلس التمثيلي الذي أوكل إليه بعض الوظائف التشريعية، بالإضافة إلى تشكيل مجلس القضاء الأعلى الذي كان المندوب السامي يُعين أعضاءه بناءً على أسس طائفية[1](2).

في عام 1925م انتخب المجلس التمثيلي لجنة مصغرة لوضع بنود دستور لبنان (أيضًا كانت هذه اللجنة مشكلة على أساس طائفي)، حيث كان من الضروري أن يراعي بنوده وجود العديد من الطوائف التي تعيش على أرضه، لذا قرر سُنّة المدن الساحلية في لبنان الكبير عدم المشاركة في إعداد الدستور وطالبوا مجددًا بالانضمام إلى سوريا وأبلغوا قرارهم هذا إلى رئيس المجلس التمثيلي وإلى المفوض السامي، وهكذا فعل المجلس البلدي في بعلبك[2](3). في المقابل، وضمانًا لعدم انضمام الطائفة الشيعية إلى التيار الوحدوي، اعترفت سلطة الانتداب بالمذهب الجعفري وإنشاء محكمة التمييز الجعفرية في بيروت[3](4).

في أيار/مايو عام 1926م عَرضت اللجنة مشروع الدستور على المجلس التمثيلي الذي أقره بعد موافقة المندوب السامي، ومن هنا جاء تشكيك البعض من ناحية أن بنود الدستور صاغها المندوب السامي، أي أن مهمة اللجنة كانت شكلية، وفي العام ذاته تحول المجلس التمثيلي إلى مجلس نواب، كما تم إنشاء مجلس للشيوخ بناءً على المادة (16) من الدستور[4](5).

شهد النظام السياسي تطورات عدة من خلال التعديلات التي أجريت على الدستور قبل الاستقلال، فكان التعديل الأول عام 1927م والذي بموجبه أصبحت سلطة رئيس الجمهورية أعلى من سلطة البرلمان، والتعديل الثاني جرى عام 1929م، وبموجبه حُدِّد التعامل بين السلطتين التنفيذية والتشريعية عن طريق توسيع دائرة اختصاصات كل منهما وتخفيف القيود المفروضة عليه في العلاقات مع الآخر وعُلق العمل بالدستور مرتين، الأولى منذ عام 1932م حتّى عام 1934م، والثانية بين عامي 1939م و1943م حيث أعلن استقلال لبنان وتأسس النظام السياسي الجديد وفق نظام دستوري[1](5).

**ب- الطائفية في الدستور:**

يُعتبر الدستور اللبناني أول من أرسى القواعد الأساسية للطائفية، بالرغم من احتوائه على

---

1 . نهاد حشيشو: **الحياة الدستورية في لبنان (نشأة الدستور، التعديلات، التفسيرات)**، المركز العربي للمعلومات، لبنان، 2007م، ص 39 – 40.

2 . المرجع نفسه: ص 42. انظر أيضًا: علي فتوني: **تاريخ لبنان الطائفي**، مرجع سابق، ص 42. نقلًا عن جريدة لبنان الكبير الرسمية، العدد 1946 بتاريخ 12 شباط/فبراير، رقم 3503.

3 . عبد الغني البسيوني: **النظم السياسية والقانون الدستوري**، منشأة المعرفة، الإسكندرية، لا تاريخ، ص 583 .

4 . المرجع نفسه: ص 584.

5 . أسامه إسماعيل عجروش: **الدستور اللبنانيوتعديلاته**، منشورات زين الحقوقية، بيروت،2011م، ص 82.

نصوص تؤكد المساواة بين المواطنين، وعدم التمييز بينهم على أساس انتمائهم الطائفي[1](2)، كما اشتمل على نصوص تلغي الطائفية السياسية حيث نصت مقدمة الدستور الفقرة (ج) والمعدلة عام 1990م[2](3): «على مجلس النواب المنتخب على أساس المناصفة بين المسلمين والمسيحيين اتخاذ الإجراءات لتحقيق إلغاء الطائفية السياسية لأنها هدف وطني أساسي يتوجب العمل على تحقيقه وفق خطة مرحلية» وجاء في المادة (95) من الدستور[3](4): «تمثيل الطوائف بصورة عادلة في الوظائف العامة وتشكيل الوزارة وتوزيع المناصب في مجلس الشيوخ على أساس (9) للمسيحيين و(6) للمسلمين». نصت هذه المادة صراحة على أن الوظائف توزع مناصفة بين المسلمين والمسيحيين، الأمر الذي يتعارض مع المواد السابقة في الدستور الداعية إلى التساوي بين اللبنانيين، كما أنها تتعارض مع المادة (12) والتي تنص على «أنّ لكل لبناني الحق في تولي الوظائف العامة، لا ميزة لأحد على الآخر من حيث الاستحقاق والجدارة حسب الشروط التي ينص عليها القانون»[4](5).

وبطبيعة الحال، أدى هذا التوزيع إلى ظهور مشكلات عديدة، وإلى القصور في أداء بعض المؤسسات والمديريات في الدولة، فغالبًا ما تم خرق مبدأي الكفاءة والاختصاص، وتعيين مدراء عامين لا يتمتعون بالكفاءة، واحتكار وظائف الفئة الأولى من قبل طوائف محددة. وأصبحت بعض المديريات حكرًا على هذه الطوائف واعتبر تبديلها أو المداورة فيها انتهاكًا لحقوق الطوائف، بمعنى آخر عدم التعامل مع مبدأ (الرجل المناسب في المكان المناسب)، الأمر الذي كرّس طائفية الوظيفة الأولى[5](1).

إلا أنّ أهم ما جاء في الدستور على الصعيد الطائفي هو الاعتراف بالطوائف الدينية وتمايزها ودورها في مؤسسات الدولة[6](2)، فضلًا عن حريتها في إدارة أحوالها الشخصية ومصالحها الدينية[7](3)، والقرار (60) الصادر في 13 آذار/مارس عام 1936م الذي نظم الطوائف يؤكد أن المعترف بها قانونًا هي تلك الطوائف التاريخية[8](4)، وهذا التنظيم يُعتبر حقا

1 . المرجع نفسه، ص 87. أحلام بيضون : **الطائفية السياسية بين خطر التوافقية ودستورية الإلغاء.** khayaralmoukawama.com

2 . مقدمة الدستور اللبناني: البند ج.

3 . المادة (95) من الدستور اللبناني.

4 . المادة (12) من الدستور اللبناني.

5 . دراسة أعدتها الدولية للمعلومات بعنوان: **إلغاء الطائفية السياسية**، عام 2010م،على الرابط التالي: Information International.

6 . المادتان( 9 و10 ) من الدستور اللبناني.

7 . مسعود ضاهر: **لبنان الاستقلال والصيغة والميثاق**، دار المطبوعات الشرقية، لبنان، 1984م، ص 233-232.

8 . أحلام بيضون: **الطائفية السياسية بين خطر التوافقية ودستورية الإلغاء**، مرجع سابق، www. khayaralmoukawama.

طبيعيا وضروريا في الحفاظ على الديمقراطية التعددية، إلا أن هذه الطوائف أصبحت تتدخل في السلطة والحكم، مع عجز مؤسسات الدولة عن مراقبتها أو ملاحقتها نظرًا لما تتمتع به من حصانة، وفي ذلك تكريس للطائفية، حيث اعتمد في لبنان مبدأ التقسيم الطائفي على مستوى الحكم فيما عُرف بالديمقراطية التوافقية أو ديمقراطية التوازن الطائفي فأصبح للموارنة رئاسة الجمهورية، وللسنة رئاسة الحكومة، وللشيعة رئاسة مجلس النّواب، واتُّخذ المبدأ نفسه في اقتسام الوظائف الكبرى بما فيها مقاعد مجلس النواب[1](5).

وسواء تم التوافق بالفعل على توزيع الرئاسات الثلاث أو لا، فالسؤال المطروح: لماذا أصر الموارنة على رئاسة الجمهورية؟ هل تعود هذه السلطة إلى إمكانية تسخيرها لمصلحة طائفتهم؟

بموجب الدستور، شكل رئيس الجمهورية رأس هرم السلطة، فقد نصت المادة (17) على أن[2](6): «يتولى رئيس الجمهورية السلطة الإجرائية ويعاونه الوزراء «كما يحق له حل مجلس النواب وتأجيل عقد جلساته، ودعوته إلى جلسات استثنائية، وهذه الصلاحيات جعلته المؤثر الأول في الساحة السياسية، كما أن تعيين وعزل رئيس مجلس الوزراء والوزراء أنفسهم، جعل هؤلاء أكثر خضوعًا لسلطته[3](7).

نستنتج من ذلك أنّ التناقض الحاصل في الدستور يكمن بين المواد التي تنص على المساواة بين الطوائف، وأخرى تنص على المساواة بين المواطنين. تلك التناقضات هي نتيجة التضارب الحاصل بين الحقوق الأساسية والحقوق الدينية، فالدستور اللبناني وضع الحقوق الدينية في مرتبة أرفع من الحقوق الأساسية[4](1).

وتطبيقًا للدستور اللبناني، يتّعين على كل مواطن أن يختار طائفة ينتمي إليها، فهو لا يتمتع بحرية المعتقد التي يضمنها له الدستور ما لم يلتزم بقائمة محددة تقتصر على الطوائف المعترف بها رسميًّا من قبل الدولة، كما ينص الدستور على ضرورة مشاركة الطوائف في الحكم، فيجمع مجلس النواب ما بين مبدإ تمثيل الشعب ومبدإ تمثيل الطوائف. ويذكر د. عقل عقل هذا التناقض الآتي[5](2) يما يلي: «من خلال قراءة المادة (9) من الدستور، إنّ علمنة الدولة اللبنانية يحّدها التعايش بين المواطنين، وهذا التعايش مبنيّ على المساواة بين المسيحيين والمسلمين، الأمر الذي عزّز ضرورة انتماء كل مواطن لطائفة معينة». لذا فإن المسألة

1 . عقل عقل: **العدالة الدستورية والمجتمع التعددي**، طبعة إلكترونية، ص 551
http://conseilconstitutionnelliban.com.

2- Edmond Rabbath: **La Formation Historique du Liban Politique et Constitutionnel**, Essai de synthese, Beyrouth, Publication de L'Universite' Libanese, 1973- p: 173.

3 . المادتان (55) و(59) من الدستور اللبناني.

4 . عقل عقل: **العدالة الدستورية والمجتمع التعددي**، مرجع سابق، ص 553 وما يليها.

5 . المرجع نفسه: ص 560. انظر أيضًا المادة (9) من الدستور اللبناني.

الطائفية ستظل قضية استقطابية فى إطار استمرارية النظام السياسي الطائفي في لبنان على أساس مبدإ تقاسم السلطة وعلى طغيان العرف على القانون.

## المبحث الثاني: الميثاق الوطني

### المطلب الأول: ولادة الميثاق الوطني ومحتواه:

انبثق الميثاق الوطني خلال معركة الاستقلال عن فرنسا، ولا شك أن الأحداث التي مر بها لبنان عام 1943ساعدت على تكوينه، وتشكيل قواسم مشتركة مكّنت اللبنانين من الالتقاء الوطني والسياسي، والتعاون في المعركة الانتخابية والنضال المشترك ضد الانتداب، حيث اتفقوا على أن لبنان دولة تأبى أن تكون مقرًّا للاستعمار. ولا شك أيضًا في أنّ السياسة البريطانية قامت بدورٍ بارزٍ في الشرق الأوسط من خلال التصدي لسياسة فرنسا من جهة وتطمين المسيحيين في لبنان من جهة أخرى، بالإضافة إلى دعم وتشجيع الحركات الوطنية في بعض الدول العربية[1](3)، طالما أن هذه الدول خاضعة لفرنسا. لذا فإن الميثاق الوطني لم يكن صنع الرئيسين بشارة الخوري ورياض الصلح فقط، بل كان نتيجة للتطورات التي مرت بها البلاد بدءًا من عام 1930م[2](4).

ولابد أن ندرك هنا أن المعادلة التي حكمت لبنان منذ استقلاله عام 1943م ارتكزت على فرضيتين رئيستين، وبمعنى آخر على نفَيين – نفي المطالبة بالوحدة العربية ونفي المطالبة بالحماية الأجنبية، وجاء الميثاق الوطني ليوفق بين الرؤيتين، ويكون السبب في قيام الحكم في لبنان على التسوية والازدواجية[3](1).

صحيح أن صيغة الميثاق الوطني ولدت بعد عدة لقاءات بين زعيمي الاستقلال (الخوري– الصلح)، ولكن هذه الصيغة تعرضت لعدة تأويلات حول تكوين الميثاق[4](2).فهناك فريق من اللبنانيين يقول بأن ميثاق 1943م جاء تتويجًا لنضال الشعب اللبناني من أجل الاستقلال والتخلص من مخلفات الانتداب الفرنسي[5](3)، وفريق آخر يرى بأن الميثاق ليس سوى تسوية بين رئيس الجمهورية بشارة الخوري ورياض الصلح، أو تسوية بين اتجاهين مختلفين، ووصف كمال جنبلاط الميثاق الوطني بأنه[6](4):»ألّف بين الفكرة اللبنانية والفكرة العربية»، وفريق ثالث يرى

---

1 . عاطف عطية: **الدولة المؤجلة (دراسة في معوقات نشوء الدولة والمجتمع المدني في لبنان)**، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، ط1، 2000م، ص 132.

2 . فواز طرابلسي: **تاريخ لبنان الحديث من الإمارة إلى اتفاق الطائف**،رياض الرّيس للكتب والنّشر، ط1، 2007م، ص 186.

3. واصف الحركة: **الميثاق بين الوفاق والشقاق**، المؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي الدائم، بيروت، 1988م، ص 248. انظر أيضًا: مسعود ضاهر: **لبنان الاستقلال (الميثاق والصيغة)**، مرجع سابق،ص 303– 307.

4 . بشارة الخوري: **حقائق لبنانية**، منشورات أوراق لبنانيّة، ج2، 1961م، ص 4.

5 . أحلام بيضون: **الطائفية السياسية بين خطر التوافقية ودستورية الإلغاء**، مرجع سابق .

6 .كمال جنبلاط : **أسس بناء الدولة اللبنانية وتنظيم شؤونها**، الدار التقدمية، المختارة، ط1، 2012م، ص 41 – 44.

أنه ميثاق طائفي، مستندين إلى إبقاء توزيع الرئاسات الثلاث بين الموارنة والسنة والشيعة، كما استندوا أيضًا إلى أنّ المادة (95) من الدستور اللبناني المتعلقة بالتوازن الطائفي في الوظائف العامة[1](5).

**- محتوى الميثاق الوطني:**

الميثاق الوطني شرعة غير مدونة توافق عليها بعض الزعامات اللبنانية قبل عهد الاستقلال عام 1943 بفترة وجيزة، وقد كان لرئيس الجمهورية الشيخ بشارة الخوري ورئيس مجلس الوزراء رياض الصلح الفضل الأكبر في تحديد مفهومه والعمل بموجبه[2](6)، وكثيرون يؤكدون أن البيان الوزاري الذي ألقاه رياض الصلح في 7 تشرين الأول/أكتوبر عام 1943م هو الميثاق الوطني[3](7).

يُعتبر الميثاق الوطني بمثابة تكملة وتصحيح للدستور اللبناني في قضايا أساسية تتعلق بهوية البلد، ومشاركة المسلمين في بنية السلطة، والعمل على تحصين الاستقرار الداخلي، وتعرض الميثاق إلى علاقات لبنان مع الدول العربية، كما نهج نهجًا دوليًّا يضمن للبنان سيادته واستقلاله بإقامة علاقات مع الدول الأجنبية على قدم المساواة، دون منح أي منها أفضلية معينة أو امتيازًا معيّنًا.

إذا كان الميثاق معاهدة بين اللبنانيين لخلق وطن حرّ ديمقراطيّ سيد، والذود عن كيانه واستقلاله، والعمل على تقوية وتنمية موارده وعمرانه في الداخل، وتهيئة الجو الملائم لتوثيق علاقاته وإثبات وجوده في الخارج، لماذا شهد لبنان منذ استقلاله وإلى الوقت الحاضر أزماتٍ وحروبا وفتنا؟

حمل الميثاق الوطني ضمانات سياسية للمسيحيين مقابل وعود سياسية واجتماعية للمسلمين. وهذا دليل على التفاوت الذي كان لا يزال قائمًا في العلاقات بين ممثلي الجماعتين. لقد بنى الرئيسان الخوري والصلح الاستقلال على نفيين لا على الإيجاب، (لا..لا) لا حماية خارجية ولا وحدة عربية[4](1)، والنتيجة اختلاف اللبنانيين عام 1958م في عهد الرئيس كميل شمعون ما بين موالين للغرب وموالين للعرب والناصرية، وهذا الصراع الواضح على الصعيدين (مسيحي- مسلم) و(عربي- غربي)، ما زال مستمرًا.

---

1 . عاطف عطية: **الدولة المؤجلة (دراسة في معوقات نشوء الدولة والمجتمع المدني في لبنان)**، مرجع سابق، ص136.انظر أيضًا: الموقع الرسمي لرئاسة مجلس الوزراء **http://.pcm.gov.lb/Culturer/ar-LB**

2 . عقل عقل: **العدالة الدستورية والمجتمع التعددي**، مرجع سابق، ص 559.

3 . باسم الجسر: **ميثاق 1943 لماذا كان؟ وهل سقط ؟**، مرجع سابق، ص 136. انظر أيضًا: باتريك سيل: **رياض الصلح والنضال من أجل الاستقلال**، ترجمة عمر سعيد الأيوبي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2010م، ص507 – 508.

4 . فواز طرابلسي: **تاريخ لبنان الحديث من الإمارة إلى اتفاق الطائف**، مرجع سابق، ص 188.

## المطلب الثاني: ملامح الطائفية في الميثاق الوطني:

إذا كانت شرعية الميثاق الوطني قد بُنيت على فرضية ثُنائية كما ذكر سابقًا، أي تراجُعُ المسلمين عن المطالبة بالوحدة العربية مقابل معارضة المسيحيين للانتداب الفرنسي، كان المفروض أن يتّخذ لبنان موقفًا حياديًا حيال السياسة العربية – العربية، ولكن تحوّلت مهمة المسلمين إلى «تعريب» مسيحيي لبنان، فيما كان يعمل المسيحيون على «لبننة» المسلمين.

من ضمن ما تم الاتفاق عليه في ميثاق عام 1943م وظل معترفًا به حتى الوقت الحاض بالرغم من عدم وجود نصوص مكتوبة على ذلك[1](2): «أن يكون الرئيس اللبناني مسيحيًّا مارونيًّا، ورئيس مجلس الوزراء مسلمًا سُنيًّا، ورئيس مجلس النواب مُسلمًا شيعيًّا، ونائب رئيس مجلس النواب مسيحيًّا أرثوذكسيًّا». كما جرى الاتفاق أيضًا على توزيع الوظائف العامة في الدولة محاصصة بين الطوائف، وقد استند هذا الاتفاق على إحصاء للسكان أُجري عام 1932م، وقد ظهرت الأغلبية المسيحية في هذا الإحصاء، حيث حصلت الطائفة المارونية على معظم الصلاحيات في الدولة الجديدة. ولم يقتصر توزيع الوظائف على المناصب العليا، بل تجاوزها إلى المستويات الدنيا من الوظائف العامة، كما وصف د.عبد الرؤوف[2](1):»إن توزيع الوظائف والمراكز بين الطوائف بشكل نسبي «بديمقراطية التناسب»، حيث يكون التنافس على المراكز والمناصب داخل الطوائف وليس بينها، كما جرى الحديث عن «ديمقراطية التراضي» أو «ديمقراطية التوافق» التي تجعل سياسات الحكم وقراراته توافقية – تسووية بين الطوائف[3](2). بالرغم من الوعود التي أطلقتها حكومة الاستقلال بإلغاء الطائفية– السياسية، إلا أن شيئًا من هذا القبيل لم يحصل لأن الحكومة لم تقم بإلغاء المواد الخاصة بالطائفية سواء الواردة في الدستور أو المعمول بها عُرفًا، بل على العكس تعزز النظام الطائفي، وجرى الحفاظ على المادة (95) من الدستور اللبناني[4](3).

بقيت عقلية الحكم في عهد الاستقلال كما كانت عليه في عهد الانتداب، ويقول د.مسعود ضاهر[5](4): «إن الميثاق لم يلعب دورًا أساسيًّا في توحيد لبنان، بل عمل على تجميع الطوائف في وحدة أبقت على كوامن التناقضات في داخلها». فقد قسم الميثاق اللبنانيين إلى فريقين

---

1. Georges Corm: **Geoplitique du coflit Libanais**, Paris, Edition La Decouverte, 1986– P: 60–80. انظر أيضًا: رغيد الصلح: **لبنان والعروبة الهويّة الوطنيّة وتكوين الدّولة**، دار السّاقي، بيروت، 2006م، ص 241

2. عبد الرؤوف سنو: **لبنان حتى مطلع القرن الحادي والعشرين، تطورات مقومات التعايش الطائفي وممارساته**، مرجع سابق، ص 7.

3. باسم الجسر: **ميثاق 1943 لماذا كان ؟ وهل سقط ؟**، مرجع سابق، ص 327–324.

4. حسان حلاق: **التيارات السياسية في لبنان (1943– 1952)**، مرجع سابق، ص190.

5. مسعود ضاهر: **لبنان الاستقلال (الميثاق والصيغة)**، مرجع سابق، ص 252.

متنازعين، الأول يحاول التمسك بامتيازاته ومغانمه فيما يسعى الآخر إلى زيادة مشاركته في السلطة، وأفضل مثال على ذلك المرسومان (49) و(50) اللذان صدرا في 17 حزيران/يونيو عام1943م، فالمرسوم الأول حدد مقاعد المجلس النيابي الجديد على النحو التالي: 32 للمسيحيين و22 للمسلمين، ووالمرسوم الثاني حدد عدد النواب[1](5).

ويقول د.حسان حلاق في كتابه «دراسات في تاريخ لبنان المعاصر»[2](6): «إن المسلمين عارضوا تسجيل المغتربين اللبنانين وذلك منذ عهد الرئيس إميل إده وحكومته التي كان يرأسها حينذاك خير الدين الأحدب، لأن ذلك سيؤدي إلى اختلال توزيع المقاعد بين الطوائف». احتجت الطوائف الإسلامية على المرسومين لأن من أهدافهما صبغ لبنان بصبغة محلية طائفية، وكاد هذان المرسومان أن يفجرا وحدة اللبنانيين، وقد سويت هذه المسألة عبر رفع عدد مقاعد النواب المسلمين إلى 25 نائبًا مقابل 30 نائبًا للمسيحيين دون أن تخسر الطائفة المارونية أيا من مقاعدها لأن التسوية كانت على حساب مقاعد الأقليات المسيحية[3](1)، ومع ذلك لم تؤدِّ هذه التسوية إلى إرضاء الطرفين، ومنذ ذلك الحين تمتعت الطوائف المسيحية بالأفضلية، فقد جرى اعتماد 6 نواب للمسيحيين مقابل 5 نواب للمسلمين، ما يسمى 5/6، وهي التي تسمى «تسوية النحاس باشا» رئيس وزراء مصر الذي تدخل واقترح هذا الاقتراح دفاعاً عن حقوق المسلمين.

وجاء قانون 2 نيسان/أبريل عام 1951م، الذي حدد صلاحيات المراجع المذهبية للطوائف المسيحية والطوائف الإسلامية[4](2)، ومن ثم المرسوم الاشتراعي رقم (18) الصادر عام 1955م المعدل بالقرار رقم (5) عام 1967م المتعلق باستقلال الطائفة السنية في مجال أحوالها الشخصية[5](3)، والقانون الصادر عام 1962م الخاص باستقلال الطائفة الدرزية[6](4)، والقانون رقم (72/67) الصادر عام 1967م المتعلق باستقلال الطائفة الشيعية[7](5). وهكذا انتظم اللبنانيون جميعًا في طوائف تتمتع بإدارة ذاتية، فهذه الطوائف لا تتمتع فقط باستقلال تشريعي وقضائي وإداري وحسب، وإنما تشترك وعبر ممثليها في تكوين إرادة الدولة من خلال

1 . حسان حلاق: المرجع السابق، ص 167.

2 . حسان حلاق: **دراسات في تاريخ لبنان المعاصر (1943-1913) من جمعية بيروت الإصلاحية إلى الميثاق الوطني**، دار النهضة العربية، بيروت، 1985م، ص 200 .

3 . حسان حلاق: **التيارات السياسية في لبنان (1943- 1952)**، المرجع السابق، ص 176.

4 **. الموقع الرسمي لوزارة العدل:** http://ahdath.justice.gov.lb/law-nearby-personal.htm

5 **. الموقع الرسمي للمحاكم الشرعية السنية في لبنان** على الرابط التالي:http://www.slc.gov.lb/default.asp

6 . الشيخ مرسل نصر : **الأحوال الشخصية للطائفة الدرزية**، الناشر مؤسسة التراث الدرزي، لندن، ط1، 2009م، ص 28.

7 . عارف زين الدين: **قوانين ونصوص وأحكام الأحوال الشخصية وتنظيم الطوائف الإسلامية في لبنان**، منشورات الحلبي الحقوقية، ط1، 2003م، ص 188.

المؤسسات الدستورية التي تشارك في تأليفها. كما صدر قانون الموظفين الصادر بالمرسوم الاشتراعي رقم (112) عام 1959م ليكمل إفراز الطائفية والتمثيل الطائفي الذي نص على مراعاة المادة (95) من الدستور في تعيين الموظفين، وقانون 26 نيسان/أبريل عام 1960م ليكرس قاعدة التمثيل الطائفي في اختيار أعضاء المجلس النيابي ويحدد نسبة تمثيل كل طائفة في البرلمان[1](6).

## المطلب الثالث: تدمير الميثاق الوطني:

إذا سلمنا جدلًا أنّ الميثاق الوطني هو ذلك الاتفاق الذي انبثق عام 1943م عن اللبنانيين والهدف منه نيل الاستقلال والمحافظة على الوحدة الوطنية والرغبة في العيش المشترك بين مختلف الطوائف، فما العوامل التي أدت إلى تدمير الميثاق الوطني؟ هل هي عوامل داخلية أم خارجية أم الاثنان معًا؟

على الصعيد الداخلي يذكر باسم الجسر في كتابه «ميثاق 1943»[2](1) ما يلي: «فقد الميثاق الوطني مصداقيته نظرًا للدور الكبير الذي يلعبه الرئيس في توجيه سياسة البلاد»، كما قامت السياسة الخارجية (العربية – الغربية) بدورٍ كبيرٍ في الساحة الداخلية، الأمر الذي انعكس سلبًا على تطبيق الميثاق في علاقات لبنان الخارجية».

وإذا استعرضنا عملية تطبيق الميثاق في العهود الرئاسية منذ الاستقلال وحتى اندلاع الحرب الأهلية عام 1975م، سنلاحظ وفي كل عهد، أن لبنان حُكِم على أساس انقسامه إلى طوائف، وهو حكمٌ قائمٌ على مبدإ المشاركة بين زعماء الطوائف، كما كانت الحكومات المتعاقبة عبارة عن غطاء لرئيس الجمهورية، وأن السبب الرئيس في تدمير الميثاق الوطني طبيعة النظام الطائفي الذي حمل في بذوره الانهيار لأنه تعامل مع المواطن بحسب انتمائه الطائفي لا بحسب انتمائه الوطني، وسعيُ كل طائفة التأكيد على هوية مغايرة وانتماء وطني مختلف عن غيرها من الطوائف[3](2)، الأمر الذي أدى إلى تعددية ثقافية ومذهبية بحيث بقي لبنان وطنًا تتعايش فيه الطوائف بعيدًا عن فكرة الوطن والمصير الواحد. ويرى البعض أنّ عدم تحقيق التوازن الاقتصادي والاجتماعي بين المناطق والفئات اللبنانية أثّرت على مبدإ التناسب المعتمد في الدستور والميثاق، ويرد الأسباب إلى ضعف السلطة المركزية وإلى صيغة الميثاق

1 . خالد قباني: **ثواب النظام اللبناني وآفاق المستقبل**، محاضرة ألقاها في بيروت بتاريخ 30 كانون الأول/ ديسمبر عام 1987م، منشورات جمعية متخرجي المقاصد الإسلامية. راجع أيضًا: المجلة القضائية: **المرسوم الاشتراعي الرقم(112)**، المنشورات الحقوقية، بيروت، 2000م، العدد 25، ص 13.

2 . باسم الجسر: **ميثاق 1943 لماذا كان؟ وهل سقط؟**، مرجع سابق، ص 251– 252.

3 . خالد قباني: **ثوابت النظام اللبناني وآفاق المستقبل**، مرجع سابق.كمال الصليبي: **بيت بمنازل كثيرة، الكيان اللبناني بين التصور والواقع**،مؤسسة نوفل، بيروت، ط4، 2007م، ص 29– 31 .

الوطني عام 1943م الذي كان بنظرهم اتفاقًا على توزيع الغنائم بين أهل الحكم والسياسة[1](3).

## المبحث الثالث: اتفاق الطائف عام 1989:

يُعتبر اتفاق الطائف من أهم الاتفاقيات التي وضعت أسس الحياة السياسية في لبنان بعد الحرب المأساوية التي شهدها على مدى خمسة عشر عامًا، فالانهيار السياسي أدّى إلى فراغٍ دستوريٍّ بسبب تعذر انعقاد مجلس النواب لانتخاب رئيس جديد للبلاد خلفًا للرئيس أمين الجميّل، وإقدام الأخير على تعيين حكومة عسكرية برئاسة العماد ميشال عون، والفشل في انتخاب رئيس لمجلس النواب خلفًا لحسين الحسيني الذي انتهت مدة ولايته عام 1988م[2](4). وتبع الانهيار السياسي انهيار أمنيّ على أثر إعلان الجنرال ميشال عون حرب التحرير في آذار/مارس عام 1989م، بالإضافة إلى سقوط الاتفاق الثلاثي الذي وقعته المليشيات الثلاث (حركة أمل والحزب التقدمي الاشتراكي والقوات اللبنانية بقيادة إيلي حبيقة) والذي كان بمثابة المشروع الأول من المشاريع الإصلاحية التي طُرحت بين أطراف متناقضة طائفيًّا وسياسيًّا[3](1). كل ذلك حض البلدان العربية والدول الكبرى على مضاعفة جهودها لوضع حد نهائي للحرب، فكانت هذه نقطة حاسمة باتجاه الضغط للوصول إلى اتفاق الطائف.

### المطلب الأول: المساعي لإيجاد حل:

لعبت العوامل الإقليمية والتحركات الدولية دورًا في الوصول إلى اتفاق الطائف، حيث عاد الاهتمام الأمريكي إلى ملاحقة النشاط السياسي اللبناني إثر سقوط الاتفاق الثلاثي، بعد أن كانت أمريكا قد قررت إهمال لبنان على أثر إلغاء اتفاق السابع عشر من أيار/مايو، كما تحركت بعض الدول الأجنبية والعربية وعلى رأسها المملكة العربية السعودية[4](2)، وتقدم الفاتيكان عبر مبعوثه الشخصي أشيل سيلفستريني Achille Silvestrini بمذكرة سلمها لوزير الخارجية السورية فاروق الشرع، ركزت على وجوب إعادة بناء لبنان على أساس أنه بلد ذو سيادة ويتمتع بهوية خاصة، مع إقامة علاقات خاصة مع سوريا تحددها الاتفاقيات بين البلدين، ووجوب انسحاب

---

1 . باسم الجسر: المرجع السابق، ص 409. انظر أيضًا: عبد الرؤوف سنو: **التعايش المأزوم لبنان من الميثاق الوطني إلى اتفاق الدوحة وتداعياته 1943- 2011**، محاضرة موجودة على الرابط التالي : http:// .claudeabouchacra.wordpress.com

2 . كميل منسى: **إلياس الهراوي عودة الجمهورية من الدويلات إلى الدولة**، دار النهر للنشر، بيروت، ط1، 2002م، ص 99 .

3 . عارف العبد: **لبنان والطائف**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2001م، ص 163. انظر أيضًا: فواز طرابلسي: **تاريخ لبنان الحديث من الإمارة إلى اتفاق الطائف**، مرجع سابق، ص 396.

4 . عارف العبد: المرجع نفسه، ص 166. تيودور هانف: **لبنان تعايش في زمن الحرب**، ترجمة موريس صليبا، مركز الدّراسات العربيّ الأوروبّيّ، باريس، 1993م، ص 697.

كل القوات الأجنبية لتمكين الحكومة اللبنانية من بسط سيطرتها على كل أراضيها[1](3).

في شهر شباط/ فبراير عام 1986م، أعدت القيادات المسيحية مسودة مشروع أو تصور لحل الأزمة اللبنانية من وجهة نظرها، بمباركة البطريرك صفير، لكنّ السوريين لم يقبلوا بأي بديل عن الاتفاق الثلاثي[2](4). كما ظهرت مبادرة رجل الأعمال العربي وسفير دولة الإمارات العربية المتحدة في لندن مهدي التاجر[3](5). نتج عنها مباحثات سرية توصل فيها الطرفان إلى مشروع اتفاق أطلق عليه اسم «الميثاق الوطني»، لكن الاتفاق لم يبصر النور بسبب رفض سوريا استكمال الحوار، إلى أن دفعت المملكة العربية السعودية رفيق الحريري للتوسط لإعادة الحوار[4](1).

إن النقاط والمبادئ التي طَرحها رفيق الحريري في وثيقة 13 حزيران/يونيو عام 1987م، ومشروع 11 تشرين الثّاني/نوفمبر عام 1987م، يُعدان نقطة الانطلاق لمؤتمر الطائف[5](2)، فقد سعى الحريري جاهدًا للتوصل إلى حلٍّ للأزمة اللبنانية، وبرز اسمه بشكل لافت منذ الاجتياح الإسرائيلي على لبنان عام 1982م عند توليه توزيع المساعدات الغذائية السعودية على اللبنانيين تحت لافتة (مساعدات خادم الحرمين الشريفين)، ثم عاد وتردد اسمه وسيطًا سعوديًّا في التحضير لعقد مؤتمري جنيف ولوزان للحوار الوطني[6](3).

عُرفت وثيقة الحريري باسم وثيقة 13 حزيران/يونيو، وهو تاريخ تسليمها إلى نائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام، وفي السّابع والعشرين منه التقى الحريري بالرئيس الأسد الذي اعتبر أنّ المشكلة مع الجميّل باتت تتجاوز الاتفاق على الإصلاحات الدستورية إلى الكشف عن قتلة الرئيس رشيد كرامي، وأنّ على الرئيس الجميّل القضاء على الظاهرة الإسرائيلية في منطقته قبل أي حوار[7](4). تضمنت وثيقة 13 حزيران/يونيو ثمانية مبادئ أساسية، وحددت صلاحيات رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة والسلطة التشريعية والجيش والتربية والتعليم، كما وضعت

---

1 . إيلي سالم: **الخيارات الصعبة 1982– 1988 دبلوماسية البحث عن مخرج**، ترجمة مخايل خوري، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر بيروت، ط3، 1997م، ص430– 431.

2 . انطوان سعد: **السادس والسبعون مار نصرالله بطرس صفير 1992–1986**،ج1، دار سائر المشرق، بيروت، 2002م، ص216.

3 . إيلي سالم: المصدرالسابق، ص 440. انظر أيضًا: كريم بقردوني: **لعنة وطن (من حرب لبنان إلى حرب الخليج)**، عبر الشرق للمنشورات، لا تاريخ، ص187.

4 . عارف العبد: **لبنان والطائف**، مرجع سابق، ص 169. انظر أيضًا: جورج بكاسيني: **أسرار الطائف من عهد أمين الجميّل حتى سقوط الجنرال – القصة الكاملة للاتفاق وأوراقه السرية**، مكتبة بيسان، 1993م، ص 16– 17.

5 . جورج بكاسيني: المصدر نفسه، ص 68. أيضًا: إيلي سالم: **الخيارات الصعبة**، مصدر سابق، ص 345.

6 . جورج بكاسيني: **الطريق إلى الاستقلال خمس سنوات مع رفيق الحريري**، د.ن، بيروت، ط3، 2008م، ص 19 – 25.

7 . إيلي سالم: **الخيارات الصعبة 1982– 1988 دبلوماسية البحث عن مخرج**، المصدرالسابق، ص458 .

خطة لإنهاء الاقتتال والعودة بالبلاد إلى حالة السلم والحياة الوطنية الطبيعية[1](5).فشلت هذه المبادرة، كما فشل مشروع «الميثاق الوطني» بعد أن كان قد حقق تقدمًا كبيرًا بين البلدين، وأُسدل الستار عليها كالمبادرات التي سبقتها.

بعد أن أقفلت سوريا باب الحوار مع الرئيس الجميل، وأُبلغ الأمر إلى الحريري، بدأ الأخير مع فريق عمل بإعداد مشروع لحل الأزمة عُرف باسم مشروع 11/11/1987م، نص المشروع تقريبًا على المبادئ العامة ذاتها التي اعتمدتها ورقة 13 حزيران/يونيو مع بعض التعديلات[2](6).

وفي هذه الفترة، وقبل انعقاد مجلس جامعة الدول العربية، اتفق الرئيس حسين الحسيني والرئيس سليم الحص على عقد لقاءات سرية بينهما لإعداد صيغة وفاقية تحضيرًا لطرحها. عُقدت هذه الاجتماعات بشكل سري في الكورال بيتش وتم التوصل في 2 آب/أغسطس عام 1988م إلى مشروع بعنوان (مبادئ الوفاق الوطني)[3](1).

بقي هذا المشروع بعيدًا عن الأضواء إلى حين انعقاد مؤتمر الطائف، وبعد اشتداد النقاش حول المادة 53 من الدستور حول الاستشارات الملزمة لرئيس الجمهورية، شكل الرئيس حسين الحسيني لجنة نيابية من 17 نائبًا سُميت «لجنة العتالة» ليطرح المشروع الذي اتفق عليه مع الرئيس الحص لوضع الصيغ الأخيرة لوثيقة الوفاق الوطني بعد استعراض آراء جميع الأطراف، ويروي بكاسيني[4](2): «كانت الاجتماعات في البداية مغلقة. يوزّع المشروع على النواب، ثم يعاد جمعه في نهاية الاجتماع خوفًا من تسريبه إلى الصحافة».

هذه المشاريع الثلاثة الوفاقية، ورقة 13 حزيران/مايو، ومشروع 11/11، ومشروع الكورال بيتش، كانت أساس بنود وأفكار اتفاق الطائف، لذا يرى كل طرف من الأطراف أن اتفاق الطائف هو من صنعه، ويقول الرئيس سليم الحص في كتابه عهد القرار والهوى[5](3): «من يقارن بين اتفاق الطائف وبين مشروع الكورال بيتش يجد تشابهًا كبيرًا في نصوص المشروعين، كما أنّ ورقة الحريري متطابقة إلى حدٍّ بعيد»، علماً أن الدكتور خالد قباني كان المرجع القانوني في اتفاق الطائف، وواضع ومنسق بنوده، وظهرت بصماته عند إعداد وولادة اتفاق الطائف، لأنه كان أحد أبرز القانونيين المشاركين في الطائف.

---

1 . عارف العبد: **لبنان والطائف**، المرجع السابق، باب الملاحق، ص 333– 340.

2 . عبد الله بو حبيب: **الضوء الأصفر السياسة الأمريكية تجاه لبنان**، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 1999م، ص 132.انظر أيضًا: جورج بكاسيني: **الطريق إلى الاستقلال خمس سنوات مع رفيق الحريري**، مصدر سابق، ص 29 – 30 .

3 . خالد قباني: **وثيقة الوفاق الوطني في الطائف**، أبحاث توثيق لبنان في تاريخه وتراثه، مركز الحريري الثقافي، مج 2، بيروت 1993م، ص 864.

4 . جورج بكاسيني: **أسرار الطائف من عهد أمين الجميّل حتى سقوط الجنرال**، مصدر سابق، ص 108.

5 . سليم الحص: **عهد القرار والهوبتجارب الحكم في حقبة الانقسام 1987– 1990**، دار العلم للملايين، ط1، 1991م، ص 107.

## المطلب الثاني: التعديلات التي انبثقت عن الطائف:

ركز اتفاق الطائف على تثبيت المشاركة، وأكد على المساواة في الحقوق والواجبات بين اللبنانين، واحترام الحريات العامة، ووضع قانونًا جديدًا لتوزيع مقاعد النواب مناصفة بين المسيحيين والمسلمين، وزاد عدد المقاعد إلى 108 مقعدًا، وكرّس الرئاسات الثلاث بعد أن كانت عُرفًا (رئيس الجمهورية مسيحيّ مارونيّ، رئيس مجلس الوزراء مسلم سنيّ، ورئيس مجلس النواب مسلم شيعي)، وأوصى بإنشاء مجلس شيوخ، وإلغاء الطائفية السياسية، وإجراء عددٍ من الإصلاحات الإدارية والانتخابية والقضائية والإعلامية والتعليمية منها مثلًا توحيد الكتاب في مادتي التاريخ والتربية الوطنية[1](4)، مع أهمية الإشارة إلى أن مجلس النواب في جلساته بعد الطائف أقر زيادة عدد النواب إلى (128) نائباً مناصفة بين المسلمين والمسيحيين أي (64 نائباً للمسلمين و 64 نائباً للمسيحيين).

تضمنت «وثيقة الوفاق الوطني اللبناني» مقدمة وعشرة مبادئ عامة تم تعدادها أبجديًّا من الألف (أ) إلى الياء (ي)، والجديد في الموضوع أن الدستور اللبناني لم تكن له مقدمة، فقد كانت مبادئ الكيان والمجتمع والنظام تستخلص من نصوص مواد الدستور، الّتي تبددت في الطائف وشكلت أساس بنيان الاتفاق[2](1).

أما أبرز التعديلات العامة، فهي التالية: جاء في الفقرة (أ) و(ب) أن[3](2):»لبنان وطن سيد حر مستقل، وطن نهائي لجميع أبنائه، واحد أرضًا وشعبًا»، أي أنّه ليس دولة فحسب، بل إنّه وطن له كيانه قائم بذاته، ولأول مرة ينال لبنان باتفاق أبنائه وخاصة مسلميه اعترافًا بكينونته كوطن، واعترافًا بنهائية الكيان اللبناني بالنسبة لهم.

وجاء في الفقرة (ب) أن[4](3): «لبنان عربي الهوية والانتماء» بعد أن كانت عبارة «ذو وجه عربي» في البيان الوزاري الأول، وقد حسمت هذه العبارة صراعًا استمر بين تيارين أحدهما يدعو إلى الوحدة العربية أو الوحدة السورية منكرًا على لبنان أصالته، والآخر ينفي أية صلة للبنان بالعروبة ويرجعه تاريخيًّا إلى الفينقيين[5](4).

---

1 . )وهيب أبو فاضل: **لبنان في مراحل تاريخه الموجزة**، أنطوان للنّشر، بيروت، ط3، 2008م، ص 419.

2 . ألبير منصور: **الانقلاب على الطائف**، دار الجديد، بيروت، ط1، 1993م، ص 73. انظر أيضًا: **الدستور اللبناني الصادر في 23 أيار/مايو عام 1926 مع جميع التعديلات التي أقرت في مجلس النواب وفقًا لوثيقة الوفاق الوطني (اتفاق الطائف)**، 1991م،ص 42.

3 . المرجع نفسه : الصفحة ذاتها 73.

4 . أحمد زين: **محاضر ومناقشات، الدّستور اللّبنانيّ وتعديلاته (2004–1926)**، د.ن، ط3، 2004م، ص 301.

5 . حسن موسى: **بلا هوادة المسيرة السياسية لرجل الدولة الرئيس سليم الحص**، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط1، 2014م،

ص 411. انظر أيضًا: باسم الجسر: **ميثاق 1943 لماذا كان؟ وهل سقط؟**، مرجع سابق، باب الملاحق، ص 496.

أما فيما يخص رئاسة الجمهورية، فقد تحول رئيس الجمهوريّة من رئيس للسلطة التنفيذية والسلطة الإجرائية إلى رئيس للدولة، ووفقًا لاتفاق الطائف يقوم بالمحافظة على استقلال لبنان ووحدته وسلامة أراضيه، والسهر على احترم الدستور كونه القائد الأعلى للقوات المسلحة[1](5)، ومُنح رئيس الجمهورية حقّ حضور جلسات مجلس الوزراء وترؤسها، وإبداء الملاحظات والرأي في كل أمر يُطرح من دون حق التصويت، وأعطي حق النقض في خلال مهلة مدّتها خمسة عشر يومًا، ونقلت السلطة الإجرائية من رئيس الدولة إلى مجلس الوزراء باعتباره هيئة جماعية بعد أن كان الدستور في المادة 77 يُنيط هذه السلطة برئيس الدولة[2](6). ويُمكن القول إنّ اتفاق الطائف قلّص صلاحيات رئيس الجمهورية كرئيس للسلطة التنفيذية، وقضى على اتخاذه القرار منفردًا بتعيين رئيس الحكومة، بل هو مُلزم بالتشاور، وإنّ أهم انجاز إصلاحي في مؤتمر الطائف هو الانتقال من سلطة الفرد إلى سلطة المؤسسات، غير أن هذه المؤسسات لم يستمر عملها في لبنان كمؤسسات بفعل الطائفية والمحسوبية والفساد.

واستحدث اتفاق الطائف عنوانًا مستقلًّا برئيس مجلس الوزراء (المادة 64)، بعد أن كان في الدستور ما قبل الطائف شبه غائب، إذ لم يرد ذكره في الدستور سوى مرتين: الأولى نصّت على[3](1): « رئيس الجمهوريةيعين الوزراء ويختار من بينهم رئيسًا»، والثانية نصت على التالي: «إنّ الحكومة تُدلي ببرنامج عملها أمام مجلس النواب، ورئيسها هو الذي يتلو بيانها أو من ينوب عنه»، وفي كلا الحالتين لم يكن الدستور يُنيط برئيس الحكومة أية صلاحيات معينة.

لم يُعدل اتفاق الطائف مهامّ مجلس النواب، كونه السلطة التشريعية الّتي تمارس حق الرقابة الشاملة على سياسة الحكومة وأعمالها، وإنّما التعديلات الأساسية برئيس المجلس النيابي الذي كان ينتخب سنة فسنة، وهذا أمر يضعفه، فجعل اتفاق الطائف انتخابه لمدة أربع سنوات، ثم إن هناك تعديلات تعلقت بإنشاء مجلس للشيوخ. وعمل الاتفاق على الحد من صلاحيات مجلس الوزراء في حل مجلس النواب[4](2). كما أن تعديل المادة (18) من الدستور جعلت من مجلس النواب مؤسسة مختلفة عن السابق من حيث قوة صلاحياته واستقلاليته، فأصبح[5](3) «لمجلس النواب ومجلس الوزراء حق اقتراح القوانين، ولا يُنشر قانون ما لم يقرّه مجلس النواب». ونص الاتفاق على توزيع المقاعد النيابية بالتساوي بين المسيحيين والمسلمين، ونسبيًّا بين الطوائف والمناطق وكذلك بالنسبة لتقسيم الوظائف العليا، حيث كان في السابق- بناءً على القانون

1 . أحمد زين : **محاضر ومناقشات، الدّستور اللّبنانيّ وتعديلاته (2004-1926)**، المرجع السابق، ص 303 وما يليها. انظر أيضًا:

2 . ألبير منصور: **الانقلاب على الطائف**، المصدر السابق، ص 48.

3 . **الدستور اللبناني الصادر في 23 أيار/مايو عام 1926**، مرجع سابق،المادة (64)، ص 48.

4 . **لبنان والطائف**، المرجع سابق، ص 229.

5 . **الدستور اللبناني الصادر في 23 أيار/مايو عام 1926**، المرجع السابق،المادة (18)، ص 5 .

الانتخابي لعام 1960م– توزيع المقاعد بنسبة 6 للمسيحيين مقابل 5 للمسلمين، أي 54 مقعدًا للمسيحيين و45 مقعدًا للمسلمين، وزيدَ عدد المقاعد من 99 إلى 108 مقعدًا، بعد أن كان الاقتراح الذي طبقه المجلس النيابي فيما بعد، في نص وثيقة اللجنة الثلاثية العربية، 128 مقعدًا[1](4).

ومن التعديلات أيضًا، اعتبار المحافظة أساسًا للدائرة الانتخابية مع وجوب إعادة النظر بالتقسيم الإداري، بعد أن كان القضاء أساس الدائرة الانتخابية (قانون الانتخاب عام 1972م) وذلك صونًا للانصهار الوطني والتعبير الصحيح عن إرادة العيش المشترك[2](5)، وبسط سيادة الدولة اللبنانية على كامل الأراضي: ومن أجل ذلك، لا بد من تطهير لبنان من الميليشيات اللبنانية وغير اللبنانية وتسليم أسلحتها، وإيجاد حل لمسألة المهجرين اللبنانيين منذ العام 1975م، ووضع التشريعات التي تكفل حق العودة[3](6).

لم يكن إقرار نص وثيقة الوفاق الوطني اللبناني، والتي تضمنت تعديلات دستورية، نهاية مرحلة بل بداية مرحلة جديدة بالغة التعقيد والحساسية الداخلية أنتجت ظهور ما يُشبه الحرب اليومية بين الرؤساء الثلاثة: رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ورئيس مجلس النواب حول صلاحيات، كل منهم وفقًا لنصوص الدستور الجديد، فبرزت مشكلات عديدة أهمها:

1– التناقض بين الرئاستين: إنّ أولى المشكلات التي بدأ رجال سلطة الطائف بمواجهتها تمثلت في رفض رئيس الجمهورية التعديلات الدستورية وتقليص صلاحياته، أما رئيس مجلس الوزراء فكان أمام تجربة تثبيت الصلاحيات التي حاز عليها، بينما كان رئيس مجلس النواب مطمئناً باستحالة حل مجلسه، وهكذا كان الخلاف ينشب بين الثلاثة عند كل خطوة جديدة[4](1).

2–الخلافات مع مجلس الوزراء: ومن المشكلات التي ظهرت في تلك المرحلة مسألة انعقاد مجلس الوزراء، أي ما جاء في المادة 64 من الدستور، فقد أعطت هذه صلاحياتٍ لرئيس مجلس الوزراء تمكنه من دعوة مجلسه إلى الانعقاد، ومنحت لرئيس الجمهورية الحق في دعوة مجلس الوزراء إلى الانعقاد استثنائيًّا، لذا اعتبرها البعض من المواد المبهمة والّتي أدت إلى الانقسام في الآراء بين مَنْ يعتبر أنّ إعداد جدول الأعمال مرهون بموافقة رئيس الجمهورية،

---

1 . عارف العبد: المرجع سابق، ص 230. انظر أيضًا ألبير منصور: **الانقلاب على الطائف**، مصدر سابق، ص 45.

2 . هادي الشويكي: **قراءة تحليلية لنصوص اتفاق الطائف**، مركز الرأي للدراسات، 2005م، http://www. alraicenter.com

3 . فهد حجازي : **لبنان من دويلات فينيقيا إلى فيدرالية الطوائف**، ج3، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2013، ص339.

4 . ألبير منصور: **الانقلاب على الطائف**، مصدر سابق، ص 112. انظرأيضًا: عارف العبد: **لبنان والطائف**، مرجع سابق، ص 245.

ومَنْ يعتبر أنّ موافقته غير ضرورية[1](3).

3- المؤسسة العسكرية: ظهر الالتباس حول المادة 49 من الدستور اللبناني، والتي تنص على التالي[2](4): «إن رئيس الجمهورية هو القائد الأعلى للقوات المسلحة ومجلس الوزراء هو السلطة التي تقود كل أجهزة الدولة بما في ذلك العسكرية منها»، وظهر هذا الالتباس مع بداية تطبيقه في تجاوزات رئيس الجمهورية صلاحيات قائد الجيش. كما حصل خلاف حول كيفية التخلص من الحالة العونية، وحول البنود المتعلقة بسورية.

إن صيغة الطائف ما زالت تحمل الكثير من المعادلات الملتبسة التي تحتاج إلى تعديل أو تفسير، فما طُبِّق وما لم يُطبَّق من هذا الاتفاق سيبقى محورًا من محاور النقاش الأساسية لا سيما في المحطات المهمة، ويبقى السؤال هو التالي: هل حقق اتفاق الطائف طموح الأطراف اللبنانية؟ وهل أوجد آلية جديدة مختلفة عما كان سائدًا من قبل؟

## خاتمة واستنتاجات:

لقد ركز البحث على إشكالية النظام السياسي اللبناني من الميثاق إلى الاتفاق على النظام السياسيّ اللّبناني. فقد منع هذا النظام الحد الأدنى من الانصهار الاجتماعي بين أبنائه، وعطّل المبرر الأساسي لقيامه كدولة مستقلة، أي دولة قوامها مجتمع فيه من الوحدة والمصالح المشتركة والرغبة ما يجعله مستقلا عن الدول الأخرى.

توصّل البحث إلى عدة نتائج يُمكن تلخيصها على النحو التالي:

1- عانى لبنان ومازال خللًا بنيويًّا في نظامه السياسي- الدستوري القائم على قاعدة الطائفية، ويُعتبر هذا النظام أحد الأسباب الداخلية الوجيهة لمختلف الأزمات التي عصفت به.

2- إن التغيير الديموغرافي الذي فرضه إعلان دولة لبنان الكبير أدّى إلى خلق معضلات سياسيّة ووطنية، ونتج عنه إيجابيّة مسيحيّة موالية للانتداب مدعمة بفكرة أنها ذات حق في السيّطرة على الكيّان الجديد وتوجيهه، وسلبية إسلاميّة مناهضة له، رافضة للواقع الجديد الذي نقلها من مرحلة كانت فيه الأكثرية في ظل دولة إسلاميّة إلى مرحلة أصبحت فيها الأقلية.

3- حُكم لبنان على أساس انقسامه إلى طوائف، وكان للدستور وللميثاق الأثر الأكبر في إحداث الفتن والأزمات الدائمة بسبب ما تضمناه من قوانين وسُنن أرست الطائفية في النصوص والنفوس. فالحكومات المتعاقبة لم تقم بإلغاء المواد الخاصة بالطائفية سواء الواردة في الدستور أو المعمول بها عُرفًا ممّا أدّى إلى نموّ الدولة اللبنانية على أسس هشّة.

---

1 . إيلي سالم: **الخيارات الصعبة**، مصدر سابق، باب الملاحق، 545- 546. انظر أيضًا: حسن موسى: **بلا هوادة المسيرة السياسية لرجل الدولة الرئيس سليم الحص**، المرجع السابق، ص 433.

2 . ياسين سويد (اللواء الركن): **المسألة اللبنانية (نقد وتحليل)**، الشركة العالمية للكتاب، لبنان، ط1، 1998، ص 152.

4- شهد لبنان منذ الاستقلال عام 1943م سلسلة من الأزمات بلغت ذروتها في أواسط السبعينيات، وكان لكل أزمة بعدها الخارجي، وارتباطُها ارتباطًا مباشرًا بالتغيير الناشئ في السياسات الإقليمية والعالمية، وكان هذا الارتباط يحدّد السياسة الداخلية للبنان بما في ذلك اختيار رئيس الجمهورية، فمنذ الاستقلال لم يأتِ رئيس للجمهورية صنع في لبنان.

5- فشل الحوار الوطني، والتطورات العسكرية والسياسية تسببت في انهيار الدولة ومؤسساتها بالإضافة إلى تأثر لبنان بمحيطه العربي منذ نشأته وانعكاسات السياسة الخارجية على لبنان، كل هذه العوامل عجلت في سقوط وانهيار الميثاق الوطني.

6- مع كل التناقضات في الحياة السياسية، تمكن الميثاق الوطني من توفير قواعد مقبولة للتعايش السياسي الطائفي بين البنانيين، إلا أنه لم يستطع أن يؤمن فرصة اندماج مجتمعي ولا تحقيق الاستقلال الحقيقي.

7- دخلت سوريا الأراضي اللبنانية للبحث عن حل توفيقي بين الأطراف المتنازعة، وكوسيلة لإنهاء الحرب وإعادة الاستقرار إلى البلد، لكنها تحولت إلى شريك فاعل في سير الأحداث، وربطت مستقبل الوجود العسكري السوري في لبنان بمصير التسوية السلمية في المنطقة.

8- أعقبت الحرب اللبنانية (1975- 1990) تسوية سياسية لُفت بعباءة سعودية عربية ودعم أمريكي عُرفت باتفاق الطائف. كما أن العوامل الإقليمية والتحركات الدولية ساهمت بدورٍ كبيرٍ في الوصول إلى اتفاق يُرضي جميع الأطراف اللبنانية، ويُنهي النزاع بينها.

9- تمكن اتفاق الطائف من إنهاء الحرب وإعادة الوحدة السياسية إلى البلاد، ومنح دور أكبر لمجلس الوزراء ورئيسه، وتقاسم مقاعد مجلس النواب والوزراء مناصفة بين المسلمين والمسيحيين.

10- اعتُبر الطائف ميثاقًا للسلام بين اللبنانيين، لكنه لم يؤدِّ الطائف إلى المصالحة الوطنية المنشودة، لأنه اصطدم بالطّائفية السّياسيّة المتغلغلة في النّظام والنّفوس، وبقي مجرد تسوية بين فريقين.

11- عَجزَ النظام اللبناني عن إيجاد قانون انتخابي ذي قواعد أساسية ثابتة، فالقوانين الانتخابيّة صدرت إما عن رؤساء جمهورية بهدف خدمة مصالحهم السياسية، وإما بقوة وصاية خارجية.

12- ما إن انتهى اللبنانيون من سكرة الطائف حتى وجدوا أنفسهم أمام التناقضات السياسية التي تمحورت حول تنفيذ الطائف وما رافقه من ممارسات ومخالفات للدستور والقوانين ومشاحنات بين المسؤولين، فضلًا عن علاقة لبنان بمحيطه العربي وخصوصًا سوريا.

- قام الطائف بتعديلات مهمة على صلاحيات رئيس الجمهورية، ليتحول بذلك النظام شبه الرئاسي في لبنان إلى نظام برلماني شبه مجلسي يؤدي بالضرورة إلى حكم الأغلبية، وأصبح النظام اللبناني ديمقراطيًّا توافقيًّا، ولكنه بعكس ذلك منح بعض الامتيازات للطوائف، وفشلت فكرة تشكيل مجلس شيوخ إلى جانب المجلس النيابي مع أنّها كانت ستمتص بعض الاحتقان الطائفي.

## المصادر والمراجع:

### أولًا المصادر


1- ألبير منصور: **الانقلاب على الطائف**، دار الجديد، بيروت، ط1، 1993م.

2- انطوان سعد: **السادس والسبعون مار نصرالله بطرس صفير 1992-1986**،ج1، دار سائر المشرق، بيروت، 2002م.

3- إيلي سالم: **الخيارات الصعبة 1982- 1988 دبلوماسية البحث عن مخرج**، ترجمة مخايل خوري، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر بيروت، ط3، 1997م.

4- بشارة الخوري: **حقائق لبنانية**، منشورات أوراق لبنانيّة، ج2، 1961م.

5- رغيد الصلح: **لبنان والعروبة الهويّة الوطنيّة وتكوين الدّولة**، دار السّاقي، بيروت، 2006م.

6- سليم الحص: **عهد القرار والهوبتجارب الحكم في حقبة الانقسام 1987- 1990**، دار العلم للملايين، ط1، 1991م.

7- عبد الله بو حبيب: **الضوء الأصفر السياسة الأمريكية تجاه لبنان**، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 1999م.

8- كريم بقردوني: **لعنة وطن (من حرب لبنان إلى حرب الخليج)**، عبر الشرق للمنشورات، لا تاريخ.

9- كمال جنبلاط : **أسس بناء الدولة اللبنانية وتنظيم شؤونها**، الدار التقدمية، المختارة، ط1، 2012م.

10- كميل منسى: **إلياس الهراوي عودة الجمهورية من الدويلات إلى الدولة**، دار النهر للنشر، بيروت، ط1، 2002م.

1 . ميشال شيحا: **في السياسة الداخلية**، ترجمة أحمد بيضون، دار النهار للنشر، بيروت، ط1، 2004م.


### ثانيًا: المراجع العربية والمترجمة:


- أحمد زين: **محاضر ومناقشات، الدّستور اللّبنانيّ وتعديلاته (1926-2004)**، د.ن، ط3، 2004م.
- أحمد طربين: **الوحدة العربية في تاريخ المشرق العربي (1800- 1958)**، جامعة دمشق، 1977م.
- أسامه إسماعيل عجروش: **الدستور اللبناني وتعديلاته**، منشورات زين الحقوقية، بيروت، 2011م.
- آني لوران وأنطوان بصبوص: **الحروب السرية في لبنان**، دار مختارات، بيروت، 1988م.
- باتريك سيل: **رياض الصلح والنضال من أجل الاستقلال**، ترجمة عمر سعيد الأيوبي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2010م.
- باسم الجسر: **الصراعات الوطنية والوفاق اللبناني (1920-1975 )**، دار النهار للنشر، بيروت، 1981م.

- 7- = = : **ميثاق 1943 – لماذا كان؟ وهل سقط؟**، دار النّهار للنّشر، بيروت 1987م.
- تيودور هانف: **لبنان تعايش في زمن الحرب**، ترجمة موريس صليبا، مركز الدّراسات العربيّ الأوروبّيّ، باريس، 1993م.
- جورج أنطونيوس: **يقظة العرب**، ترجمة د. ناصر الدين الأسد، د. إحسان عباس، دار العلم للملايين، ط8، 1987م.
- جورج بكاسيني: **أسرار الطائف من عهد أمين الجميّل حتى سقوط الجنرال**، مكتبة بيسان، بيروت، 1993م.
- حسان حلاق: **الأبعاد الطائفية والسياسية في مواقع الحكم في لبنان**، منشورات جمعية متخرجي المقاصد، بيروت، 1987م.

12- = = : **التيارات السياسية في لبنان (1943 – 1952 )**الدار الجامعية، بيروت، ط2، 1984م.

13- = =: **مذكرات سليم علي سلام ( 1868 – 1938)**، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت، 1982م.

14- = =: **دراسات في تاريخ لبنان المعاصر (1943-1913) من جمعية بيروت الإصلاحية إلى الميثاق الوطني**، دار النهضة العربية، بيروت، 1985م.

16- حسن موسى: **بلا هوادة المسيرة السياسية لرجل الدولة الرئيس سليم الحص**، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط1، 2014م.

17- خالد قباني: **وثيقة الوفاق الوطني في الطائف**، أبحاث توثيق لبنان في تاريخه وتراثه، مركز الحريري الثقافي، مج 2، بيروت 1993م.

18- رياض الصمد: **الطائفية ولعبة الحكم في لبنان**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1977م.

19- ريمون هاشم (الأب): **الانتداب الفرنسي على لبنان**، منشورات الجامعة الأنطونية ، بيروت، ط1، 2007م.

20- الشيخ مرسل نصر: **الأحوال الشخصية للطائفة الدرزية**، الناشر مؤسسة التراث الدرزي، لندن، ط1، 2009م.

21- عارف العبد: **لبنان والطائف**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2001م.

22- عارف زين الدين: **قوانين ونصوص وأحكام الأحوال الشخصية وتنظيم الطوائف الإسلامية في لبنان**، منشورات الحلبي الحقوقية، ط1، 2003م.

23- عبد الغني البسيوني: **النظم السياسية والقانون الدستوري**، منشأة المعرفة، الإسكندرية، لا تاريخ.

24- عقل عقل: **العدالة الدستورية والمجتمع التعددي**، طبعة إلكترونية.

25- فهد حجازي: **لبنان من دويلات فينيقيا إلى فيدرالية الطوائف**، ج3، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2013م.

26- فواز طرابلسي: **تاريخ لبنان الحديث من الإمارة إلى اتفاق الطائف**، رياض الرّيس للكتب والنّشر، ط1، 2007م.

27- كمال الصليبي: **بيت بمنازل كثيرة، الكيان اللبناني بين التصور والواقع**،مؤسسة نوفل، بيروت، ط4، 2007م.

28- مسعود ضاهر: **تاريخ لبنان الاجتماعي ( 1914- 1926 )**، دار المطبوعات الشرقية، بيروت، ط2، 1984م.

29- = =: **لبنان الاستقلال والصيغة والميثاق**، دار المطبوعات الشرقية، لبنان، 1984م.

30- نهاد حشيشو: **الحياة الدستورية في لبنان (نشأة الدستور، التعديلات، التفسيرات)**، المركز العربي للمعلومات، لبنان، 2007م.

31- واصف الحركة: **الميثاق بين الوفاق والشقاق**، المؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي الدائم، بيروت، 1988م.

32- وليد عوض : **أصحاب الفخامة رؤساء لبنان**، الأهلية للنشر، بيروت، 1977م.
33- وهيب أبو فاضل: **لبنان في مراحل تاريخه الموجزة**، أنطوان للنّشر، بيروت، ط3، 2008م.
34- ياسين سويد (اللواء الركن): **المسألة اللبنانية (نقد وتحليل)**، الشركة العالمية للكتاب، لبنان، ط1، 1998م.

**ثالثًا: دراسات ومحاضرات:**

1 . أحلام بيضون : **الطائفية السياسية بين خطر التوافقية ودستورية الإلغاء**.khayaralmoukawama.com
2 . خالد قباني: **ثوابت النظام اللبناني وآفاق المستقبل**، محاضرة ألقاها في بيروت بتاريخ 30 كانون الأول/ ديسمبر عام 1987م، منشورات جمعية متخرجي المقاصد الإسلامية.
3 . دراسة أعدتها الدولية للمعلومات بعنوان: **إلغاء الطائفية السياسية**، عام 2010م،على الرابط التالي: Information International.
**4 . الدستور اللبناني الصادر في 23 أيار/مايو عام 1926،التعديلات التي أقرت في مجلس النواب وفقًا لوثيقة (اتفاق الطائف)**، 1991م.
5-عاطف عطية: **الدولة المؤجلة (دراسة في معوقات نشوء الدولة والمجتمع المدني في لبنان)**، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، ط1، 2000م.
6- عبد الرؤوف سنو: **التعايش المأزوم لبنان من الميثاق الوطني إلى اتفاق الدوحة وتداعياته 1943-2011**، محاضرة .
7- علي حسين الشامي: **ندوة عودة الكفاءات اللبنانية المهاجرة**، منشورات وزارة المغتربين، ط1، 1996م.
8- محمد طي: **المسألة الطائفية في لبنان**، دراسات عربية، العدد الأول، السنة العاشرة، 1973م.
1 . هادي الشوبكي: **قراءة تحليلية لنصوص اتفاق الطائف**، مركز الرأي للدراسات، 2005م، http:// www.alraicenter.com
2 . المجلة القضائية: **المرسوم الاشتراعي الرقم(112)**، العدد 25،المنشورات الحقوقية، بيروت، 2000م.

**رابعًا: مراجع أجنبية**

André' Bruneau: **Traditions et Politique de la France au Levant**, Paris,1931.
Edmond Rabbath:**La Formation Historique du Liban Politique et Constitutionnel**, Essai de synthese, Beyrouth, Publication de L'Université' Libanaise1973 ,.
Georges Corm: **Geoplitique du coflit Libanais**, Paris, Edition La Decouverte, 1986.

**خامسًا: مواقع رسمية**

الموقع الرسمي لرئاسة مجلس الوزراء **http://.pcm.gov.lb**/Culturer/ar-LB
**الموقع الرسمي للمحاكم الشرعية السنية في لبنان** على الرابط التالي:/http://www.slc.gov.lb/default.asp
**الموقع الرسمي لوزارة العدل**: .http://ahdath.justice.gov.lb/law-nearby-personal htm

# استهداف الكوادر الصحافية والإعلامية في العراق بين أعوام (2003 – 2012)

**الباحث : نبيل حميد نواف الدليمي**
**طالب دكتوراه في الجامعة البنانية**
Nabil.nawaf79@gmail.com

**ملخص:**

تعد المدة التي أعقبت أحداث التاسع من نيسان (أبريل) سنة 2003م، من الفترات المهمة في تأريخ العراق، ذلك أن آثار تلك الأحداث لم تستثن جزئية من نواحي الحياة الثقافية والسياسية والإعلامية إلا وأثرت فيها بنواح وصيغ مختلفة، ويعد الإعلام بوسائله كافة من أهم المؤسسات تأثراً بتلك الأحداث الخطيرة المتمثلة بتقييد حرية الصحافة، واستهداف الكوادر الصحافية والإعلامية، وقد وثق مرصد الحريات الصحافية الانتهاكات، والاعتداءات التي تعرض لها الصحافيون والإعلاميون بالإضافة لعمليات القتل والتضييق الرهيبة التي حدثت ما بين2003) –2012)، تبين بأن هناك تخطيطاً يهدف إلى السيطرة على وسائل الإعلام وحركة الصحافيين وممارسة الضغط عليهم وترهيبهم بشتى الوسائل لمنعهم من مزاولة عملهم بحرية، ومنعهم من الوصول إلى أرض الحدث، ونقل الصورة كما هي بعيداً عن المؤثرات السياسية والدينية والمذهبية.

**Abstract:**

The period following the events of the ninth of April 2003, one of the important periods in the history of Iraq, that the effects of those events did not exclude a molecule of cultural, political and media life did not affect the different aspects and formulas, and the media by all means of the most important institutions affected

by those dangerous events The Journalistic Freedoms Observatory documented violations, attacks on journalists and media, in addition to the terrible killings and harassment that took place between 2003 and Shows that there are plans to control the media and the movement of journalists and pressure them and intimidate them by various means to prevent them from practicing their work freely, and prevent them from reaching the land of the event, and transfer the picture as it is away from political, religious and sectarian influences.

**أولاً– الصراعات الطائفية وأثرها في استهداف الكوادر الصحافية والإعلامية في العراق.**

**أ– الصراعات الطائفية:**

يجري التركيز في وسائل الإعلام داخل العراق – وخارجه – على المجموعات الدينية والإثنية الكبرى الثلاث في العراق (العرب الشيعة، العرب السنة، والكرد)، والخريطة (3) تبين ذلك.

**الخريطة (3) تبين المجموعات الدينية والأثنية الكبرى الثلاث في العراق (العرب الشيعة، العرب السنة، والكرد)[1]**

إن تعدد الطوائف وتنوعها في العراق، كانت تؤثر على وسائل الإعلام تأثيراً كبيراً ممثلاً بالأحزاب التي تتبع لها. يقول الدكتور ياس خضير البياتي: إن تنوع وسائل الإعلام وكثرتها، وهي ظاهرة صحية إذا كان هذا التنوع يهدف إلى بناء الإنسان العراقي الجديد، وتوعيته بوحدة العراق ومخاطر التقسيم، وتعميق الوحدة الوطنية، وإشاعة ثقافة الديمقراطية واحترام الرأي الآخر. إلا أنها تحولت إلى منابر إعلامية لتأجيج الصراع السياسي بين الأحزاب والطوائف والقوميات والأديان، وأداة دعاية تحريض لإشعال فتيل الحرب الطائفية وتكريس ثقافة

1– **http://www.iraqmaps.net**

المحاصصة والمصالح، وإثارة الغرائز والدوافع النفسية من خلال نبش الماضي وانتقاء الأحداث بازدواجية المعايير، مما ساعد على ولادة تكتلات إعلامية طائفية وقومية وعرقية تتبنى الدفاع عن حقوق مواطنيها فقط، وتلغي الآخر تحت مبررات "التكفير" و"التخوين" والإرهاب».

وإذا كانت تفجيرات الفتنة الطائفية لقتل الأبرياء في صورة السيارات المفخّخة تشكل جريمة في حق الشعب والوطن، فإن تفجيرات الفتنة الإعلامية التي تم تفخيخها داخل وسائل الإعلام العراقية، وبالذات الفضائيات هي الأخرى جريمة بشعة لا تقل عن جريمة قتل العراقي بدم بارد، لأنها تحاول إيقاظ الفتنة والتحريض من خلال خطاب إعلامي مؤجج ومبرمج لمصلحة الانتماء الطائفي والقومي والعرقي. فنحن نشهد اليوم ظهور صحف حزبية ودينية ذات ولاءات طائفية تشيع ثقافة الولاء للطائفة، وصحف مستقلة وحزبية لا هوية لها. والأخطر هو تسابق الأحزاب والطوائف والمذاهب على إنشاء إذاعات وفضائيات، معظمها يبشر بثقافة الطائفة ويلغي الآخر، تحت مبررات عديدة، مرة بتهميشها من قبل المذهب الآخر، ومرة بتكفيرها من الطائفة الأخرى، بغض النظر عن الأحزاب والكتل ومساراتها الطائفيّة والقوميّة والعرقيّة، وتركيبة الأحزاب السياسية وبرامجها، وتقليدية قادة الأحزاب والتكتلات والكيانات، وارتباطهم بثقافة الماضي، وولاءاتهم المختلفة والمتناقضة، وتجربتهم المتواضعة في ممارسة الديمقراطية رغم نزيف الجرح العراقي الذي مازال ينزف جراء تفجيرات الموت ونزيف الدم، وخنادق الطائفية البغيضة، وموت الحياة العراقية بسبب الفقر والبطالة والكساد الاقتصادي وانعدام الخدمات.

ويعقب الدكتور ياس خضير البياتي قائلاً: باختصار شديد، فإن على الشعب أن يستيقظ ويتنبّه لحرائق سياسييه الذين يتألقون في إثارة النوازع البدائية للمواطنين، ويستغلون طيبتهم وفقرهم وحاجاتهم الإنسانية، وأن يتنبّه أيضا إلى خطابات إعلامهم الطائفي، وأن يبرهن أنه أرقى من سياسييه وعياً وتجربة وممارسة، لأن إطلاق فكرة المواطنة باعتبارها جوهر الوطنية، هو مقياس الانتماء، بحيث يصبح العراقيون، عرباً وأكراداً، سنة وشيعة، مسلمين ومسيحيين، متساوين أمام القانون في الحقوق والواجبات ضمن إطار دولة العراق، فهي الضمانة الحقيقية للتوافق، وركيزة أساسية لبناء الديمقراطية والمجتمع المدني، لأن الأوطان لا تبنى على توحش طائفة على طائفة، أو عرق على عرق، وإنما تبنى على مفهوم التوافق الوطني على قضايا الشعب والوطن.[1]

تأخذ الأقليات العراقية المختلفة حيزا من التناول الإعلامي يكاد يكون معدوماً. يتكون سكان العراق من مجموعات تركيبية إثنية ودينية، يبينها الجدول (6) التالي:

1 . ياس خضير البياتي، **مقال على جريدة العرب**، مصدر سابق.

**جدول (6) يبين تكوينات سكان العراق المقدرة عام 2000** [1]

| | |
|---|---|
| عدد السكان | 24 مليون نسمة |
| سكان المدن | 75% |
| سكان الريف | 25% |

| | |
|---|---|
| التركيب الإثني | |
| العرب | % 77.1 |
| الأكراد | % 19 |
| التركمان | % 1.4 |
| آشوريون | % 0.8 |
| فرس | % 0.8 |
| التركيب الديني | |
| المسلمون | % 95.8 |
| (شيعة) | 42.3 %(العرب والأكراد والفرس والتركمان) |
| (سنة) | 53.5 % (العرب والأكراد والتركمان) |
| المسيحيون | % 3.5 |
| الأديان الأخرى | % 0.7 |

وفي هذا تقول مادلين أولبرايت: لقد أدى العنف الطائفي بالفعل إلى سقوط عدد هائل من المدنيين، وإلى واحد من أكبر النزوحات السكانية في تاريخ الشرق الأوسط الحديث، فقد هجر أكثر من مليوني عراقي منازلهم بحثاً عن أحياء أكثر أمناً، وفروا عبر الحدود إلى سوريا والأردن وإيران. وكلف هذا الخروج العراق نواة من العاملين المهرة الذين يحتاج البلد إلى مواهبهم. كما أن نزوح السكان يميل إلى إطالة القتال بدلاً من تبريد النزاع، إذ ينتظم النازحون لاسترجاع بيوتهم. وما لم تمارس رقابة شديدة على مناطق اللاجئين، فقد تتحول إلى قواعد للميليشيات ومعسكرات للتلقين، حيث تحث المنافي المريرة الجيلَ التالي على خوض معارك خسرها الجيل السابق. [2]

وتعقب مادلين أولبرايت بالقول: قد يكون السبيل الوحيد للمحافظة على اجتماع العراق هو

1 . مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، **الدين والإثنية والتوجهات الأيديولوجية في العراق:** من الصراع إلى التكامل، 84 سلسلة محاضرات الإمارات، دولة الإمارات العربية المتحدة–أبو ظبي، الطبعة الأولى، 2004م، ص27، الترقيم الدولي:ISBN 9948-00-587-2 ISSN 1682-122X

2 . مادلين أولبرايت، **مذكرة إلى الرئيس المُنتَخَب – كيف يمكننا استعادة سمعة أميركا ودورها القيادي**، مصدر سابق، ص198.

السماح بانقسامه. لا بشكل رسمي أو كامل، بل بقدر كافٍ يتيح إنشاء حيز للعيش للشيعة في الجنوب، وللأكراد في الشمال، وللسنة في ما بينهما. يجب أن يحدث ذلك نتيجة لسياسة معلنة، لأن العراقيين قطعوا شوطاً نحو التقسيم. ويجب أن يكون هدفك (بالتشارك مع من يرغب من القادة العراقيين) تثبيت استقرار العملية، بحيث تتم سلماً ودون القضاء تماماً على مفهوم العراق الوطني منعاً لمزيد من الانقسامات والفتن علماً أن التصريح قديم. ولا تنجح الديمقراطية ما لم تحترم الغالبية المنتخبة خصومها لتعهد إليهم بحقوقهم، مع التمثيل السياسي المنصف، ودور في توفير الأمن [1].

وتأسيساً على ما تقدم يتضح أن مادلين أولبرايت ترغب في أن يكون العراق مقسماً (وهو السبيل الوحيد للمحافظة على اجتماع العراق) – بزعمها – وهذا يبدو وفقاً للخريطة (4):[2]

**الخريطة (4) تمثل وجهة نظر مادلين أولبرايت: السبيل الوحيد للمحافظة على اجتماع العراق هو السماح بانقسامه، الشيعة في الجنوب، والأكراد في الشمال، والسنة فيما بينهما). ولا ندري فيما إذا كانت هذه السياسة التقسيمية ما تزال ألمانيا متمسكة بها.**

**ثانياً– الصراعات الحزبية وأثرها في استهداف الكوادر الصحافية والإعلامية في العراق.**

بعد غزو العراق واحتلاله من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وحليفتها بريطانيا (2003)، أتت مع الاحتلال أحزاب سياسية تشكلت خارج البلد تحمل أجندات مختلفة، لا يخلو معظمها من الارتباط بأجندات دول أجنبية تريد تحقيق مصالحها في العراق بعد سقوط نظام الدولة فيه، وقد أصدرت هذه الأحزاب وبعض التيارات الدينية صحفا ومجلات وأنشأت إذاعات عدة،

1 . المصدر نفسه، ص199– 201.

2 . موقع خرائط العراق على شبكة الإنترنت: تاريخ الدخول/24/5/2014 http://www.iraqmaps.com

وراحت تؤسس لقنوات فضائية تعبر عن سياستها وفكرها السياسي وانتمائها الديني والطائفي، وبعد الاحتلال ظهرت (صحافة الأحزاب)، المغيبة عنه منذ سقوط النظام الملكي عام 1958، وقد تسببت في إنهاك قطاع الإعلام العراقي، نظراً إلى كثرة الأحزاب السياسية والإسلامية الموجودة في العراق، سواء المحلية أو الأجنبية الصنع والأجندة. كما ساهمت تلك المنابر الإعلامية (المتحزبة) في تعقيد العمل الإعلامي وتغيير مساراته، لابتعادها عن المضمون الإعلامي الجيد والمحايد، وانزوائها في خدمة مصالح وأهداف واستراتيجية الحزب الذي تنتمي إليه. بل اندفعت غالبية هذه المنابر الحزبية إلى سحب ذهنية المتلقي العراقي، نحو تجسيد الصراع الشخصي بين الشخصيات والجهات السياسية والإسلامية، التي تعبر عنها تلك الوسائل، في الوقت الذي ينبغي أن تكون فيه (صحافة الأحزاب) مؤشراً إيجابياً وحالة حضارية سليمة تعكس التعددية والتنوع في المجتمع العراقي وهذا لم يحدث»[1].

استؤنفت الحياة الحزبية في العراق إثر سقوط حكم البعث في نيسان (أبريل) 2003. وكان ظهور الأحزاب بمنزلة ردة فعل على حال الاختناق السياسي، الذي خلفته عقود من سيطرة الحزب الشمولي الواحد والحرمان المطلق من فرص العمل السياسي داخل العراق منذ فشل تجربة الجبهة الوطنية أواخر السبعينات، فضلاً عن الفراغ السياسي لأي شكل من أشكال السلطة وما ترتب عليه من فوضى انطلقت معها الإرادات الفردية والجمعية لتأسيس تكتلات سياسية. كما كان لأجواء الديمقراطية الجديدة والدعوة للانتخابات والامتيازات البرلمانية دافع قوي لرغبة الشخصيات في ممارسة اللعبة السياسية من خلال تكوين الأحزاب.

إن معظم الأحزاب التي أنشئت في مرحلة ما بعد سقوط النظام الشمولي وهيمنة الحزب الواحد هي أحزاب قديمة، حاولت أن تعيد صلاتها مع أعضائها القدامى وكسب تعاطف الجيل الجديد من عائلات أنصارها، مثل «الحزب الشيوعي العراقي»، و»حزب الدعوة»، و»الحزب الوطني الديمقراطي»، و»حزب الاستقلال» و»الحزب الاشتراكي» وبعضها أحزاب فئوية دفعها الشعور بالتهديد فتشكلت في كيانات سياسية صغيرة للمطالبة بحقوق الفئات الدينية والعرقية التي تمثلها، غير أن الأحزاب التي هيمنت على المشهد السياسي في هذه المرحلة هي أحزاب ما كان يسمى «المعارضة الجديدة»، وهي أحزاب تأسس أبرزُها خارج العراق بعد حرب الخليج الثانية عام 1991، وكانت جزءاً من مؤتمر لندن في كانون الأول (ديسمبر) 2002 وما أعقبه من مؤتمرات أهمُّها مؤتمر صلاح الدين في كردستان في أذار (مارس) 2003، حيث انتخبت لجنة المؤتمر خمسة أحزاب هي: «حزب المؤتمر الوطني»، و»حركة الوفاق الوطني»، و»المجلس الأعلى للثورة الإسلامية»، والحزبين الكرديين و»الحزب الديمقراطي الكردستاني» ، وأصبحت تعرف فيما بعد بـ «الهيئة الخماسية» أو «مجموعة الخمسة»، وقد حاولت هذه الهيئة

1 . دار بابل للدراسات والاعلام، **أُسُس للنهوض بواقع الإعلام العراقي**، بغداد، 2013، ص10.

أن توسِّع قاعدتها بإضافة حزبين آخرين، هما «حزب الدعوة الإسلامية» و»الحزب الوطني الديمقراطي»، نظراً لما يتمتع به هذان الحزبان من تاريخ سياسي. وشكلت هذه الأحزاب السبعة الأركان الأساسية لمجلس الحكم الانتقالي في العراق، الذي شكّلته سلطة الائتلاف المؤقتة (CPA)، والذي يؤشر بداية العملية السياسية وقد تم الاصطلاح على تسمية هذه المجموعة باسم "أحزاب الخارج" على الرغم من عدم دقة التسمية.

ولم يكن "لأحزاب الداخل"، سواء القديمة منها أو الجديدة (التي تأسست بعد عام 2003) فرصة مهمة للعمل السياسي خارج نطاق المشاركة في العملية السياسية الرسمية. في حين كان لوجود بعض الأحزاب في مجلس الحكم فرصة لبسط نفوذها والسيطرة على مصادر الدعم المادية والمعنوية، وهو ما جعلها أحزاباً رئيسة. وقد اتهمت أحزاب (الداخل) أحزاب (الخارج) بالاستحواذ "على "كعكة السلطة" وعدم دعوتها لأحزاب الداخل للمشاركة في المفاوضات التي تعقد لتقرير مستقبل العراق[1].

لقد أدركت القوى والتيارات الأخرى بعد أن انكشفت الأزمة السياسية في العراق، وظهر عجز الانتخابات وإعلان الدستور عن تحقيق الاستقرار السياسي – ولو نسبياً في العراق – وانخراط التحالفات الكبيرة للقوى المشتركة في العملية السياسية التي أدركت النتائج الخطيرة للتحالفات التي قامت على أساس طائفي وعرقي ودورها في تعميق الانقسام الاجتماعي. وعلى خلفية هذه الظروف: نشطت بعض التنظيمات السياسية لإعادة بناء وتشكيل تحالفات سياسية جديدة ومنها حلف ما يسمى بـ»المعتدلين» في المنطقة التي دعت إليها الإدارة الأميركية باقتراح من السفير الأميركي السابق زلماي خليل زاد والقائم بين الحزب الإسلامي والتحالف الكردستاني (الأحزاب الكردية الكبرى) والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية، وذلك من أجل عزل التيار الصدري (وهو أكبر الكتل المنضوية تحت الائتلاف العراقي الموحد) عن العملية السياسية.

وخارج العملية السياسية الرسمية، نشطت تحالفات جديدة بين الأحزاب والتنظيمات السياسية للضغط أو لتشكيل جبهة عمل مشتركة إزاء الأوضاع التي يشهدها العراق، كان منها «تجمع حقوق وجبهة الإنقاذ الوطني» الذي يجمع ما بين (30) تكتلاً سياسياً (بعضها داخل العملية السياسية والبعض الآخر من خارجها) لم يعلن عنها في مؤتمر تأسيسي حتى الآن وذلك بسبب الفشل في إيجاد دعم من إحدى الدول المجاورة للعراق لاحتضان هذا المؤتمر؛ و»تحالف التيارات القومية» المؤلف من (20) حزباً قومياً اجتمعوا في سوريا لعقد مؤتمرهم، إلا أن هذه التحالفات لم يكتب لها النجاح – بسبب الصراعات الداخلية على المناصب وتوزيعها – كما حدث في الائتلاف العراقي الموحد والصراعات التي يشهدها، والتي انسحب على أثرها حزب الفضيلة من هذا الائتلاف.

1 . جميل، أسماء، وعبد الجبار، فالح، **الأحزاب السياسية في العراق 1**، مصدر سابق ، ص20–19.

كما أن التحالفات التي شهدتها الأحزاب الكبرى (مثل تحالف الأحزاب الكردية مع الأحزاب الإسلامية الشيعية) هي تحالفات تكتيكية وليست استراتيجية، وهي تحالفات فوقية بين القيادات، وليس لها امتدادات قاعدية، فضلاً عن التغيرات المستمرة في خارطة التحالفات. الأمر الذي أصبح معه حلفاء اليوم أعداء الأمس وبالعكس: كما حدث عند تحالف التيار الصدري (الشيعي) مع السنة وهيئة علماء المسلمين (حركة سنية)، ومن ثم التحول إلى الحرب عليهم بعد أن تحالف مع الائتلاف العراقي الموحد وبعد دخول السنة العملية السياسية»[1].ويبدو أن الصراعات الحزبية قد فاقت التوقعات: فكل حزب يريد أن يهيمن على السلطة لا سيما الوزارات ويريد أن يمثله نواب في البرلمان ليكون لديه كتلة كبيرة: يستطيع عن طريقها الوصول إلى ما يرمي إليه من مصالح خاصة. «وما زاد من صعوبة مواجهة هذين التحديين أن هذه الأحزاب هي في معظمها صغيرة ومشتتة، وغير قادرة على إقامة تحالفات فيما بينها أو تنسيق جهودها إزاء الأحداث المتسارعة بسبب الصراعات والتناحر بين الأطراف التي تشكل هذا التيار.

فعندما اجتمعت هذه القوى في كردستان قبل الانتخابات الثانية بهدف الاتفاق على تأجيلها (وهذا مثال واحد على غياب القدرة على التنسيق): تراجعت معظم الكتل عن اتفاقها مما جعل القوى التي أصرت على التأجيل معزولة وفي موقف ضعيف. والأمر الجدير بالملاحظة هو أنه لم يعد هناك حدود وحواجز واضحة بين الأحزاب الوسطية: إذ لم تعد الخلافات بينها أيديولوجية بقدر ما هي صراع على الزعامة. والمشكلة الرئيسية التي تعاني منها الأحزاب الوسطية في المرحلة الحالية من التاريخ السياسي للعراق، هي أنها غير مصنفة على أساس الهويات (دينية أو عرقية) مما أدى إلى انحسار دور الأحزاب العلمانية والليبرالية. ذلك أن مناخ الاستقطاب الطائفي والإثني فضلا عن طبيعة المرحلة–قد هيأت له الأحزاب الممثلة للمذاهب والقوميات، وقد حتمت على أي حزب لكي يكون فاعلا ومؤثراً في التشكيل الجمعي للرأي العام (وبالتالي لديه الفرصة في الوصول إلى مراكز صنع القرار) أن يتخذ لنفسه هوية طائفية. وتمثل جبهة الحوار الوطني التي يترأسها صالح المطلق نموذجاً للتنظيم السياسي الذي تحول من حزب ليبرالي – ممثل لكل القوميات والمذاهب – إلى حزب ذي هوية طائفية. إذ لم يتعامل الناخب في العراق مع هذا الحزب إلا بوصفه «حزبا سنيا» ونسبة الأصوات التي حصل عليها في الانتخابات الثانية جاءت معظمها من المحافظات السنية. وهكذا تجري عملية التصنيف للأحزاب والتنظيمات»[2].

ولا يخفى على القارئ والمطّلع على الصراعات الحزبية، أنه قد أضحى صدى صراعها

1 . جميل، إسماء، وعبد الجبار، فالح، **الأحزاب السياسية في العراق 1**، معهد للدراسات الاستراتيجية، دار بايل للنشر والتوزيع، بغداد، 2011، ص18.

2 . المصدر نفسه ، ص20–19.

واضحاً في مختلف وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة التي تتبع لهذه الأحزاب والتكتلات الحزبية، من خلال الاتهامات المتبادلة فيما بينها، ما أصبح خطراً يهدد العاملين في العمل الصحافي، والإعلامي من خلال التصفية الجسدية من قبل الجماعات المسلحة التي تتبع لتلك الأحزاب المتنفذة.

لقد تميز المشهد الحزبي بعد عام 2003 بالسرعة في التطور. فالتشكيلات التي ظهرت كانت تعبيراً مباشراً عن محاولة الاشتراك في السلطة، ولم يكن لمعظم الأحزاب الجديدة برنامج سياسي أو قاعدة جماهيرية أو إطار تنظيمي ولجان سياسية؛ بل إن بعض الأحزاب لم تكن تملك مقراً لها واتخذت من غرف الفنادق عنواناً تشير فيه إلى «مكاتبها». وعلى خلفية هذه التحولات ظهرت شريحة مهنية من المتعهدين والشعراء وعمال المطابع واقتصرت وظيفتهم على إقامة التظاهرات المؤيدة لحزب ما، وطبع الشعارات المعبرة عن أهدافه إضافة إلى بعض المثقفين والمحامين الذين امتهنوا كتابة الأنظمة الداخلية والبرامج السياسية للأحزاب لكسب رزقهم.

أما بعض الأحزاب القديمة فلم تقدم ما يوحي بأنها تعمل على تجديد نفسها وتقويم تجربتها وظلت تعاني من الانقسامات والتشتت، ولم تستطع أن تتواصل مع قواعدها الجماهيرية السابقة، ولا سيما أن أغلبها يعبر عن طبقات سياسية قديمة لم تعد موجودة، كما هو الحال بالنسبة إلى الحزب الوطني الديمقراطي (حزب الطبقة البرجوازية) وحزب الأمة (سعد صالح جبر) والأحزاب الناصرية والقومية، وحزب الاستقلال، وهي من أحزاب خمسينيات القرن العشرين[1]. ويصح هذا القول في الأحزاب الدينية التاريخية ذات القاعدة الجماهيرية، مثل: حزب الدعوة الذي بقّي يراهن على أنصاره القدامى وقد انصرفت قطاعات معينة عنه: إما بترك العمل الحزبي وإما بتحويل انتمائهم إلى أحزاب أخرى مثل «المجلس الأعلى للثورة الإسلامية» أو «حركة الصدر» بما يمتلكه الاثنان من مرجعية وقيادة رجال دين يجيدون استخدام «الشفرة التاريخية» في كسب تأييد الجماهير.

في حين كانت أغلب قيادات الأحزاب التي تأسست خارج العراق غير معروفة، فقد أصبح من الصعب أن تجمع هذه الأحزاب قاعدة جماهيرية إلا من خلال شفرات الاتصال التاريخية المُعبّر عنها بالرموز الدينية التي أصبحت صورة عن هوية هذه الجماعة، كما حدث بالنسبة إلى الأحزاب الإسلامية الشيعية العائدة من المنفى. وباستثناء تأثير الأحزاب الإسلامية، فقد غاب الفعل السياسي المؤثر في التكوين الجمعي للرأي العام العراقي، ولوحظ تهميش نسبي للأحزاب الأيديولوجية – التاريخية. أما الأحزاب الصغيرة فقد بدت بمنزلة تجمعات مكتبية لا يزيد عدد أعضائها على أعداد موظفي مكاتبها. ولم تنشأ أحزاب جديدة بالمفهوم الحديث تعتمد على مبدأ التخصص الوظيفي والانتماء الطوعي والمصالح المشتركة[2].

---

1 . المصدر نفسه ، ص21.

2 .جميل، أسماء، وعبد الجبار، فالح،**الأحزاب السياسية في العراق 1**، مصدر سابق ، ص22.

في مقابلة شخصية أجريتها مع الأستاذ الدكتور **إبراهيم خليل إبراهيم العلاف**، وجّهت السؤال التالي: كيف كانت الصراعات الحزبية بعد الاحتلال؟ الصراعات الحزبية بعد الاحتلال صراعات تغلب عليها النزعة الطائفية والمصلحية، ولم يكن للوطن وللوطنية نصيب. الكل يريد أن يحصل على مواقع تنمي ثروته وثروة حزبه وتقوي سيطرته على الشارع[1].

كما وجهتُ سؤالاً إلى الأستاذ الدكتور **سلام زكم الزوبعي** فكانت إجابته: إن سياسة الحزب الواحد التي حكمت العراق لأكثر من ثلاثة عقود من الزمن وإزاحة كل جهة سياسية معارضة كان السبب وراء نمو معارضة كبيرة للنظام – ذات مشارب مختلفة – أبرزها المعارضة السياسية للأحزاب ذات الصبغة الدينية. وباعتبار العراق غالبيته إسلامية فالأحزاب المعارضة الإسلامية كانت الأبرز في تصدر مجاميع المعارضة في العراق. ومع مرور الوقت كبرت ونمت هذه المعارضة. وبسبب سطوة النظام وقسوته مع معارضيه، نجد أن أغلب الأحزاب المعارضة إن لم نقل كلها نمت وترعرعت في الخارج بعيداً عن مراقبة ومتابعة الأجهزة الرسمية والأمنية، لكن بالرغم من سطوة النظام فإن داخل العراق لم يخلُ قط من الخلايا النائمة للأحزاب المعارضة .

لذا، فإنَّ احتلال العراق وسقوط النظام كان البداية الحقيقية لدخول الأحزاب المعارضة، كما أن الفوضى التي سببها الاحتلال في العراق وغياب سلطة الدولة وفوضى التنافس على الحكم وتباين الولاءات ودرجات التنسيق مع القوى – التي ساهمت في إسقاط النظام – والتدخل السافر لدول الجوار في الشأن العراقي – وأطماعها وأجنداتها المختلفة كان دافعاً كبيراً وراء تعدد الأحزاب. كما أن مكتسبات الحكم التي شهدت أنواعاً مختلفة من المكاسب خصوصاً مع خزين مهم من الثروات وفي مقدمته مخزون العراق النفطي الذي كان من أول الاسباب التي فتحت الشهية للأطراف المختلفة لاحتلال العراق وتحقيق موطيء قدم فيه، لذلك كله، وجدنا أن الصراع وليس التنافس المشروع كان الصفة السائدة بين الأحزاب التي تصدرت المشهد السياسي. كما أن للفساد الذي رافق جميع مرافق الدول والمجتمع (ونمو ثروات لكيانات حزبية وشخصيات سياسية بشكل مخيف) صفة الصراع وهو أمر مخجل ومحزن، وسبب رئيس في عدم استقرار العراق لأكثر من عقد من الزمن، ولقد شهدت وسائل الإعلام مشاهد واضحة وراسخة عن ذلك، مما ساهم في ترسيخ ذلك الصراع[2].

**ثالثاً– الصراعات الداخلية وأثرها في استهداف الكوادر الصحافية والإعلامية في العراق.**

بعد احتلال العراق وسقوط نظام الدولة في 9 نيسان (أبريل) 2003، تدهورت الأوضاع الداخلية للعراق وقد شهدت فوضى عارمة تمثلت بالنهب والسلب والقتل اجتاحت مرافق الحياة

1 . **مقابلة أجريت بتاريخ 15/4/2015**, أ. د **إبراهيم خليل العلاف**، أستاذ متمرس بالتاريخ الحديث والمعاصر في جامعة الموصل

3 . **مقابلة أجريت بتاريخ 25/3/2015، مع أ. د سلام زكم الزوبعي** عضو برلماني ونائب رئيس الوزراء سابقاً في الحكومة العراقية.

ومؤسسات الدولة كافة، وتوزع الناس في الداخل بين مصدوم بواقع جديد لم يألفوه ولم يضعوه في حساباتهم، وبين متردد في التعامل مع هذا الواقع، وفريق ثالث استبشر بالاحتلال وسقوط النظام وغياب السلطة، وفريق رابع حزم أمره على مقارعة الاحتلال ومقاومة مشروعه.

استناداً إلى هذا الواقع، أثرت الصراعات الداخلية على وسائل الإعلام والإعلاميين. فقد تأثر الإعلامي بالأخبار وأساليب تناقلها ومدى دقتها، وقد كان كثير من السياسيين يصدر تصريحاً شخصياً يتناقله الإعلام على أنه تصريح رسمي (من الكتل السياسية أو الحكومة) مما أثر في مصداقية الأخبار، التي بدورها زعزعت الثقة بين الحكومة والكتل السياسية من جهة وبين الكتل السياسية والشعب من جهة ثانية وبين الحكومة والشعب من جهة ثالثة. وكان الإعلام يحاول الحصول على مصادر دقيقة لتناقل الخبر ونشره بين الناس، سواء أكان محلياً أو عالمياً، وهذا ما جعل كثرة التصريحات غيرالمسؤولة وتضارب الأخبار (بين الدقة وعدمها) مؤثراً في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وعلى الأصعدة كافة ما ساعد على التذبذبات والتجاذبات السياسية والعرقية والطائفية – التي سنرى في حينها أنها صعدت من عمليات التهديد والقتل والسلب والنهب – وتدخل أطراف من هنا وهناك ظلت تحاول زعزعة الأمن والاستقرار الداخلي للعراق.

يمتاز العراق بتنوع الفئات الاجتماعية منذ حقب تاريخية موغلة في القدم وأجيال متعاقبة، وأنتج هذا التنوع في إطاره الجغرافي المكاني تداخلاً بين فئاته، كما أنتج في إطاره التاريخي والاجتماعي والتفاعلي تبايناً في نوع العلاقات. وإن علاقات فئات التنوع غير صراعية في دوافعها الاجتماعية، استناداً إلى فرضيتنا القائلة: إن الصراع بين فئات التنوع لا ينتج عن تعصب أساسه العرق أو الدين او الطائفة، ولكن هناك نزعات من طبيعة أخرى تؤثر أحياناً في بنية المجتمع العراقي[1].

وعند دراسة تاريخ العراق، وحقبه المختلفة، تتضح للدارس مسألة مهمة قد تبدو وكأنها لازمة أساسية وهي: ظاهرة عدم الاستقرار السياسي والعنف. لقد تتبع الباحث هذه الظاهرة، وسجلها باقر ياسين في كتاب بعنوان: «تاريخ العنف الدموي في العراق»[2]. ومع أن تاريخ الشعوب مليء بالتقلبات السياسية والثورية والدموية، ما يضفي على الظاهرة بعداً شمولياً إنسانياً ملازماً لحركة التطور وطبيعة التعارضات الكامنة، التي تبرز عند الحافات الحرجة ونقاط الانتقال، غير أن للعراق خصوصية وتميزاً في هذا الجانب، وربما عللت العديد من التعليقات هذه الظاهرة وربطتها

1 ـ البكري، ياسين، **علم اجتماع اتجاهات التجانس في علاقات التنوع في المجتمع العراقي**، مقطع من دراسة موسعة بعنوان: (بنية المجتمع العراقي، دراسة تاريخية اجتماعية سياسية لظاهرة التنوع، العهد الجمهوري الاول 1963–1958 أنموذجاً). وهي بالأصل رسالة جامعية نال بها الطالب درجة الدكتوراه، بغداد، 2006، ص45.

2 ـ ياسين، باقر، **تاريخ العنف الدموي في العراق**، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 1999. وهو كتاب يقع في (435) صفحة، ومقسم على عشرة فصول، تناول فيها الكاتب ظاهرة العنف الدموي في العراق لخمسة آلاف سنة.

بظاهرة التنوع الاجتماعي في العراق، وأعطته وصفاً بأنه فسيفسائي غير متجانس [1].

ونتيجة لذلك يوجد تمايز بين الشيعة والسنة في المواقف السياسية وفي بعض أصول الاعتقاد وأصول الفقه وتفريعاتها، وكذلك في بعض الشعائر الشكلية، فهي أمور قد تعطي «مدلولات صراعية» إذا تم توظيفها «سياسياً» في لحظات معينة، وقد تنجح في تحريك الاستقطابات الطائفية[2]. لكن الأصل أن تتداخل وتتعايش الفئات العرقية والمذهبية والدينية في بعض المحافظات، بالشكل الذي يصح عدها نماذج مصغرة للتنوع العراقي مثل الموصل وكركوك [3]، ففي دراسته الرصينة «العراق الشمالي» يذكر الدكتور شاكر خصباك هذه الحقيقة في معرض حديثه عن الموصل بقوله: «يمكن القول إن محافظة نينوى تمثل أشد المحافظات الشمالية تعقيداً من الناحيتين (الدينية والعرقية)، وهي في الحقيقة أشبه بمتحف (للتنوع)، ففي هذه المحافظة يعيش جنباً إلى جنب جميع المجموعات (الفئات العرقية) ...المجموعة العربية، المجموعة الكردية، والمجموعة السريانية، والمجموعة التركمانية. وفي كثير من المواضع تتداخل هذه المجموعات.. تداخلاً شديداً فيبدو من الصعب تحديد مناطق خاصة بها. كذلك تتباين الأديان والعقائد لدى هذه المجموعات تبايناً كبيراً، فهناك الديانة الإسلامية وهي السائدة، وهناك الديانة المسيحية بمذاهبها المتعددة ..وأيضاً الديانة اليزيدية» [4].

أما كركوك فتسكنها وتتعايش فيها الفئة الكردية إلى جوار الفئة التركمانية والفئة العربية. ويلاحظ أن عشيرة (البيات) القاطنة في كركوك هي عشيرة مختلطة عربية وتركمانية [5], ويتكلم أهلها التركية والكردية والعربية، ولا يقف التنوع في عشيرة البيات عند هذا الحد، فبعضهم شيعي، والبعض الآخر سني [6]. إنه أمر يتعدى توصيف التعايش، ويدخل في مجال التصاهر والاندماج، والملاحظ ان لغة التخاطب في كركوك هي اللغة التركية ليس بين التركمان فحسب،

---

1 · في دراسة لمجموعة من المفكرين العرب حول النزاعات الأهلية العربية وعواملها الداخلية والخارجية، وصف الدكتور عبد الإله بلقزيز المجتمع العربي بأنه مجتمع عصبوي عسير الاندماج متعدد، وذلك أحد أسباب النزاعات الأهلية، ولكنه مع ذلك لم يعد النزاع الأهلي مخرجاً لازماً للتنوع، إلا إذا كان مشروطاً بتوظيف سياسي له. للمزيد من التفاصيل وخصوصاً عن العراق، انظر: الأنصاري، محمد جابر وآخرون، **التنوع الاجتماعي في العراق**، دار المأمون، ط2، بغداد، 2007م ، ص50- 114، 119.

2 · البكري، ياسين ،**علم اجتماع اتجاهات التجانس في علاقات التنوع في المجتمع العراقي**، مقطع من دراسة موسعة بعنوان: (بنية المجتمع العراقي، دراسة تاريخية اجتماعية سياسية لظاهرة التنوع، العهد الجمهوري الاول 1963-1958 انموذجا). وهي بالأصل رسالة جامعية نال بها الطالب درجة الدكتوراه، بغداد، 2006م.

3 · هناك محافظات عراقية أخرى تصلح أن تضاف كنماذج للتنوع، مثل بغداد، وديالى وبدرجة أقل واسط والبصرة، إلا أن ميزة الموصل وكركوك أنهما أكثر تعبيراً عن التنوع، فضلاً عن أنهما شهدتا حالات صراع وعنف نسبت أحياناً إلى عامل التنوع.

4 · خصباك، شاكر، **العراق الشمالي**، مطبعة الاتحاد، الموصل، 1949، ص143-141.

5 · **المصدر نفسه**، ص191.

6 · أحمد، كمال مظهر، **تاريخ التركمان –العلاقات الاجتماعية بين الفئات العراقية–**، منشورات الدار التركمانية، كركوك، ط2، 2006، ص77.

بل بين الكرد والعرب أيضاً [1]. لقد سجل العديد من الرحالة الأجانب مشاهداتهم عن علاقات التجانس بين الفئات العرقية في كركوك، ومنها ما أورده الصحافي الهولندي ما ليبارد الذي زار العراق في خمسينيات القرن العشرين بقوله: «ويعيش هنا على الحدود الفاصلة بين الشمال والجنوب [كركوك] العرب والكرد بسلام ووئام متجاورين» [2].

والشيء نفسه ينطبق على العلاقة بين الكرد والتركمان، وعن ذلك يقول د. **كمال مظهر أحمد:** «من الضروري أن نشير إلى أن أفضل العلاقات كانت تربط ما بين الكرد والتركمان سواء في كركوك وتوابعها، أو في المناطق الاخرى» [3]، وذلك في دلالة على البعد التاريخي للعلاقة الاجتماعية بين الفئات العراقية، ومع ذلك فهو يذكر الآتي: «لكنّ شرخاً ما بدأ يعتري تلك العلاقات – بحكم عوامل مصطنعة – يتحمل الجميع بدرجات متفاوتة وزر خلقها وإثارتها بصورة، أو بأخرى، يأتي البريطانيون في مقدمتهم بالتسلسل الزمني في سياق التأريخ المعاصر»[4] وعندما تم احتلال العراق يقول رئيس الولايات المتحدة الأمريكية جورج دبليو بوش[5]: «سنساعدكم في بناء عراق جديد مزدهر وحر «ولكي نعرف حجم هذه المساعدة يتبيّن لنا تدمير كل شيء في العراق (البنى التحتية، الأخلاق، العلاقات الاجتماعية، مكونات الشعب)!

فقد أدى غزو العراق في آذار (مارس) 2003 إلى وقوع كثير من الإصابات بين المدنيين، بما في ذلك الهجمات الواسعة على مدن مثل الفلوجة والنجف وتلعفر، التي سببت الكثير من الوفيات البشعة، ونزوحاً ضخماً للسكان طال مئات الآلاف من العراقيين[6].

ويظهر مما سبق أنه لم تكن هناك صراعات عرقية (قومية) في العراق قبل غزوه واحتلاله، وبعد الغزو والاحتلال الأنجلو–أمريكي العالمي للعراق في عام 2003 (وبالتحديد بعد 9نيسان/ أبريل 2003) بدأت الصراعات تظهر وبشكل تدريجي–للسيطرة على المناطق التي يعدها البعض مناطق صراع– وكأنما خلقت هذه المناطق لهم دون سواهم.

وتأجج الصراع في محاولة السيطرة على بعض المناطق والمحافظات من أجل المصالح، سواء أكانت تلك المصالح الثروات النفطية ومشتقاتها أم الثروات الأخرى كما يفهمها البعض، وهي المحافظة على المناطق التي يعيش فيها الناس من قوميات بعينها، فالعرب يريدون

---

1 ـ أحمد، كمال مظهر، **تاريخ التركمان –العلاقات الاجتماعية بين الفئات العراقية–**، مصدر سابق، ص91.

2 ـ ماليبارد، نواغير **الفرات أو بين العرب والكرد**، ترجمة حسين كبة، مطبعة الرابطة، بغداد، 1957، ص209.

3 ـ أحمد، كمال مظهر، **مصدر سابق** ، ص93.

4 ـ **المصدر نفسه**، ص94.

5– White house. « Remarks by the President in Address to the Nation The Cross Hall.» (17 March 2003).

6 ـ جيمس بول وسيلين ناحوري: **الحرب والاحتلال في العراق –تقرير للمنظمات غير الحكومية**، مركز دراسات الوحدة العربية، اللجنة العربية لحقوق الإنسان، الطبعة الأولى، بيروت، أيلول (سبتمبر) 2007، ص 203

السيطرة على المناطق التي يسكنها العرب، والأكراد يحاولون السيطرة على المناطق ذات الأكثرية الكردية، والتركمان يحاولون السيطرة على المناطق ذات الأكثرية التركمانية... وهكذا بدأت هذه المشكلة تتفاقم من مكان لآخر تحت حجج وصراعات قومية واهمة أنبتها الاحتلال وأعوانه، الذين حولوا العراق إلى ساحات تصفية. ولكي تكون المعادلة متوازنة لا بد من أن يكون هناك تفاهمات وأواصر بين مكونات الشعب، ويعتقد البعض أن السياسيين قد خلقوا هذه المشكلات عن طريق تصريحاتهم والسجالات والمهاترات الكلامية – التي لا طائل منها سوى الخراب والتصفيات العرقية (القومية) –ناهيك عن دور أمريكا والاحتلال ومخلفاته من العملاء والمخربين وإيران وتوابعهم جميعاً ممن يريد عدم استقرار العراق.

فقد سبب العنف والفقر انتقالاً لا سابق له للسكان في العراق[1]. في نيسان (أبريل) 2004 انتقل أكثر من (أربعة ملايين) عراقي من مناطقهم – أي (14%) من مجموع عدد السكان –: (1.9) مليون عراقي داخل العراق، ولجأ أكثر من (2.2) مليون إلى دول أخرى[2]. وتحدثت مفوضية الأمم المتحدة السامية للاجئين عن «تزايد القلق بشأن الأوضاع الإنسانية المتدهورة بوتيرة متسارعة»[3]. وتتوقع هذه الهيئة ازدياد نسبة النازحين بسبب استمرار تصاعد العنف والصراع الطائفي[4]. كما توجد أعداد كبيرة من السكان بحاجة ماسة إلى المساعدة والغذاء والمأوى.

فمنذ عام 2003، تسببت عمليات قوات التحالف العسكرية في نزوح أعداد ضخمة من العراقيين، خصوصاً بفعل الهجمات الجوية والبرية على المدن. وقد أدت الهجمات على الفلوجة في عام 2004 إلى نزوح أكثر من (مائتي ألف) شخص[5]، ونتج عن الهجمات على المدن الأخرى نزوح مئات الآلاف من الناس أيضاً. ولم يستطع العديد من العائلات العودة بسبب غياب الأمان، والتهديد العسكري المستمر، ونقص المياه والكهرباء والخدمات الصحية على اختلافها. إضافة إلى أن بيوت الكثيرين وأماكن عملهم أضحتْ مهدمة.[6] وبحسب تقديرات مشروع الفلوجة لإعادة الإعمار، لا يزال هناك حوالي (خمسة وستون ألف) نازح من أهل

1- UNAmistance Mission for Iraq " Human Rights Report. " (September – October 2006). P. 3

2- UNHCR, " Statistics on Displaced Iraqis around the World " (April 2007)

3- UNHCR," Press Briefing by UNHCR Spokesperson Ron Redmond."(13 October 2006)

4- UNHCR, " Iraq A Humanitarian Crises that will Go for Year." (2 February 2007)

5- United Nations, " Emergency Working Group – Falluja Crises." "Update Nation " (13 November 2004)

6- .Internal Displacement Monitoring Center / Norwegian Refugee Council." Iraq Sectarian. Violence Military Operations Spark New Displacement, as Humanitarian Access Deteriorates." (23 May 2006)

المدينة منذ بداية عام 2006[1].

وتصاعدت حالة البطالة والفقر بحدة، نتيجة تدهور وانهيار الدولة أيضاً. ومع بداية عام 2006، زادت حدة الصدامات المذهبية، وأدى العنف المتبادل بين الطوائف إلى ارتفاع نسبة الإصابات والوفيات. إضافة إلى النزوح الجديد المكثف للمواطنين. ولم تستطع مؤسسات الإغاثة الدولية مواكبة الأزمة الإنسانية المتصاعدة، وانسحب الكثير من المنظمات غير الحكومية، وبدا أن العديد من الحكومات التي تساهم بالتمويل تتحّت جانباً. وواجهت هيئات الإغاثة الدولية نفسها مشكلات جدية في التغلب على الضغوط السياسية للوصول إلى العراقيين الذين تحدق بهم المخاطر، وجمع الأموال للحالة الطارئة التي تزداد سوءاً [2].

ومنذ بداية 2006، وبينما كانت العمليات العسكرية المستمرة تدفع الناس إلى هجر مناطقهم، أصبح العنف الطائفي سبباً رئيساً للنزوح، خصوصاً في بغداد. وتقدر مفوضية الأمم المتحدة السامية للاجئين أن العنف الطائفي أدى إلى نزوح ما لا يقل عن (سبعمائة وثلاثين ألف) شخص بعد الهجمات على مزاري (الإماميين) العسكريين في سامراء بين شباط (فبراير) 2006 وأذار (مارس) 2007[3].

ويعد العراقيون مهددين بسبب انتمائهم الديني أو معتقدهم، وقد هاجمت الميليشيات الطائفية والمجموعات المسلحة الجوامع والأسواق والقرى (المعادية). كما يزداد استهداف الأحياء المختلطة بشكل كبير. ويظهر ترتيباً على ما سبق أن الأقليات هي الأكثر تعرضاً للخطر. وتفيد التقارير أن الاضطهاد الديني أدى إلى نزوح المسيحيين، والتركمان، والسريان، والصابئة المندائيين، وآخرين. ويعتبر الصابئة المندائيون أقلية قديمة جداً، تقلص عددها من (ثلاثة عشر ألفا وخمسمائة) شخص في عام 2001 إلى نحو (أربعة آلاف) شخص فقط في عام 2006.[4] وغادر البلاد نصف السريان الذين كان يبلغ عددهم (مليونا ونصف المليون) شخص في العراق قبل عام 2003. ونزح النصف الباقي إلى (مناطق أكثر أماناً) في زاخو وشمال نينوى .[5]

هناك العديد من المسيحيين كانوا قد غادروا إلى سوريا والأردن، والتجأ قسم كبير إلى المناطق الكردية في العراق.[6] أما اللاجئون الفلسطينيون في العراق فقد واجهوا ظروفاً صعبة جداً، وهم يتعرضون للتهديد والهجمات باستمرار. وقد أعلنت مصادر إعلامية فلسطينية في

1- "Iraq Fallujah Sectarian Improving Story" UN Integrated Regional Information Networks (21 March 2006)

2- UNHCR. « Iraq Displacement.»(3 November 2006).

3- UNHCR," Press Briefing by UNHCR Spokesperson Ron Redmond." (20 March 2007)

4- UNAMI, " Human Rights Report." P.13

5-.UN Assistance Mission for Iraq (UNAMI)," Human Rights Report." November – December 2006). P.13

6- UNAMI. " Human Rights Report." (September – October 2006) .

بداية عام 2007 أنه حصل أكثر من (655) هجوماً ضد الفلسطينيين. وقتل ما لا يقل عن (186) شخصاً [1] منهم. ويعيش الفلسطينيون المقيمون في بغداد في حالة خوف وتهديد دائمين على حياتهم، وقد عبّروا مراراً عن رغبتهم بالمغادرة في أسرع وقت ممكن.[2]لكن لا يستطيع كثير منهم مغادرة العراق لأنهم لا يملكون وثائق سفر[3].

ولا يخفى هنا تأثير العامل السياسي (السلبي) على علاقات فئات التنوع، التي تتحمل عبء الانشقاق القومي والمذهبي، والتي قد تتناقض أمثلتها. ويجب التأكيد هنا على أن الظاهرة الاجتماعية عموماً تعد من الظواهر التي قد يتباين رصدها باختلاف الزمان والمكان، وباختلاف المتغيرات التي تطرأ عليها وتؤثر فيها، ومن أهمها العامل السياسي، لذا قد نجد تعبيرات تعصبية وصراعية بين الفئات تأخذ شكلاً اجتماعياً سياسياً، تعبر عنه الطائفية السياسية في الجانب المذهبي، أو قومياً شوفينياً وانكماشياً (انعزاليا) في الجانب العرقي بتأثيرات سياسية: بعضها خارجي، كما في الصراع العثماني – الفارسي الذي كان ساحته العراق، أو من خلال دور الاحتلال البريطاني للعراق، أو بتأثيرات سياسية داخلية: كما في صراع السلطة مع المعارضة. وهو ما يتطلب بحثَ ودراسة اتجاهات الانشقاق الطائفي والقومي، ودور العامل السياسي، والسلطة تحديداً، في إثارتها[4].

ونتيجة لذلك، فإن الصراعات الداخلية تسببت في استهداف الكوادر الصحافية في العراق حيث يبدو أن هناك وجها آخر للعمل الصحافي في العراق تمثل في التهديدات والتحديات التي واجهها العاملون في هذا الميدان، مما جعل ممارسة العمل الصحافي في العراق من أخطر الأعمال على حياة العاملين في عالم اليوم. إذ لم يشهد العالم بأسره (على الرغم من كل الحروب والكوارث التي عصفت بالعديد من الدول) ما شهده العراق من استهداف للصحافيين، وتمثل ذلك تارة بالاغتيالات التي تتم بسرعة وعن بعد، وطورا بالقتل الوحشي الذي ينفذ بعد نصب الكمائن وخطف الضحايا تحت تهديد السلاح. ومما يزيد من فرص الخطورة وتعقيد العمل الصحافي في العراق أيضاً، ما يتعرض له العاملون في الصحافة من ملاحقة واعتقالات ومقاضاة بدعاوى كيدية وعلى نحو متواتر يثير القلق. الأمر الذي أخذ ينعكس سلباً بالتأكيد على حرية الرأي والتعبير وعلى انسيابية حركة الإعلام والصحافة وبما يجعل حرية الصحافة في العراق تمضي صوب منزلق خطير[5].

---

1- UNHCR. " Iraq UNHCR Deeply Disturbed By Security Forces Raid in Palestinian Area." (16 March 2007)

2- UNHCR, " UNHCR Appeals to Countries to Provide Humanitarian Soutine for Palestinians Flexing Iraq" (14 December 2006)

3- UNAMI, " Human Rights Report." (September – October 2006). P.14

4 . البكري، ياسين ،**علم اجتماع اتجاهات التجانس في علاقات التنوع في المجتمع العراقي**، مصدر سابق .

5- **التقرير السنوي للجمعية العراقية للدفاع عن حقوق الصحافيين بالتعاون مع برنامج دعم الإعلام العراقي المستقل** (داعم) عن انتهاكات حرية الصحافة والتعبير في العراق لعام 2007.

## الخاتمة:

ظل العراق، على مدار سنوات الحرب والفوضى، يتصدر مؤشرات الإفلات من العقاب وفقا للجنة حماية الصحافيين الدولية، وقد تعرض الصحافيون والعاملون معهم لهجمات متتالية منذ الغزو الأمريكي للعراق عام 2003، حيث قتل 261 صحافيا عراقيا وأجنبيا من العاملين في المجال الإعلامي، منهم 147 صحفياً قتلوا بسبب عملهم الصحافي، وكذلك 52 فنيا ومساعدا إعلاميا، فيما لف الغموض العمليات الإجرامية الأخرى التي استهدفت بطريقة غير مباشرة صحافيين وفنيين لم يأت استهدافهم بسبب العمل الصحافي، واختطف 64 صحافياً ومساعداً إعلامياً قتل أغلبهم وما زال 14 منهم في عداد المفقودين حسب إحصائيات مرصد الحريات الصحافية. غير إن جميع هذه الجرائم لم يُكشف عن مرتكبيها، ويتجاوز تصنيفها بكثير أي بلد آخر في العالم. وقد شهدت هذه الفترة مقتل صحافيين عراقيين في هجمات مختلفة.

## نتائج البحث:

بعد دراسة "استهداف الكوادر الصحافية والأعلامية في العراق 2012-2003، توصلتُ إلى عدة نتائج منها:

أولاً: بعد الاحتلال الأمريكي للعراق، تحول الإعلام العراقي من إعلام تحكمه القوانين والضوابط إلى إعلام فوضوي مثّل انعكاساً للفوضى السياسية التي شهدتها الساحة العراقية.

ثانياً: تميزت وسائل الإعلام العراقية بعد الاحتلال بتبعيتها للجهات السياسية منها الدينية والعلمانية، وكانت في معظمها تفتقر إلى المهنية الإعلامية

ثالثاً: لقد أصدرت سلطات الاحتلال جملة من القرارات والتعليمات قيدت حرية الإعلام في العراق ببعض القيود التي تهدف إلى تعزيز السيطرة على العراق.

رابعاً: تعرض الصحافيون في العراق بعد الاحتلال إلى تصفيات جسدية أودت بحياة المئات منهم، في سابقة لم يشهدها العراق على مر التاريخ.

خامساً: شهدت وسائل الإعلام العراقية تطورا كبيرا في ظهور عشرات المحطات والقنوات الإعلامية الفضائية إثر احتلال العراق بعد أن كانت تلك الوسائل تعد على أصابع اليد.

سادساً: أصبحت ملكية وسائل الإعلام العراقية ملكية خاصة بعد أن كانت ملكيتها حكرا على الحكومات المتعاقبة التي حكمت العراق إبان القرن العشرين.

سابعاً: لقد أصبح المشهد الإعلامي في العراق مرآة للسياسة الطائفية، وقد أوصل البلاد إلى توسيع فجوة الانقسام الطائفي، وقد قاد هذا الانقسام البلاد إلى العنف المدمر بين أعوام 2003 – 2012.

## المصادر والمراجع:


- أحمد، كمال مظهر، **تاريخ التركمان –العلاقات الاجتماعية بين الفئات العراقية–**، منشورات الدار التركمانية، كركوك، ط2، 2006، ص77.
- الأنصاري، محمد جابر وآخرون، **التنوع الاجتماعي في العراق**، دار المأمون، ط2، بغداد، 2007م ،
- البكري، ياسين ،**علم اجتماع اتجاهات التجانس في علاقات التنوع في المجتمع العراقي**، مقطع من دراسة موسعة بعنوان: (بنية المجتمع العراقي، رسالة جامعية نال بها الطالب درجة الدكتوراه، بغداد، 2006م.
- **التقرير السنوي للجمعية العراقية للدفاع عن حقوق الصحافيين بالتعاون مع برنامج دعم الإعلام العراقي المستقل** (داعم) عن انتهاكات حرية الصحافة والتعبير في العراق لعام 2007.
- جميل، أسماء، وعبد الجبار، فالح، **الأحزاب السياسية في العراق 1**، معهد للدراسات الاستراتيجية، دار بايل للنشر والتوزيع، بغداد، 2011، جيمس بول وسيلين ناحوري:**الحرب والاحتلال في العراق –تقرير للمنظمات غير الحكومية–**، مركز دراسات الوحدة العربية، اللجنة العربية لحقوق الإنسان، الطبعة الأولى، بيروت، أيلول (سبتمبر) 2007،
- خصباك، شاكر، **العراق الشمالي**، مطبعة الاتحاد، الموصل، 1949، ص143–141.
- مادلين أولبرايت، **مذكرة إلى الرئيس المُنتَخَب –كيف يمكننا استعادة سمعة أميركا ودورها القيادي–**، مصدر سابق،
- ماليبارد، نواغير **الفرات او بين العرب والكرد**، ترجمة حسين كبة، مطبعة الرابطة، بغداد، 1957، ص209.
- مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، **الدين والإثنية والتوجهات الأيديولوجية في العراق:** من الصراع إلى التكامل، 84 سلسلة محاضرات الإمارات، دولة الإمارات العربية المتحدة–أبو ظبي، الطبعة الأولى، 2004م، ص27، الترقيم الدولي: ISSN 1682–122X ISBN 9948–00–587–2 .
- **مقابلة أجريت بتاريخ 15/4/2015**، أ. د **إبراهيم خليل العلاف**، أستاذ متمرس بالتاريخ الحديث والمعاصر في جامعة الموصل.
- **مقابلة أجريت بتاريخ 25/3/2015**، **مع أ. د سلام زكم الزوبعي** عضو برلماني ونائب رئيس الوزراء سابقاً في الحكومة العراقية.
- موقع خرائط العراق على شبكة الإنترنت: تاريخ الدخول/24/5/2014 http://www.iraqmaps.com
- ياسين، باقر، **تاريخ العنف الدموي في العراق**، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 1999. وهو كتاب يقع في (435) صفحة، ومقسم على عشرة فصول.

## المراجع الأجنبية


- "Iraq Fallujah Sectarian Improving Story" UN Integrated Regional Information Networks (21 March 2006
- Internal Displacement Monitoring Center / Norwegian Refugee Council." Iraq Sectarian. Violence Military Operations Spark New Displacement, as Humanitarian Access Deteriorates." (23 May 2006)
- UN Assistance Mission for Iraq (UNAMI)," Human Rights Report." November –December 2006
- UNAmistance Mission for Iraq " Human Rights Report. " (September – October 2006).
- UNHCR, « Iraq A Humanitarian Crises that will Go for Year.» (2 February 2007)
- UNHCR, « UNHCR Appeals to Countries to Provide Humanitarian Soutine for Palestinians Flexing Iraq»
- United Nations, " Emergency Working Group – Falluja Crises." "Update Nation " (13 November 2004

## Bibliographie


1. Brockelmann k., **Précis de linguistique sémitique,** traduction française, Paris, 1970.
2. Cuny A., **Etudes pré grammaticales sur le domaine des langues indo-européennes et chamito-sémitiques**, Paris, 1924.
3. Delafosse M., **Esquisse générales des langues de l'Afrique,** Paris, 1974**.**
4. Dirr A., **Introduction à la grammaire des languescaucasiennes du Nord**, Paris, 1933.
5. Dumézil G., **Introduction à la grammaire comparéedes langues caucasiennes du Nord**, Paris, 1933.
6. Homburger L., **Les langues négro-africaines et ceuxqui les parlent**. Paris, 1940.
7. Kristeva J., **Le langage, cet inconnu,** Paris, 1981.
8. Lacombe G., **Structure de la langue basque**, Paris, 1937.
9. Maspero H., **Langues d'Extrême-Orient :** Encyclopédie française, tome1, Paris, 1937.
10. Naville E., **L'évolution de la langue égyptienne et les langues sémitiques,** Paris, 1960.
11. Sauvageot A., **Groupe altaïque et ouralien : Encyclopédie française.** tome 1, Paris, 1937.

L'Asie centrale et orientale est occupée par une famille sino-tibétaine (H. Maspero, **langues d'Extrême-Orient** :Encyclopédie française, tome1, Paris, 1937) qui comprend les langues **chinoise, toi, tibétaine**, **birmane** ; l'Asie du Sud-Est par la grande famille des langues **Mon-Khmer** (Birmanie, Cambodge) et une famille malayo-polynésienne ou austronésienne, qui par la Malaisie et la Polynésie s'étend d'un bout à l'autre de l'Océan Indien, jusqu'à Madagascar même, où une migration a apporté un dialecte polynésien.

Enfin, en Afrique la famille **bantoue** comprend la plupart des langues nègres.

Conclusion

Une question se pose évidemment : oùs'arrête-t-elle la comparaison ? D'immenses champs de recherches sont ouverts, d'innombrables problèmes se posent ; la conquête de l'indo-européen a incité les linguistes à les aborder scientifiquement. Mais, pendant la période historique les langues ont évolué, leur matériel se s'est renouvelé. C'est pourquoi le persan moderne a un vocabulaire chargé d'emprunts arabes, de même dans l'albanais il y a du grec, du slave, du turc. Alors qu'en pourrions-nous tirer de ces deux langues indo-européennes afin d'établir une parenté linguistique ?

Même si nous arrivions à déterminer l'ancêtre de chaque langue, nous n'en serions guère plus avancés pour constituer de nouveaux groupements. En effet, la comparaison des descendants permet de reconstituer exactement l'image de l'ancêtre : ce que nous appelons l'indo-européen n'est qu'un squelette de langage. Le seul par qui nous connaissons de nombreuses langues de civilisation, qui ont été de bonne heure fixées par l'écriture. Dans la plupart des cas, la comparaison peut nous faire remonter au point extrême depuis qu'il y a des hommes qui parlent des langues ainsi reconstituées pour des langues primitives. Certes, primitives en ce sens puisqu'elles étaient parlées par des hommes de civilisation rudimentaire, comme les langues actuelles des nègres d'Afrique, capables de fournir une idée des premiers balbutiements de l'homme. La linguistique comparée devient historique dans la mesure où elle démontre la parenté génétique des langues descendant l'une de l'autre et remontant à une même origine.

Enfin, un mot indo-européen est l'aboutissant d'une longue évolution, et ne nous renseigne pas plus que ne peut le faire un mot français d'aujourd'hui sur l'origine du langage. La linguistique contrastive, fondée définitivement sur des bases exactes, se borne à constituer des faits et des correspondances et à les expliquer par des restitutions hypothétiques.

grande importance et révélaient le rôle magistral qu'elle jouait dans la sociétéégyptienne. Ces textes écrits sont la preuve la plus solide de la conception égyptienne du système de leur langue. En outre, les parlers berbères du Nord et les couchitiques de l'Afrique orientale (Somalie, etc.) représentent aujourd'hui la famille chamitique.

**Sem, Cham, Japhet** : ces trois noms de fils de Noé symbolisent la parenté qu'on n'a pas manqué d'imaginer entre les trois grandes familles de langues qui voisinent depuis plusieurs millénaires dans le bassin de la méditerranée. Le chamitique semble bien en effet un rameau détaché à date très ancienne de la souche sémitique. Quant à la parenté du sémitique et de l'indo-européen, l'état actuel de la science ne permet ni de l'affirmer ni de la nier. (A. Cuny, **Etudes prégrammaticales sur le domaine des langues indo-européennes et chamito-sémitiques.** Paris, 1924).

2-2-3- Familles diverses

Du reste il faut bien se résoudre à voir les langues résister au besoin d'unification et de simplification. En plein domaine méditerranéen, on trouve des traces de maintes langues à peine identifiées : l'**ibère**, dont paraît descendre le **basque** (G. Lacombe, **Structure dela langue basque**, Paris, 1937), mystérieux îlot linguistique qui résiste encore au français et à l'espagnol. En Italie, on trouve à côté du **ligure**(…), du **Vénète**, du **messapien**, dont l'appartenance à l'indo-européen est probable, l'**étrusque** n'offre pas d'affinités qu'avec certains idiomes d'Asie Mineure. Aux confins de la Grèce, à côté de l'**illyrien**, du **macédonien**, du **thrace**, du **phrygien**, qu'on rattache à l'indo-européen, l'étéo-cypriote demeurent isolés.

Au milieu du domaine indo-européen, des langues éparses depuis la Finlande et la Laponie (finnois) jusqu'au Danube (hongrois) constituent une famille finno-ougrienne.

Aux confins de l'Europe apparaissent deux groupes de langues caucasiennes (A. Dirr, **Introduction à lagrammaire des langues caucasiennes du Nord**, Paris, 1933) dont le géorgien est le représentant le plus connu. Dans l'Asie proche, il existe une famille dite asianique, dans laquelle on range à date ancienne le **lydien**, le **lycien**, le **carien** (langues anatoliennes) qui présentent des rapports avec le **hittite**, langue populaire dans le centre de l'Anatolie. (H. Maspero, **Langues d'Extrême-Orient** : Encyclopédie française, Paris, 1937, t.1)

Par ailleurs, on a tenté de réunir dans un groupe dit ouralo-altaïque (A. Sauvageot, Groupe altaïque et ouralien : encyclopédie française, tome 1, Paris, 1937) de nombreuses langues d'Asie occidentale et septentrionale (tartares, mandchoues, mongoles). Ces langues restent isolées et ont précédé les Sémites en Assyrie (sumérien) et les Aryens dans l'inde (langues dravidiennes).

vague d'invasion apporte vers le milieu du même millénaire le long des côtes de la Méditerranée une autre langue de la même famille, le cananéen, dont un représentant, l'hébreu, langue morte dès avant l'ère chrétienne, a une fortune extraordinaire. L'hébreu s'est perpétué à la faveur des textes sacrés comme langue littéraire et religieuse jusque dans les synagogues modernes. La présence du langage est sensible dans les pages de la Bible et semble parfois fournir l'arrière-plan dont les évènements historiques et religieux sont la manifestation. Pour que Moïse puisse aider son peuple, il lui faut une puissance linguistique : la bible semble considérer la possession du langage comme une possession du pouvoir spirituel et étatique.

Parallèlement, le commerce a fait la fortune d'un dialecte voisin, le Phénicien, que les linguistes connaissent depuis le Xème siècle, et qui, importé par les colons Tyriens à Carthage, a vécu sur la côte d'Afrique sous la forme du punique (ou le phénicien, langue sémitique qui était parlée par les Carthaginois) jusqu'aux environs de l'ère chrétienne. Certains linguistes considèrent que l'écriturealphabétiquep hénicienne dont se servent aujourd'hui presque tous les pays, est le résultat du développement intellectuel. C'est l'ancêtre de l'alphabétisme moderne. Unetroisième invasion sémitique chasse de la Mésopotamie au huitième siècle, les langues anciennes au profit d'un nouveau dialecte, l'araméen, qui devient vers le 3ème siècle la grande langue de civilisation de toute l'Asie occidentale. De surcroît, l'invasion arabe répand sur tout le bassin de la méditerranée asiatique et africaineune nouvelle langue sémitique, langue des vieilles poésiespréislamiques, du coran et de la littérature arabe, que représentent aujourd'hui des dialectes de l'Arabie, de la Syrie, du Liban et de l'Afrique du Nord. Tous les spécialistes de la culture arabe s'accordent pour reconnaître l'importance attribuée dans la civilisation arabe à la langue : « la sagesse des Arabes est dans leur langue », dit un proverbe arabe. Toutefois, il est désormais admis qu'il y a des emprunts grecs et indiens dans les théories linguistiques arabes surtout celles qui concernent la logique. Enfin, ces réflexions dans lesquelles la prétention scientifique recouvre une spéculation idéologique qui s'est souvent greffée sur l'étude du langage, sont typiques, surtout en ce qui concerne les langues des grandes religions.

2-2-2- Famille chamitique

Les langues sémitiques sont baptisées d'après le nom de **Sem** ; **Cham** est le patron d'un deuxième groupe, celui des langues chamitiques. L'égyptien est la plus importante des langues chamitiques ; il a été continué par le copte, qui a servi de langue religieuse à certaines communautés chrétiennes des premiers siècles. Les textes égyptiens attribuaient à l'écriture une

repose sur l'hypothèse selon laquelle le pourcentage de changements entraînant le remplacement constant d'un mot par un autre dans des séries comparables, à l'intérieur de certain vocabulaire quotidien de base.Or, les parentés entre les langues indo-européennes sont évidentes. Le mot « mère » par exemple, apparaît comme très semblable dans ces langues : **« meter »** en grec, **« mater »** en latin, **« mother »** en anglais, **« Mutter »** en allemand, etc. La concordance des formes répond quelquefois à une concordance de sens, mais le plus souvent il faut être prêt à admettre une évolution sémantique considérable.C'est généralement sous l'aspect de racines que se représente le vocabulaire indo-européen. Dans **«*esti»,** un élément de vocabulaire, la racine **« -es »** renferme la notion d'existence.

Sur le plan de la morphologie, **« *esti »** fournit encore la désinence **«–ti »** qui rentre dans le système de la conjugaison et qui s'attache à la racine. Toutes les langues attestées offrent assez de concordances pour donner une idée approximative de la morphologie indo-européenne.

Sur le plan de la phonétique, on arrive facilement à reconstituer le système des voyelles indo-européennes [a, o, e,] brèves et longues, avec un système très riche en consonnes, qui comprend au moins une série de gutturales [k, g, ʒ] sans oublier la consonne [χ]( Bach, en allemand) et une série de sonantes [l, R, m, n].

Enfin, la conjugaison du verbe est fondée sur la distinction des temps et des modes. Certains verbes indo-européens comportent divers thèmes dont chacun répondà un aspect : on parle par exemple d'un aspect itératif, optatif, inchoatif… de l'action en question.

En ce qui concerne la syntaxe, le système du groupe indo-européenpossède deux types de phrases, une phrase verbale et une phrase nominale, sans verbe, comme nous le trouvons encore normalement dans le russe moderne et exceptionnellement dans d'autres langues, en français on dit : « J'arrive : personne à la maison » les phrases ne sont pas liées mais elles sont juxtaposées comme si on dit : « il est parti, je crois ».

2-2- Autres familles de langues

Les linguistes se sont efforcés d'appliquer la même méthode àd'autres langues, sans trouver nulle part des conditions d'étude aussi favorables que sur le domaine indo-européen. Mais ils ont pu constituer une grammaire comparée de plusieurs autres grandes familles de langues. Celle dont on a pu le mieux suivre l'histoire est la famille sémitique.

2-2-1- Famille sémitique

Un peuple parti, semble-t-il, d'Arabie au cours du 2ème millénaire avant l'ère chrétienne envahit l'Assyrie et la Babylone et impose sa langue aux peuples conquis : c'est le vieil assyrien, la langue de l'écriture cunéiforme, qui sera déjà une langue morte au temps d'Alexandre le Grand.Une deuxième

La connaissance de certaines langues anciennes nous aide à faire le classement : nous trouvons par exemple dans le latin l'explication des particularités qui sont propres aux langues romanes (l'italien, l'espagnol, lefrançais, le roumain, etc.). Mais quand nous rencontrerons, dans l'anglais, l'allemand, le danois, un système de correspondances limitées à ce groupe nous supposons que l'explication s'en trouve dans un original que nous ne connaissons pas, et que nous appelons le germanique commun. Egalement, au polonais, au russe, au serbe, au bulgare, nous reconnaîtrons de même un ancêtre commun, le slave. Un ancêtre celtique expliquera la parenté du breton moderne, de l'irlandais, des parlers des pays de Galles et de Cornouaille, du gaulois, etc. Mais, tandis que le grec, le latin, le sanskrit, sont des réalités connues, le germanique, le celtique, le slave ne sont que des restitutions fondées sur des systèmes de correspondances.

Si les descendants linguistiques sont apparentés entre eux, leurs ascendants doivent l'avoir été plus étroitement encore : on reconnaît que le grec et le latin étaient des langues sœurs comme le sont le français et l'italien. Mais le latin présente avec des langues anciennes de l'Italie comme l'osque et l'ombrien, des correspondances de parenté. Ces dernières sont plus étroites que celles du grec avec le latin : il faudra pour l'expliquer admettreun intermédiaire que nous appelons l'italique. Ce parler avait des particularités communes avec les langues celtiques. On parle dans ce cas de l'italo-celtique qui se groupe avec le grec, mais en même temps avec le germanique, et forme avec eux une unité, celle des dialectes dits occidentaux du domaine indo-européen, tandis que les langues de l'Inde et de l'Iran se rangent avec le slave dans un groupe oriental.

2-1-La reconstitution de l'unité indo-européenne

La grammaire comparéeétablit des classifications et se proposesurtout d'expliquerdes correspondancesconstatées. Mais elle nous donne au moins l'idée de ce qu'a pu être ce groupe. Ainsi la correspondance et la concordance extraordinaire des formes du verbe « être » nous conduisent àreprésenter une forme indo-européenne telle que **« *esti »** qui aurait contenu en germe toutes les autres, et qui, est riche en enseignements. La 3ème personne du singulier du verbe « **être »** est en sanskrit **« ásti »,** en grec « **ésti** », en lituanien « **esti** », en latin **« est »,** en français « **est** », etc.A ce propos, il paraît évident que le groupe indo-européen a déjà fourni un grand nombre de langues de civilisation. Les peuples semblent avoir vécu ensemble avant Jésus-Christ dans les steppes de la Russie d'Europe et au Kazakhstan. Mais comment peut-on dater la période commune dans laquelle ce groupe aurait constitué une certaine unité ? D'après une méthode qu'on appelle lexicostatistique qui

et a aidé ainsi à la diffusion du suffixe /-ard/, qui a eu en français une fortune extraordinaire (**louvard, busard, têtard, canard, poupard**), au point qu'il nous sert encore aujourd'hui à faire couramment des dérivés comme : **fêtard, patriotard**,**babillard,criard,**…
Egalement, par un détour semblable les langues arrivent même à emprunter des désinences : l'allemand par exemple prend au français des mots comme **Dépôt, Ballon**, avec leur pluriel allemand« **Depots**, **Ballons »** ; un beau jour le /-s/ apparaît si bien comme le signe du pluriel dans certainescatégories de mots qu'aujourd'hui on dit dans l'Allemagne du Nord : « **die Jungens=les enfants »** ; « **die Hoffmanns= les Hoffmann ».** La désinence s'est neutralisée.
Le hasard peut faire aussi qu'un élément de formation apparaisse en même temps dans deux langues différentes. Le vieux français s'est donné d'après certains adverbes usuels comme « mais » (de latin **magis**), « plus » (de **plus**), « très » (de **trans**), une terminaison /–s/ dite adverbiale, qu'il a étendue à d'autres adverbes : **guères, oncques, ores**. Parallèlement, Il se trouve que par hasard l'allemand fait aussi des adverbes en/-s/ : « **erstens (d'abord),bestens (parfaitement), abseits (à part) »,** mais c'est un /–s/de génitif (un cas grammatical utilisé pour marquer un complément de nom), comparable à celui de **« Tags, Nachts = de jour, de nuit ».** Il y a là deux développements parallèles, qui ne prouvent rien pour la parenté du français et de l'allemand.
Les ressemblances générales ne sont pas les plus probantes tout au contraire ; deux langues très différentes par ailleurs peuvent se rencontrer dans l'emploi d'un procédé général. Ainsi le polonais s'est fait un passé avec le verbe « avoir » joint au participe, de sorte que par exemple **« nosit-em »** répond exactement à **« j'ai porté » (porté ai).** Un tel fait linguistique serait assez pour affirmer la parenté des deux langues. Ce sont là deux créations complètement indépendantes l'une de l'autre. De telles rencontres sont possibles, parce que les manières d'analyser la pensée, et par suite les procédés généraux d'expression, ne sont pas en nombre illimité.
Enfin, toute analyse contrastive révèle des difficultés dans la comparaison, mais nous ne sommes pas embarrassés, dans un cas comme celui du français et del'italien, pour trouver des correspondances convaincantes et indéniables, parce que nous pouvons suivre l'histoire des deux langues presque sans interruption jusqu'au latin d'où elles dérivent. Le français **« choir »** ne ressemble guère à l'italien « **cadere »**, mais le vieux français « **chedeir »** s'en rapproche. C'est ainsi que le linguiste est conduit à étudier les langues sous leur forme la plus anciennement attestée, de sorte que ce n'est pas toujours de sa part un paradoxe quand il déclare ne pas savoir les langues qu'il traite.
2- Les familles de langues

D'une part, il peut même arriver que forme et sens paraissent d'accord sans que cela prouve quoi que ce soit : il n'y a pas de parenté entre l'allemand « **haben** » et le latin « **habere** » ; pourtantles deux mots ont même signification. Egalement, les Allemands appellent « **Glass** » et les Français « **glace** » une vitre de devanture, et le comparatiste nous prouve qu'il n'y a rien de commun entre les deux mots, pas plus encore qu'entre « **feu** » et « **Feuer** », qui ont le même sens.

D'autre part, les changements phonétiques peuvent, s'exerçant de façon indépendante dans deux langues sœurs, faire aboutir à un même mot à deux formes radicalement différentes : le linguiste comparatiste nous affirme que « **do** » de l'anglais et le verbe « **faire** » du français sont par leur origine un seul et même mot, de même « **bite** » et « **fendre** ». Il faut vraiment pour s'en convaincre, être bien résolu à mépriser les apparences et avoir foi en la méthode ; le mot « **bœuf** » et le mot « **kuh** »de l'allemand qui signifient « **vache** », sont un seul et même mot par leur origine.

1-2-Correspondances dues à des emprunts

Si nous voulons prouver par des correspondances une communauté d'origine, il faudra distinguer entre les ressemblances héritées et les ressemblances acquises. Il y a des siècles que les grandes nations de l'Europe se développent côte à côte, participent aux mêmes mouvements de civilisation, sont amenées à échanger des produits de leur sol et de leur industrie, à se communiquer leurs usages, leurs idées, et les mots qui les expriment. Il s'est créé ainsi une espèce de vocabulaire européen, qui fait que les principales langues de civilisation se ressemblent, mais qui prouve des rapports historiques, non une parenté. Dans ce cas, le linguiste doit donc d'abord dépister les emprunts.

A ce propos, l'emprunt se reconnaît souvent à ce que le mot a gardé son aspect étranger et ne s'est pas encore adapté à la phonétique de sa langue d'adoption : **jockey, football**, etc. Par contre, si le mot est un peu ancien, il a pu s'acclimater tel est le cas avec le mot« **choucroute** », [ʃukRut] qui a pris une allure française, laissant loin derrière lui son original alsacien **« sûrkrût ».** Cependant, il faut souvent au linguiste et au comparatiste une connaissance précise de la phonétique historique d'une langue pour déceler l'intrus.

1-3-Correspondances morphologiques

En général, les correspondances de formes sont plus probantes. Un suffixe n'a pas d'existence autonome, et ne peut guère se déplacer comme un mot. Pourtant, il arrive qu'emporte avec le mot auquel il s'attache. En France, le succès du **Roman de Renart** (Paris, Gallimard, 1998) a popularisé, d'après les linguistes, le Reinhardt germanique que provient le nom commun « renard »,

l'espagnol. Chacune de ces langues est du latin diversement altéré, et nous reconnaissonsassez facilementun mot ancien « **filius, filium »** dans les dérivés : « **figlio »** en italien, « fils » en français, « **hijo »** en espagnol. De même, nous avons assez vite d'autres exemples pour établir que cette correspondance entre ces diverses langues n'est pas fortuite : le mot «jeune» en français est «**giovane»** en italien, «**young»** en anglais, «**jung»** en allemand, « **iueni »** en russe, etc. (neuf,**nuovo,new, neu, nov,** etc.) ; on aurait beau jeu d'allonger la liste. Nous trouverons encore des ressemblances avec ces langues dans les langues scandinaves, dans le grec moderne, le breton ; mieux que cela nous pourrons aller en chercher jusque dans les parlers de la Perse et de l'Inde. Mais la question qui se pose est la suivante : Comment mettre de l'ordre dans tout cela ? Toutes ces langues sont-elles parentes, et à quel degré ? Car nous avons vite fait reconnaître qu'il ya quelque chosede commun entre : « trois », « **three », « drei**» et « **tri »** de russe. De ce qui suit, nous pouvons dire que la comparaison entre les langues est un jeu aussi tentant que l'étymologie. En apprenant une langue étrangère, nous sommes amusés de découvrir les ressemblances qu'elle offre avec la langue française ; ces ressemblances sautent aux yeux pour l'italien et l'espagnol : il est évident que « jeune », en italien **giovane**, en espagnol **jóven** sont un seul et même mot.

C'est à la linguistique comparée d'observer de telles correspondances, qui permettent de conclure à des ressemblances entre les idiomes, à des parentés et de définir des familles de langues.

**1- Valeur des correspondances**

La linguistique se borne actuellement, comme le note J. Kristeva, à «établir un stade archaïque des langues qui ont les mêmes caractéristiques » (**Le langage, cetinconnu**, Paris, 1982). Cettediscipline scientifique fondée sur l'analyse contrastive des données concrètes, ne se laisse pas pourtant entraînerinconsidérément à la poursuite des ressemblances car les correspondances peuvent être fortuites, dues à des emprunts ou à des coïncidences morphologiques.

A partir des témoignages écrits, des déductions peuvent être faites concernant non la vie des langues, mais, en général, sociale des populations diverses.

1-1 Correspondances fortuites

Le hasard peut faire que des combinaisons de sons analogues se retrouvent dans des langues différentes. Prenons par exemple le mot « nombre » en français, on constate qu'il n'ya pas de rapport entre cet item qui vient du latin « **numerum »,** et l'espagnol« nombre », qui vient de « **nomine ».** En allemand le mot « **kalt »**qui signifie froid, ressemble au mot « **cal(i)dum »** du latin qui signifie « chaud ». De même le mot « **mama »** qui existe en géorgien, comme en français, mais il y signifie « papa » !

# Les parentés des langues

**Dr Imad Zein**
Docteur ès linguistique appliquée à l'Université Libanaise
imadalzein@hotmail.com

## ملخص: علاقة اللغات ببعضها

تعمد الدراسة إلى مقاربة ألسنية بين اللغات الحية والقديمة لتحديد المنشأ التي تعود إليه. فاللغة الأسبانية أو الإيطالية مثلا تعودان بالأصل إلى اللغة اللاتينية. إن هذه المقاربات للعلاقات تكون ناتجة إما عن تطابق بال "صدفة" أو هو نتيجه استعارة المفردات بين اللغات.

هذه العلاقات أو التشابه بين اللغات يسمّى أحيانا من الناحية الصوتية "فنولوجية" كما هي الحال في بعض المواقع بين الفرنسية والألمانية. من هذا المنطلق أتت تصنيفات اللغات وتنظيمها ضمن مجموعات: اللغات السامية، اللغات الإندو-أوروبية، اللغات القوقازية، اللغات الفارسية، اللغات الإفريقية،...

أسئلة كثيرة يطرحها الباحث حول هذا الموضوع، خاصة أن دراسة تطور لغة ما تبدأ من خلال دراسةٍ ألسنية شاملة لمفرداتها.

## Résumé.

**Cet article scientifique tente de répondre aux diverses questions sur les origines des langues et sur les ressemblances linguistiques au niveau lexical, phonologique, morphologique, sémantique et syntaxique à partir d'une analyse diachronique. Différents critères permettent de regrouper et de classer les langues vivantes en famille telles que la famille sémiotique, la famille indo-européenne,...**

**Mots-clés :**
**Linguistique, langues, histoire, origine, famille , parenté,**

## Introduction

La recherche des correspondances n'est pas le tout de la comparaison. La grammaire historique du français nous fait remonterau latin ; c'est aussi au latin que nous conduirait la grammaire historiquede l'italien, ou celle de

# باب اللغة الفرنسية

financières et celles concernant l'accès aux données, nous avons pu réaliser une carte dynamique représentant l'évolution des surfaces cultivées en pomme de terre et en vigne de table pendant 10 ans en utilisant les photos satellites de Google Earth.

Par ailleurs, nous avons pu exposer, et pour la première fois, l'évolution future de certains types des espèces végétales cultivées :la vigne de table et la pomme de terre. Ces surfaces vont connaître une augmentation progressive dans les années à venir : En 2060, la superficie de la vigne de table atteindra 4000000 $m^2$ environ si l'étathydrique est pareil à celui d'aujourd'hui.

Cette étude ne porte que sur la transformation de la culture de pommes de terre en culture de vigne. Elle ne comprendpas l'évolution probable des autres types des espèces végétales cultivées dans notre région d'étude (concombre, blé, etc.). Cela pourrait faire l›objet d›une autre étude.

Vu cette situation, des questions intéressantes pourraient être posées : Est-ce que ces types de transfert a lieu dans tous les régions de Liban ? Quelle est l'influence de tels phénomènes sur la situation économique au Liban ?

À l›époque des Phéniciens, la vallée de Béqaa, était principalement cultivée par la vigne de table. Durant l'époque des Romains, cette vallée était cultivée, particulièrement, par le blé. Actuellement, nous voyons clairement le début d'une nouvelle transformation vers la vigne de table. Est-ce que ce cycle est permanent ? quelles étaient les causes de ces transformations durant les époques passées ? était-ce aussi des périodes de pénurie d'eau?

**6- Références bibliographiques**


1. Bazzaz F., Sombroek W. (2010). Changement du climat et production agricole, Effets directs et indirects du changement des processus hydrologiques, pédologiques et physiologiques des végétaux. Publié par l'organization des Nations Unies pour l'alimentation et l'agriculture et Polytechnica, Paris, 472 pages.
2. Bigot S., Dacharry M., Gille E., Laganier R., Salvador P.G., sous la direction de Cosanday C. (2003). Les eaux courantes. Edition Belin, Paris. 240 pages
3. Dubertret L. (2000). Carte géologique au 50.000e, feuille de Zahlé. Beyrouth
4. Mavron V.c. et Phillips T.N. (2007). Elements of mthematics for economics and finance. Sptinger – Verlag London. 311 pages.
5. Steinberg J., Husser J. (1988). Cartographie dynamique applicable à l'aménagement. C.U.D. et SEDES réunis, 88, boulevard Saiant-Germain, Paris Ve, 132 pages.
6. Sun Z., Herzfeld T., Aarnoudse E., Yu C., Disse M. (2017). Water and agriculture in china status, challenges and options for action. OAV – German Asia-Pacific Business Association, Bleichenbrüche 9, 20354 Hamburg, Germany. 24 pages.
7. TuTiempo (2017). Climat Houche-Al-Oumara. TuTiempo.net. Page consultée le 3/8/2017.

Par ailleurs, les précipitations influencent directement la recharge de la nappe d'eau souterraine et le débit des drains d'eau superficiels. Si la quantité des précipitations diminue, la recharge sera d'autant plus difficile, notamment quand les taux d'évaporation sont élevés.

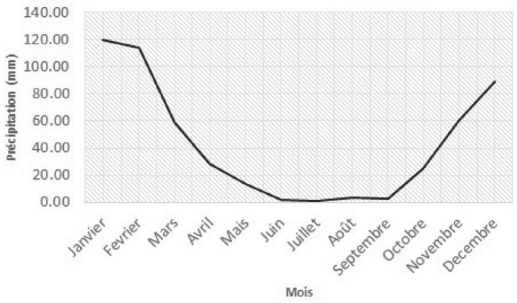


**Figure 6 : Moyennes mensuelles de précipitations entre les années 2000 et 2014.**

La figure 6 montre que, durant l'été hydrologique qui s'étend de mai jusqu'à octobre, les quantités de précipitations sont insignifiantes. Par conséquent, l'agriculteur est obligé de cultiver des végétations qui ne demandent pas de grandes quantités d'eau.

Le calcul de l'évolution des surfaces cultivées durant les années à venir, a montré que si les conditions de transfert restent telles qu'elles sont de nos jours, la vigne de table remplacera la superficie entière de la pomme de terre en 2060.

L'exploitation de la vigne de table, consommant moins d'eau que la pomme de terre, pourrait aider la réserve hydrique du sol à se recharger plus rapidement durant l'hiver hydrologique. Cette exploitation pourrait aider également la réserve à faire face à la sècheresse ayant lieu durant le long été hydrologique. Une conséquence positive du changement climatique sur l'exploitation des terrains agricoles !

**5- Conclusion et discussion**

La région du Kaza de Zahlé connaît une transformation évidente des cultures saisonnières, à savoir la culture des pommes de terre, vers les cultures permanentes, en particulier celle de la vigne de table entre les années 2006 et 2016: la surface des parcelles cultivées en vigne de table a augmenté de 18% au détriment de celle des pommes de terre.

Cette transformation est effectuée par les agriculteurs de notre région d'étude qui avaient la capacité de détecter et de s'adapter aux résultats de la pénurie d'eau, bien que plusieurs d'entre eux ne sont pas suffisamment éduqués.

Si l›agriculteur change la méthode d›irrigation de la pomme de terre (utilisation du système d›irrigation par goutte à goutte à la place du système d'aspersion), il pourra diminuer le gaspillage de l'eau par évaporation et surtout durant la saison sèche. Par la suite, il peut assurer les quantités nécessaires de l'eau pour irriguer ses parcelles cultivées en pomme de terre. En effet, il peut arrêter le processus de transfert vers la vigne de table.

La vigne de table est capable de défierà la sécheresse plus que la pomme de terre: la pomme de terre flétrissent meurent en quelques jours par manque d'eau, tandis que la vigne de table passe par la phase de diminution de la productivité, ensuite elle flétrisseaprès avoir passé une longue durée entre ces deux phases.

Dans notre étude, malgré les contraintes

sur les ressources en eau superficielles et souterraines utilisées pour irriguer les parcelles de pomme de terre. Depuis l'an 2010 jusqu'à l'an 2016, le niveau piézométrique des puits forés dans la partie alluviale de notre région d'étude diminue progressivement de 0.3 m par an. La vigne, dont la saison d'exploitation s'étend de juin jusqu'à septembre, n'estirriguée que durant les 9 semaines de croissance et pour une nombre d'heures qui ne dépasse pas 4 heures par jour.

En outre, la deuxième raison qui permet aux parcelles cultivées par la pomme de terre de consommer plus d'eau que la vigne, est que les systèmes d'irrigation utiliséssont primitifs (canaux et aspersion),facilitant par la suite la perte de l'eau par évaporation. Tandis que les nouveaux systèmes utilisés pour irriguer les terrains cultivés par la vigne de table (les systèmes de goutte à goutte) retiennent l'eau et diminuent les pertes par évaporation.

Par ailleurs, l'analyse des données météorologiques de la région (TuTiempo Network, 2017) a montré une tendance significative vers une sècheresse aigue :augmentation de la température, augmentation de l'évaporation et instabilité de la quantité de précipitation d'une année à l'autre.

À propos de la température, la figure 4 montre que depuis l'année 2000, les moyennes annuelles de températures tendent vers une augmentation significative (Figure 4).

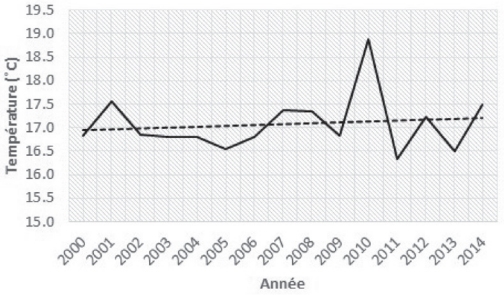


**Figure 4 : Moyennes annuelles de température entre 2000et 2014**

Une grandeaugmentation apparaît en 2010 oùla moyenne annuelle de la température touchait 19°C, à savoir une augmentation de 2°C par rapport à l'année précédente.L'augmentation de la température entraîne une augmentation des taux d'évaporation (Figure 5). La figure 5 illustre bien les taux élevés de l'évaporation brute (415 mm) durant le mois de juillet. Ce pic d'évaporation est atteint durant l'été hydrologique. Cela diminue la quantité de l'eau qui peut recharger l'aquifère et provoque des remontées capillaires (Bigot et Al., 2003), ce qui aboutit à une diminution du niveau piézométrique de l'eau (0.3 m/an). En effet, les agriculteurs, et vu la pénurie d'eau résultante, seront obligés de remplacer leurs exploitations par autres requérant moins d'eau.

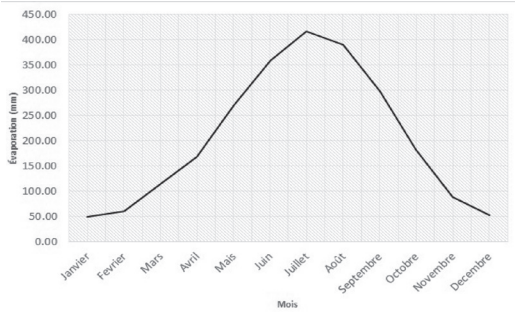


**Figure 5 : Moyennes mensuelles des taux d'évaporation brute depuis 2000 jusqu'à 2008.**

**b- Causes de la transformation**

Parmi les agriculteurs enquêtés, 91% ont attribué la cause de la transformation à la pénurie d'eau (indirectement au changement climatique). Les 9% restants ont considéré que la vigne de table est plus rentable que la pomme de terre et ceci,les a encouragés à effectuer ce transfert.

Ce qui a été étonnant, c'est que les agriculteurs ont ressenti les effets de cettepénurie sans savoir préalablement le concept. Un exploiteur de la pomme de terre disait: « durant les dernières années nous sommes devenus obligésde diminuer les heures d'irrigation, ce qui a endommagé la qualité de la production agricole et nous a obligé à cultiver la vigne de table à la place de la pomme de terre ». Un autre affirmait qu'il a changé le type d'exploitation de ses parcelles de la pomme de terre à la vigne de table, vu la température qui augmente progressivement d'une année à l'autre, ce qui a tari son puits utilisé pour irriguer ses récoltes,selon les dires de l'agriculteur.

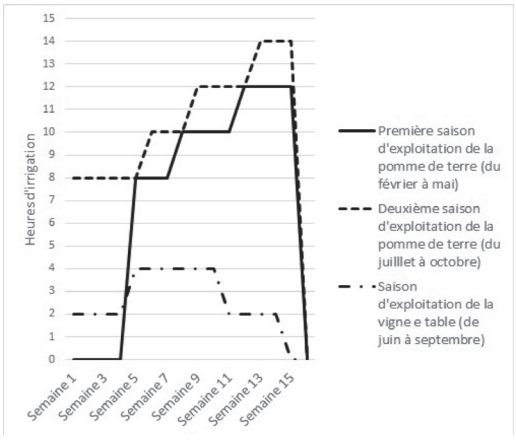


**Figure 3: Nombre d'heures d'irrigation de la pomme de terre et de la vigne de table.**

En fait, la pomme de terre a besoin plus d'eau d'irrigation que la vigne de table. Cela est dû à deux raisons principales : la première est que, dans notre région d'étude, la pomme de terre est cultivée pour deux saisons par an, et ceci exige de longues heures d'irrigation durant les stades de croissance durant chaque saison.Tandis que la vigne de table, récoltée une fois par an, demande moins d'eau (Figure 3). Une analyse fine de la figure 3, montre que la première saison de l'exploitation de la pomme de terre demande moins d'heures d'irrigation que la deuxième durant les 11 semaines de croissance (de la semaine 4 jusqu'à la semaine 15):la réserve hydrique étant en stade de reconstruction et correspondant à l'hiver hydrologique s'étendant de février jusqu'à mai. Par conséquent, les végétations s'alimentent en eau de cette réserve. Au fur et à mesure qu'on s'avance dans les stades de croissance de la première saison, le nombre d'heure d'irrigation augmente progressivement pour toucher les 12 heures par jour au bout de la quinzième semaine durant laquelle la réserve hydrique commence à baisser tout en s'approchant de l'été hydrologique.Cependant la deuxième saison de l'exploitation de la pomme de terre a lieu durant l'été hydrologique où la réserve hydrique baisse fortement. En effet, le nombre d'heures d'irrigation est plus grand, il atteint 14 heures par jour au bout de la quinzième semaine.Et cela pourrait exercer une forte pression

facilite la comparaison de l'état de l'évolution de ces phénomènes.

En outre, la formule exponentielle nous a servi à illustrer l'état de l'évolution des superficies cultivées par ces deux types de végétation dans les années à venir. Cette formule (Mavron et al., 2007) peut être modéliséecomme suit :

N(t)=N(0).e^rt

Tel que:

- N(t) est le nombre d'individus au temps t,
- N(0) est le nombre d›individus au temps 0,
- e étant la constante d›Euler
- r le taux de croissance intrinsèque,
- t le temps

Un tel calcul est intéressant dans le but de connaître la vitesse de l'évolution de transfert de ces surfaces: Une évolution rapide du transfert vers la vigne de table pourrait perturber le bilan de la consommation et de l'exportation de ce produit agricole, et ceci, en raison del'augmentation desa quantité obtenue. Une telle augmentation pourrait égalementpréserver la quantité d'eau de la réserve hydrique du sol parce que la vigne de table exige moins d'eau d'irrigation que la pomme de terre (cf. résultats).

## 4- Résultats

Notre région d'étude connait une transformation considérable de la pomme de terre vers la vigne de table, vu la présence des indicateursimportants de la pénurie d'eau.

### a- Surfaces transformées

L'analyse de la carte dynamique, a montré que 18% de la surface cultivé en pomme de terre a été remplacée par la vigne de table.Ces surfaces se localisent dans les régions de Terbole, de Rayaq, de Taanayel et de Qabb Elias situées dans la partie alluviale de notre région d'étude (figure 2).

Les zones de couleur gris foncé qui apparaissent dans la carte dynamique représentent l'exploitation de la pomme de terre en 2006, tandis que celles de couleur gris clair représentent l'exploitation de la vigne de table durant la même année.En outre, celles hachurées représentent les surfaces transformées.

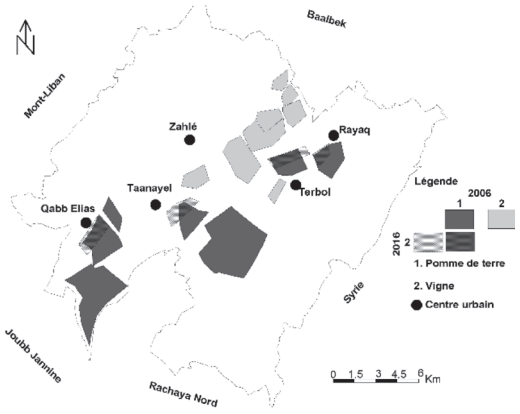


**Figure 2 : Catre dynamique de l'évolution des surfaces cultivées en pomme de terre et en vigne de table.**

Durant l'an 2006, la superficie cultivée en pomme de terre était égale à 40653610 $m^2$, alors que celle cultivée en vigne de table était égale à 17037174 $m^2$. Durant l'an 2016, la culture de la vigne de table a gagné 10543010 $m^2$ au détriment de la pomme de terre.Apparaît-il que lapénurie d'eau est la cause principale de ce transfert?

la région d'étude et la cartographie dynamique. Nous avons également opté pour une enquête et nous avons utilisé une fonction mathématique: la formule exponentielle simple.

Les photos satellites ont été utilisées en vue de détecter les changements du type d'exploitation dans lesparcelles cultivées. Ces photos ont constitué les couches de base sur lesquelles nous avons réalisé la carte dynamique. Puisque le gouvernement ne nous a pas permis d'accéder aux photos satellites de la région d'étude pour des raisons militaires, nous avons utilisé celles de Google Earth disponibles en bonne résolutionpour les années 2006 et 2016 (la qualité des photos antérieures à cette date n'était pas assez bonnepour distinguer les variations effectuées). Les changements remarqués, d'après la comparaison entre ces deux années, ont été vérifiésgrâce aux questionnaires auprès des agriculteurs qui ont procédés à ces changements.

L'enquête réalisée à travers un questionnaire avait pour objectif de recueillir des données fiables sur le transfert des surfaces cultivées par la pomme de terre vers la vigne de table : la superficie des parcelles cultivées, l'origine et la quantité de l'eau utilisée pour irriguer les parcelles, et finalement, les méthodes utilisées en irrigation. Nous avons considéré que les parcelles soumises à la transformation sont la base de notre échantillonnage et non pas l'agriculteur, parce celui-ci peut résider dans notre région d'étude et disposer des parcelles en dehors de la zone d'étude et **vice versa**. Le questionnaire est formé de 3 parties: la première concernedes informations générales sur le type d'exploitation et la superficie totale des terrains cultivés. Ces deux indicateurs servent à déterminer les quantités d'eau utilisées pour l'irrigation et celles qui sont consommées par la végétation. La deuxième concernedes informations générales sur le type d'irrigation utilisé (Déplacement manuel, système fixe, rampe mobile sur roue, etc.). La troisième partie comprend des questions ouvertes qui porte sur les raisons qui ont forcé les agriculteurs à changer le type des espèces végétales cultivées.

Par ailleurs, nous avons eu recoursà la cartographie dynamique pour réaliser une carte dynamique des utilisations du sol. Et cela dans le but de représenter les changements des surfaces des parcelles cultivées, dans notre régiond'étude entre les deux années 2006 et 2016. La cartographie dynamique est un concept qui représente graphiquement les mutations rapides des diverses activités anthropiques, sous l'effet de plusieurs phénomènes physiques, économiques et sociaux, dont l'homme constitue le facteur principal (Steinberg et Al, 1988). Ce type de représentation graphique se base essentiellement sur l'intégration de plusieurs cartes représentant l'évolution temporelle d'un ou de plusieurs phénomènes dans une seule carte. Cela

il occupe 92 km$^2$de cette unité(Figure 1). Délimitée par le Kaza de Baalbek au nord-est, par le Kaza de Joub Jannine et de Rachaya Nord au sud-ouest, par la Syrie à « l'est » et par Mohafazat Mont-Liban à l'ouest, notre région d'étude pourrait être un cas typique pour l'étude de l'influence de la pénurie d'eau sur les types des végétations cultivées. Et cela est dû à la présence de plusieurs facteurs caractérisant cette région.

Le premier est d'ordre agricole : notre région d'étude est fortement cultivée par des espèces demandant de grandes quantités d'eau: la pomme de terre. Cette exploitation occupe 25% de la superficie totale des produits végétales saisonniers qui occupent 76% de la superficie totale cultivée (213 km$^2$).

Le deuxième est d'ordre pédologique: La plaine alluviale est recouverte par une couche de terre arable riche en fer,propice à la croissance de la pomme de terre et de la vigne de table.

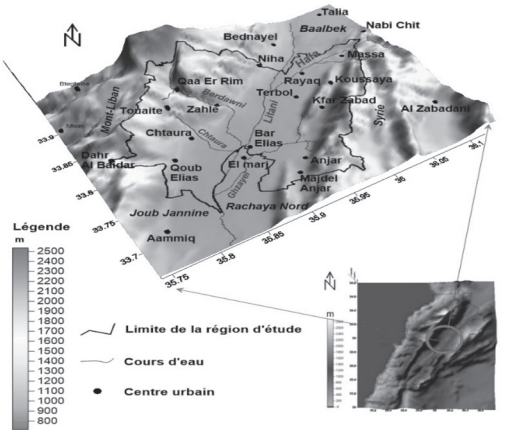


**Figure 1 : Région d'étude**

Le troisième est d'ordre climatique : La région du Kaza de Zahlé se situe dans une région climatique semi-continentale. Elle délimite, également, les zones arides et semi-arides internes. Cela diminue la recharge des cours d'eau superficiels et des nappes d'eau souterraines, ainsi la pénurie en eau augmente-t-elle. En effet, les agricultures irriguées pourraient souffrir d'un stress hydrique aigu. Cela pourrait, par la suite, inciter les agriculteurs à remplacer leurs cultures.

Le dernier facteur désigne les ressources en eau superficielles et souterraines : les premières sont représentées par le fleuve Litani (le cours d'eau majeur pérenne du Liban) qui traverse notre région d'étude, ainsi que par ses affluents tels que le ruisseau de Berdawni, de Hala, de Chtaura et de Ghzayel. En outre, les ressources en eau souterraines sont représentées par les aquifères contenant des sources émergentes; les plus importantes sont celles du cénomano-turonien et du jurassique. De même, l'eau souterraine est représentée par la présence de centaines de puits forés dans l'aquifère alluvial et utilisés pour irriguer les terrains agricoles. L'intérêt de ce facteur, c'est que ces ressources en eau, utilisées pour irriguer les terrains agricoles, pourraient souffrir d'une diminution progressive du débit vu les conditions climatiques présentes.

## 3- Méthodologie

Pour atteindre notre but, nous avons adopté des outils de représentation graphique: les photos satellites de

de la température et la modification du régime des précipitations provoquaient des sécheresses de plus en plus fréquentes. Par exemple,dans le bassin versant de la rivière de Tarim, cette pénurie a mené à la dégradation de la végétation de surface (Sun et al., 2017). Ce problème a diminué la quantité d'eau disponible pour irriguer les surfaces cultivées, et par la suite, celle utilisée pour assurer la durabilité de la production agricole ; la surutilisation de l›eau d›irrigation dépassait plus de 28% du montant de la crise hydrique.

Le Liban est l›un des pays sous-développés situé à la proximité des pays arides arabes, et souffrant du problème de la pénurie d'eau. D'après Mr. WaelHmaidan, Directeur exécutif de l'ONG IndyACT (indépendant activist), le Liban sera le premier pays du Moyen-Orient à être touché par le changement climatique qui a causé une diminution de la quantité d'eau : « La répartition des pluies a changé, la densité de la neige décroît et les feux de forêt se multiplient. »

Ce problème apparait plus grave dans la région du Kaza de Zahlé ayant un climat semi-continental : la quantité de précipitations annuelles ne dépasse pas le seuil de 600 mm/an, les taux d'évaporation dépassent la limite de 2000 mm/an et le niveau piézométrique de l'eau de l'aquifère quaternaire, selon Dubertret (Dubertret, 2000) diminue progressivement depuis l'an 2010.

Par ailleurs, nous avons remarqué que,durant les 5 dernières années, les agriculteurs ont substitué la pomme de terre (végétation saisonnière demandant des grandes quantités d'eau d'irrigation), par la vigne de table (végétation permanente demandant moins d'eau d'irrigation).

D'après ce contexte, plusieurs questions pourraient être posées : Quelle est la superficie des parcelles de pomme de terre qui a été remplacée par la vigne de table? Quelle est la cause de ce remplacement? est-ce la pénurie d'eau résultant du changement climatique ?

En outre, l'objectif de cette étude est d'évaluer l'évolution de la surface de la vigne de table au détriment de celle de la pomme de terre, et de chercher les causes qui ont poussé les agriculteurs à remplacer des espèces cultivées par d'autres espèces dans la région du Kaza de Zahlé.

## 2- Présentation de la région d'étude

Notre région d'étude, le Kaza de Zahlé, se situe dans la plaine de la Béqaa. Elle couvre une superficie de 522 $km^2$ environ, et elle composé de deux unités morphologiques la plaine alluviale fortement cultivée qui s'étend sur 395 $km^2$, soit 56% et un zones montagneuse formée de deux massifs karstiquequi s'étend sur 227 $km^2$, soit 44% de la superficie totale (le premier massiffait partie de la chaîne montagneuse du Mont-Liban ; il occupe 135 $km^2$ de la masse karstique, le deuxième partie de la chaîne montagneuse de l'Anti-Liban ;

**se raréfie de plus en plus. Cela force les agriculteurs à remplacer les agricultures irriguées, qui sont déjà responsable de plus de 70% de toutes les extractions d'eau, par des agricultures non irriguées. Le Liban, pays sous l'influence des zones arides et semi-arides, risque de souffrir de ces problèmes surtout dans le Kaza de Zahlé centrale, où la pomme de terre fortement irriguée forme 80% des agricultures de la région et où la quantité annuelle des précipitations ne dépasse pas le seuil de 600 mm. Par conséquent, il a paru intéressant de se focaliser sur un cas d'étude représentatif du problème afin de mieux identifier les influences de la pénurie d'eau sur les types d'agricultures cultivées dans cette région. L'interprétation des données météorologiques et les comparaisons des types d'agricultures entre les années 2006 et 2016, nous a permis de présenter graphiquement les signesde la pénurie d'eau dans la région et d'identifier leurs influences sur les types de cultures: augmentation de la température, augmentation de l'évaporation, instabilité de la quantité précipitations, diminution du niveau piézométrique de la nappe d'eau souterraine alluviale et transformation de grandes surfaces de pomme de terre en vigne; une agriculture demandant moins d'eau. Ces résultats montrent un facteur important qui pourrait être responsable du changement du type et de la quantité des produits agricoles consommés au Liban et exportés vers les pays arabes. Et par la suite, un facteur perturbant la stabilité du secteur agricole.**

**Mots-clés** :
Kaza de Zahlé – irrigation – agriculture – pomme de terre – pénurie d'eau

# 1- Introduction

La pénurie d'eau est l'un des effets cruels du changement climatique qui constitue, en fait, une menace majeure concernant les ressources en eau d'irrigation. Le changement climatique pourrait provoquer des changements dans les cycles hydrologiques et dans les modèles de précipitations (Bazzaz et al., 2010) : Variations de la quantité de pluies temporelles et spatiales, augmentation de la température, augmentation de l'évapotranspiration potentielle et réelle, etc. Cela cause la diminution du débit des cours d'eau superficiels et du niveau piézométrique des nappes d'eau souterraines.

Cette situation pourrait diminuer la quantité d'eau disponible pour irriguer les terrains exploités. En effet, les agriculteurs ne pouvaient plus cultiver plus d›une seule foispar an, surtout en ce qui concerne certaines espèces qui peuvent être cultivéespour deux saisons par an, comme la pomme de terre. Cette situation pourrait, également, limiter la possibilité d›accroître la superficie des terrains irrigués. Ces problèmes s'accentuent dans les pays agricoles sous-développés, dans lesquels, les agriculteurs utilisent des systèmes d›irrigation primitifs (canaux, aspersion, etc.) provoquant un gaspillage crueld'eau. En Chine, la pénurie d'eau avait des répercussions profondes sur les ressources en eau d'irrigation : Au cours des dernières décennies, l›augmentation

# IInfluence de lapénurie d'eau sur les types des agricultures dans la région du Kaza de Zahlé

**Naji KEHDY**
Assistant professeur à l'Université Libanaise
Naji.kehdy@hotmail.com
Hoch Hala – Rayak – Zahlé – Béqaa – Liban

**ملخص**

زادت ندرة المياه المخصصة للري بسبب فترات الجفاف المتزايدة الناتجة عن التغيرات المناخية، وبخاصة في أجزاء محددة من العالم مثل الشرق الأوسط. أجبر هذا الأمر المزارعين على استبدال الزراعة المروية، التي تحتاج إلى أكثر من 70 ٪ من مجموع استخدامات المياه، بالزراعة البعلية. وثمة خطر أن يعاني لبنان من مثل هذه المشاكل لأنه يقع في منطقة مناخية مجاورة للمناطق القاحلة وشبه القاحلة متأثرا بها. ويظهر الخطر بشكل كبير في قضاء زحلة، حيث تشكل زراعة البطاطا المروية حوالي 80% من مجموع الزراعات، علمًا أن كمية المتساقطات لا تتجاوز عتبة 600 مم/سنة. لذلك، بدا من المثير للاهتمام القيام بدراسة حالةٍ في هذه المنطقة يمكنها التعبير بشكل واضح عن تأثير شح المياه على أنواع الزراعات المزروعة فيها. سمح لنا تحليل بيانات الأرصاد الجوية، ومقارنة أنواع الزراعة بين عامي 2006 و2016 بتبيان علامات ندرة المياه في المنطقة وتمثيلها بيانيًا، بالإضافة إلى تحديد تأثيراتها على أنواع الزراعات: زيادة في درجات الحرارة والتبخر، وعدم استقرار في كمية الأمطار، انخفاض مستوى المياه الجوفية وتحويل مساحات كبيرة من البطاطا إلى الكرمة التي تحتاج إلى كميات أقل من مياه مقارنة بالبطاطا. قد تؤثر هذه النتائج على كمية المنتجات الزراعية المستهلكة في لبنان والمصدرة إلى الدول العربية، وبالتالي قد تساهم في إحداث عدم استقرار في القطاع الزراعي.

## Résumé.

**Dans le cadre du contexte mondial de changement climatique qui entraîne des périodes de sécheresse aigue, notamment dans certaines régions du monde comme celles du Moyen-Orient, l'eau d'irrigation**

# باب الجغرافيا

© جميع الحقوق محفوظة
h_imamomais@hotmail.com
wameed.alfkr@gmail.com

مجلة نصف سنوية علمية محكمة

Semi-Annual Journal

Copy no. 2 / January 2019

# Flash Journal de Recherche

مجلة نصف سنوية علمية محكمة

## Journal scientifique semestriel temporaire

**LA DÉFINITION:**

C›EST UNE REVUE SCIENTIFIQUE SEMESTRIELLE PUBLIÉE PAR LA SOCIÉTÉ NATIONALE POUR LA CULTURE ET LE DÉVELOPPEMENT.1193 / AD.

Dar Annahda Alarabiya

Dirigée par le Dr Haifa Suleiman Imam.

Édition et distribution: La Maison arabe de la Renaissance, Beyrouth, Liban